

18
B
18
V

2272
.7085
.349
.13
Y.I

2272.7085.349.13
al-Nivaqi
Jami' al-saadat

v.1

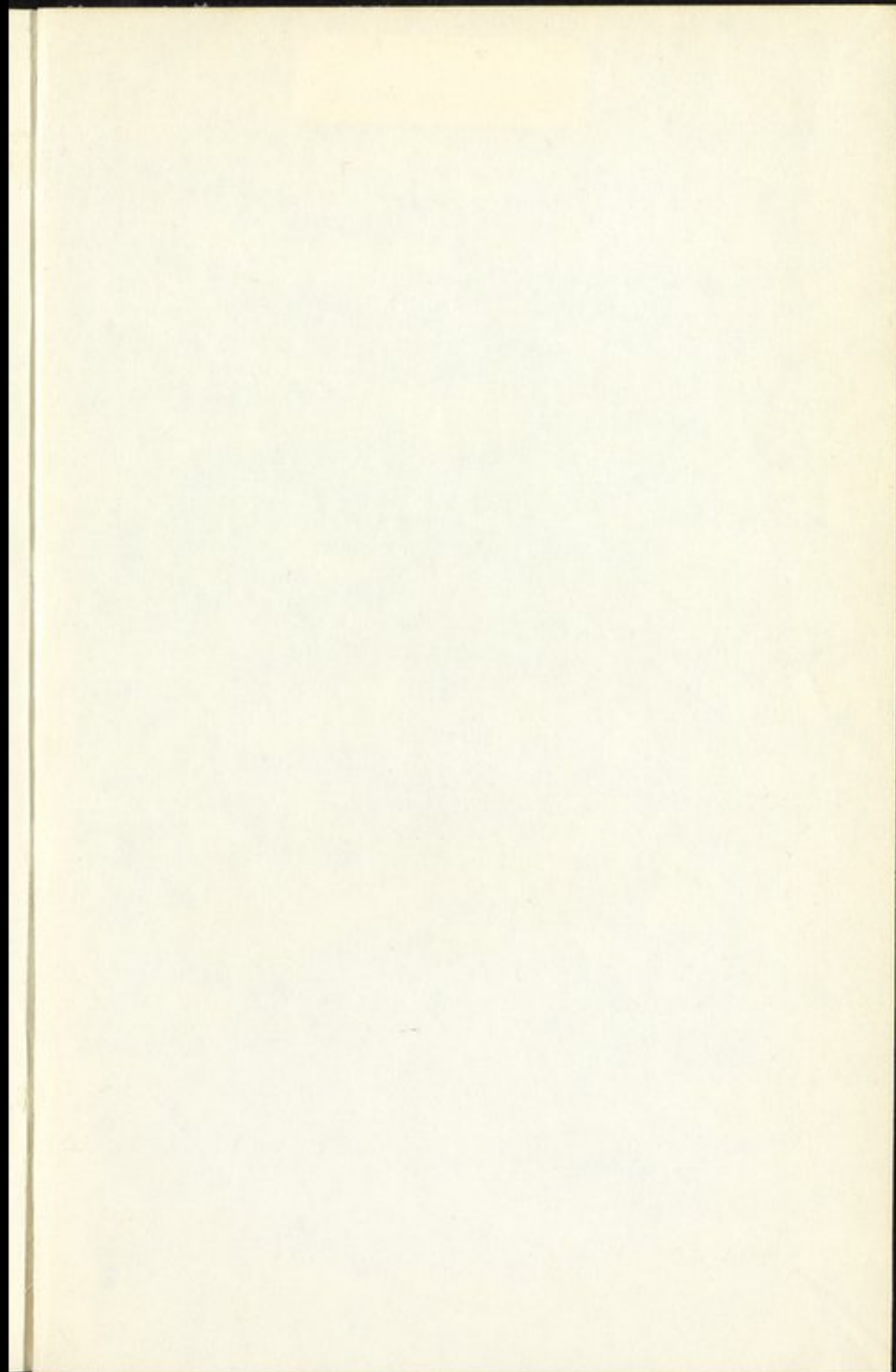
DATE	ISSUED TO
OCT 23 1964	Bindery

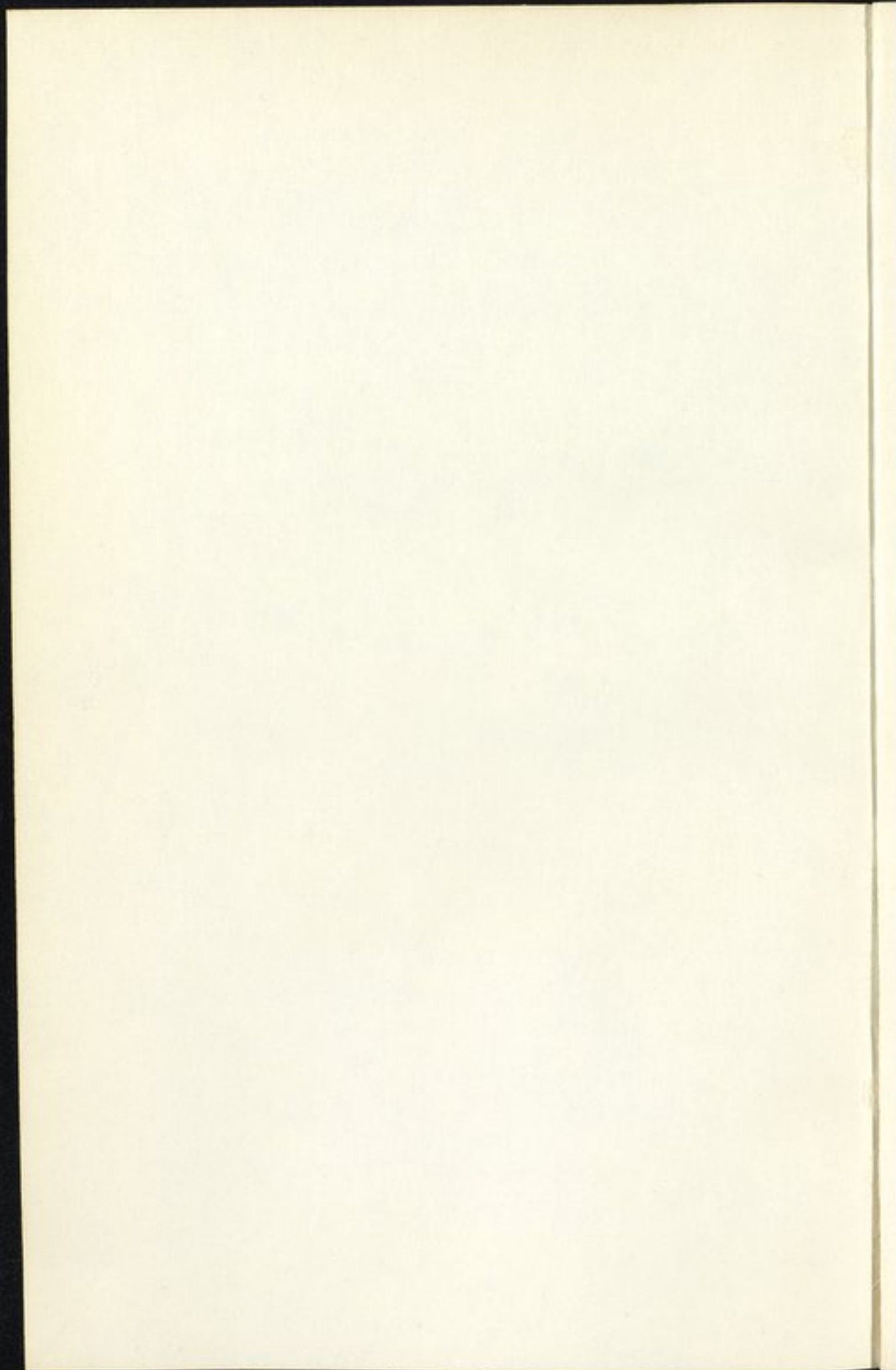
[illegible]

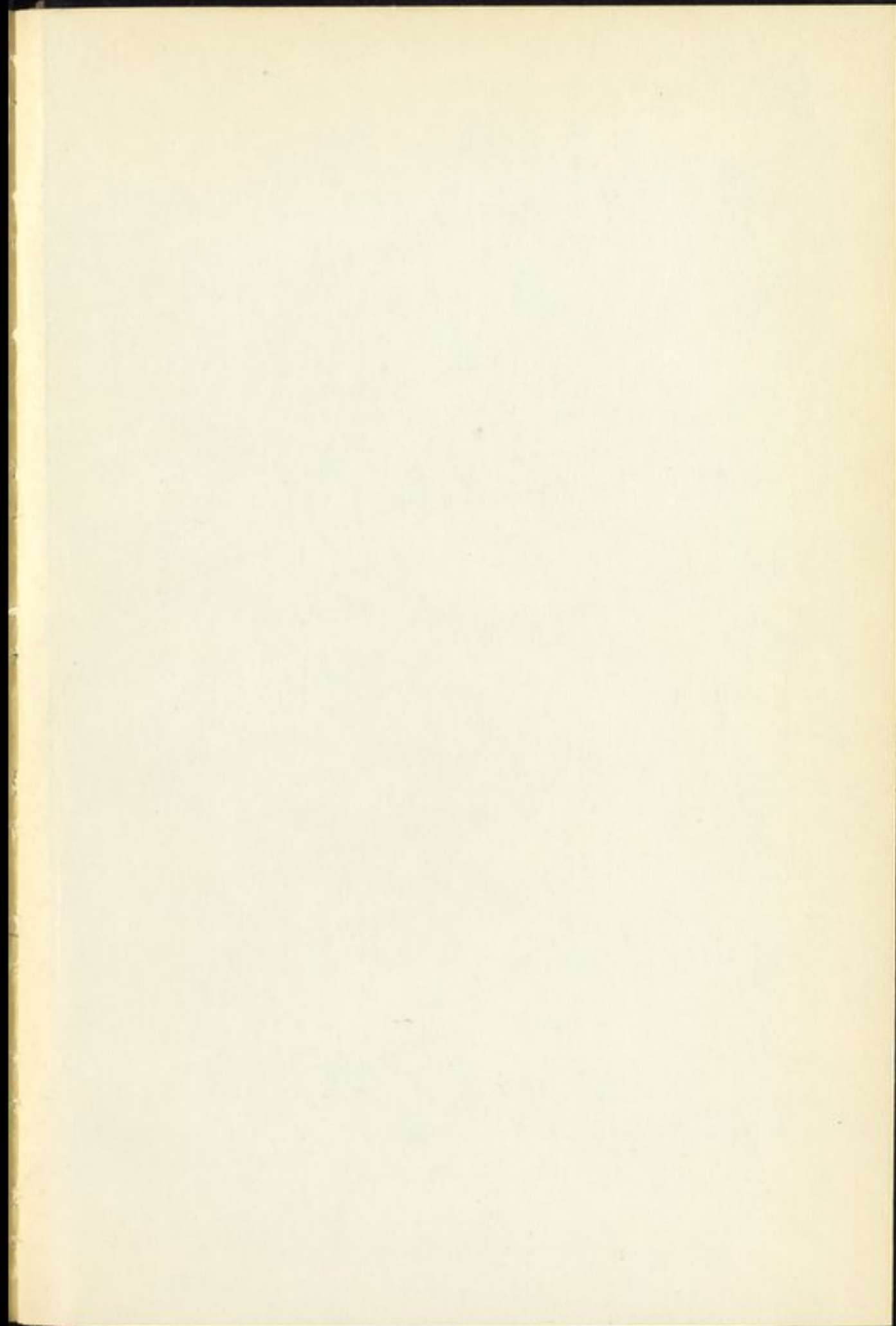
Princeton University Library



32101 074485648







منشورات جامعة النجف الدينية

١

جامع السعادات

للشيخ الجليل أحد أعلام المجتهدين المولى

محمد مهدي الزرق

المتوفي ١٢٠٩ هـ

الجزء الاول

تصدي لنشره والتعليق عليه وتصحيحه

السيد محمد كلاتر

قدم له

الشيخ محمد رضا المظفر عميد كلية الفقه

الطبعة الثالثة

حقوق الطبع محفوظة للناسخ

مطبعة النجف - النجف الاشرف

١٣٨٣ - ١٩٦٣

Handwritten text at the top of the page, possibly a title or header.

Handwritten text in the upper middle section, appearing to be a list or series of entries.

Handwritten text in the middle section, possibly a continuation of the list.

Handwritten text in the lower middle section, possibly a concluding statement or signature.

Handwritten text in the lower middle section, possibly a date or location.

Handwritten text in the lower middle section, possibly a small note or correction.

Handwritten text in the lower middle section, possibly a continuation of the list.

Handwritten text in the lower middle section, possibly a continuation of the list.

Handwritten text in the lower middle section, possibly a small note or correction.

Handwritten text in the lower middle section, possibly a continuation of the list.

Handwritten text at the bottom of the page, possibly a signature or date.

منشورات جامعة النجف الدينية

Jamī' al-sa'ādāt ١

جامع السعادات

للشيخ الجليل أحد أعلام المجتهدين المولى

محمد مهدي الزرق

المتوفي ١٢٠٩ هـ

الجزء الاول

تصدي لنشره والتعليق عليه وتصحيحه

السيد محمد كلانتر

قدم له

الشيخ محمد رضا المظفر عميد كلية الفقه

الطبعة الثالثة

حقوق الطبع محفوظة للناسخ

مطبعة النجف - النجف الاشرف

١٣٨٣ - ١٩٦٣

سِرُّ النَّبِيِّ الْخَيْرِ الْحَقِيقِيِّ

حياة المؤلف

١١٢٨ - ١٢٠٩

هو الشيخ الجليل المولى (محمد مهدي بن أبي ذر النراقي) أحد أعلام المجتهدين في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الهجرة، ومن أصحاب التأليفات القيمة . ويؤكد أن يعد في الدرجة الثانية أو الثالثة من مشاهير علماء القرنين . وهو عصامي لا يُعرف عن والده (أبي ذر) إلا أنه كان موظفاً في الدولة الإيرانية بوظيفة صغيرة في قرية (نراق) ، ولولا ابنه هذا لذهب ذكره في طيات التاريخ كملابن البشر من أمثاله ، ولا يعلم ما إذا كان لشيخنا النراقي أخوة ، ولكن له ولد نابه الذكر ، هو المولى أحمد النراقي المتوفى ١٢٤٤ ، صاحب (مستند الشيعة) المشهور في الفقه ، وصاحب التأليفات الثمينة ، أحد أقطاب العلماء في القرن الثالث عشر . وكفاه فخراً أنه أحد أساتذة الشيخ العظيم المولى مرتضى الأنصاري المتوفى ١٢٨١ .

ولعل النراقي الصغير هذا هو من أهم أسباب شهرة والده وذويوع صيته ، لما وصى عليه وناق عليه بدقة النظر وجودة التأليف . كما حذا حذوه في تأليفاته . فان الأب المكرم ألف في الفقه (معتمد الشيعة) ، والابن الجليل ألف مستندها . وذاك ألف في الأخلاق (جامع السعادات) - هذا الكتاب

(ب)

الذي تقدمه - وهذا ألف (معراج السعادة) في الفارسية . وذلك ألف (مشكلات العلوم) وهذا ألف (الخرائن) . . . وهكذا نسج على منواله وأحكم النسج .

مولده ووفاته

ولد الشيخ المترجم له - رحمه الله تعالى - في (نراق) كمرق (١)، وهي قرية من قرى كاشان بایران ، تبعد عنها عشرة فراسخ . وكذا كانت مسقط رأس ولده المتقدم الذكر . ولم يذكر التاريخ سنة ولادته ، وعلى التقريب يمكن استخراجها من بعض المقارنات التاريخية ، فانه تلمذ - في أول نشأته على ما يظهر - على الشيخ المحقق الحكيم المولى اسماعيل الخاجوى ثلاثين سنة، مع العلم أن استاذة هذا توفي عام ١١٧٣ ، فتكون أول تلمذته عليه عام ١١٤٣ على أقل تقدير ، إذا فرضنا أنه لازمه إلى حين وفاته . ولنفرض على أقرب تقدير أنه قد حضر عليه وهو في سن ١٥ عاماً ، وعليه فتكون ولادته عام ١٢٢٨ ، أو قبل ذلك .

أما وفاته فقد كانت عام ١٢٠٩ في النجف الأشرف ، ودفن فيها ، فيكون قد بقي بعد وفاة استاذة الوحيد البهبهاني سنة واحدة ، ويكون عمره ٨١ عاماً على الأقل .

وفي (رياض الجنة) المخطوط ، تأليف السيد حسن الزنوزي المعاصر للمترجم له - حسب نقل الاستاذ حسن النراقي - : ان عمره كان ٦٣ سنة ، فتكون ولادته سنة ١١٤٦ هـ . وهذا لا يتفق ابداً مع ما هو معروف في تاريخه : انه تلمذ على المولى اسماعيل الخاجوى ثلاثين سنة ، لأنه يكون عمره على حسب هذا التاريخ حين وفاة استاذة ٢٧ سنة فقط .

(١) في أعيان الشيعة - ج ١٠ ص ٢٥٠ - : انها بفتح النون .

نشأة العلمية وساندته

عاش شيخنا كما يعيش عشرات الآلاف من أمثاله من طلاب العلم :
خامل الذكر ، فقير الحال ، منزوياً في مدرسته ، لا يعرف من حاله إلا أنه
طالب مهاجر ، ولا يتصل به إلا أقرانه في دروسه ، الذين لا يهمهم من
شأنه إلا أنه طالب كسائر الطلاب ، يتردد في حياة رتيبة بين غرفته ومجالس
دروسه ، ثم بعد ذلك لا ينكشف لهم من حاله إلا بزته الرثة التي ألفوا
منظرها في آلاف طلاب العلم ، فلا تثير اهتمامهم ولا اهتمام الناس .

وبطبيعة الحال لا يسجل له التاريخ شيئاً في هذه النشأة ، وكذلك كل
طالب علم لا يسجل حتى اسمه ما لم يبلغ درجة يرجع إليه الطلاب في تدريس ،
أو الناس في تقليد ، أو تكون له مؤلفات نشتهر . ومن هنا تبتدى معرفة
حياة الرجل العالم ، وتظهر آثاره ويلعب اسمه .

ومع ذلك ، فانا نعرف عن شيخنا : ان أسبق أساتذته وأكثرهم
حضوراً عنده هو المولى اسماعيل الخاجوئي المتقدم الذكر . وهذا الاستاذ كان
مقره في اصفهان ، وفيها توفي ودفن ؛ والظاهر أنه لم ينتقل عنها حتى في
الكارثة التاريخية المفجعة التي أصابتها من الأفغانيين الذين انتهكوها بمالم
يحدث التاريخ عن مثلها ، وذلك سنة ١١٣٤ . فتكون نشأة شيخنا المترجم له
العلمية في مبدأ تحصيله في اصفهان على هذا الشيخ الجليل . والظاهر أنه عليه
قرأ الفلسفة ، لأن هذا الشيخ من اساتذة الفلسفة المعروفين الذين تنتهى
تلميذتهم في ذلك العصر الى المولى صدر الدين الشيرازى صاحب الاسفار . وكفى
ان من تلاميذه المولى محراب ، الإلهى المعروف ، الذى طورد لقوله بوحدة
الوجود ، ولما جاء الى إحدى العتبات المقدسة متخفياً . وجد في الحرم شيخاً
ناسكاً يسبح بلعن ملا صدرا وملا محراب . ولما سأله عن السبب في لعنهما قال :

لأنهما يقولان (بوحدة واجب الوجود) ، فقال له ساخرأ : إنهما حقاً يستحقان منك اللعن !

ودرس أيضاً شيخنا المترجم له - والظاهر أن ذلك في اصفهان ايضاً - على العالمين الكبارين : الشيخ محمد بن الحكيم العالم الحاج محمد زمان ، والشيخ محمد مهدي الهرندي . وهما من اساتذة الفلسفة على ما يظهر . ولاشك أنه انتقل الى كربلا والنجف ، فدرس على الاعلام الثلاثة : الوحيد البهبهاني الآتي ذكره - وهو آخر اساتذته وأعظمهم ، وتخرجه كان على يديه - والفقير العالم صاحب الحقائق الشيخ يوسف البحراني المتوفى ١١٨٦ ، والمحقق الجليل الشيخ مهدي الفتوفى المتوفى ١١٨٣ .

فجملة اساتذته سبعة ، سماهم ولده في بعض اجازاته على ما نقل عنه بـ (السكواكب السبعة) . وهم خيرة علماء ذلك العصر ، وعلى رأسهم الآقا الوحيد استاذ الاساتذة .

ولما فرغ هذا الشيخ من التحصيل في كربلا ، رجع الى بلاده واستقام في كاشان . وهناك أسس له مركزاً علمياً تشد اليه الرحال ، بعد أن كانت كاشان مقفرة من العلم والعلماء ، واستمرت بعده على ذلك مركزاً من مراكز العلم في ايران ، وليس لدينا ما يشير الى تأريخ انتقاله الى كاشان .

ورجع الى العراق ، وتوفي في النجف الأشرف ودفن فيها . والظاهر ان مجيئه هذا - وكان معه ولده - بعد استاذة الوحيد ، جاء لزيارة المشاهد المقدسة فتوفى . أما ولده فقد بقي بعده ليدرس العلم على أعلامه يومئذ ، كبحر العلوم ، وكاشف الغطاء .

عصره

يمضي القرن الثاني عشر للهجرة على العتبات المقدسة في العراق ، بل على

أكثر المدن الشيعية في إيران التي فيها مركز الدراسة الدينية العالية - كاصفهان وشيراز وخراسان - وتطغى فيه ظاهرتان غريبتان على السلوك الديني : الأولى : النزعة الصوفية التي جرت إلى مغالاة فرقة الكشفية . والثانية : النزعة الاخبارية .

وهذه الأخيرة خاصة ظهرت في ذلك القرن قوية مسيطرة على التفكير الدراسي ، وتدعو إلى نفسها بصراحة لا هوادة فيها ، حتى أن الطالب الديني في مدينة كربلا خاصة أصبح يجاهر بتطرفه ويغالى ، فلا يحمل مؤلفات العلماء الأصوليين إلا بمنديل ، خشية أن تنجس يده من ملامسة حتى جلدها الجاف . وكربلا يومئذ أكبر مركز علمي للبلاد الشيعية .

وفي الحقيقة أن هذا القرن يمر والروح العلمية فاترة إلى حد بعيد ، حتى أنه بعد الشيخ المجلسي صاحب البحار المتوفى في أول هذا القرن عام ١١١٠ ، لم نجد واحداً من الفقهاء الأصوليين من يلمع اسمه ويستحق أن يجعل في الطبقة الأولى ، أو تكون له الرئاسة العامة ، إلا من ظهر في أواخر القرن ، كالشيخ الفتوى الجليل في النجف المتوفى ١١٨٣ ، ثم الشيخ آقا الوحيد البهبهاني في كربلا المتوفى ١٢٠٨ ، الذي تم على يديه تحول العلم إلى ناحية جديدة من التحقيق .

وهذا الفتور العلمي ، وطغيان نزعة التصوف من جهة ، ونزعة الاخبارية من جهة أخرى في هذا القرن بالخصوص ، مما يدعو إلى التفكير والعجب . وليس بأيدينا من المصادر ما يكفي للجزم بأسباب ذلك . وأغلب الظن أن أهم الأسباب التي نستطيع الوثوق بها هو الوضع السياسي والاجتماعي اللذان آلت اليهما البلاد الإسلامية في ذلك القرن ، من نحو التفكك واختلال الأمن في جميع أطراف البلاد ، والحروب الطاحنة بين الأمراء والدول ،

لا سيما بين الحكومتين الإيرانية والعثمانية وبين الإيرانية والافغانية ، تلك الحروب التي اصطبغت على الاكثر بصبغة مذهبية . وهذا كله مما يسبب البلبلة في الافكار والاتجاهات ، وضعف الروح العامة المعنوية .

فأوجب ذلك من جهة ضعف ارتباط رجال الدين بالحياة الواقعية والسلطات الزمنية . ويدعو ذلك عادة الى الزهد المغالى في جميع شؤون الحياة ، والياس من الاصلاح . فتنشأ هنا نزعة التصوف ، وتتخذ يؤمئذ صرحاً علمياً على انقاض الفلسفة الاشراقية الإسلامية المطاردة المسكوبة ، التي سبق أن دعا لها أنصار أقوياء ، كالمولى صدر الدين الشيرازي المتوفى عام ١٠٥٠ واطرا به واتباعه ، مع المغالاة في أفسكارها . وساند طريقة التصوف مبدئياً أن السلطة الزمنية في إيران - وهي (سلطة الصفويين) - قامت على أساس الدعوة الى التصوف ، وظلت تؤيدها وتمدها سرّاً .

ومن جهة أخرى يحدث رد فعل لهذا الغلو ، فينسكر على الناس أن يركنوا الى العقل وتفكيره ، ويلتجأ الى تفسير التعبد بما جاء به الشارع المقدس بمعنى الاقتصار على الاخبار الواردة في السكتب الموثوق بها في كل شيء . والجمود على ظواهرها . ثم يدعو الغلو بهؤلاء الى ادعاء أن كل تلك الاخبار مقطوعة الصدور على ما فيها من اختلاف . ثم يشتد بهم الغلو ، فيقولون بعدم جواز الأخذ بظواهر القرآن وحده ، من دون الرجوع الى الاخبار الواردة . ثم ضربوا بعد ذلك علم الأصول عرض الجدار ، بادعاء أن مبانيه كلها عقلية لا تستند الى الاخبار ، والعقل أبداً لا يجوز الركون اليه في كل شيء . ثم ينكرون الاجتهاد وجواز التقليد . وهكذا تنشأ فكرة الاخبارية الحديثة التي أول من دعا اليها أو غالى في الدعوة اليها المولى أمين الدين الاسترآبادي المتوفى ١٠٣٣ . ثم يظهر آخر شخص لهذه النزعة له مكانته

العلمية المحترمة في الفقه هو صاحب الحدائق المتقدم ذكره . وهذا الثاني - وإن كان أكثر اعتدالا من الأول واضرابه - كاد أن يتم على يديه تحول الاتجاه الفكري بين طلاب العلم في كربلا إلى اعتناق فكرة الأخبارية هذه .

وعندما وصلت هذه الفكرة الأخبارية إلى أوجها ، ظهر في كربلاء علم الأعلام الشيخ الوحيد الآقا البهبهاني ، الذي قيل عنه بحق : مجدد المذهب على رأس المائة الثالثة عشرة . فإن هذا العالم الجليل كان لبقاً مفوهاً ومجاهداً خبيراً ، فقد شن على الأخبارية هجوماً عنيفاً بمؤلفاته ، وبمجاجباته الشفوية الخادة مع علمائها - وقد نقل في بعض فوائده الحاثرية ورسائله نماذج منها - وبدرسه القيمة التي كان يلقيها على تلامذته الكثيرين الذين التفوا حوله ، وعلى يديه كان ابتداء تطور علم الأصول الحديث ، وخروجه عن جموده الذي ألفه عدة قرون ، واتجه التفكير العلمي إلى ناحية جديدة غير مألوفة .

فانكشفت في عصره النزعة الأخبارية على نفسها ، ولم تستطع أن تثبت امام قوة حجته . ونخرج على يديه جماعة كبيرة من أعلام الأمة ، كبحر العلوم ، وكاشف الغطاء ، والمحقق القمي ، والشيخ اليراق - المترجم له - واشباههم . فبرز شيخنا المترجم له في عنفوان المعركة الأخبارية والأصولية ، وساحتها كربلا ، وفي عنفوان معركة الدعوة إلى التصوف ، وساحتها اصفهان على الأكثر ، فيكون أحد أبطال هاتين المعركتين ، بل أحد القواد الذين رفعوا راية الجهاد بمؤلفاته وتدريسه ، وساعده على ذلك انه - رحمه الله - كان متفنناً في دراسة العلوم ، ولم يقتصر على الفقه والأصول ومقدماتها ، فقد شارك العلوم الرياضية ، كالهندسة والحساب والهيئة ، وله مؤلفات فيها شيئاً ذكرها . كما درس الفلسفة ، ويظهر أثر تضلعه في الفلسفة في كتابه هذا (جامع السعادات) ، لا سيما في الباب الأول ، وفي تقسيمه لآبواب الكتاب

وفصوله على أساس علمي متقن برز فيه على كتب الاخلاق السابقة عليه من هذه الناحية . وسيأتي بيان ذلك .

كما أن تأليفه لهذا الكتاب يشعرنا بأمرين :

(الاول) طغيان التصوف من جهة ، وطغيان التفكير الاخلاقي عند العامة من جهة أخرى ، وأنهما اللذان أوجعا إلى أن يرشد الناس إلى الاعتدال في السلوك الاخلاقي المستقي من منابعه الشرعية ، فإنه في الوقت الذي يبني كتابه على مبادئ الفلسفة الاشراقية ، حارب فيه من طرف خفي نزعة التصوف ، وجعل آراءه ودعوته إلى الاخلاق على أساس الذوق الإسلامي الذي يتمثل في الأحاديث النبوية وما جاء عن آل البيت - عليهم السلام - ، فهو في وقت واحد هادم وبان ، وبهذا يختلف كتابه عن مثل (أحياء العلوم) الذي يعتمد بالدرجة الأولى على الروح الصوفية ، وهي غايته المثلى .

و(الثاني) من الأمرين حسن اختيار صاحب الترجمة ، فإنه لم يسبقه أحد من علماء الإمامية - بعد خرميت هذه الصناعة ابن مسكويه المتوفى ٤٢١ ، والشيخ المولى محسن الفيض المتوفى ١٠٩١ - إلى تأليف كتاب كامل في الاخلاق مبني على أساس علمي فلسفي موجود بين أيدينا .

شخصية المترجم له وأهم صفاته

إن أعظم الناس ونوابغهم لا تأتيهم العظمة والنبوغ عفواً ومصادفة ، من دون قوة كامنة في شخصيتهم أو ملكة راسخة في نفوسهم ، هي سر عظمتهم وتفوقهم على سائر الناس . وما كلفة الحظ في هذا الباب إلا تعبير مبهم عن تلك القوة التي أودعها الله تعالى في شخص الباقية . وقد تكون تلك القوة مجهولة حتى لشخص صاحبها الذي يتحلى بها ، بل على الأكثر هي كذلك ، فيندفع العبقرى إلى تلك القمة التي خلقت له أو خلق لها بدافع تلك القوة

الكامنة اندفاعاً لا شعورياً ، وان كانت اعماله الجزئية التي يقوم بها هي شعورية بمحض اختياره .

ونلاحظ قوة شخصية شيخنا المترجم له في صبره وقوة إرادته وتفانيه في طلب العلم ، ثم عزة نفسه ، وان كانت هذه الفاظاً عامة قد يعبر بها عن كثير من الناس ، ويصح التعبير بها بلا كذب ولا خداع ، إلا أن الدرجة الخاصة من الصبر والارادة والحب والعزة ونحوها التي بها يمتاز الشخص النابغ تضيق اللغة عن التعبير عنها بخصوصها إلا بهذه الالفاظ العامة الدارجة وتظهر الدرجة الخاصة التي يختص بها صاحبنا من هذه الامور في ثلاث حوادث منقولة عنه :

(الأولى) - فيما ينقل انه كان في ايام التحصيل في غاية الفقر والفاقة - والفقر دائماً شيمة العلماء ، بل هو من أول شروط النبوغ في العلم ، وهو الذي يصقل النفس فيظهر جوهرها الحقيقي - فكان صاحبنا قد تشتد به الفاقة فيعجز عن تدبير ثمن السراج الذي لا يتجاوز في عصره عن ان يكون من زيت أو شمع ، فيدعوه حرصه على العلم الى الدخول في بيوت مراحيض المدرسة ، ليطالع على سراجها ، ولكنه تأبى عزته ان يدع غيره يشعر بما هو فيه ، فيوهم الداخلين - بالتنحج - انه جالس للحاجة الخاصة . وتتجلى في هذه الحادثة الصغيرة عزة نفسه وقوة إرادته وصبره على طلب العلم بدرجة غير اعتيادية إلا للنوابغ الافذاذ .

(الحادثة الثانية) - ان أحد الكسبة الذي كان حانوته في طريق المدرسة بكاشان التي كان يسكنها هذا الطالب الزاقي ، ان هذا الكاسب المؤمن لاحظ على هذا الطالب انه رث الثياب ، وكان معجباً به ، اذ كان يشتري منه بعض الحاجيات كسائر الطلاب ، فرأى ان يكسيه ثوباً الى الله ، فهدى له ملبوساً يليق بشأنه ، وقدمه له عندما اجتاز عليه ، فقبله

بالحاح . ولكن هذا الطالب الأبى في اليوم الثاني رجع الى رفيقه الكاسب
وارجع له هذا الملبوس قائلاً : انى لما لبسته لاحظت على نفسى ضعة لا
اطيقها ، لاسبى حينما اجتاز عليك ، فلم اجد نفسى تتحمل هذا الشعور المؤلم ،
والقاء عليه ومضى معترساً بكرامته .

(الحادثة الثالثة) - فيما ينقل عنه أيضاً - وهى أهم من الأولى والثانية -
انه كان لا يفيض السكتب الواردة اليه ، بل يطرحها تحت فراشه مختومة ،
لئلا يقرأ فيها ما يشغل باله عن طلب العلم . والصبر على هذا الامر يتطلب
قوة ارادة عظيمة ليست اعتيادية لسائر البشر . ويتفق ان يقتل والده
(ابو ذر) المقيم في نراق وطنه الاصلى ، وهو يومئذ في اصفهان ، يحضر على
استاذة الجليل المولى اسماعيل الحاجوى ، فكتبوا اليه من هناك بالنبأ ليحضر
الى نراق ، لتصفية التركة وقسمة المواريث وشؤون اخرى ، ولكنه على
عادته لم يفيض هذا السكتاب ، ولم يعلم بكل ما جرى . ولما طالت المدة على
من في نراق ، كتبوا له مرة اخرى ، ولكن لم يجيبهم ايضاً . ولما ائسوا منه كتبوا
بالواقعة الى استاذة المذكور ليخبره بالنبأ ويحمله على الحجى . والاستاذ في
دوره - على عادة الناس - خشى أن يفاجئه بالنبأ ، وعندما حضر مجلس درسه أظهر
له - تمهيداً لآخباره - الحزن والكآبة ، ثم ذكر له : ان والده مجروح ، ورجع
له الذهاب الى بلاده . ولكن هذا الولد الصلب القوى الشكيمة لم تلن قناته ،
ولم يزد أن دعا لوالده بالعافية ، طالباً من استاذة أن يعفيه من الذهاب .
وعندئذ اضطر الاستاذ الى ان يصرح له بالواقع ، ولكن الولد ايضاً لم يعبأ
بالامر ، واصر على البقاء لتحصيل العلم . إلا ان الاستاذ هذه المرة لم يجد بداً
من أن يفرض عليه السفر ، فسافر امتثالاً لامره المطاع ، ولم يمكث في نراق
اكثر من ثلاثة ايام ، على بعد الشقة وزيادة المشقة ، ثم رجع الى دار هجرته .

وهذه الحادثة لها مغزاها العميق في فهم نفسية هذا العالم الآلهي ، وتدل على استهانته بالمال وجميع شؤون الحياة في سبيل طلب العلم .

مؤلفاته

لشيخنا المترجم له عدة مؤلفات نافعة، تدل على قابلية في التأليف وصبر على البحث والتتبع ، وعلى علم غزير. ونحن نعد منها ما وصل بحسنا اليه، واكثر اعتمادنا في تعدادها وبعض اوصافها على كتاب (رياض الجنة) المذكور في مصادر هذه الطبعة :

(في الفقه) :

- ١ - (لوامع الأحكام في فقه شريعة الإسلام) : وهو كتاب استدلالى مبسوط ، وقد خرج منه كتاب الطهارة في مجلدين يقرب من (٣٠) ألف بيت .
- ٢ - (معتمد الشيعة في احكام الشريعة) : هو أتم استدلالا واخصر تعبيراً من كتاب اللوامع السالف الذكر ، خرج منه كتاب الطهارة ونبذ من الصلاة والحج والتجارة والقضاء . قال في الروضات عن الكتباين : « ينقل عنهما ولده المحقق في المستند والعوائد كثيراً » .
- ٣ - (التحفة الرضوية في المسائل الدينية) : في الطهارة والصلاة ، فارسي ، يقرب من (١٠) آلاف بيت .
- ٤ - (أنيس التجار) : في المعاملات ، فارسي ، يقرب من (٨) آلاف بيت .
- ٥ - (أنيس الحجاج) : في مسائل الحج والزيارات ، فارسي ، يقرب من (٤) آلاف بيت .
- ٦ - (المناسك المسكية) : في مسائل الحج أيضاً ، يقرب من ألف بيت .
- ٧ - (رسالة صلاة الجمعة) : ذكرها وما قبلها حفيده (الاستاذ حسن النراقي) في رسالته لنا .

(في أصول الفقه) :

٨ - (تجريد الأصول) : مشتمل على جميع مسائل الأصول مع اختصاره ، يقرب من (٣) آلاف بيت . قال عنه في الروضات : « شرحه ولده في مجلدات غفيرة جمّة » .

٩ - (أنيس المجتهدين) : توجد منه نسخة مخطوطة في مكتبة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام العامة بالنجف الاشرف (برقم ٤٠٨ - سجل المخطوطات) ، تقع في ٤١١ صفحة ، بخط محمد حسين بن علي نقى البزاز ، فرغ منها بتاريخ ٣ صفر من سنة ١١٨١ . وفي تقدير رياض الجنة يقرب من (١٠) آلاف بيت .

١٠ - (جامعة الأصول) : يقرب من (٥) آلاف بيت .

١١ - (رسالة في الاجماع) : يقرب من (٣) آلاف بيت .

(في الحكمة والكلام) :

١٢ - (جامع الافكار) : في الآلهيات ، يقرب من (٣٠) ألف بيت ، قد فرغ من تأليفه سنة ١١٩٣ ، وعليه فليس هو من اوائل مؤلفاته ، كما قال عنه صاحب (رياض الجنة) ، « مستجد راموزاً للصفحتين الأولى والاخيرة منه بخط المؤلف ، منقولاتين عن النسخة التي هي بحوزة أحد احفاده (الاستاذ حسن العراقي) . والذي يجلب الانتباه في الصفحة الاخيرة ما ذكره من الحوادث المروعة في الوباء وغيره التي وقعت في تلك الفترة .

١٣ - (قرة العيون) : في احكام الوجود والماهية ، يقرب من (٥) آلاف بيت .

١٤ - (اللغات المرشدة) : في حكمة الاشراق ، يقرب من (٢٥) ألف بيت .

١٥ - (اللعة) : وهو مختصر اللغات ، يقرب من ألفي بيت .

- ١٦ - (الكلمات الوجيزة) : وهو مختصر البعثة ، يقرب من ثمانمائة بيت .
- ١٧ - (أنيس الحكماء) : في المعقول ، وهو من اواخر تأليفاته ، لم يتم . احتوى على نبذ من الأمور العامة والطبيعية ، يقرب من (٤) آلاف بيت .
- ١٨ - (أنيس الموحدين) : في أصول الدين ، فارسي ، يقرب من (٤) آلاف بيت .
- ١٩ - (شرح الشفا) : في الآلهيات ، النسخة الأصلية بخط المؤلف موجودة عند أحد أحفاده (الاستاذ حسن النراقي) .
- ٢٠ - (الشهاب الثاقب) : في الامامة ، في رد رسالة الفاضل البخارى ، يقرب من (٥) آلاف بيت .
- (في الرياضيات) :
- ٢١ - (المستقصى) : في علوم الهيئة ، خرج منه مجلدان الى مبحث اسناد الحركات ، يقرب من (٤٠) ألف بيت ، قال عنه في رياض الجنة : لم يعمل ابسط وادق منه في علم الهيئة ، ولقد طبق فيه اكثر البراهين الهندسية بالدلائل العقلية ، لم يتم .
- ٢٢ - (المحصل) : كتاب مختصر في علم الهيئة ، يقرب من (٥) آلاف بيت .
- ٢٣ - (توضيح الاشكال) : في شرح تحرير اقليدس الصورى في الهندسة ، وقد شرحه الى المقالة السابعة ، فارسي ، يقرب من (١٦) ألف بيت .
- ٢٤ - (شرح تحرير اكرثا ذوسنيوس) : يقرب من (٣) آلاف بيت .
- ٢٥ - (رسالة في علم عقود الانامل) : فارسية ، تقرب من الف بيت .
- ٢٦ - (رسالة في الحساب) : ذكرها في روضات الجنات .

(في الاخلاق والمواعظ) :

٢٧ - (جامع السعادات) : هذا المطبوع بثلاثة اجزاء - حسب تقسيمنا له - قال عنه في رياض الجنة : « يقرب من (٢٥) الف بيت ، ، وقد طبع في ايران على الحجر سنة ١٣١٢ بحزمين ، وسيأتي وصفه ، وقد تقدم شيء من وصفه . وهذه الطبعة الثالثة له على الحروف بالنجف الاشرف .

٢٨ - (جامع المواعظ) : في الوعظ ، يقرب من (٤٠) الف بيت ، لم يتم .
(في المتفرقات) :

٢٩ - (محرق القلوب) : في مصائب آل البيت ، فارسي ، يقرب من (١٨) الف بيت ، قال عنه في روضات الجنات : « طريف الاسلوب ، ،

٣٠ - (مشكلات العلوم) : في المسائل المشككة من علوم شتى ، مطبوع على الحجر بايران ، يشبه بعض الشيء كشكول البهائي . وقد نسج على منواله ولده المحقق في كتابه (الخزائن) المطبوع على الحجر بايران .

٣١ - (رسالة نخبه البيان) : ذكرها حفيده (الاستاذ حسن النراقي) .

٣٢ - (معراج السماء) : ذكره أيضاً حفيده المذكور .

جامع السعادات وعلم الأعمق

لا شك ان القدرة على التأليف موهبة من الله تعالى فوق موهبة العلم والفهم ، وليس كل من كان عالماً استطاع التأليف .

والتأليف في حد ذاته من أبرز الخدمات التي يؤديها العالم للناس في حياته ، ومن اعظم الحظوظ للانسانية ، وبسببه استطاعت ان تتقدم على مرور الاجيال . ومع ذلك ليس كل تأليف يعد خدمة للناس وحظاً للانسانية . واذا أردنا ان نضع المؤلفات في رفوف حسب قيمتها ، فانما في فترات متقطعة تظهر مؤلفات من النوابع يصح ان نضعها في الرف الاعلى ، ويصدق عليها بحق انها مما ينفع الناس ، فتمكث في الأرض ، وتفرض نفسها للخلود والبقاء اذا سلبت من عوادي الدهر الغاشمة . ومن سوء الحظ ان الفراغ لا يزال كثيراً في هذا الرف الاعلى .

ومن بين الفترات لابد ان تبرز في كل علم من المؤلفات هي من حقها أن توضع في الرف الثاني أو ما دونه . وحظها ان تنسج على منوال غيرها لتحديثها وتبني انتهاء الفترة لظهور الاثر الخالد مما يوضع في الرف الاعلى . وهذه غير الغناء الذي يذهب جفاء ، ومن حقه ان يلقي في سلة المهملات . وما اكثرت هذا النوع الرخيص ، لا سيما في عصرنا الحاضر الذي سهلت له الطباعة الاسفاف .

ويجب ألا نغالي في مؤلفات شيخنا الراقى فنضعها في الرف الاعلى ، ولكن (جامع السعادات) الذي نقدمه ، هو بالخصوص من الآثار الخالدة ، وان لم يكن موضعه هذا الرف الاعلى كسائر المکتب الاخلاقية في الدورة الإسلامية . ولا ندرى السر في ذلك ، ألان الفترة بعد لم تنته لعلم الاخلاق بخصوصه كما يظهر الاثر الخالد المنتظر الذي سيكون في الرف الاعلى ، أم لأن

هذا العلم ليس له تلك الفترات ، بل كله في فترة مستديرة لبأس العلماء
الاخلاقين من التأثير على الناس بمجرد التأليف ١٩

وهذا الثاني هو الأقرب إلى الواقع . والحق مع الاخلاقيين في بأسهم ،
فان الاخلاق لا تكتسب بالتعلم وقراءة الكتب ، وانما هي صفات وملكات
لا تحصل للانسان إلا بالتمرينات القاسية والتربية الطويلة ، لا سيما في أيام
الطفولة وفي السن المبكرة قبل ان يفرض في الانسان ان يكون أهلاً للقراءة ،
ولو كانت قراءة الكتب وحدها كافية لخلق الفضيلة في النفس أو تدميرها
لكانت كتب الاخلاق من أئمن ما خلق الله . ولاغنى البشرية كتاب واحد
يفي بذكر الاخلاق الفاضلة ، بل لا اكتفين بالقرآن الكريم وحده ، أو بنهج
البلاغة بعده الذي تريد خطبه ومواظبه ان تصهر الناس في بوتقتها الملتهبة
لتخرجهم ابرياء صافياً كصاحبها ، ولكن البشرية الظالمة لنفسها بدل ان
تنصهر بهذا اللهب تحبو جذوتها وتزيد جموداً على مساوئها .

وليس هذا الرأي عن الكتب الاخلاقية فيه شيء من المغالاة على ما
اعتقد ، إلا اني مع ذلك لا اعظم بعض زمرة صالحة من أهل الفتوة وارباب
القلوب الحية ، إذ نجدهم يتأثرون بالكتابة الاخلاقية الموجهة اليهم بمن يعول
على قوله ، ويتبعون باخلاص مجهودات المؤلفين في الاخلاق ، ليرسموا
خطاهم فيهدبوا انفسهم .

ومن هنا نجد السبيل الى انصاف الاخلاقيين وإعطاء مؤلفاتهم حقها
من التقدير ، لنعتقد انهم لم يعملوا عملاً باطلاً لانفع فيه ، بل الحق ان له
قيمه العظيمة ، وكفى أن يتأثر بدعوتهم بعض فتيان كرام بررة . وهذا التأثير
على قلته له قيمة معنوية لانوازن بشيء في الدنيا ، بل سير الحياة وتقدمها
يتوقف مبدئياً على هذا التأثير ، وان كان محدوداً . وما التقدم الاجتماعي الذي

(ف)

يحصل في أمة في بعض الفترات من الزمن إلا نتيجة من نتائج هذا التأثير المحدود . ومع ذلك ، فإن تأثير الدعوة الاخلاقية هذا التأثير المحدود لا يأتي من مجرد شحن الكتاب بالنظريات الاخلاقية المجردة . بل لروحية المؤلف أعظم الاثر في اجتذاب قلوب الفتيان الكرام الى الخير . ومن هنا اشتروا في الواعظ ان يكون متعظاً .

وعلى هذا الاساس ينبغي أن توضع كتب الاخلاق في رفوفها ، فليس للنظريات الفلسفية ورصانة التأليف وتركيزه على المبادئ العلمية - في نظر ارباب القلوب - تلك الاهمية الاخلاقية التي تعلق عليها ، ولا تقاس بالاثار الاخلاقي الذي يحصل من روحية المؤلف ومقدار تأثيره هو باقواله ، وما كانت شهرة (مجموعة ورام) ، وما كانت اهميتها إلا لأنها ناشئة من قلب صادق ، ذلك قلب الأمير الزاهد الاطفي (الشيخ ورام ابن ابي فراس المالكي الاشترى) ، وليس فيها صفة علمية أو فنية تقضى بهذا الاهتمام . ومن العجيب أن قلب الرجل الاخلاقي يبرز ظاهراً على قلبه في مؤلفاته ، فتلمسه في ثنايا كلماته . وبالعكس ذلك الذي لا قلب له ، فانك لا تقرأ منه إلا كلاماً جافاً لا روح فيه ، مهما بلغت قيمته في حساب النظريات الفلسفية .

وفي نظري ان قيمة (جامع السعادات) في الروح المؤمنة التي تقرأها في ثناياها أكثر بكثير من قيمته العلمية . واني لأتحدى قارىء هذا الكتاب اذا كان مستعداً للخير أن يخرج منه غير متأثر بدعوته ، وهذا هو السر في اقبال الناس عليه وفي شهرته ، على انه لا يزيد من ناحية علمية على بعض الكتب المتداولة التي لا نجد فيها هذا الذوق والروحانية . والكتاب نفسه يكشف لنا عن نفسية المؤلف ، وما كان عليه من خلق عال وإيمان صادق . واني لأؤمن ايماناً لا يقبل الشك : ان انتشار هذا الكتاب بين الناس

في هذا العصر سيكون له اثره المحسوس في توجيه امتناننا نحو الخير ، بعد ان نفدت طبعته الاولى وعزت نسخته ، ولا سيما ان خطباء المنابر - فيما اعتقد - ستكون لهم الحصة الوافرة في التأثير به ونقل تأثيرهم الى سواد الامة الذين هم المعول عليهم في نهضتنا الاخلاقية المقبلة .

وهذا ما دفعني - والله هو الشاهد على - الى السهر على تصحيح الكتاب وتدقيقه ، ليخرج بهذه الحلة ، وان كانت ظروفنا الخاصة كادت أن تحول دون التفرغ له ، لو لا اني توكلت على الله تعالى ووطنت نفسي على تجاهلهم واهمال كثير مما يجب العناية به ، والحمد لله على توفيقه .

النوامي الفنية في الكتاب

من أهم ما يؤخذ به كتابنا هذا ، اعتماده على المراسيل في الاحاديث ، وتسجيل كل ما يرى امامه من المنقولات : غثها وسمينها ، من دون اشارة الى التمييز ولا الى المصادر ، حتى نقل كثيراً عن احياء العلوم ، ونعمد النقل عن مثل جامع الاخبار ومصباح الشريعة ، اللذين يشهد اسلوبهما على وضع اكثر ما فيهما . وقد وجدنا صعوبة كبيرة في العثور على جملة من مصادر هذه المنقولات لتصحيحها . وقد يستغرق البحث للعثور على مصدر خبر واحد أياماً كما قد يذهب البحث سدى . وما كان يهمنا من الرجوع الى المصادر لتصحيح المنقولات لا إثبات مصادرها ، فلذلك لا نشير في الحاشية الى المصدر إلا اذا وجدنا اختلافاً في نصه في النسخ ، فنقول : صححناه على كذا مصدر . وبهذه المناسبة لابد من الاعتراف بالجميل ، فنذكر الاستاذ الفاضل السيد عبد الرزاق المقرم بالشكر لما اعاننا عليه من الفحص عن بعض الروايات . والذي يهون الخطب في هذه المواخذة - على أن لها قيمتها الفنية -

انها لا تختص بهذا الكتاب وحده من بين كتب الاخلاق الإسلامية ، بل هذا ديدنها . وكأنهم اصحابها من الاستشهاد بالمنقولات نفس أداء الفكرة ، فاذا كانت بحسب نظرهم صحيحة مقبولة في نفسها فلا يجب عندهم أن يكون الحديث الذي يتضمنها صحيحاً مقبولاً في عرف أهل الحديث ، فاذا قال المحدث : « قال النبي والإمام كذا » ، يعني بذلك أن هذا القول ثابت بالنقل الصحيح الموثوق به ، وإلا فيقول « روى عنه كذا » أو ما يشبه ذلك ، أما الاخلاق فلا يعني بذلك القول إلا أنه مروي عنه بأى طريق كان .

ولعل لهذا التسامح عذراً مقبولاً في مذهبهم على ما قدمنا ، لو لم تكن فيه إساءة الى أمانة النقل في أهم تراث اسلامى دينى ، في حين كان من الممكن تحاشيها بقليل من التحقيق والبحث ، على ان في الثابت الصحيح عن آل البيت - عليهم السلام - ما فيه الكفاية للإمام بنواحي الاخلاق المطلوبة ، وما في (الكافي) كاف وحده في هذا الباب . وكنا نتمنى - اثناء التصحيح - على صاحب كتابنا هذا ألا يتبع هذه العادة عند الاخلاقيين ، فيزيد على فائدته الاخلاقية فائدة اخرى في تحقيق الاحاديث الصحيحة .

أما اسلوب الكتاب الادبي ، فهو يمثل إلى حد ما عصره الذي ضعفت فيه اللغة الى حد كبير ، بالرغم على ان الفلاسفة الاشراقيين اشتهروا في تلك المصوّر بحسن البيان وقوة الاسلوب ، لا سيما في العصر السابق على عصر المؤلف ، كالسيد الداماد العظيم المتوفى ١٠٤١ ، وتلميذه النابغة الجليل المولى صدرا المتقدم ذكره ، حتى كان يسمى الأول : امير البيان ، ولعل الثاني احق بهذا اللقب . غير ان صاحبنا لا يحسب في عداد الفلاسفة وإن ارتشف من منهلهم . على أنه كان يقتبس كثيراً نص عبارات غيره استراحة اليها . وهذه سنة مستساغة عند المؤلفين الاخلاقيين ، وكان كتبهم يجدونها مشاعة بين

الجميع ، أولان همهم اداء الفكرة كما كان عذرهم في مراسيل الاحاديث .
وبهذه المناسبة نقول : إنا وجدنا اثناء تصحيح الكتاب كثيراً من
الالفاظ والعبارات مما لم نجد له مسوغاً من اللغة العربية ، ككلمة (القادسة)
و (الهلاكة) ، ففضلنا أن نبقىها على ما وجدناها ، حرصاً على امانة النقل ،
واهملنا التنبيه عليها ، ومثل كلمة (سيما) فضلنا أن نصححها ونضع كلمة (لا)
بين قوسين اشارة الى زيادتها منا .

وإذا كانت امانة النقل هي العذر لنا في ذلك ، فهي التي تقضى علينا ان
نصرح أن عناوين الكتاب على الاكثر هي من وضعنا لامن وضع المؤلف .
وأما اسلوبه العلي ، فقد بناه مؤلفه من اوله الى آخره على نظرية
الوسط والاطراف في الاخلاق ، تلك النظرية الموروثة من الفلسفة اليونانية .
وقد بحث عنها المؤلف في (الجزء الاول ص ٥٩) . وليس من حقنا ان
نناقشها ، ولا يمتاز بها هذا الكتاب وحده ، فان شأنه في الاعتماد على هذه
النظرية الاساسية شأن سائر كتب الاخلاق الإسلامية العلية .

ولكن الذي امتاز به كتابنا - بعد أن بحث مؤلفه بحثاً فلسفياً متوسطاً
عن النفس وقواها ، والخير والسعادة ، والفضائل والرذائل ، في البابين الاول
والثاني ، كما صنع اسلافه - أن جعل اساس تقسيمه للكتاب على القوى
الثلاث : العاقلة والشهوية والغضبية . معللاً ذلك بأن جميع الفضائل والرذائل
لا تخرج عن التعلق بالقوى الثلاث ، (١ / ٦٦) . وذكر لسكل قوة ما يتعلق
بها من اجناس الفضائل والرذائل منفردة ومنضمة الى الاخرى ، ثم ذكر
انواعها ، واستقصى ذكر الانواع ، مطبقاً على كل نوع نظرية الوسط
والاطراف ، فجاء في استقصائه وإلحاقه كل فضيلة ورذيلة بالقوة التي تتعلق
بها ، بما لم يحى به غيره ولم يسبقه اليه أحد فيما نعلم ، وهو نفسه ادعى ذلك

(ش)

فقال : ان احصاء الفضائل والردائل وضبطهما ، وادخال البعض في البعض ، والاشارة الى القوة الموجبة لها على ما فصلناه ، مما لم يتعرض له علماء الاخلاق ، (٧١ / ١) .

وهذه أهم ناحية فنية في الكتاب ، وفتح جديد في تحقيق منشأ حدوث خلق الفضيلة والرديلة ، لو اتفق لغيره ان يترسم خطاه ، ويتم ما فتحه من هذا الباب من التحقيق ، لتقدم على يديه علم الاخلاق تقدماً كبيراً . وعلى اساس تحقيقه هذا اسقط فضيلة العدالة من حسابها ، فلم يجعلها جنساً مقابل لا جناس الفضائل الثلاث الاخرى ، وهي الحكمة والعفة والشجاعة ، باعتبار ان العدالة جامعة لجميع الكمالات باسرها ، لا انها في مقابلها . وقد فصل هذا الرأي في الباب الثاني ، ولا أظن احداً يقره عليه ، ولا يثبت امام النقد . ولكن هذه المقدمة تضيق عن مثل هذه الابحاث الدقيقة ، كما تضيق عن مقارنة هذا التأليف بالمؤلفات الاخلاقية الاخرى . وقصدنا أن هذا التقسيم من المؤلف ، وارجاع الفضائل والردائل الى اسبابها ، وجعل مواضيع الابحاث هي تلك القوى ، واحصاء انواع الاخلاق بنوعياتها ولوازمها ، كل ذلك مستجد ، وهي طريقة علمية امتاز بها الكتاب .

تصحيح الكتاب ومراجعته

وعدت الأخ الفاضل الأملى السيد محمد ككلانتر ، ناشر الكتاب وملزمه تصحيحاً وتعليقاً - جزاه الله خير ما يجزى العاملون - : على الاشتراك معه واعانتته على تدقيق وتحقيق هذا السفر الجليل وتصحيحه ايضا عند الطبع ، إذا توفق لتهيئة ما يلزم لطبعه ، وذلك قبل سنتين . وشاء التوفيق أن يحقق هذه الأمنية ، فلم أجد للتخلي عن الوفاء بالوعد سبيلاً مهما كلفني الأمر .

ويعجبني من هذا الرجل صبره وجلده على المشاق في سبيل نشره ،
 باعتباره أحد الكتّاب التي يجب احياؤها في هذا العصر . وهذا منه أحد
 شواهدى على تأثر الفتيان الكرام الابرار بهذا السفر الأخلاقي . وقد شاهدت
 صبره لأول مرة في ايران في صيف العام الماضي ، لما اشترك هو والعلامة
 الأخ بالروح الشيخ محمد شيخ الشريعة ، في قسم من الكتاب على النسخة
 المخطوطة الآتية ذكرها في المراجع رقم ٢ الى حد ص ١٧٦ من الجزء الأول
 من هذا المطبوع ، فودعا في التعليقة آراءهما القيمة في تحقيقه وتصحيحه .
 ولئن عدنا في التصحيح من أوله لما استقبلت المطبعة النسخة للطبع ، فانا اعتمدنا
 كثيراً على تلك التحقيقات القيمة الماضية .

ولا ننسى أن نذكر أن النسخة المطبوعة في ايران على الحجر ، فيها من
 التحريف والتصحيح ما يذهب بالاطمئنان اليها ، ويشوه المقصود والمعنى .
 ومن الغريب أن نجد التحريف حتى في الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة .
 أما تذكير المؤنث وتأنيث المذكر ، وتشويه الاملاء والتبويب ، فهذه امور
 حدثت عنها ولا حرج . ويكفي أن تقارن صفحة واحدة منها بمطبوعنا ،
 لتعرف أى مجهود بذل للتصحيح والاخراج ، وتجد العناية على كل سطر
 منه ، بل كل كلمة .

ومن سوء الحظ ، أن النسخة المخطوطة المرجع رقم (٢) لم تسكن اكثر
 حظاً في الصحة من اختها المطبوعة . وهذا مادعانا الى ان نرجع الى كتّاب
 اخرى تمت بالموضوع بصلة لتحقيق الكتاب ؛ كالكتّاب الاخلاقية وكتّاب
 الحديث . واكثر ما كان يعيننا تصحيح الاحاديث الشريفة بالرجوع الى
 مصادرها الذي جشمنا بحثاً مضنياً كان يستغرق اكثر أوقاتنا ، وقد نذكر
 احياناً في التعليقة المصدر المرجوع اليه ، وعلى الاكثر لا نذكر المرجع إلا

(ث)

عنه ما يكون مخالفاً لنسخ الكتاب . ويحسن الآن أن نذكر أهم المراجع التي اعتمدنا عليها لتصحيح الكتاب ، وهي :

١ - النسخة من الكتاب - المشار اليها آنفاً - المطبوعة على الحجر بإيران سنة ١٣١٢ .

٢ - النسخة المخطوطة منه التي تفضل بها شيخنا الحجة الشيخ محمد محسن الشهير بـ (آغا بزرك) مؤلف الذريعة ، وقد نسخت سنة ١٢٠٨ ، ونعبر عنها في التعليقة بـ (نسختنا الخطية) .

٣ - النسخة المخطوطة منه في مكتبة سبيه سالار بطهران . ولا يحضرنا الآن تاريخ نسخها ورقها في المكتبة . وقد قوبلت النسخة الى حد صفحة ١٧٦ من الجزء الأول .

٤ - النسخة المطبوعة ، التي يملكها الخطيب السيد جواد شهر ، وفيها بعض التقييدات والتصحيحات .

٥ - احياء العلوم - للشيخ أبي حامد الغزالي .

٦ - احياء الاحياء - المجلد الرابع المطبوع في إيران على الحجر سنة ١٣٢٦ ، للشيخ المولى محسن الفيض السكاشاني .

٧ - نسخة اصول السكافي - المخطوطة سنة ١١٠٣ ، في مكتبة منتدى النشر برقم (٤٤٦) ، وهي نسخة ظاهر عليها التصحيح ودقة المقابلة على نسخ صحيحة .

٨ - نسخة اصول السكافي - المخطوطة التي تحت تصرفنا .

٩ - فروع السكافي - المطبوع بالحجر سنة ١٣١٥ ، وهو من المطبوعات الحجرية الصحيحة .

١٠ - الوسائل - المطبوعة سنة ١٣٢٣ ، المعروفة بطبعة عين الدولة .

(خ)

- ١١ - البحار - المجلد ١٥ بجميع اجزائه الأربعة ، المطبوع على الحجر .
١٢ - كنز العمال - المطبوع بحيدر آباد دكن سنة ١٣١٢ .
١٣ - مستدرک الوسائل - للشيخ المحدث النوري ، المطبوع على الحجر سنة ١٣١٩ .

- ١٤ - الوافي - للشيخ المولى محسن الفيض ، المطبوع على الحجر سنة ١٣٢٥ ، وهو من المطبوعات الحجرية الصحيحة .
١٥ - سفينة البحار - المطبوع على الحجر بالنجف الأشرف سنة ١٣٥٢ ، للمحدث الثقة الجليل الشيخ عباس القمي .
١٦ - جامع الاخبار - المطبوع بالهند على الحجر .
١٧ - مصباح الشريعة - المطبوع بالهند على الحجر .
وهذه غير المراجع التي رجعنا اليها نادراً : كمجموعة الشيخ ورام ،
والحقائق للفيض ، وجمع البحرين للشيخ نثر الدين الطريحي ، ونهاية ابن
الأثير ... ونحوها كثير لا فائدة في احصائه . وهذه المراجع هي التي روجعت
لتصحيح أجزاء الكتاب ، والله تعالى هو الموفق للصواب .
ويجب ألا ننسى في الختام شكر الشيخ عبد الهادي الأسدي على جهوده
التي بذلها في تصحيح الكتاب عند الطبع ، والاشتراك في مقابلة النسخة الأصلية
وتدقيقها ، جزاه الله خير ما يجزي العاملين .

النجف الأشرف

٢٠ رجب ١٣٦٨ هـ

محمد رضا المظفر

مراجع البحث في الترجمة :

- ١- (روضات الجنات) : للسيد محمد باقر الخوانساري ، المطبوع
بإيران على الحجر سنة ١٣١٦ .
- ٢- (الروضة البهية) : للسيد محمد شفيع الحسيني ، المطبوع
بإيران على الحجر .
- ٣- (اعيان الشيعة) : للسيد محسن الامين - الطبعة الاولى - في ترجمة
الشيخين : احمد النراقي و اسماعيل الخاجوي .
- ٤- (مستدرك الوسائل) : الجزء الثالث - للمحدث ميرزا حسين النوري .
- ٥- (الذريعة) : - للشيخ محمد محسن الشهير بآغا بزرگ الطهراني .
- ٦- (الاسناد المصنف) : له ايضاً . المطبوع بالنجف الاشرف سنة ١٣٥٦ .
- ٧- (رياض الجنة) : المخطوط ، للسيد حسن الزنوزي المعاصر
للمؤلف ، ومن تلامذة الوحيد البهبهاني ، نسخة منه محفوظة بخزانة الحاج
حسين آغا ملك العامة بطهران تحت رقم (٤٣٨٠) . وقد اعتمدنا عليها في
تجديد النظر في الترجمة سنة ١٣٨٣ ، على ما نقله لنا عنها مكتبة احد احفاد
المترجم له (الاستاذ حسن النراقي) . واكثر ما اعتمدنا على هذا المصدر في
تعداد مؤلفات المترجم له .
- ٨- (قصص العلماء) : للبیرزا محمد بن سليمان التنكابني ، المطبوع
على الحجر بطهران .

ملاحظة :

في سفرتي الأخيرة إلى إيران في العام الماضي - لأمر تخص :
(جامعة النجف الدينية)

- التقيت مع الأخ الاستاذ (حسن اليراقى) - دام فضله - من احفاد
المؤلف - قدس سره - ، جرى الحديث فيه حول شيخنا المؤلف وعظمته .
فأراني الأخ اليراقى نموذجاً من خطوط المؤلف الراقية ، فحذيني حسن
الخط وروعته ، ولا سيما تلك الصفحات من كتاب :
(جامع الافكار وناقد الانظار)

ففكرت في طبع نموذج الصفحة الأولى والأخيرة من الكتاب
المذكور ، تثبيتاً لعظمة ناحية أخرى من نواحي حياة المؤلف المليئة بجلال
الفنون الروائع .

وقد أبدى الاستاذ اليراقى موافقته على ذلك في إطار من التبجيل
الصادق والأدب الجميل . . . مما يخص نفسيته الواسعة .
فشكراً له وتقديراً .

السيد محمد كلاتر

لقد انزل الله من السماء

الحكمة التي لا تحصى تدبّر تدبّر وتخلق الخلق بديان مضموناته
 أظهر من حجاب قدرته ما حير ثواب العقول والأفهام وأبرز
 عظمتها ما خفى فافهم الملائكة والأرواح والنفوس على ما هي عليه
 المعارف والأسرار ووسائل القنونات والآثار من الأسرار
 المكرمين الأخيار وخلقهم الراشدين الأبطال وحملهم
 فيقول الصغف المحتاجين محمد بن الحنفية الرافعي فخر الله به نبينا
 وجعلهم السانن المقربين هذا يا أخواني ما أردتم من المعارف
 الخفية والحقائق الباقية من العلم بامه وصفات كماله ومعرفة أسرار وفوضه
 وما تلوها من المحدثات العالمة والطالب الحق المتقن ما يريد من الأسرار
 الأخبار ويعرج به إلى عالم الغيوب والسرور والسرور والسرور والسرور
 إلى حق عالم الجبروت ودعيت إليه السرايا والسرور والسرور والسرور
 من عباد الله محله ولا يسع إلا ذلك الله إلى كماله حاله لولاه حرمه من عباد الله
 في رتبة علمه ودرجاته المقامات الأفاضل الباطنية من رتبة العلم
 تارة من رتبة العلم ودرجاته المقامات الأفاضل الباطنية من رتبة العلم
 كبر الشئ العبد من رتبة العلم ودرجاته المقامات الأفاضل الباطنية من رتبة العلم

من رتبة العلم ودرجاته المقامات الأفاضل الباطنية من رتبة العلم

الطالقات
 من رتبة العلم ودرجاته المقامات الأفاضل الباطنية من رتبة العلم

(جامع الافكار وناقذ النظر)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى دل على ذاته بذاته وتجلي خلقه ببدائع مصنوعاته ، اظهر من عجائب قدرته ما حير ثواقب العقول والافهام ، وبرز من غرائب عظمتها ما بهر نوافذ المدارك والالوهام ، خرق عليه باطن غيب السترات واحاط بغموض عقائد السريرات ، والصلاة على مهابط المعارف والاسرار ووسائل الفيوضات والانوار ، من الانبياء المكرمين الاخيار وخلفائهم الراشدين الاطهار . وبعد فيقول اضعف المحتاجين : مهدي بن ابى ذر النراقى - نور الله قلبه بنور اليقين وجعله من الصادقين المقربين :- هذا يا اخوانى ما اردتم من اصول المعارف الحقيقية وجوامع العقائد اليقينية : من العلم بالله وصفاته كماله ومعرفة اسمائه ونعوت جلاله ، وما يتلوها من المباحث الإلهية العالية والمطالب الحققة المتعالية ، مما يرتقى به إلى منازل الاخيار ويعرج به الى عوالم العقول والانوار ، ويتوجه به الى شطر كعبة الملكوت ويسلك به الى صقع عالم الجبروت . وقد بعث الله السفراء لاجله ، وانعقد اجماع الامة على وجوب اخذه ، فيلزم على الكل حمله ولا يسع لاحد جهله ، واسأل الله ان يجعله خالصا لوجهه ويحرسه عن غير اهله ، ولا شتماله على جمع الافكار الإلهية ونقدها ، سيما ما تعلق بالشرح الجديد للتجريد من الحواشى ، وسميته بـ (جامع الافكار وناقذ النظر) ، ورتبته على مقدمات ومقالات :

المقدمة الأولى - فى ابطال ترجح المساوى والمرجوح وترجيحهما .

بيان الأول : ان معنى المساوات كون شيئين فى مرتبة واحدة بالنظر

الى ثالث ، ومعنى المرجوحية كون الشيئين احدهما ابعد من الآخر ، والراجحية كونه اقرب منه ، فلو ترجح المساوى أو المرجوح لزم التناقض .

وصدق الله تعالى في قوله لا اله الا هو وحده لا شريك له
 والحمد لله وحده والثناء والالتزام والالفة له سبحانه وبذلك تم بحمد الله
 الصفات السليمة وهو آخر ما اردنا مراده في هذا الكتاب وله من عاقلته ما يسهل
 على الاتمام والصلوة على سبيل السلام والحمد لله وحده
 اتما في اول رمح شهر الربيع الاول من سنة ثمان وخمسين
 الهجرية وكان ذلك عند تراءى العظمى والفران ونفاقم النجوم والشمس والارض
 انما في منطق البابل من هجوم المدبر والشمس والارض والفران ونفاقم النجوم والشمس والارض
 كانت في ايامه عن طواف الخشب في داره باليد اليمنى واليد اليسرى والرجل اليمنى والرجل اليسرى
 وانتهى من تسبيح الابنية في ذلك اليوم في وقت الغروب والارض والفران ونفاقم النجوم والشمس والارض
 وانه سبغ في يوم من الايام في الحمام في ذلك اليوم في وقت الغروب والارض والفران ونفاقم النجوم والشمس والارض
 الربانية العجينة في ذلك اليوم في وقت الغروب والارض والفران ونفاقم النجوم والشمس والارض
 وحرق في ذلك اليوم في وقت الغروب والارض والفران ونفاقم النجوم والشمس والارض
 في قلبه عند انظر الى جميع الاشياء والافعال والوقوع والاشياء والافعال والوقوع والاشياء والافعال والوقوع
 في انفسه في كل يوم في وقت الغروب والارض والفران ونفاقم النجوم والشمس والارض
 في انفسه في كل يوم في وقت الغروب والارض والفران ونفاقم النجوم والشمس والارض
 في انفسه في كل يوم في وقت الغروب والارض والفران ونفاقم النجوم والشمس والارض

(أب)

وبعد ما ثبت أن الواجب - سبحانه - صرف الوجود ومحض الوجود وليس فيه نقص ولا مازجة ، وأنه ليس جسماً وجسمانياً ، ثبت معه نفى التحيز والجهة والحلول والاتحاد والألم واللذة المزاجية عنه سبحانه ، وبذلك تم مباحث الصفات السلبية، وهو آخر ما أردنا إيرادَه في هذا الكتاب . والحمد لله على تأييده على الاتمام ، والصلاة على سيد الأنام وعلى عترته أمناء الإسلام .

ووقع اتمامه في أول يوم من شهر ربيع الأول من سنة ١١٩٣ - ثلاث وتسعين ومائة بعد الألف من الهجرة المباركة النبوية - وقد كان ذلك عند تراكم الهموم والاحزان وتفاقم الغموم والأشجان ، وفراط الملل وضيق البال ، من هجوم المصائب والحن وتواتر النوائب والفتن ، من ابتلائنا أولاً في بلدة كاشان - حماها الله عن طوارق الحداث - بالزلازل الهائلة المفزعة والرجفات المزعزعة المزججة ، وانهدام جميع الأبنية والمساكن وجل البيوت والمواطن ، وهلاك كثير من الأصدقاء والأحباب وذهاب غير واحد من الأحبة والأصحاب ، ثم ابتلائنا بالأمراض الشديدة الغريبة والأسقام الوبائية العجيبة ، بعد ارتحالنا لعدم السكنى وغيره من اختلال الأمور إلى بعض القرى ، واحتراق فؤادى بذهاب بعض أولادى الذى تقر به عيني في ظلمات الأحزان والهموم ويسكن الله قلبي عند اضطرابه من هجوم الأشجان والغموم ، ثم وقوعنا في الداهية العظمى والفتنة الكبرى : أعنى موت السلطان ووقوع الاضطراب والوحشة بين أهل إيران . فاحمد الله على السراء والضراء والشدة والرخاء والعافية والبلاء ، ونسأله أن يكون ذلك آخر الرزايا والمصائب وخاتمة البلايا والنوائب ، وأن يصلح جميع أمور المسلمين بمحمد وآله سادات الخلق أجمعين .

1870

1871

1872

1873

1874

1875

1876

1877

1878

1879

1880

1881

1882

1883

1884

1885

1886

1887

1888

1889

1890

1891

1892

1893

1894

1895

1896

1897

1898

1899

1900

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذى خلق الانسان ، وجعله أفضل انواع الالكوان ، وصيره
نسخة لما أوجده من عوالم الامكان ، اظهر فيه عجائب قدرته القاهرة . وبرز
فيه غرائب عظمته الباهرة ، ربط به الناس باللاهوت ، وادع فيه حقائق
المملك والمملوكوت ، خمر طيبته من الظلمات والنور ، وركب فيه دواعى الخير
والشرور ، عجنه من المواد المتخالفة . وجمع فيه القوى والاصاف المتناقضة ،
ثم نذبه إلى تهذيبها بالتقويم والتعديل ، وحثه على تحسينها بعد ماسهل له
السييل ، والصلاة على نبينا الذى أوتى جوامع الحكم ، وبعث لتتميم محاسن
الاخلاق والشيم ، وعلى آله مصابيح الظلم ، ومفاتيح ابواب السعادة والكرم
صلى الله عليه وعليهم وسلم .

أما بعد فيقول طالب السعادة الحقيقية (مهدي بن ابى ذر التراقي)
بصّره الله بعيوب نفسه ، وجعل يومه خيراً من أمسه : إنه لا ريب فى ان
الغاية من وضع النواميس والاديان ، وبعثة المصطفين من عظام الانسان ، هو
سوق الناس من مراتع البهائم والشياطين ، وايصالهم إلى روضات العليين ،

وردعهم عن مشاركة أسراء ذل الناسوت، ومصاحبة قرناء جب الطاغوت إلى مجاورة سكان صقع الملكوت ، ومرافقة قطان قدس الجبروت ، ولا يتيسر ذلك إلا بالتخلي عن ذمائم الاخلاق ورذائلها ، والتخلي بشرائف الصفات وفضائلها . فيجب على كل عاقل ان يأخذ اهبتة ، ويبذل همته في تطهير قلبه عن اوساخ الطبيعة وارجاسها ، وتغسيل نفسه عن اقذار الجسمية وانجاسها قبل ان يقيه في بيداء الشقاق ، ويهوى في مهاوى الضلالة والهلاكة، ويصرف جده ويجهده في استخلاص نفسه عن لصوص القوى الامارة مادام الاختيار بيده ، إذ لا تنفعه الندامة والخسرة في غده .

ثم لا ريب في ان التزكية موقوفة على معرفة مملكات الصفات ومنجياتها ، والعلم بأسبابها ومعالجاتها ، وهذا هو الحكمة الحققة التي مدح الله اهلها ، ولم يرخص لاحد جعلها ، وهي الموجبة للحياة الحقيقية ، والسعادة السرمدية، والتارك لها على شفا جرف الهلكات، وربما احرقته نيران الشهوات. وقد كان السلف من الحكماء يبالغون في نشرها وتدوينها ، وجمعها وتبيينها ، على ما ادت اليه قوة انظارهم ، وادركوه بقراءتهم وافكارهم . ولما جاءت الشريعة النبوية ، على صانعها الف صلاة وتحية ، حثت على تحسين الاخلاق وتهذيبها ، وبيّنت دقائقها وتفصيلها بحيث اضمحل في جنبها ما قرره اساطين الحكمة والعرفان، وغيرهم من أهل الملل والاديان، إلا انه لما كان ماورد منها منتشراً في موارد مختلفة ، ومتفرقاً في مواضع متعددة ، تسر ان يحيط به الجلل فلا بد من ضبطه في موضع واحد ليسهل تناوله للكل، فجمعت في هذا الكتاب خلاصة ما ورد من الشريعة الحققة، مع زبدة ما أورده أهل العرفان والحكمة على نهج تقرّ به اعين الطالبين ، وتسر به افئدة الراغبين .

ونذكر أولاً بعض المقدمات النافعة في المطلوب ، ثم نشير الى اقسام

الاخلاق، ومبادئها من القوى ونضبطها باجناسها وانواعها ونتائجها وثمراتها، ثم إلى المعالجة الكلية لذمائم الاخلاق والجزئية لكل خلق مذموم : بما له اسم مشهور، وما ينشأ عنه من الافعال المذمومة، وفي تلوه نذكر ضده المحمود، وما يدل على فضله عقلا ونقلا، لأن العلم بفضيلة كل خلق والمداومة على آثاره أقوى علاج لازالة ضده، ولا تتابع القوم من تقديم الرذائل بأسرها على الفضائل، بل نذكر أولا ما يتعلق بالقوة العقلية من الفضائل والرذائل على النحو المذكور، ما يتعلق بالغضبية، ثم ما يتعلق بالشهوية، ثم ما يتعلق باثنتين منها أو ثلاث، لأن ذلك ادخل في ضبط الاخلاق، ومعرفة أضرارها، والعلم بمبادئها واجناسها، وهو من أهم الامور لطالبي هذا الفن.

وما تعرضت لتدبير المنزل وسياسة المدن، لأن غرضنا في هذا الكتاب انما هو مجرد اصلاح النفس، وتهذيب الاخلاق، وسميته « بجامع السعادات »، ورتبته على ثلاثة ابواب.

الباب الاول

في المقدمات

انقسام حقيقة الانسان وحالاته بالاعتبار - تجرد النفس وبقاؤها -
التذاذ النفس وتألمها - فضائل الاخلاق ورذائلها - الاخلاق الذميمة تحجب
عن المعارف - حصول الملكات بتضاعف الاعمال - العمل نفس الجزاء -
القول بتجسد الاعمال والملكات - المضادة بين الدنيا والآخرة - للجنة
والمزاج دخل في جودة الملكات ورداءتها - حقيقة الخلق وماهية الملائكة -
الاقوال في تبدل الاخلاق والملكات - شرف علم الاخلاق - تعريف النفس
واساميتها باختلاف الاعتبارات - في الاشارة الى اعتبار مدافعة القوى
الاربع - انقهار النفس بتسخير القوة العالية - اختلاف الصفات يوجب
اختلاف النفوس - ائتلاف حقيقة الانسان من الجهات المتقابلة - حقيقة
الخير والسعادة - والجمع بين الاقوال المختلفة فيها - شرائط حصول السعادة -
غاية ما يمكن الوصول اليه من السعادة - تقسيم اللذات والآلام - اللذة في
الحقيقة هي العقلية دون الحسية - ايقاظ فيه موعظة ونصيحة - التنبيه على ان
الفئات لا يتدارك .

فصل

(انقسام حقيقة الانسان وحالاته بالاعتبار)

اعلم ان الانسان منقسم إلى سر وعلن وروح وبدن ولكل منهما منافع وملازمات ، وآلام ولذات ، ومهلكات ومنجيات .
ومنافع البدن وآلامه هي الامراض الجسدية وملازماته هي الصحة والذات الجسدية . والمتكفل لبيان تفاصيل هذه الامراض ومعالجاتها هو علم الطب . ومنافع الروح وآلامه هي رذائل الاخلاق التي تهلكه وتشقيه ، وصحته رجوعه إلى فضائلها التي تسعده وتنجيّه وتوصله إلى مجاورة أهل الله ومقربيه . والمتكفل لبيان هذه الرذائل ومعالجاتها هو (علم الاخلاق)
ثم ان البدن مادي فان ، والروح مجرد باق ، فان اتصف بشرائف الصفات كان في البهجة والسعادة أبداً ، وان اتصف برذائلها كان في العذاب والشقاوة مخلداً ، ولا بد لنا من الاشارة إلى تجرده وبقائه بعد خراب البدن ترغيباً للطالبين على السعى في تركيته وحفظه عن الشقاوة الأبدية .

فصل

(في تجرد النفس وبقائها)

لا ريب في تجرد النفس وبقائها بعد مفارقتها عن البدن . أما الأول (والمراد به عدم كونها جسماً وجسمانية) فيدل عليه وجوه :
(منها) ان كل جسم لا يقبل صوراً واشكالاً كثيرة لزوال كل صورة أو شكل فيه بطريقتين ، والنفس تقبل الصور المتعددة المختلفة من المحسوسات والمعقولات من دون ان تزول الأولى بمرور الأخرى ، بل كلما قبلت صورة

ازدادت قوتها على قبول الأخرى ، ولذلك تزيد القوة على ادراك الأشياء بالرياضيات الفكرية وكثرة النظر ، فثبت عدم كونها جسماً .

و(منها) ان حصول الأبعاد الثلاثة للجسم لا يتصور إلا بان يصير طويلاً عريضاً عميقاً وحصول الألوان والطعوم والروائح له لا يتصور إلا بان يصير ذا لون وطعم ورائحة وهي تحصل للنفس وقوتها الوهمية بالادراك من غير ان تصير كذلك ، وإيضاً حصول بعضها للجسم يمنع من حصول مقابله له ، ولا يمنع ذلك في النفس بل تقبلها كلها في آن واحد على السواء .

و(منها) ان النفس تلتذ بما لا يلائم الجسم من الأمور الإلهية والمعارف الحقيقية ، ولا تميل إلى الذات الجسمية والخيالية والوهمية ، بل نحن أبدأ إلى الابتهاجات العقلية الصرفة التي ليس في الجسم وقواه فيها نصيب ، وهذا أوضح دليل على أنها غيرهما ، إذ لا ريب في ان ما يحصل لبعض النفوس الصافية عن شوائب الطبيعة من البهجة والسرور بادراك العلوم الحققة الكلية والذوات المجردة النورية القدسية ، وبالمناجاة والعبادات والمواظبة على الأذكار في الخلوات مع صفاء النيات لا مدخلية للجسم فيها وقواه الخيالية والوهمية وغيرهما ، إذ النفس قد تغفل في تلك الحالة عنها بالكلية ، وربما استغرقت بحيث لا تشعر بالبدن ولا تدري ان لها بدنأ فكأنها منخلعة عنه ، فهذا يدل على انها من عالم آخر غير عالم الجسم وقواه ، إذ التذاذهما منحصراً بالملائمات الجزئية التي تدركها الحواس الظاهرة والباطنة .

و(منها) ان النفس تدرك الصور الكلية المجردة فتكون محلاً لها ، ولا ريب في ان المادى يكون محلاً للمجرد اذ كل مادى ذو وضع قابل للانقسام ، وكون المحل ذا وضع قابل للانقسام يستلزم ان يكون حاله أيضاً كذلك كما ثبت في محله ، والمجرد لا يمكن كذلك وإلا خرج عن حقيقته ، فالنفس لا تكون

مادية واذا لم تكن مادية كانت مجردة لعدم الواسطة .

و(منها) ان القوى الجسمية الباطنية لا تكتسب العلوم إلا من طريق الحواس الظاهرة اذ ما لم يدرك الشيء بها لم تتمكن الحواس الباطنة ان تدركه وهذا وجداني وضروري . والنفس قد تدرك مالا طريق لشيء من الحواس إلى ادراكه كالأموال المجردة والمعاني البسيطة الكلية ، وأسباب الاتفاقات والاختلافات التي بين المحسوسات ، والضرورة العقلية قاضية بانه لا مدخلية لشيء من الحواس في إدراك شيء من ذلك .

وأيضاً تحكم بانه لا واسطة بين النقيضين ، وهذا الحكم غير مأخوذ من مبادئ حسية اذ لو كان مأخوذاً منها لم يكن قياساً أولياً ، فمثله مأخوذ من المبادئ الشريفة العالية التي تبنى عليها القياسات الصحيحة .

وأيضاً هي حاكمة على الحس في صدقه وكذبه وقد تخطئه في أفعاله وترد عليه أحكامه كتخطئه للبصر فيما يراه أصغر مما هو عليه في الواقع أو بالعكس، وفيما يراه مستديراً وهو مربع، أو مكسوراً وهو صحيح، أو معوجاً وهو مستقيم، أو منكوساً وهو منتصب، أو مختلفاً في وضعه الواقعي وفي رؤيته للأشياء المتحركة على الاستدارة كالحلقة والطوق ، وتخطئه للسمع فيما يدركه في المواضع الصعبة المستديرة عند الصدى ، وللذوق في ادراكه الحلو مرأ ومثله ، كذا الحال في الشم واللمس ، ولا ريب في ان تخطئه النفس الحواس في هذه الادراكات وحكمها بما هو المطابق للواقع انما يكون مسبوقاً بالعلم الذي لا يكون مأخوذاً من الحس ، لأن الحاكم على الشيء أعلى رتبة منه فلا يكون علمه الذي هو مناط الحكم مأخوذاً عنه .

وبما يؤكده ذلك انها عالمة بذاتها وبكونها مدركة لمعقولاتها . ومعلوم ان هذا العلم مأخوذ من جوهرها دون مبادئه آخر .

و(منها) انا نشاهد ان البدن وقواه يضعفان في افعالهما وآثارهما، والنفس تقوى في ادراكها وصفاتها ، كما في سن الكمولة ، أو يكونان قويين في الافعال مع كونها ضعيفة فيها كما في سن الشباب ، فلو كانت جسما أو جسمانية لكانت تابعة لهما في الضعف والقوة .

(فان قلت) الادراك وسائر الصفات الكالية للنفس يضعف أو يختل بضعف البدن أو اختلاله كما نشاهد في المشايخ والمرضى ونجدها ينافي ذلك . (قلنا) الضعف أو الاختلال انما يحدث في الادراك والافعال المتعلقة بالقوى الجسمية ، واما ما يحصل للنفس بجوهرها أو بواسطة القوى الجسمية بعد صيرورته ملكة لها يحصل فيه اختلال وضعف ، يصير ظموره أشد وتأثيره أقوى . وأما الثاني أعني بقاءها بعد المفارقة عن البدن فالدليل عليه بعد ثبوت تجردها ان المجرد لا يتطرق اليه الفساد لانه حقيقة والحقيقة لا تبديد كما صرح به المعلم الأول وغيره ، ووجهه ظاهر .

فصل

(بيان تلذذ النفس وتألمها)

اذا عرفت تجرد النفس وبقائها أبداً ، فاعلم انها اما ملتذذة متنعمة دائماً أو معذبة متألمة كذلك . والتذاذها يتوقف على كمالها الذي يخصها ، ولما كانت لها قوتان النظرية والعملية ، فكمال القوة النظرية الاحاطة بحقائق الموجودات بمراتبها والاطلاع على الجزئيات غير المتناهية بادراك كليتها . والترقى منه إلى معرفة المطلوب الحقيقي وغاية السكل حتى يصل إلى مقام التوحيد ويتخلص عن وساوس الشيطان ويطمئن قلبه بنور العرفان . وهذا الكمال هو الحكمة النظرية .

وكمال القوة العملية التخلي عن الصفات الردية والتحلي بالأخلاق المرضية ثم الترقى منه الى تطهير السر وتخليته عما سوى الله سبحانه . وهذا هو الحكمة العملية التي يشتمل هذا الكتاب على بيانها .

وكمال القوة النظرية بمنزلة الصورة وكمال القوة العملية بمنزلة المادة ، فلا يتم أحدهما بدون الآخر ، ومن حصل له الكمالان صار بانفراده عالماً صغيراً مشابهاً للعالم الكبير ، وهو الإنسان التام الكامل الذي نلألاً قلبه بانوار الشهود وبه تتم دائرة الوجود .

فصل

(في فضائل الأخلاق ورذائلها)

فضائل الأخلاق من المنجيات الموصلة الى السعادة الأبدية ، ورذائلها من المهلكات الموجبة للشقاوة السرمدية ، فالتخلي عن الثانية والتحلي بالأولى من أهم الواجبات والوصول الى الحياة الحقيقية بدونهما من المحالات ، فيجب على كل عاقل أن يجتهد في اكتساب فضائل الأخلاق التي هي الاوساط (١) المثبتة من صاحب الشريعة والاجتناب عن رذائلها التي هي الأطراف ، ولو قصر أدركته الهلاكة الأبدية ، إذ كما ان الجنين لو خرج عن طاعة ملك الأرحام المتوسط في الخلق لم يخرج الى دنيا سويماً سمياً بصيراً ناطقاً ، كذلك من خرج عن طاعة نبي الأحكام المتوسط في الخلق لم يخرج الى عالم الآخرة كذلك .

(١) اشارة الى ان الفضيلة وسط بين رذيلتين وقد دهمى الشارع الى تحصيل الوسط بقوله صلى الله عليه وآله وسلم : (خير الامور اواسطها) وسيأتي شرح المعنى من الوسط والعرفين .

وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا (١).

ثم ما لم تحصل التخلية لم تحصل التحلية ولم تستعد النفس للفيوضات القدسية ، كما ان المرأة ما لم تذهب السكندورات عنها لم تستعد لارتسام الصور فيها ، والبدن ما لم تزل عنه العلة لم تتصور له افاضة الصحة ، والثوب ما لم يُنقَى عن الاوساخ لم يقبل لوناً من الألوان ، فالمواظبة على الطاعات الظاهرة لا تنفع ما لم تتطهر النفس من الصفات المذمومة كالسكر والحسد والرياء ، وطلب الرياسة والعلى وإرادة السوء للأقران والشركاء ، وطلب الشهرة في البلاد وفي العباد ، وأى فائدة في تزيين الطواهر مع اهمال البواطن .

وَمَثَلُ مَنْ يَواظِبُ عَلَى الطاعات الظاهرة ويترك تفقد قلبه كثير الحش (٢) ظاهرها حص وباطنها نتن ، وكقبحور الموتى ظاهرها مزينة وباطنها جيفة ، أو كبيت مظلم وضع السراج على ظاهره فاستنار ظاهره وباطنه مظلم ، أو كرجل زرع زرعاً فنبت ونبت معه حشيش يفسده فامر بتنقية الزرع عن الحشيش بقلعه عن أصله فاخذ يجر رأسه ويقطعه فلا يزال يقوى أصله وينبت ، فان الأخلاق المذمومة في القلب هي مغارس المعاصي فمن لم يطهر قلبه منها لم تتم له الطاعات الظاهرة ، أو كمر يض به تجرب وقد أمر بالطلاء ليزيل ما على ظهره ويشرب الدواء ليقلع مادته من باطنه فقنع بالطلاء وترك الدواء متناولاً ما يزيد في المادة فلا يزال يطلى الظاهر والجرب يتفجر من المادة التي في الباطن .

(١) الامراء الآية ٧٢ .

(٢) الحش بالفتح أو الضم ثم التشديد والفتح أكثر من الضم : المخرج وموضع الحاجة وأصله من الحش بمعنى البستان ، لانهم كانوا يتنوطون في البساتين ، فلما اتخذوا السكين أطلقوا عليها الاسم مجازاً ، فالمراد هنا من بثر الحش خزانة السكين .

ثم إذا تخلت عن مساوى الأخلاق وتخلت بمعاليتها على الترتيب العلمى استعدت لقبول الفيض من رب الأرباب ، ولم يبق أشدة القرب بينهما حجاب ، فترسم فيها صور الموجودات على ما هى عليها ، على سبيل السكينة ، أى بحدودها ولوازمها الذاتية لامتناع إحاطتها بالجزئيات من حيث الجزئية ، لعدم تناهيها ، وإن علمت فى ضمن السكيات لعدم خروجها عنها ، وحينئذ يصير (١) موجوداً تاماً أبدي الوجود سرمدى البقاء ، فائزاً بالرتبة العليا ، والسعادة القصوى ، قابلاً للخلافة الإلهية ، والرئاسة المعنوية ، فيصل الى اللذات الحقيقية ، والإبتهاجات العقلية التى ما رأتها عيون الاعيان ، ولم تتصورها عوالى الأذهان .

فصل

(الأخلاق الذميمة تحجب عن المعارف)

الأخلاق المذمومة هى الحجب المانعة عن المعارف الإلهية ، والنفحات القدسية إذ هى بمنزلة الغطاء للنفوس فإلم يرتفع عنها لم تتضح لها جليلة الحال اتضاحاً ، كيف والقلوب كالأواني فاذا كانت مملوءة بالماء لا يدخلها الهواء ، فالقلوب المشغولة بغير الله لا تدخلها معرفة الله وحبه وانسه ، وإلى ذلك أشار النبی صلى الله عليه وآله وسلم بقوله : « لولا ان الشياطين يحرمون الى قلوب بنى آدم لنظروا الى ملكوت السموات والأرض ، فبقدر ما تتطهر القلوب عن هذه الخبائث تتحاذى شطر الحق الأول (٢) وتلاّ فيها حقائقه

(١) نذكر الضمير باعتبار ارادة الانسان لانه صاحب النفس بل هو هو .

(٢) المراد من الحق الأول عو الله تبارك وتعالى فسبحا ان ان الحق صفة له كذلك

الأول فهو صفة بعد صفة .

كما أشار إليه النبي صلى الله عليه وآله : « ان لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها ، فان التعرض لها إنما هو بتطهير القلوب عن السكدورات الحاصلة عن الأخلاق الرديئة (١) فكل اقبال على طاعة واعراض عن سيئة يوجب جلاء ونوراً للقلب يستعد به لافاضة علم يقيني ، ولذا قال سبحانه :

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) (٢)

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم ، فالقلب اذا صفي عن السكدورات الطبيعية بالسككية يظهر له من المزايا الإلهية والافاضات الرحمانية ما لا يمكن لاعظم العلماء كما قال سيد الرسل : « إن لي مع الله حالات لا يحتملها ملك مقرب ولا نبي مرسل ، .

وكل سالك الى الله إنما يعرف من الالطاف الإلهية والنفحات الغيبية ما ظهر له على قدر استعدادده ، وأما ما فوقه فلا يحيط بحقيقته علماً لكن قد يصدق به إيماناً بالغيب كما انا نؤمن بالنبوة وخواصها ونصدق بوجودهما ولا نعرف حقيقتيهما كما لا يعرف الجنين حال الطفل والطفل حال المميز والمميز من العوام حال العناء والعناء حال الأنبياء والأولياء .

فالرحمة الإلهية بحكم العناية الأزلية مبذولة على السكل غير مضمون بها على أحد ، لكن حصولها ووقوف على تصديق مرآة القلب وتصفيتها عن الخبائث الطبيعية ، ومع تراكم صدأها الحاصل منها لا يمكن أن يتجلى فيها شيء من الحقائق ، فلا تحجب الأنوار العلية والأسرار الربوبية عن قلب من القلوب لبخل من جهة المنعم تعالى شأنه عن ذلك ، بل الإحتجاب إنما هو من جهة القلب لسكدورته وخبثه واشتغاله بما يضاد ذلك .

(١) المراد من النفحات هي الافاضات المعنوية لا السمات كما وردت بالمعنى الثاني في بعض الأخبار .

(٢) المنكبات الآية : ٦٩ .

ثم ما يظهر للقلب من العلوم لطهارته وصفاء جوهره هو العلم الحقيقي النوراني الذي لا يقبل الشك وله غاية الظهور والإنجلاء لاستفادته من الأنوار الإلهية والإلهامات الحققة الربانية ، وهو المراد بقوله ﷺ : « إنما هو نور يقذفه الله في قلب من يشاء ، واليه أشار مولانا أمير المؤمنين ﷺ بقوله : « ان من أحب عباد الله اليه عبداً أعانته الله على نفسه فاستشعر الحزن وتجلبب الخوف فزهر مصباح الهدى في قلبه ، (الى أن قال) : « قد خلع سراويل الشهوات ، وتخلّى من الهوم إلاهما واحداً انفرد به ، فخرج من صفة العمى ومشاركة أهل الهوى ، وصار من مفاتيح ابواب الهدى ومغاليق ابواب الردى ، قد ابصر طريقه وسلك سبيله وعرف مناره ، وقطع غماره (١) ، واستمسك من العرى باوثقها ومن الجبال بأمتنها فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس ، وفي كلام آخر له ﷺ : « قد أحبي قلبه وأمات نفسه ، حتى دُقّ جليله (٢) ولطف غليظه ، وبرق له لامع كثير البرق ، فابان له الطريق وسلك به السبيل ، وتدافعت الأبواب الى باب السلامة ودار الإقامة ، وثبت رجلاه لطمانينة بدنه في قرار الأمن والراحة بما استعمل قلبه وأرضى ربه ، .

وقال ﷺ في وصف الراسخين من العلماء : « هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة وباشروا روح اليقين واستلانوا ما استوعره المترفون وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الاعلى ، وبالجملة ما لم يحصل للقلب التزكية لم يحصل له هذا القسم من المعرفة إذ

(١) غموة الشيء شدته ومزدحمته جمه غمرات وغمار وغمر ومنه غمرات الموت أى مكارهه وشدائده .

(٢) الجليل : الكبير في الحجم .

العلم الحقيقي عبادة القلب وقربة السر ، وكما لا تصح الصلاة التي هي عبادة الظاهر إلا بعد تطهيره من النجاسة الظاهرة فكذلك لا تصح عبادة الباطن إلا بعد تطهيره من النجاسة الباطنية التي هي رذائل الأخلاق وخبائث الصفات ، كيف وفيضان انوار العلوم على القلوب إنما هو بواسطة الملائكة وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ، فإذا كان بيت القلب مشحوناً بالصفات الخبيثة التي هي كلاب ناجية لم تدخل فيه الملائكة القادسة والحكم بثبوت النجاسة الظاهرة المبشرك ، مع كونه مغسول الثوب نظيف البدن ، إنما هو لسراية نجاسته الباطنية فقوله صلى الله عليه وآله وسلم « بنى الدين على النظافة ، يتناول زوال النجاستين . وما ورد من أن الطهور نصف الإيمان المراد به طهارة الباطن عن خبائث الأخلاق ، وكان النصف الآخر تحليته بشرائف الصفات وعمارته بوظائف الطاعات .

وبما ذكر ظهر أن العلم الذي يحصل من طريق المجادلات الكلامية والاستدلالات الفكرية ، من دون تصقيل لجوهر النفس ، لا يخلو عن الكدرة والظلمة ، ولا يستحق اسم اليقين الحقيقي الذي يحصل للنفوس الصافية ، فما يظنه كثير من أهل التعلق بقاذورات الدنيا أنهم على حقيقة اليقين في معرفة الله سبحانه خلاف الواقع ، لأن اليقين الحقيقي يلزمه «روح» (١) ونور وبهجة وسرور ، وعدم الالتفات إلى ما سوى الله ، والاستغراق في بحر عظمة الله ، وليس شيء من ذلك حاصلًا لهم ، فما ظنوه يقيناً إما تصديق مشوب بالشبهة ، أو اعتقاد جازم لم تحصل له نورانية وجلالة وظهور وضياء ، لسكدة قلوبهم الحاملة من خبائث الصفات .

(١) هذه الكلمة غير موجودة في نسختنا الخطية . لكنها موجودة في نسخة خطية أخرى

والسر في ذلك ان منشأ العلم ومناطه هو التجرد كما بين في مقامه ، فكلما ازداد النفس تجرداً ازداد ايماناً و يقيناً ، ولا ريب في انه ما لم ترتفع عنها أستار السيئات وحجب الخطيئات لم يحصل لها التجرد الذي هو مناط حقيقة اليقين فلا بد من المجاهدة العظيمة في التزكية والتحلية حتى تنفتح ابواب الهداية وتتضح سبل المعرفة كما قال سبحانه :

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) (١).

فصل

(ان العمل نفس الجزاء)

كل نفس في بدء الخلقة خالية عن المملكات باسرها ، وإنما تتحقق كل ملكة بتكرار الافاعيل والآثار الخاصة به (٢) بيان ذلك أن كل قول أو فعل ما دام وجوده في الأكوان الحسية لاحظ له من الثبات لان الدنيا دار التجدد والزوال ، ولكنه يحصل منه أثر في النفس ، فاذا تكرر استحکم الأثر فصار ملكة راسخة مثاله الحرارة التي تحدث في الفحم فانها ضعيفة أولاً واذا اشتدت تجمرت ثم استضاءت ، ثم صارت صورة نارية محرقة لما قارنها مضئة لما قابلها ، وكذلك الأحوال النفسانية اذا تضاعفت قوتها صارت مملكات راسخة وصوراً باطنة تكون مبادئ الآثار المختصة بها ، فالنفوس الانسانية في أوائل الفطرة كصحائف خالية من النقوش والصور تقبل كل خلق بسهولة ، واذا استحکمت فيها الأخلاق تعسر قبولها لاضدادها ، ولذلك

(١) العنكبوت الآية : ٦٩ .

(٢) هكذا وجدت في النسخة المطبوعة واستغنتا الحظية والاصح « بها » وان كانت

الكلمة غير موجودة في نسخة خطية اخرى

سهل تعليم الاطفال وتاديبهم وتنقيش نفوسهم بكل صورة وصفة ويتعسر
أو يتعذر تعليم الرجال البالغين وردهم عن الصفات الحاصلة لهم لاستحكامها
ورسوخها .

ثم لا خلاف في أن هذه الملكات وافعالها اللازمة لها إن كانت فاضلة
كانت موجبة للالتذاذ والبهجة ومرافقة الملائكة والاخيار ، وإن كانت
ردية كانت مقتضية للالم والعذاب ومصاحبة الشياطين والاشرار ، وإنما
الخلاف في كيفية ايجابها للثواب أو العذاب ، فمن قال ان الجزاء مغاير للعمل
قال ان كل ملكة وفعل يصير منشأ لترتب ثواب أو عقاب مغاير له بفعل الله
سبحانه على التفصيل الوارد في الشريعة .

ومن قال ان العمل نفس الجزاء قال ان الهيئات النفسانية اشتدت
وصارت ملكة تصير متمثلة ومتصورة في عالم الباطن والملسكوت بصورة
يناسبها ، إذ كل شئ يظهر في كل عالم بصورة خاصة ، فان العلم في عالم اليقظة
امر عرضي يدرك بالعقل أو الوهم وفي عالم النوم يظهر بصورة اللب ، فالظاهر
في العالمين شئ واحد وهو العلم لسكونه تجلى في كل عالم بصورة ، والسرور يظهر
في عالم النوم بصورة البكاء ، ومنه يظهر انه قد يسرك في عالم ما يسوءك في
عالم آخر ، فاللذات الجسمانية التي تسرك في هذا العالم تظهر في دار الجزاء
بصورة تسوءك وتؤذيك ، وتركها وتحمل مشاق العبادات والطاعات والصبر
على المصائب والبليات يسرك في عالم الآخرة مع كونها مؤذية في هذا العالم .

ثم القائل بهذا المذهب قد يطلق على هذه الصورة اسم الملك ان كانت
من فضائل الاخلاق أو فواضل الاعمال واسم الشيطان ان كانت من اضدادها
وقد يطلق على الاولى اسم الغلبان والخور وأمثالهما ، وعلى الثانية اسم الحيات
والعقارب واشباههما ، ولا فرق بين الاطلاقين في المعنى . وإنما الاختلاف
في الاسم .

وهذا المذهب يرجع الى القول بتجسد الأعمال بصورة مأنوسة مفترجة أو صورة موحشة معذبة ، وقد ورد بذلك أخبار كثيرة منها : ما روى أصحابنا عن قيس بن عاصم عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال : يا قيس ، إن مع العز ذلاً ومع الحياة موتاً ومع الدنيا آخرة ، وإن لكل شئ رقيباً وعلى كل شئ حسيباً ، وإن لكل أجل كتاباً ، وإنه لا بد لك من قرين يدفن معك وهو حي وتدفن معه وأنت ميت ، فإن كان كريماً أكرمك ، وإن كان لثيماً ألامك ، ثم لا يحشر إلا معك ولا تحشر إلا معه ولا تسأل إلا عنه ، فلا تجعله إلا صالحاً : فإنه إن صلح أنست به وإن فسد لا تستوحش إلا منه وهو فعلك . . ومنها : ما استفاض من قولهم عليهم السلام ، أن من فعل كذا خلق الله تعالى ملكاً يستغفر له الى يوم القيامة . . ومنها : ما ورد ، أن الجنة قيعان وغراسها سبحان الله . : ومنها ما روى ، أن الكافر خالق من ذنب المؤمن ، ومنها : قولهم ، المرء مرهون بعمله . . ومنها قوله صلى الله عليه وآله وسلم : الذي يشرب في آنية الذهب والفضة إنما يجرى في بطنه نار جهنم ، ويدل عليه قوله سبحانه :

(وَإِنْ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ) (١).

وربما كان في قوله تعالى :

(وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (٢) وقوله تعالى :

(إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (٣).

إشارة اليه حيث قال عز وجل (ما كنتم) ولم يقل بما كنتم .

(١) النوبة الآية : ٤٩

(٢) يس الآية : ٥٤

(٣) الطور الآية : ١٦

وقال : فيثاغورس الحكيم ، ستعارض لك في أفعالك وأقوالك وأفكارك (١) وسيظهر لك من كل حركة فكرية أو قولية أو عملية صورة روحانية ، فإن كانت الحركة غضبية أو شهوية صارت مادة لشيطان يؤذيك في حياتك ويحببك عن ملاقاته النور بعد وفاتك ، وإن كانت الحركة عقلية صارت ملكا تلتذ بمنادمته في دنياك وتهتدى به في أخراك الى جوار الله وكرامته ، انتهى .

وهذه الكلمات صريحة في أن مواد الأشخاص الآخروية هي التصورات الباطنية والنيات القلبية والملكات النفسية المتصورة بصور روحانية وجودها وجود إدراكي ، والإنسان إذا انقطع تعلقه عن هذه الدار وحان وقت مسافرتة الى دار القرار وخلص عن شواغل الدنيا الدنية وكشف عن بصره غشاوة الطبيعة ، فوقع بصره على وجه ذاته والتفت الى صفحة باطنه وصحيفة نفسه ولوح قلبه وهو المراد بقوله سبحانه :

(وَإِذَا الضُّحَىٰ نُشِرَتْ) (٢) وقوله تعالى : (فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ) (٣) صار إدراكه فعلاً وعلمه عيناً وسره عياناً ، فيشاهد ثمرات أفكاره وأعماله ، ويرى نتائج انظاره وأفعاله ويطلع على جزاء حسناته وسيئاته ، ويحضر عنده جميع حركاته وسكناته ، ويدرك حقيقة قوله سبحانه :

وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِّزَمَانِهِ طَائِرَةٌ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ

(١) هكذا وجدنا العبارة في النسخة الخطية والطبوعة ولا يخفى ما فيها من الاجمال .

(٢) في الآية ٢٢

(٣) التكويد الآية ١٠

الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١).

فمن كان في غفلة عن أحوال نفسه ومضيعة لساعات يومه وأمهه يقول :
(ما لهذا الكتاب لا يُغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها
وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) (٢) (يَوْمَ
تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ
سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَيَنِّي أَمَدًا بَعِيدًا) (٣).

وقد أيد هذا المذهب أعني صيرورة الملكات صوراً روحانية باقية
أبد الدهر موجبة للجنة والالتذاذ والتوحش والتألم ، بانه لو لم تكن تلك
الملكات والنيات باقية ابدآ لم يكون للخلود في الجنة أو النار وجه صحيح ،
إذ لو كان المقتضى للثواب أو العذاب نفس العمل والقول ، وهما زائلان لزوم بقاء
المسبب مع زوال السبب وهو باطل ، وكيف يجوز للحكيم أن يعذب عباده أبد
الدهر لأجل المعصية في زمان قصير ، فإذا منشأ الخلود هو الثبات في النيات
والرسوخ في الملكات ، ومع ذلك فمن يعمل مثقال ذرة من الخير أو الشر
يرى أثره في صحيفة نفسه أو في صحيفة أعلى وأرفع من ذاته أبدأ كما قال سبحانه :
(فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي
سَفَرَةٍ) (٤).

والسرفيه أن الأمر الذي يبقى مع النفس الى حين مفارقتها من الدنيا
ولم يرتفع عنها في دار التكليف يبقى معها أبدأ ولا يرتفع عنها أصلاً لعدم

(٢) الكهف الآية ٤٩

(١) الاسراء الآية ١٣ - ١٤

(٤) عبس الآية ١٣ - ١٥

(٣) آل عمران الآية ٣٠

تجدد ما يوجب إزالته بعد مفارقتة عن عالم التكليف .

ثم الظاهر ان هذا المذهب - عند من قال به من أهل الشرائع - بيان
لكيفية الثواب والعقاب الروحانيين مع اذعانه بالجنة والنار الجسمانيين ، إذ
لو كان مراده قصر اللذة والثواب والألم والعقاب والجنات والقصور والغلمان
والخمر والنار والجحيم والزقوم والضريع وسائر ما ورد في الشريعة
القادسة من أمور القيامة على ما ذكر فهو مخالف لضرورة الدين .

(تنبيه) الدنيا والآخرة متضادتان ، وكل ما يقرب العبد الى
احدهما يبعد عن الأخرى وبالعكس ، كما دلت عليه البراهين الحكيمة والشواهد
الدوقية والأدلة السمعية ، فكل ملسكة أو حركة أو قول أو فعل يقرب العبد
الى دار الطبيعة والغرور يبعده عن عالم البهجة والسرور ، وبالعكس ، فأسوأ
الناس حالاً من لم يعرف حقيقة الدنيا والآخرة وتضادهما ولم يخف سوء
العاقبة وأفنى عمره في طلب الدنيا واصلاح أمر المعاش وقصر سعيه على جر
المنفعة لبدنه من نيل شهوة أو بلوغ لذة أو اكتساب ترفع ، ورئاسة أو جمع
المال من غير تصور لما يصل اليه من فائده ، كما هو عادة أكثر أبناء الدنيا ،
ولم يعرف غير هذه الأمور من المعارف الحقيقية والفضائل الخلقية والأعمال
الصالحة المقربة الى عالم البقاء فكأنه يعلم خلوده في الدنيا ، ولا يرجو بعد الموت
ثواب عمل ، ولا جزاء فعل ، ولا يعتقد بما يرجوه المؤمنون ويؤمله المتقون
من الخير الدائم ، واللذات المخالفة لهذه اللذات الفانية التي يشارك فيها السباع
والبهائم ، فاذا أدرك الموت مات على حسرة وندامة آيساً من رحمة الله قائلاً :

(يَا حَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ) (١) .

أعاذنا الله تعالى من سوء الخاتمة ووفقنا لتحصيل السعادة الدائمة .

فصل

تأثير المزاج على الاخلاق

للمزاج مدخلة تامة في الصفات : فبعض الامزجة في أصل الخلقة مستعد لبعض الاخلاق ، وبعضها مقتض للخلافة ، فانا نقطع بان بعض الاشخاص بحسب جبلته ، ولو خلى عن الاسباب الخارجية ، بحيث يغضب ويخاف ويحزن بادنى سبب ، ويضحك بادنى تعجب ، وبعضهم بخلاف ذلك . وقد يكون اعتدال القوى فطرياً بحيث يبلغ الانسان كامل العقل ، فاضل الاخلاق غالبه قوته العاقلة على قوتي الغضب والشهوة ، كما في الانبياء والائمة عليهم السلام . وقد يكون مجاوزتها عن الوسط كذلك بحيث يبلغ ناقص العقل ردى الصفات مغلوطة عاقلته تحت سلطان الغضب والشهوة ، كما في بعض الناس . إلا أن الحق - كما يأتي - امكان زوالها بالمعالجات المقررة في علم الاخلاق ، فيجب السعى في إزالة نقائصها وتحصيل فضائلها . وعجبا لأقوام يبالغون في إعادة الصحة الجسمية الفانية ، ولا يهتمون في تحصيل الصحة الروحية الباقية ، يطيعون قول الطبيب المجوسى في شرب الاشياء السكرية ومزاولة الأعمال القبيحة ، لأجل صحة زائلة ، ولا يطيعون امر الطبيب الإلهي لتحصيل السعادة الدائمة .

وبقاء النفس على النقصان إما لعدم صرفها الى طلب المقصود لملازمة العوائق والموانع ، أو مزاولة النقيض لتمكن موجبة ، أو لكثرة اشتغالها بالشواغل المحسوسة ، أو لضعف القوة العاقلة ، فان لم تدركها العناية الإلهية فلا يزال يتزايد النقصان ويبعد عن الكمال الذى خلق لأجله ، الى ان تدركها الهلاكة الأبدية والشقاوة السرمدية ، نعوذ بالله من ذلك ، وإن أدركته

الرحمة الأزلية ، فيصرف همه في ازالة النقائص ، واكتساب الفضائل ، فلا يزال يتصاعد من مرتبة من السكال الى فوقها ، حتى يصير من أهل مشاهدة الجلال والجمال ، ويتشرف بجوار الرب ، المتعال ويصل الى السرور الحقيقي ، الذى لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، والى قرّة الاعين التى يشير اليها فى قوله سبحانه :

(فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ) (١) .

فصل

تأثير التربية على الأخلاق

الخلق عبارة عن ملكة للنفس مقتضية لصدور الأفعال بسهولة من دون احتياج الى فكر وروية ، والملسكة : كيفية نفسانية بطيئة الزوال . وبالقيّد الاخير خرج الحال لأنها كيفية نفسانية سريعة الزوال ، وسبب وجود الخلق إما المزاج كما مر ، أو العادة بان يفعل فعلاً بالروية ، أو التكلف ويصير عليه الى أن يصير ملكة له (٢) ويصدر عنه بسهولة وان كان مخالفاً لمقتضى المزاج .

واختلف الأوائل فى امكان ازالة الأخلاق وعدمه ، وثالث الأقوال أن بعضها طبعى يمتنع زواله وبعضها غير طبعى حاصل من اسباب خارجة يمكن زواله . ورجح المتأخرون الأول وقالوا : ليس شئ من الأخلاق طبعياً ولا مخالفاً للطبيعة ، بل النفس بالنظر الى ذاتها قابلة للاتصاف بكل من طرفي التضاد ، إما بسهولة ان كان موافقاً للمزاج ، أو بعسر ان كان مخالفاً له ،

(١) السجدة الآية ١٧ .

(٢) ما بين القوس في الموضع غير موجود في نسختنا الخطية لكنه موجود في نسخة خطية

اخرى وفي المطبوعة .

فاختلاف الناس في الاخلاق لاختلافهم في الاختيار والمزاولة لاسباب خارجة .

(حجة القول الاول) أن كل خلق قابل للتغيير وكل قابل للتغيير ليس طبعياً فينتج لا شيء من الخلق بطبعي والكبرى بديهية ، والصغرى وجدانية ، فانا نجد أن الشرير يصير بمصاحبة الخير خيراً ، والخير بمجالسته الشرير شراً . ونرى أن التأديب في السياسات ، فيه أثر عظيم في زوال الاخلاق ، ولولاه لم يكن لقوة الروية فائدة وبطلت التأديبات والسياسات ولغت الشرائع والديانات ، ولما قال الله سبحانه : (قد أفلح من زكاها) (٢) ، ولما قال النبي صلى الله عليه وآله : حسنوا اخلاقكم ، ولما قال : بعثت لأتمم مكارم الاخلاق .

ورد : بمنع كاية الصغرى فانا نشاهد ان بعض الاخلاق في بعض الأشخاص غير قابل للتبديل (لا) سيما ما يتعلق بالقوة النظرية ، كالحدس والتحفظ ، وجودة الذهن ، وحسن التعقل ، ومقابلاتها كما هو معلوم من حال بعض الطلبة ، فانه لا ينجح سعيهم في التبديل مع مباغتتهم في المجاهدة .

وما قيل : من لزوم تعطل القوة المميزة وبطلان التأديب والسياسات مردود : بان هذا اللزوم إذا لم يكن شيء من الاخلاق قابلاً للتغيير ، وأما مع قبول بعضها أو أكثرها له فلا يلزم شيء مما ذكر ، ولو كان عدم قبول بعض الاخلاق للتغيير موجباً لبطلان علم الشرائع والاخلاق لكان عدم قبول بعض الأمراض للصحة مقتضياً لبطلان علم الطب ، مع انا نعلم بديهية ان بعض الأمراض لا يقبل العلاج .

(١) ما بين القوس في الموضعين غير موجود في نسختنا الخطية لكنه موجود في نسخة خطية

(٢) الشمس الآية : ٩

اخرى وفي المطبوعة .

(وحجة القول الثاني) ان الاخلاق باسرها تابعة للمزاج ، والمزاج لا يتبدل ، واختلاف مزاج شخص واحد في مراتب سنة لا ينافي ذلك ، لجواز تابعيتها لجميع مراتب عرض المزاج ، وأيد ذلك بقوله ﷺ :

(الناس معادن كعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام) وبقوله ﷺ : (اذا سمعتم ان جبلا زال عن مكانه فصدقوه ، واذا سمعتم برجل زال عن خلقه فلا تصدقوه ، فانه سيعود الى ما جبل عليه) .

و (الجواب) ان توابع المزاج من مقتضيات التي يمكن زوالها لا من اللوازم التي يمتنع انفكاكها ، لما ثبت في الحكمة من أن النفوس الانسانية متفقة في الحقيقة ، وفي بدو فطرتها خالية عن جميع الاخلاق والاحوال كما هو شأن العقل الهولائي . ثم ما يحصل لها منها أما من مقتضيات الاختيار والعادة أو استعدادات الأبدان والأمزجة ، والمقتضى ما يمكن زواله كالبرودة للماء ، لا ما يمتنع انفكاكه كالزوجية الأربعة . والخبر الأول لا يفيد المطلوب بوجه . والثاني مع عدم ثبوته عند ما يدل على خلاف مطلوبهم ، لان قوله : (سيعود الى ما جبل عليه) يفيد امكان ازالة الخلق بالاسباب الخارجية من التأديب والنصائح وغيرهما ، وبعد إزالته بها يعود بارتفاعها كبرودة الماء التي تزول ببعض الأسباب وتعود بعد زوال السبب ، فلو دام على حفظ الأسباب وابقائها لم يحصل العود أصلا .

وإذ ثبت بطلان القولين الأولين فالحق القول بالتفصيل ، يعني قبول بعض الاخلاق بل أكثرها بالنسبة الى الأكثر التبديل للحس والعيان ، وبطلان السياسات والشرائع لولاه ولا مكان تغير خلق البهائم ، إذ ينتقل الصيد من التوحش الى الأنس والفرس من الجماع الى الانقياد والكلب من الهراسة الى التأديب ، فكيف لا يمكن في حق الانسان ، وعدم قبول بعضها بالنسبة الى

البعض له ، للمشاهدة والتجربة ، وهذا البعض مما لا يكون متعلق التكليف كالأخلاق المتعلقة بالقوة العقلية من الذكاء والحفظ وحسن التعقل وغيرها . والتصفح يعطى اختلاف الأشخاص والأخلاق في الازالة والاتصاف بالزند بالامكان والتعذر والسهولة والتعسر وبالتقليل والرفع بالمرة ، ولذا لو تصفحت أشخاص العالم لم تجد شخصين متشابهين في جميع الأخلاق ، كما لا تجد اثنين متماثلين في الصورة . ويشير الى ذلك قوله صلى الله عليه وآله : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » .

وقال ارسطاطاليس : « يمكن صيرورة الاشرار اختياراً بالتأديب إلا أن هذا ليس كلياً ، فانه ربما أثر في بعضهم بالزوال وفي بعضهم بالتقليل وربما لم يؤثر أصلاً » .

ثم المراد من التغيير ليس رفع الغضب والشهوة مثلاً واماطتهما بالسكينة فان ذلك محال لانهما مخلوقتان لفائدة ضرورية في الجبلة ، إذ لو انقطع الغضب عن الانسان بالسكينة لم يدفع عن نفسه ما يهلكه ويؤذيه وامتنع جهاد الكفار ، ولو انعدم عنه شهوة الطعام لم تبق حياته ، ولو بطل عنه شهوة الوقاع بالمرءة لصاع النسل ، بل المراد ردهما من الافراط والتفريط الى الوسط فالمطلوب في صفة الغضب خلو النفس عن الجبن والتهور ، والاتصاف بحس الحمية ، وهو ان يحصل إذا استحسن حصوله شرعاً وعقلاً ، ولا يحصل إذا استحسن عدمه كذلك . وكذا الحال في صفة الشهوة .

ولا ريب في أن رد بعض الموجودات الناقصة من القوى وغيرها إذا وجدت فيه قوة السكينة الى كماله ممكن إذا كان له شرط يرتبط باختيار العبد ، فكما أن النواة يمكن أن تصير نخلاً بالتربية ، لوجود قوة النخلة فيه ، وتوقف فعليتها على شرط التربية التي بيد العبد ، فكذلك يمكن تعديل قوى الغضب

والشهوة بالرياضة والمجاهدة ، لوجود قوة التعديل فيهما ، وتوقف فعليتهما على شرط ارتباط باختيار العبد أعنى الرياضة والمجاهدة . وإن لم يمكن لنا قلعهما بالكلية ، كما لا يمكن لنا اعدام شئ من الموجودات ، ولا إيجاد شئ من المعدومات .

ثم شرائط الرد تختلف بالنسبة الى الأشخاص والأخلاق ، ولذا ترى ان التبديل يختلف باختلاف مراتب السياسات والتأديب ، فيمكن ان لا يرتفع مذموم خلق بمرتبة من التأديب ، ويرتفع بمرتبة منه فوقها ، والاسهل قبول اسكل خلق الاطفال لخلو نفوسهم عن الاضداد المانعة من القبول ، فيجب على الآباء تأديبهم بالآداب الجميلة ، وصونهم عن ارتكاب الأعمال القبيحة ، حتى تعتاد نفوسهم بترك الرذائل ، وارتكاب الفضائل ، والمؤدب الاول هو الناموس الإلهي ، والثاني اولو الأذهان القويمة من أهل المعارف الحققة ، فيجب تقييد من يراد تأديبه بالنواميس الربانية أولا ، وتنبيهه بالحكم والمواعظ ثانياً .

فصل

شرف علم الاخلاق لشرف موضوعه وغايته

لما عرفت أن الحياة الحقيقية للانسان تتوقف على تهذيب الاخلاق الممكن بالمعالجات المقررة في هذه الصناعة ، تعرف انها أشرف العلوم وانفعها لان شرف كل علم انما هو بشرف موضوعه أو غايته ، فشرف صناعة الطب على صناعة الدباغة بقدر شرف بدن الانسان واصلاحه على جلود البهائم ، وموضوع هذا العلم هو النفس الناطقة التي هي حقيقة الانسان ولبته ، وهو أشرف الأنواع الكونية كما برهن عليه في العلوم العقلية ، وغايته اكمال

وإيصاله من أول افق الانسان الى آخره ، ولسكونه ذا عرض عريض متصلا
أوله بأفق البهائم وآخره بأفق الملائكة ، لا يكاد أن يوجد التفاوت الذي
بين اشخاص هذا النوع في افراد سائر الأنواع ، فان فيه أحسن الموجودات
ومنه اشرف الكائنات كما قيل :

ولم أرَ أمثال الرجال تفاوتت لدى المجد حتى 'عد' ألف بواحد
وبالفارسية :

ای نقد اصل وفرع ندانم چه گوهری کز آسمان بلندتر واز خاک کمتر
والى ذلك التفاوت يشير قول سيد الرسل صلى الله عليه وآله وسلم :
« إِنِّي وَزَنْتُ بِأَمْتِي فَرَجَحْتُ بِهِمْ ، وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّ هَذَا التَّفَاوُتَ لِأَجْلِ
الْإِخْتِلَافِ فِي الْأَخْلَاقِ وَالصِّفَاتِ ، لِاشْتِرَاكِ السَّكَلِ فِي الْجَسْمِيَّةِ وَلَوْ أَحَقَّهَا .
وهذا العلم هو الباعث للوصول الى أعلى مراتبها ، وبه تتم الانسانية ،
ويعرج من حضيض البهيمية الى ذرى الرتب الملكية ، وأى صناعة أشرف
مما يوصل أحسن الموجودات الى أشرفها ، ولذلك كان السلف من الحكماء
لا يطلقون العلم حقيقة إلا عليه ، ويسمونه بالاكسير الأعظم ، وكان أول
تعاليمهم ، وبيالغون في تدوينه وتعليمه ، والبحث عن اجماله وتفصيله ،
ويعتقدون ان المتعلم ما لم يهذب أخلاقه لا تنفعه سائر العلوم .

وكما أن البدن الذى ليس بالنقى كلما غذوته فقد زدته شراً ، فكذلك
النفس التى ليست نقية عن ذمائم الأخلاق لا يزيده تعلم العلوم إلا فساداً .
ولذا ترى أكثر المتشبهين بزي العلماء اسوأ حالاً من العوام مائلين عن
وظائف الايمان والاسلام ، إما لشدة حرصهم على جمع المال ، غافلين عن
حقيقة المآل ، أو لغلبة حبهم الجاه والمنصب ، ظناً منهم انه ترويح للدين
والمذهب ، أو لوقوعهم فى الضلالة والخيرة لكثرة الشك والشبهة ،

أو لشوقهم الى المراء والجدال في اندية الرجال ، اظهرا لتفوقهم على الأقران
والأمثال ، أو لاطلاق أسفتهم على الآباء المعنوية من أكابر العلماء وأعظم
الحكام ، ولعدم تعبدهم برسوم الشرع والملة ، ظناً منهم أنه مقتضى قواعد
الحكمة ، ولم يعلموا أن الحكمة الحقيقية ما أعطته النواميس الإلهية والشرائع
النبوية ، فكأنهم لم يعلموا أن العلم بدون العمل ضلال ، ولم يتفطنوا قول
نبيهم صلى الله عليه وآله وسلم : « قسم ظهري رجلاً ، عالم مهتاك ، وجاهل
متنكس ، ولم يتذكروا قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « البلاهة أدنى الى
الاخلاص من فطانة بترآء ، وكل ذلك ليس إلا لعدم سعيهم في تهذيب
الأخلاق وتحسينها وعدم الامتثال لقوله سبحانه :

وَأَتُوا السُّبُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا (١) .

فصل

(النفس واسماؤها وقواها الأربع)

ما عرفت من تجرد النفس انما هو التجرد في الذات دون الفعل
لافتقارها فعلاً الى الجسم والآلة ، فخذها أنها جوهر ملسكوتي يستخدم البدن
في حاجاته ، وهو حقيقة الانسان وذاته ، والأعضاء والقوى آلاته التي
يتوقف فعله عليها ، وله اسماء مختلفة بحسب اختلاف الاعتبارات ، فيسمى
(روحاً) لتوقف حياة البدن عليه و (عقلاً) لادراكه المعقولات و (قلباً)
لتقلبه في الخواطر ، وقد تستعمل هذه الألفاظ في معان أخرى تعرف بالقرائن
وله قوى أربع : قوة عقلية ملكية ، وقوة غضبية سبعية ، وقوة
شهوية بهيمية ، وقوة وهمية شيطانية . و (الأولى) شأنها إدراك حقائق

الأمور ، والتمييز بين الخيرات والشرور ، والأمر بالأفعال الجميلة ، والنهي عن الصفات الذميمة و (الثانية) موجبة لصدور أفعال السباع من الغضب والبغضاء ، والتوثب على الناس بأنواع الأذى . و (الثالثة) لا يصدر عنها إلا أفعال البهائم من عبودية البهائم من عبودية الفرج والبطن ، والحرص على الجماع والأكل . و (الرابعة) شأنها استنباط وجوه المسكر والحيل ، والتوصل الى الأغراض بالتلبس والخدع .

والفائدة في وجود القوة الشهوية بقاء البدن الذي هو آلة تحصيل كمال النفس ، وفي وجود الغضبية أن يكسر سورة الشهوية والشرطانية ، ويقهرهما عند انغمارهما في الخداع والشهوات ، واصرارهما عليهما ، لانهما لتمردهما لا تطيعان العاقلة بسهولة ، بخلاف الغضبية فانهما تطيعانها وتتأديبان بتأديبها بسهولة .

ولذا قال افلاطون في صفة السبعية والبهيمية : « أما هذه أى السبعية فهي بمنزلة الذهب في اللين والانعطاف ، وأما تلك أى البهيمية فهي بمنزلة الحديد في الكشافة والامتناع ، وقال ايضاً : « ما أصعب أن يصير الخائض في الشهوات فاضلاً ، فمن لا تطيعه الواهمة والشهوية في إثارة الوسط فليستعز بالقوة الغضبية المهيجة للغيرة ، والحمية حتى يقهرهما ، فلو لم يمتثل مع الاستعانة فان لم تحصل له ندامة بعد ارتكاب مقتضاهما دل على غلبتهما على العاقلة ومقهوريتها عنهما ، وحينئذ لا يرجى صلاحه ، وإلا فالإصلاح ممكن فليجتهد فيه ولا ييأس من روح الله ، فان سبل الخيرات مفتوحة ، وأبواب الرحمة الإلهية غير مسدودة .

وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا (١) .

والفائدة في القوة الوهمية إدراك المعاني الجزئية ، واستنباط الحيل

والدقائق التي يتوصل بها الى المقاصد الصحيحة .

وبيان ذلك أن الواهمة والخيال والمتخيلة ثلاث قوى متباينة ، ومباينة للقوى الثلاث الأولى ، وشأن الاولى ادراك المعاني الجزئية ، وشأن الثانية إدراك الصور ، وشأن الثالثة التركيب والتفصيل بينهما . وكل من مدركاتهما إما مطابق للواقع ، أو مخترع من عند انفسها من غير تحقق له في نفس الامر ايضاً ، وأما من مقتضيات العقل والشرعية ، ومن الوسائل الى المقاصد الصحيحة ، أو من دواعي الشيطان وما يقتضيه الغضب والشهوة ، وعلى الأول يكون وجودها خيراً وكالاً ، وإن كان وجودها على الثاني شراً وفساداً . والحال في جميع القوى كذلك .

هذا وقيل : ما ورد في القرآن من النفس المطمئنة والوامة والامارة بالسوء ، اشارة الى القوى الثلاث اعنى العاقلة والسبعية والبهيمية .

والحق انها أوصاف ثلاثة للنفس بحسب اختلاف أحوالها ، فاذا غلبت قوتها العاقلة على الثلاث الأخر ، وصارت منقاداً لها مقهورة منها ، وزال اضطرابها الحاصل من مدافعتها سميت « مطمئنة » ، لسكونها حيثئذ تحت الأوامر والنواهي ، وميلها الى ملائمتها التي تقتضي جبلتها ، وإذا لم تتم غلبتها وكان بينها تنازع وتدافع ، وكلما صارت مغلوبة عنها بارتكاب المعاصي حصلت للنفس لوم وندامة سميت « لوامة » . وإذا صارت مغلوبة منها مذعنة لها من دون دفاع سميت « امارة بالسوء » ، لانه لما اضمحلت قوتها العاقلة واذعنت للقوى الشيطانية من دون مدافعة ، فكأنما هي الآمرة بالسوء .

ثم مثل اجتماع هذه القوى في الانسان كمثل اجتماع ملك ، أو حكيم وكنز وخنزير وشيطان في مربوط واحد . وكان بينها منازعة ، وأياً صار غالباً كان الحكم له ، ولم يظهر من الأفعال والصفات إلا ما تقتضيه جبلته ، فكان

إهاب الانسان وعاء اجتمع فيه هذه الاربع ، فالملك أو الحكيم هو القوة العاقلة ، والكلب هو القوة الغضبية ، فان الكلب ليس كلباً ومذموماً لونه وصورته بل لروح معنى الكلبية والسبعية اعنى الضراوة والتكلب على الناس بالعقر والجرح ، والقوة الغضبية موجبة لذلك ، فمن غلب فيه هذه القوة هو الكلب حقيقة ، وان اطلق عليه اسم الانسان مجازاً ، والخنزير هو القوة الشهوية ، والشيطان هو القوة الوهمية ، والتقريب فيهما كما ذكر ، والنفس لا تزال محل تنازع هذه القوى وتدافعها الى أن يغلب أحدها ، فالغضبية تدعوه الى الظلم والإيذاء ، والعداوة والبغضاء ، والبهيمية تدعوه الى المنكر والفواحش ، والحرص على المآكل والمناكح ، والشيطانية تهيج غضب السبعية وشهوة البهيمية ، وتزيد (١) فعلهما ، وتغري احدهما بالآخرى ، والعقل شأنه ان يدفع غيظ السبعية بتسليط الشهوية عليها ، ويكسر سورة الشهوية بتسليط السبعية عليها ، ويرد كيد الشيطان ومكره بالكشف عن تلبسه ببصيرته النافذة ، ونورانيته الباهرة . فان غلب على الكل على المنهج الوسط ، وظهر العدل غير مقدمة على فعل إلا بإشارته جرى الكل على المنهج الوسط ، وظهر العدل في مملكة البدن ، وان لم يغلب عليها وعجز عن قهرها قهره واستخدمه فلا يزال الكلب في العقر والإيذاء ، والخنزير في المنكر والفحشاء ، والشيطان في استنباط الحيل ، وتدقيق الفكر في وجوه المسكر والخدع ، ليرضى الكلب ويشبع الخنزير ، فلا يزال في عبادة كلب عقور ، أو خنزير هلوع أو شيطان عنود . فتدرك الهلاك الأبدي ، والشقاوة السرمدية ، إن لم تغثه العناية الإلهية ، والرحمة الأزلية .

وقد يمثل اجتماع هذه القوى في الانسان براكب بهيمة طالب للصيد

(١) ونسختنا الخطية هكذا « ترين » .

يكون معه كلب وعين من قطاع الطريق ، فالراكب هو العقل ، والبهيمة هي الشهوة ، والكلب هو الغضب ، والعين هو القوة الوهمية التي هي من جواسيس الشيطان ، فان كان الكل تحت سياسة الراكب فعل ما يصلح للكل ونال ما يصدده ، وان كانت الغلبة والحكم للبهيمة أو الكلب لهلك الراكب بذهابه معهما فيما لا يصلح له من التلال والوهاد ، واقتحامه في موارد الهلكات ، وان كان الكل تحت نهى العين وامره ، واقتنوا بخدعه ومكره لأضلهم بتليسه عن سواء السبيل حتى يوصلهم الى أيدي السارقين .

وكذلك لو كانت القوى بأسرها تحت اشارة العقل وقهرها وغلب عليها وقعت لانقيادها له المسالمة والمازجة بين الكل ، وصار الجميع كالواحد ، لأن المؤثر والمدبر حينئذ ليس إلا قوة واحدة تستعمل كلا منها في المواضع اللائقة والأوقات المناسبة ، فيصدر عن كل منها ما خلق لأجله ، على ما ينبغي من القدر والوقت والكيفية ، فتصلح النفس وقواها .

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (١) .

ولولم يغلب العقل حصل التدافع والتجاذب بينه وبين سائر القوى ، ويتزايد ذلك الى أن يؤدي الى انحلال الآلة والقوة لو يصير العقل مغلوباً فتهلك النفس وقواها .

وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (٢) .

(تتميم) لما تبين أن للنفس اربع قوى متخالفة ، ولها قوى آخر ايضاً كما تبين في العلم الطبيعي ، فبحسب غلبة بعض هذه القوى على بعض يحصل في النفس اختلاف عظيم ، والاختلاف في النفوس انما هو باختلاف صفاتها الحاصلة من غلبة بعض قواها المتخالفة . إذ هي في بدو فطرتها خالية عن

جميع الأخلاق والمسلكات ، وليس لها فعلية ، بل هي محض القوة ، ولذا ليس لها قوام بذاتها وإنما تتقوم بالبدن ، ثم بتوسط قواها تكتسب العلوم والأخلاق ، وترسم بالصور والأعمال الى أن تتقوم بها ، وتصل الى ما خلقت لأجله .

ولما كانت قواها متخالفة متنازعة فالغلب يغلب أحداها لم تدخل النفس في عالمه (١) الذي تخصه فلا تزال من تنازعها معركة للأثار المختلفة والأحكام المتباينة الى أن يغلب أحداها فتظهر في النفس آثاره ويدخل في عالمه الخاص . ولما كانت القوة العاقلة من سنخ الملائكة ، والواهمة من حزب الأبالسة والغضبية من افق السباع ، والشهوية من عالم البهائم ، فيحسب غلبة واحدة منها تكون النفس اما مملوكاً أو شيطاناً أو كائناً أو خنزيراً ، فلو كانت الغلبة والسلطنة لقهر مان العقل ظهر في مملكة النفس احكامه وآثاره ، وانتظمت احوالها ، ولو كانت اغيره من القوى ظهر فيها آثاره فتهلك النفس ويختل معاشها ومعادها .

ثم المنشأ للتنازع والتجرد والبقاء في نفس الانسانية انما هو قوتها العقلية لأن التدافع انما بينها وبين سائر القوى ، فليس في نفوس سائر الحيوانات لفقدانها العاقلة تنازع وتجادب وان اختلفت في غلبة ما فيها من القوى ، فان الغلبة في الشياطين للواهمة ، وفي السباع للغضب ، وفي البهائم للشهوة ، وأما الملائكة فتتصرف قوتها بالعاقلة فليس فيها سائر القوى فلا يتحقق فيها تدافع وتنازع . فالجامع لعوالم السكل هو الانسان وهو المخصوص من بين المخلوقات بالصفات المتقابلة ، ولذلك صار مظهراً للأسماء المتقابلة الإلهية ، وقابلاً للخلافة الربانية ، وقائماً بمهارة عالمي الصورة والمعنى .

(١) في نسخةنا الخطية هكذا « في عالمه التي تخصها » .

والملائكة وان كانوا مخصوصين بالجنة الروحانية ولوازمها من الاشراقات العلية ، وتوابعها من اللذات العقلية ، إلا انه ليس لهم جهة جسمية ولوازمها والأجسام الفلسفية وان كانت لها نفوس ناطقة على قواعد الحكمة إلا أنها خالية عن الطبائع المختلفة ، والكيفيات المتباينة ، وليس لها سير في المدارج المتخالفة ، والمراتب المتفاوتة ، ولا تقلب في أطوار النقص والكمال ، ولا تحوّل في جميع التقاليب والأحوال ، بخلاف الانسان فانه محيط بجميع المراتب المختلفة ، وسائر في الأطوار المتباينة من الجمادية والنباتية والحيوانية والملكية ، وله الترقى عن جميع تلك المراتب بأن تتحقق له مرتبة مشاهدة الوحدة الصرفة فيتجاوز عن افق الملائكة ، فهو النسخة الجامعة لحقائق الملك والملسكوت ، والمعجون المركب من عالمي الأمر والخلق ، قال امير المؤمنين عليه السلام : « إن الله خص الملك بالعقل دون الشهوة والغضب ، وخص الحيوانات بهما دونه وشرّف الانسان باعطاء الجميع ، فان انقادت شهوته وغضبه لعقله صار أفضل من الملائكة لو صوله الى هذه المراتبة مع وجود المنازع والملائكة ليس لهم مزاجهم » .

وصل

قد ظهر بما ذكر أن الانسان ذو جنبة روحانية يناسب بها الأرواح الطيبة والملائكة القادسة ، وذو جنبة جسمية يشابه بها السباع والأنعام ، فبالجزء الجسماني أقيم في هذا العالم الحسى مدة قصيرة ، وبالجزء الروحاني ينتقل الى العالم العلوى ، ويقيم فيه أبداً في مصاحبة الأرواح القدسية ، بشرط أن يتحرك بقواه نحو كالاتها الخاصة ، حتى يغلب الجزء الروحاني على الجسماني ، وينفض عن نفسه كدورات الطبيعة ، وتظهر فيه آثار الروحانيات من العلم

بحقائق الأشياء والانسر بالله تعالى والحب له والتخلي بفضائل الصفات .
وحيث يقوم بغلبة روحانيته بين الملائكة الأعلى يستمد منهم لطائف الحكمة ،
ويستنير بالنور الإلهي . ويزيد ذلك بحسب دفع العلائق الجسمية ، حتى اذا
ارتفعت عنه حجب الغواصق الطبيعية بأسرها ، وازيلت عنه أستار العوائق
الهيولانية برمتها ، خلى عن جميع الآلام والحسرات ، وكان ابداً مسروراً
بذاته ، مغتبطاً بحاله ، مبتهجاً بما يرد عليه من فيوضات النور الأزل ، ولا يُسر
إلا بتلك اللذات ، ولا يغتبط إلا بها ، ولا يهش إلا باظهار الحكمة الحققة
بين أهلها ، ولا يرتاح إلا بمن ناسبه وأحب الاقتباس منه ، ولا يبالي بمفارقة
الدنيا وما فيها ، ويرى جسمه وماله وجميع خبرات الدنيا وبالاً وكلاً عليه
إلا ما هو ضروري يحتاج اليه بدنه الذي يقتقر اليه في تحصيل كماله ، ويحن
أبداً الى مصاحبة الذوات النورية ، ولا يفعل إلا ما أراد الله تعالى منه ،
ولا يتعرض إلا لما يقربه اليه ، ولا يخالفه في متابعة الشهوات الردية ،
ولا ينخدع بخدائع الطبيعة ، ولا يلتفت الى شيء يعوقه عن سعادته ، ولا يحزن
على فقد محبوب ، ولا فوت مطلوب ، واذا صفي من الأمور الطبيعية بالسلبية
زالَتْ عنه العوارض النفسانية ، والخواطر الشيطانية بأسرها ، وفنى عنه إرادته
المتعلقة بالأمور الخارجة . وحيث يمتلئ من المعارف الإلهية ، والشوق الإلهي
والبهجة الإلهية ، والشعار الإلهي ، وتتقرر الحقائق في عقله كتقرر القضايا
الأولية فيه ، بل يكون علمه بها أشد إشراقاً وظهوراً من علمه بها . واذا بلغ
هذه الغاية فقد استعد للوصول الى المرتبة القصوى ، ومجاورة الملائكة الأعلى ،
فيصل الى ما لا عين رأت ، ولا اذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ويفوز
بما اشير اليه في الكتاب الإلهي بقوله :

فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ (١).

فصل

الاقوال في الخير والسعادة والتوفيق بينها

اعلم ان الغاية في تهذيب النفس عن الرذائل وتكميلها بالفضائل هو الوصول الى الخير والسعادة . والسلف من الحكماء قالوا : إن (الخير) على قسمين مطلق ومضاف ، والمطلق هو المقصود من إيجاد الكل ، إذ الكل ينشوقه وهو غاية الغايات ، والمضاف ما يتوصل به الى المطلق . و (السعادة) هو وصول كل شخص بحركته الإرادية النفسانية الى كماله السكّان في جبلته . وعلى هذا فالفرق بين الخير والسعادة أن الخير لا يختلف بالنسبة الى الأشخاص والسعادة تختلف بالقياس اليهم .

ثم الظاهر من كلام أرسطاطاليس أن الخير المطلق هو الكمالات النفسية والمضاف ما يكون معداً لتحصيلها كالتعلم والصحة ، أو نافعاً فيه كالمسكنة والثروة وأما السعادة فعند الأقدمين من الحكماء راجعة الى النفوس فقط ، وقالوا ليس للبدن فيها حظ ، فخصوها في الأخلاق الفاضلة ، واحتجوا على ذلك بأن حقيقة الانسان هي النفس الناطقة والبدن آلة لها ، فلا يكون ما يعد كمالاً له سعادة للانسان . وعند المتأخرين منهم كأرسطو ومن تابعه راجعة الى الشخص حيث التركيب ، سواء تعلقت بنفسه أو بدنه ، لأن كل ما يلائم جزءاً من شخص معين فهو سعادة جزئية بالنسبة اليه ، مع انه يتعسر صدور الأفعال الجميلة بدون اليسار ، وكثرة الأعوان والأنصار ، والبخت المسعود ، وغير ذلك مما لا يرجع الى النفس ، ولذا قسموا السعادة الى ما يتعلق بالبدن من

حيث هو كالصحة واعتدال المزاج ، والى ما يتوصل به الى افشاء العوارف ، ومثله مما يوجب استحقاق المدح كالمال وكثرة الأعوان ، والى ما يوجب حسن الحديث وشيوع المحمدة ، والى ما يتعلق بانجاح المقاصد والأغراض على مقتضى الأمل ، والى ما يرجع الى النفس من الحكمة والأخلاق المرضية . وقالوا كمال السعادة لا يحصل بدون هذه الخمسة ، وبقدر النقصان فيها تنقص . قالوا وفوق ذلك سعادة محضة لا تدانيها سعادة ، وهو ما يفيض الله سبحانه على بعض عبادة من المواهب العالية ، والاشراقات العلية ، والابتهاجات العقلية بدون سبب ظاهر .

ثم الأقدمون لنهابهم الى نفي السعادة للبدن صرحوا بأن السعادة العظمى لا تحصل للنفس ما دامت متعلقة بالبدن ، وملوثة بالسكندورات الطبيعية ، والشواغل المادية ، بل حصولها موقوف عنها ، لأن السعادة المطلقة لا تحصل لها ما لم تصر مشرقة بالاشراقات العقلية ، ومصينة بالأنوار الإلهية ، بحيث يطلق عليها اسم التام ، وذلك موقوف على تخلصها التام عن الظلمة الهيولانية ، والقصورات المادية .

واما المعلم الأول واتباعه فقالوا إن السعادة العظمى تحصل للنفس مع تعلقها بالبدن أيضاً ، لبداية حصولها لمن استجمع الفضائل بأسرها ، واشتغل بتكميل غيره . وما أقبح أن يقال مثله ناقص واذا مات يصير تاماً ، فالسعادة لها مراتب ، ويحصل للنفس الترفي في مدارجها بالمجاهدة الى أن تصل الى أقصاها . وحينئذ يحصل تمامها وإن كان قبل المفارقة ، وتكون باقية بعدها ايضاً .

ثم المتأخرون عن الطائفتين من حكماء الاسلام قالوا ان السعادة في الأحياء لا تتم إلا باجتماع ما يتعلق بالروح والبدن ، وأذناها ان تغلب السعادة البدنية على النفسية بالفعل ، إلا أن الشوق الى الثانية ، والحرص على

اكتسابها يكون أغلب ، وأقصاها أن تكون الفعلية والشوق كلاهما في الثانية أكثر ، إلا أنه فديقع الالتفات الى هذا العالم وتنظيم أمور العرض .
وأما في الأمور فيختص بما يتعلق بالنفس فقص لاستغنائهم عن الأمور البدنية ، فختص السعادة فيهم بالملكات الفاضلة ، والعلوم الحقة اليقينية ، والوصول الى مشاهدة جمال الأبد ، ومعاينة جلال السرمد . وقالوا إن الأولى لشوبها بالزخارف الحسية ، والسكندورات الطبيعية ناقصة كدرة ، وأما الثانية فلخلوها عنها تامة صافية ، لأن المتصف بها يكون أبداً مستنيراً بالأنوار الإلهية ، مستضيئاً بالأضواء العقلية ، مستهتراً (١) بذكر الله وأنسه ، مستغرقاً في بحر عظمتة وقدس ، وليس له التفات الى ما سوى ذلك ، ولا يتصور له تحسر على فقد لذة أو محبوب ، ولا شوق الى طلب شيء مرغوب ، ولا رغبة الى أمر من الأمور ، ولا رهبة من وقوع محذور ، بل يكون منصرفاً بجزئه العقلي مقصوراً همه على الأمور الإلهية من دون التفات الى غيرها . وهذا القول ترجيح لطريقه المعلم الأول من حيث اثبات سعادة للبدن ، ولطريقة الأقدمين من حيث نفي حصول السعادة العظمى للنفس ما دامت متعلقة بالبدن . وهو (الحق المختار) عندنا ، إذ لا ريب في كون ما هو وصلة الى السعادة المطلقة سعادة اضافية . . ومعلوم أن غرض القائل يكون متعلقات الأبدان كالصحة والمال والأعوان سعادة انها سعادة إذا جعلت آلة لتحصيل السعادة الحقيقية لا مطلقاً ، إذ لا يقول عاقل إن الصحة الجسمية ، والحطام الدنيوى سعادة ، ولو جعلت وسيلة الى اكتساب سخط الله وعقابه ، وحاجبة عن الوصول الى دار كرامته وثوابه . وكذا لا ريب في أن النفس ما دامت متعلقة بالبدن مقيدة في سجن الطبيعة لا يحصل لها العقل الفعلي ، ولا تنكشف

(١) مستهتراً به على بناء اسم المفعول أى موله به لا لمحدث بغيره ،

(لا تحصل السعادة إلا باصلاح جميع الصفات والقوى دائماً) - ٣٩ -

لها الحقائق كما هي عليه انكشافاً تاماً ، ولا تصل الى حقيقة ما يترتب على العلم والعمل من الابتهاجات العقلية والذات الحقيقية . ولو حصلت لبعض المتجربين عن جلباب البدن يكون في آن واحد ويمر كالبرق الخاطف .

هذا وقد ظهر من كلمات الجميع أن حقيقة الخير والسعادة ليست إلا المعارف الحققة ، والأخلاق الطيبة ، والأمر وإن كان كذلك من حيث أن حقيقتيها ما يكون مطلوباً لذاته ، وباقياً مع النفس أبداً وهما كذلك ، إلا أنه لا ريب في أن ما يترتب عليهما من حب الله وأنسه ، والابتهاجات العقلانية ، والذات الروحانية مغاير لهما من حيث الإعتبار ، وإن لم ينفك عنهما ، ومطلوبيته لذاته أشد وأقوى ، فهو باسم الخير والسعادة أولى وأخرى ، وإن كان الجميع خيراً وسعادة . وبذلك يحصل الجمع بين أقوال أرباب النظر والاستدلال ، وأصحاب الكشف والحوال ، وإخوان الظاهر من أهل المقال ، حيث ذهب (الفرقة الاولى) الى أن حقيقة السعادة هو العقل والعلم ، و (الثانية) الى أنها العشق ، و (الثالثة) الى أنها الزهد ، وترك الدنيا .

فصل

لا تحصل السعادة إلا باصلاح جميع الصفات والقوى دائماً

لا تحصل السعادة إلا باصلاح جميع الصفات والقوى دائماً ، فلا تحصل باصلاحها بعضاً دون بعض ، ووقتاً دون وقت ، كما أن الصحة الجسمية ، وتدير المنزل ، وسياسة المدن لا تحصل إلا باصلاح جميع الأعضاء والأشخاص والطوائف في جميع الأوقات ، فالسعيد المطلق من أصلح جميع صفاته وأفعاله على وجه الثبوت والدوام بحيث لا يغيره تغير الأحوال والأزمان ، فلا يزول صبره بحدوث المضائب والفتن ، ولا شكره بورود النوائب والمحن ، ولا يقينه

بكثرة الشبهات ، ولا رضاه بأعظم النكبات ، ولا احسانه بالاساءة ،
ولا صداقة بالعداوة . وبالجملة لا يحصل التفاوت في حاله ، ولو ورد عليه
ما ورد على ايوب النبي ﷺ أو على برناس الحكيم ، لشهامة ذاته ، ورسوخ
أخلاقه وصفاته ، وعدم مبالاته بعوارض الطبيعة ، وابتهاجه بنورانيته
ومسكاته الشريفة . بل السعيد الواقعي لتجرده وتعاليه عن الجسمانيات خارج
عن تصرف الطبائع الفلكية ، متعال عن تأثير الكواكب والاجرام الاثيرية
فلا يتأثر عن سعدا ونحسا ، ولا يفعل عن قرها وشمسها . أهل النسيح
والتقديس لا يبالون بالتثليث والتسديس ، وربما بلغ تجردهم وقوة نفوسهم
مرتبة تحصل لهم ملكة الاقتدار على التصرف في مواد الكائنات ، ولو في
الافلاك وما فيها ، كما حصل لفنخل الانبياء وسيد الاوصياء صلوات الله عليهما
وآلهما من شق القمر ورد الشمس .

وقد ظهر مما ذكر ان من يجزع بورود المصائب الدنيوية ، ويضطرب
من السكدورات الطبيعية ، ويدخل نفسه في معرض شماتة الاعداء وترحم
الاحباء ، خارج عن زمرة السعداء ، لضعف غريزته وغلبة الجبن على طبيعته ،
وعدم نبذه بعد الى الابتهاجات التي تدفع عن النفس امثال ذلك .
ومثله لو تكلف الصبر والرضا وتشبه ظاهراً بالسعداء لكان في الباطن
متألماً مضطرباً ، وهذا ليس سعادة لأن السعادة الواقعية انما هو صيرورة
الاخلاق الفاضلة لمسكات راسخة بحيث لا تغيرها المتغيرات ظاهراً وباطناً .
بلغنا الله وجميع الطالبين الى هذا المقام الشريف .

وصل

غاية السعادة التشبه بالمبدأ

صرح الحكماء بأن غاية المراتب للسعادة أن يتشبه الانسان في صفاته

بالمبدأ : بأن يصدر عنه الجميل لكونه جميلاً ، لا لغرض آخر من جلب منفعة ، أو دفع مضرة ، وإنما يتحقق ذلك إذا صارت حقيقته المعبر عنها بالعقل الإلهي والنفس الناطقة خيراً محضاً ، بأن يتطهر عن جميع الخبائث الجسدية ، والأفذار الحيوانية . ولا يحوم حوله شيء من العوارض الطبيعية ، والخواطر النفسانية ، ويمتلي من الأنوار الإلهية ، والمعارف الحقيقية ، ويتيقن بالحقائق الحققة الواقعية ، ويصير عقلاً محضاً بحيث يصير جميع معقولاته كالتقضايا الأولية ، بل يصير ظهورها أشد ، وانكشافها أتم ، وحينئذ يكون له أسوة حسنة بالله سبحانه ، في صدور الأفعال وتصير إلهية أى شبيهة بأفعال الله سبحانه في أنه لصرافة حسنه يقتضى الحسن ، والمحوضة جماله يصدر عنه الجميل من دون داع خارجي ، فتكون ذاته غاية فعله ، وفعله غرضه بعينه ، وكلما يصدر عنه بالذات وبالقصد الأول فانما يصدر لأجل ذاته ، وذات الفعل وان ترشحت منه الفوائد الكثيرة على الغير بالقصد الثاني وبالعرض . قالوا وإذا بلغ الإنسان هذه المرتبة فقد فاز بالبهجة الإلهية ، واللذة الحقيقية الذاتية ، فيشبع طبعه من اللذات الحسية الحيوانية ، لأن من أدرك اللذة الحقيقية علم أنها لذة ذاتية ، والحسية ليست لذة بالحقيقة لتصرمها ودورها وكونها دفع ألم وأنت خبير بأن هذا التصريح محل تأمل لمخالفته ظواهر الشرع فتأمل .

فصل

بازاء كل واحدة من القوى الأربع لذة وألم

لما عرفت أن القوى في الإنسان أربع : قوة نظرية عقلية ، وقوة وهمية خيالية ، وقوة سبعية غضبية ، وقوة بهيمية شهوية - فاعلم انه بازاء كل واحدة منها لذة وألم ، لأن اللذة ادراك الملائم ، والألم ادراك غير الملائم ،

فلسكل من الغرائز المدركة لذة هو نيله مقتضى طبعه الذى خلق لأجله ، وألم هو ادراكه خلاف مقتضى طبعه :

(فغريزة العقل) لما خلقت لمعرفة حقائق الأمور ، فلذتها في المعرفة والعلم ، وألمها في الجهل ، و (غريزة الغضب) لما خلقت للنشفي والانتقام فلذتها في الغلبة التي يقتضيها طبعها وألمها في عدمها ، و (غريزة الشهوة) لما خلقت لتحصيل الغذاء الذى به قوام البدن ، فلذتها في نيل الغذاء ، وألمها في عدم نيله ، وهكذا في غيرها ، فالذات والآلام أيضاً على أربعة أقسام : العقلية والخيالية والغضبية والبهيمية .

فاللذة العقلية كالانبساط (١) الحاصل من معرفة الأشياء الكلية وادراك الذوات المجردة النورية ، والألم العقلي كالانقباض الحاصل من الجهل . واللذة الخيالية كالفرح الحاصل من ادراك الصور والمعاني الجزئية الملائمة ، والألم الخيالي كأدراك غير الملائمة منها . واللذة المتعلقة بالقوة الغضبية كالانبساط الحاصل من الغلبة ونيل المناصب والرياسات ، والألم المتعلق بها كالانقباض الحاصل من المغلوبة والعزل والمرؤسية . واللذة البهيمية هي المدركة من الأكل والجماع وأمثالها ، والألم البهيمي ما يدرك من الجوع والعطش والحر والبرد وأشباهاها . وهذه الذات والآلام تصل الى النفس وهي الملتذذة والمتألمة حقيقة إلا أن كلاً منها يصل اليها بواسطة القوة التي تتعلق بها . والفرق بين الكل ظاهر .

وربما يشتبه بين ما يتعلق بالوهم والخيال وما يتعلق بالقوة الغضبية من حيث اشتراكهما في الترتب على التخيل . ويدفع الاشتباه بأن ما يتعلق بالغضبية وإن توقف على التخيل إلا أن

(١) وفي النسخة المخطوطة عندنا « الابتهاج » .

المتأثر بالالتذاذ والتألم بعد التخيل هو الغضبية وبواسطتها تتأثر النفس ، ففي هذا النوع من اللذة والألم تتأثر الغضبية لم تتأثر النفس .

وأما ما يتعلق بالوهم والخيال فالتأثر بالالتذاذ والتألم هاتان القوتان ويصل التأثير منهما الى النفس من دون توسط القوة الغضبية .

ومما يوضح الفرق أن الالتذاذ والتألم الخياليين لا يتوقفان على وجود غلبة ومغلو بية مثلاً في الخارج ، وأما الغضبيان فيتوقفان عليهما .

ثم أقوى الذات هي العقلية لسكونها فعلية ذاتية غير زائلة باختلاف الأحوال ، وغيرها من الذات الحسية انفعالية عرضية منفعة زائلة ، وهي في مبدأ الحال مرغوبة عند الطبيعة ، وبتزايد بتزايد القوة الحيوانية ، وتتضعف بضعفها الى أن تنتفي بالمرّة ، ويظهر قبورها عند العقل ، وأما العقلية فهي في البداية منتفية ، لأن إدراكها لا يحصل إلا للنفوس الزكية المتحلية بالأخلاق المرضية ، وبعد حصولها يظهر حسنها وشرفها ، وبتزايد بتزايد القوة العقلية ، الى أن ينتهي الى أقصى المراتب ، ولا يكون لها نقص ولا زوال .

والعجب ممن ظن انحصار اللذة في الحسية وجعلها غاية كمال الانسان وسعادته القصوى . والمنشرون منهم قصروا اللذات الآخرة على الجنة والحدور والغلمان وأمثالها ، وآلامها على النار والعقارب والحيات وأشباهاها ، وجعلوا الوصول الى الاولى والخلاص عن الثانية غاية لزهدهم وعبادتهم ، وكأنهم لم يعلموا أن هذه عبادة الأجراء والعبيد تركوا قليل المشتبهات ليصلوا الى كثيرها . وليت شعري أن ذلك كيف يدل على الكمال الحقيقي والقرب من الله سبحانه ! ولا أدري أن البهاكي خوفاً من النار وشوقاً الى اللذات الجسمية المطلوبة للنفس البهيمية كيف يعد من أهل التقرب الى الله سبحانه ويستحق التعظيم ويوصف بعلو الرتبة ! وكأنهم لم يدركوا الابتهاجات الروحانية ،

ولا لذة المعرفة بالله وحبّه وانسه ولم يسمعوا قول سيد الموحدين (١) ﷺ
« إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك ولستك وجدتك أهلاً
للعبادَةِ فعبدتك » .

وبالجملة لا ريب في أن الانسان في اللذة الجسمية يشارك الخنافس
والديدان والهمج من الحيوان ، وإنما يشابه الملائكة في البصيرة الباطنة
والأخلاق الفاضلة . وكيف يرتضى العاقل أن يجعل النفس الناطقة الشريفة
خادمة للنفس البهيمية الخسيسة .

والعجب من هؤلاء الجماعة (٢) مع هذا الاعتقاد يعظمون من يتنزه
عن الشهوات الحيوانية ويستنهين بالذات الحسية ويتخضعون له ويعدون
أنفسهم أشقياء بالنسبة إليه ، ويدعون أنه أقرب الناس إلى الله سبحانه وأعلى
رتبة منهم بتنزّهه عن الشهوات الطبيعية ، وقد إنفق كلهم على تنزه مبدع الكل
وتعالیه عنها مستدّكين بلزوم النقص فيه لولاه ، وكل ذلك يناقض رأيهم الأول .
والسر فيه أنهم وإن ذهبوا إلى هذا الرأي الفاسد إلا أنه لما كانت غريزة
العقل فيهم بعد موجودة ، وإن كانت ضعيفة ، فيرى ما هو كمال حقيق
لجوهرها كمالاً ، ويحكم بنورانيّتها الذاتية ، على كون ما هو فضيلة في الواقع
فضيلة ، وما هو رذيلة في نفس الأمر رذيلة ، فيضطرون إلى إكرام أهل التنزه
عن الشهوات ، والاستهانة بالمسكين عليها .

ومما يدل على قبح الذات الحيوانية أن أهلها يكتمونها ويخفون ارتكابها
ويستحيون عن إظهارها ، وإذا وصفوا بذلك تتغير وجوههم ، كما هو ظاهر
من وصف الرجل بكثرة الأكل والجماع ، مع أن الجميل على الإطلاق يحسن

(١) المعنى به هو أمير المؤمنين علي عليه الصلاة والسلام .

(٢) المراد هم الذين حضروا اللذات الحسية والكلام كله في هذا الرأي .

إذا عتته ، وصاحبه يحب أن يظهره ويوصف به ، هذا مع أن البديهة حاكمة بأن هذه الذات ليست لذات حقيقية ، بل هي دفع آلام حادثة للبدن (١) فإن ما يتخيل لذة عند الأكل والجماع إنما هو راحة من ألم الجوع ولذع المنى ولذا لا يلتذ الشبعان من الأكل ، ومعلوم أن الراحة من الألم ليس كالألم وخيراً ، إذ الكمال الحقيقي والخير المطلق ما يكون كالألم وخيراً أبداً .

إيفاض

فيه موعظة ونصيحة

لما عرفت أن الانسان في اللذة العقلية يشارك الملائكة ، وفي غيرها من الحسية المتعلقة بالقوى الثلاث ، أعنى السبعية والبهيمية والشرطانية ، يشارك السباع والبهائم والشرطانيين - فاعلم أن من غلبت عليه إحدى الذات الأربع كانت مشاركته لما ينسب اليه أكثر حتى إذا صارت الغلبة تامة لسكان هو هو .

فانظر يا حبيبي أين تضع نفسك ، فإن الغلبة لو كانت لقوتك الشهوية حتى يكون أكثر همك الى الشهوات الحيوانية كالأكل والشرب والجماع وسائر النزوات البهيمية ، كنت واحداً من البهائم . وإن كانت لقوتك الغضبية حتى يكون جلُّ ميلك الى المناصب والرياسات الرديئة ، وإيذاء الناس بالضرب والشتم ، وباقي الحركات السبعية ، نزلت منزلة السباع . وإن كانت لقوتك

(١) الحق أن كل لذة بدنية ونفسية إنما هي إشباع شهوة أو غريزة تتطلب الإشباع ، حتى طلب المعارف والعلم إنما هو لإشباع غريزة حب الاستطلاع ، ألا أن طالب العلم لا يصل الى حد الإشباع أبداً ، ولذا قال صلى الله عليه وآله وسلم : « منهومان لا يشبعان طالب علم ، وطالب مال » . وإست كذلك الغريزة الجنسية وغريزة حب الأكل وأمثالها فانها تصل الى حد الإشباع فتكفي

الشیطانية حتى يكون غالب سعيك في استنباط وجوه المسكر والحيل الوصول الى مقتضيات قوى الشهوة والغضب بأنواع الخداع والتلبسات الوهمية دخلت في حزب الآبالية . وإن كانت لقوتك العقلية حتى يكون جدك مقصوراً على ، أخذ ، (١) المعارف الإلهية واقتفاء (٢) الفضائل الخلقية عرجت الى افق الملائكة القادسية . فمن كان عاقلاً غير عدو لنفسه وجب عليه أن يصرف جل همّه في تحصيل السعادة العلمية والعملية ، وإزالة النقائص الكامنة في نفسه ، وليقتصر على الأمور الشهوانية ، واللذات الجسدية بقدر الضرورة ، بأن يكتفى من الغذاء بما يحفظ اعتدال مزاجه وقوام حياته ، ولا يكون قصده منه الالتذاز ، بل سدّ الضرورة ودفع الألم ، ولا يضيع وقته في تحصيل أزيد من ذلك ، فإن تجاوز عنه فبقدر ما يحفظ رتبته ، ولا يوجب مهاتته وذلتة ، ومن اللباس بقدر ما يستر العورة ، ويدفع الحر والبرد ، فإن تجاوز عن ذلك فبقدر ما لا يؤدي الى حقارته ، ولا يوجب السقوط بين أقرانه وأهل طبقته ، ومن الجماع بقدر ما يحفظ نوعه ، ويبقى نسله ، وإن تعدى فبقدر ما لا يخرجّه عن السنة ، وليحذر عن الانهالك في مقتضيات قوى الشهوة والغضب ، لأنه يوجب الشقاوة الدائمة والهلاك السرمدية . فالله الله في نفوسكم معاشر الإخوان ادركوها قبل أن تفرقوا في بحار المهالك ، وتنبهوا عن نوم الغفلة قبل أن تنسد عليكم السبل والمهالك ، وبادروا الى تحصيل السعادات قبل أن تستحكم فيكم الملكات المهلكة ، والعادات المفسدة ، فإن إزالة الرذائل بعد استحكامها في غاية الصعوبة والمجاهدة مع أحزاب الشياطين بعد السكبر قلما يفيد الأثر ، والغلبة على النفس الآتمة بعد ضعف الهرم في غاية الاشكال ، إلا أنه في أي حال لا ينبغي أن تيأسوا من روح الله ، فاجتهدوا بقدر القوة والاستطاعة ،

(١) لم توجد في نسختنا الخطية ولكنها موجودة في نسخة خطية أخرى وفي المطبوعة .

(٢) في نسختنا الخطية هكذا « واقتناء » .

فانه خير من التماذى فى الباطل ، فلعل الله يدرككم بعظيم رحمته .
ولقد قال الشيخ (١) الفاضل احمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه وهو
الاستاذ فى علم الأخلاق ، واقدم الاسلاميين فى تدوينه : « إني تنبئت عن
نوم الغفلة بعد الكبر واستحكام العادة ، فتوجهت الى فطام نفسي عن رذائل
الملذات ، وجاهدت جهاداً عظيماً حتى وفقني الله لاستخلاصها عما يهلكها ،
فلا ييأس أحد من رحمة الله ، فان النجاة لكل طالب مرجوة ، وأبواب
الإفاضة أبداً مفتوحة ، فبادروا إخواني الى تهذيب نفوسكم قبل أن يصير
الرئيس رؤساً ، والعقل مقهوراً ، فيفسد جوهركم ، وتمسخ حقيقتكم ،
ويدرككم الانتكاس فى الخلق الذى هو خروج عن افق الانسان ، ودخول
فى زمرة البهائم والسباع والشياطين ، نعوذ بالله من ذلك ، ونسأله العصمة من
الحسران الذى لا نهاية له . وقد شبه الحكماء من أهمل سياسة نفسه الغافلة
بمن له ياقوته شريفة حمراء ، فرماها فى نار مضطربة فيحرقها ، حتى تصير

(٢) هو الحكم الأعظم والفيلسوف الأكبر « أبو على احمد بن محمد بن يعقوب
ابن مسكويه الحازن » الرازي « الأصل والاصفهانى المسكن والحائفة كان من أعيان العلماء
وأركان الحكماء معاصراً للشيخ أبي على بن سينا . صلب الوزير للمهاجر فى أيام شبابه وكان
من خاصته الى أن اتصل بصحبة « عضد الدولة » البويهى فصار من كبار ندمائه ورسله الى
نظرائه ثم اختص بالوزير « ابن العميد » وابنه « أبى الفتح » له مؤلفات كثيرة بعضها فى
الحكمة ومنه كتاب « القوز الأكبر » وكتاب « القوز الأصغر » « وجاويدان خرد »
بالفارسية فى الحكمة وهو يقرب من خمسة آلاف بيت وبعضها فى التاريخ ومنه « تحارب
الامم » وبعضها فى الأخلاق ومنه كتاب « الظهارة » المشهور وهو الذى قصده « المصنعه »
هنا لأنه أول كتاب صنف فى علم الأخلاق ، وقد مدحه استاذ البشر وأعلم أهل البدو والحضر
الحجة الأعظم الفيلسوف المحقق الحوارة « نصير الدين الطوسي » قدس سره بأبيات .
وكان (ره) من علمائنا الامامية قدس الله أسرارهم وقبره (باصفهان) على باب (درب جناد)
وقد اشتهر ان السيد (الداماد) الذى كان من أعظم علمائنا وأكبر حكائنا كان كلما اجتاز يقف
على قبره ويقرأ القاعة (الترجمة عن الكنى والألقاب المحدث الشهير الحاج شيخ (عباس القمي)
قدس سره مع تصرف يسير مناه)

كساً (١) لا منفعة فيها .

(تتميم) ولا تظن أن ما يفوت عن النفس من الصفاء والبهجة لأجل ما يعثر بها من الكدرة الحاصلة من معصية من المعاصي يمكن تداركه ، فإن ذلك محال ، إذ غاية الأمر أن تتبع تلك المعصية بحسنة تمحي آثارها ، وتعيد النفس الى ما كانت عليه قبل تلك المعصية ، فلا تزداد بتلك الحسنة إشراقاً وسعادة ، ولو جاء بها من دون سيئة ل زاد بها نور القلب و بهجته ، وحصلت له درجة في الجنة ، ولما تقدمت السيئة سقطت هذه الفائدة وانحصرت فائدتها في مجرد عود القلب الى ما كان عليه قبلها ، وهذا نقصان لا حيلة لجبره ، ومثال ذلك أن المرأة التي تدنست بالخبث والصدأ إذا مسحت بالمصقلة وإن زال به هذا الخبث ، إلا أنه لا تزيد به جلاء و صفاء ، بخلاف ما إذا لم تدنس أصلاً ، فإن التصقيل يزيد بها صفاء وجلاء ، وإلى ما ذكر أشار النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله : « من قارف ذنباً فارق عقله لم يعد إليه أبداً » .

(١) الكس ما يقوم به الحجر والرخام ونحوهما ويتخذ منها باحراقها .

الباب الثاني

(في بيان أقسام الأخلاق وتفصيل القول فيها)

❦ وفيه فصول ❦

أجناس الفضائل الأربعة والأقوال في حقيقة العدالة - حقيقة العدالة
انقياد العقل للعمل للعقل النظري ولوازم الأقول في العدالة - العقل النظري
هو المدرك للفضائل والردائل - دفع أشكال في تقسيم الحكمة - تحقيق
الوسط والأطراف - أجناس الردائل وأنواعها - الفرق بين الفضيلة
والرذيلة - العدالة أشرف الفضائل - إصلاح النفس قبل إصلاح الغير وأشرف
وجره العدالة عدالة السلطان - لا حاجة إلى العدالة مع رابطة المحبة - التكامل
الصناعي لا اكتساب الفضائل على طبق ترتيب الكمال الطبيعي .

فصل

(أجناس الفضائل الأربع والأقوال في حقيقة العدالة)

قد تبين في العلم الطبيعي أن للنفس الناطقة قوتين : « أولاهما ، : قوة الإدراك و « ثانيتهما ، : قوة التحريك ، ولكل منهما شعبتان : (الشعبة الأولى) للأولى العقل النظري ، وهو مبدأ التأثير عن المبادئ العالية بقبول الصور العالية ، و (الشعبة الثانية) لها العقل العملي ، وهو مبدأ تحريك البدن في الأعمال الجزئية بالروية (١) . وهذه الشعبة من حيث تعلقها بقوى الشهوة والغضب مبدأ « لحدوث ، (٢) بعض الكيفيات الموجبة لفعل أو انفعال ، كالخجل والضحك والبكاء وغير ذلك ، ومن حيث استعمالها الوهم والمتخيلة مبدأ لا يستنباط الآراء والصنائع الجزئية . ومن حيث نسبتها بالعقل وحصول الازدواج بينهما سبب لحصول الآراء الكلية المتعلقة بالأعمال كحسن الصدق ، وقبح الكذب ، ونظائرهما . (الشعبة الأولى) للثانية قوة الغضب وهي مبدأ دفع غير الملائم على وجه الغلبة ، و (الشعبة الثانية) لها قوة الشهوة وهي مبدأ جلب الملائم .

ثم إذا كانت القوة الأولى غالبية على سائر القوى ولم تنفعل عنها ، بل كانت هي مقهورة عنها مطيعة لها فيما تأمرها به وتنهاها عنه ، كان تصرف كل منها على وجه الاعتدال ، وانتظمت أمور النشأة الانسانية ، وحصل تسالم القوى الأربع وتمازجها ، فتهذب كل واحد منها ، ويحصل له ما يخصه من الفضيلة ، فيحصل من تهذيب العاقلة العلم وتبعية الحكمة ، ومن تهذيب العاملة

(١) إذا كان العقل العملي مبدأ لتحريك البدن فهو قوة تحريك لا قوة إدراك وفي

الحقيقة أن غرضهم من العقل العملي هو إدراك ما ينبغي أن يعمل .

(٢) وفي النسخة المخطوطة عندنا « الحصول » .

العدالة ، ومن تهذيب الغضبية الحلم وتبعه الشجاعة ، ومن تهذيب الشهوية العفة وتبعه السخاوة . وعلى هذا تكون العدالة كالأل لل قوة العملية .

{ بطريق آخر }

قيل : إن النفس لما كانت ذات قوى أربع العاقلة والعاملة والشهوية والغضبية ، فإن كانت حركاتها على وجه الاعتدال ، وكانت الثلاث الأخيرة مطيعة للأولى ، واقتصرت من الأفعال على ما تعين لها ، حصلت أولاً فضائل ثلاث هي الحكمة والعفة والشجاعة ، ثم يحصل من حصولها المترتب على تسالم القوى الأربع ، وانقهار الثلاث تحت الأولى حالة متشابهة هي كمال القوى الأربع وتماها ، وهي العدالة . وعلى هذا لا تكون العدالة كالأل لل قوة العملية فقط ، بل تكون كالأل لل قوى بأسرها .

وعلى الطريقين تكون أجناس الفضائل أربعاً : « الحكمة ، وهي معرفة حقائق الموجودات على ما هي عليه والموجودات إن لم يكن وجودها بقدرتنا واختيارنا فالعلم المتعلق بها هو الحكمة النظرية ، وإن كان وجودها بقدرتنا واختيارنا فالعلم المتعلق بها هو الحكمة العملية . » والعفة ، هي انقياد القوة الشهوية للعاقلة فيما تأمرها به وتنهاها عنه حتى تكتسب الحرية ، وتتخلص عن أسر عبودية الهوى . والشجاعة ، وهي اطاعة القوة الغضبية للعاقلة في الإقدام على الأمور الهائلة ، وعدم اضطرابها بالخوض فيما يقتضيه رأيها حتى يكون فعلها ممدوحاً ، وصبرها محموداً . وتفسير هذه الفضائل الثلاث لا يتفاوت بالنظر إلى الطريقين .

وأما « العدالة » فتفسرها على الطريق الأول هو انقياد العقل العملي للقوة العاقلة وتبعيته لها في جميع تصرفاته ، أو ضبطه الغضب والشهوة تحت إشارة العقل والشرع الذي يحكم العقل أيضاً بوجوب اطاعته ، أو سياسة قوتي

الغضب والشهوة ، وحملها على مقتضى الحكمة ، وضبطهما في الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاه . وإلى هذا يرجع تعريف الغزالي ، إنها حالة للنفس وقوة بها يسوس الغضب والشهوة ، ويحملهما على مقتضى الحكمة ، ويضبطهما في الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاها ، إذ المراد من الحالة والقوة هنا قوة الاستعلاء التي للعقل العملي لا نفس القوة العملية .

وتفسيرها على الطريق الثاني هو ائتلاف جميع القوى ، واتفاقها على امتثالها للعاقلة ، بحيث يرتفع التخالف والتجاذب ، وتحصل لكل منها فضيلته المختصة به . ولا ريب في أن اتفاق جميع القوى وائتلافها هو كمال لجميعها لا للقوة العملية فقط .

أللهم إلا أن يقال إن الائتلاف إنما يتحقق باستعمال كل من القوى على الوجه اللائق ، واستعمال كل قوة ولو كانت قوة نظرية إنما يكون من القوة العملية ، لأن شأنها تصريف القوى في المحال اللائقة على وجه الاعتدال ، وبدونها لا يتحقق صدور فعل عن قوة .

ثم العدالة على الطريق الأول تكون أمراً بسيطاً مستلزماً للملكات الثلاث أعنى الحكمة والعفة والشجاعة ، وعلى الثاني تحتل البساطة والتركيب على الظاهر ، وإن كانت البساطة أقرب نظراً إلى أن الاعتدال الخلقى بهزلة الاعتدال المزاجي الحاصل من ازدواج العناصر المتخالفة ، وقد برهن في أصول الحكمة أن المزاج كيفية بسيطة .

وتفصيل الكلام في المقام أنه إذا حصلت الملكات الثلاث حصل للعقل العملي قوة الاستعلاء والتدبير على جميع القوى ، بحيث كانت الجميع منقاداً له ، واستعمل كلاً منها على ما يقتضيه رأيه ، فان جمعت العدالة عبارة عن نفس هذه القوة ، أو نفس تدبير التصرف في البدن وأمور المنزل والبلد ،

دون الملكات الثلاث كانت العدالة بسيطة وكانت كمالا للعقل العملي فقط ، وان جعلت نفس الملكات كانت مركبة ، وحينئذ لا يناسب جعلها فضيلة على حدة معدودة في إعداد الفضائل ، لأن جميع الأقسام لا يكون قسما منها ، وليس الإئتلاف والامتزاج هيئة وحدانية عارضة للملكات الثلاث حتى تكون شيئا على حدة ونوعاً مركباً .

ثم على الطريقتين يتحقق التلازم بين العدالة والملكات الثلاث إلا أنه على الطريق الأول تكون العدالة علة ، والملكات الثلاث معلولة ، وعلى الطريق الثاني ينعكس ذلك لتوقف حصول العدالة على وجود تلك الملكات وامتزاجها ، فهي أجزاء للعدالة أو بمنزلتها .

تكملة

العدالة انقياد العقل للعملي للعقل النظري

الحق أن حقيقة العدالة هو التفسير الأول المذكور في الطريق الأول ، أعني انقياد العقل العملي للقوة العاقلة ، وسائر التفسيرات المذكورة في الطريقتين لازمة له ، إذ الانقياد المذكور يلزمه اتفاق القوى وقوة الاستعلاء والسياسة للعقل العملي على قوتي الغضب والشهوة ، أو نفس سياسته إياهما وضبطهما تحت إشارة العقل النظري ، وأمثال ذلك ، وعلى هذه التفسيرات اللازمة للأول يلزم أن تكون العدالة جامعة لجميع الفضائل ، ويتحقق معناها في كل فضيلة حتى تكون فرداً لها .

وتحقيق المقام أن انقياد العقل العملي للعاقلة يستلزم ضبط قوتي الغضب والشهوة تحت إشارة العقل ، وسياسته إياهما ، واستعلائه عليهما . وهذا يستلزم اتفاق جميع القوى وامتزاجها . فجميع الفضائل الصادرة عن قوتي

الغضب والشهوة ، بل عن العاقلة أيضاً ، إنما تكون بتوسط العقل العملي وضبطه إياها ، إلا أن ذلك لا يوجب كونها كلاً له حتى يعد من فضائله ، ووجهه ظاهر ، ولا كون الضبط المذكور عدالة .

فالحق أن حقيقة العدالة هو مجرد انقياد العاملة للعاقلة ، ومثل الضبط والاستعلاء والسياسة من لوازمه ، والفضائل الصادرة عن القوى الأخرى بتوسط العقل العقلي إنما تندرج تحت لازم العدالة ، لا عيناها . فمن أدرج جميع الفضائل تحت العدالة نظره إلى اعتبار ما يلزمها ، ومن لم يدرجه تحتها نظره إلى عدم اعتباره . وعلى هذا لا بأس بأن يقال إن للعدالة إطلاقين (أحدهما) العدالة بالمعنى الخاص (وثانيهما) العدالة بالمعنى الأعم .

ثم إن القوم ذكروا لكل واحد من الفضائل الأربع أنواعاً ، فكما أدرجوا تحت كل من الحكمة والعفة والشجاعة أنواعاً ، فكذا أدرجوا تحت العدالة أيضاً أنواعاً كالوفاء والصدقة والعبادة وغيرها .

وأنت - بعد ما علمت أن العدالة بالتفسير الأول هو انقياد العاملة للعاقلة في استعمال نفس العاقلة وقوى الغضب والشهوة - تعلم أن الفضائل بأسرها إنما تحصل باستعمال العاملة القوى الثلاث ، فكل فضيلة إنما تتعلق حقيقةً بأحدى الثلاث ، وإن كان حصولها بتوسط العاملة وضبطها الثلاث ، إذ كون الاستعمال والضبط منها لا يقتضي استناد ما يحصل من الفضائل باستعمالها إليها مع صدورهما حقيقة عن سائر القوى . وكذا لا يقتضي استناد ما يحصل من الرذائل لعدم انقيادها للعاقلة إليها . ومعلوم أنه لا يترتب على مجرد انقيادها أو عدمه لها فضائل ورذائل لم يكن لها تعلق بالثلاث أصلاً ، إذ كل فضيلة ورذيلة إما متعلق بالقوة العقلية ، أو بقوى الغضب والشهوة بتوسط العاملة ، وليس لها في نفسها فضيلة ورذيلة على حدة كما لا يخفى . مع أنه لو كان

الاستعمال والضبط منشأ لاستناد ما يحصل من الفضائل اليها لزم أن تستند اليها جميع الفضائل ، فكان اللازم ادخال جميع الفضائل تحت العدالة . وكذا الحال على تفسير العدالة بالطريق الثاني كما ظهر .

وعلى هذا فيلزم من عدم بعض الفضائل من أنواع العدالة دون بعض آخر تخصيص بلا محصر ، فالفضائل التي جعلوها أنواعاً مندرجة تحت العدالة بعضها من أنواع الشجاعة أو لوازمها ، وبعضها من أنواع العفة أو آثارها ، وإن كان للعامة من حيث التوسط مدخلة في حصول الجميع . فنحن لا نتابع القوم ، ونجري على مقتضى النظر من جعل أنواع الفضائل والرذائل وأصنافها ونتائجها متعلقة بالقوى الثلاث دور العقل العملي ، وإدخال جميعها تحت أجناسها على ما ينبغي من دون إدخال شيء منها تحت العدالة وضدها .

ثم إن الرذائل والفضائل مع مدخلة القوة العملية فيها بالاستعمال ، إما متعلقة بمجرد إحدى القوى الثلاث ، أو بائنتين منها ، أو بالثلاث . ومثال المتعلق باحداها ظاهر كالجهل والعلم المتعلقين بالعاقلة ، والغضب والحلم المتعلقين بالقوة الغضبية ، والحرص والقناعة المتعلقين بالقوة الشهوية ، وأما ما يتعلق بائنتين منها أو الثلاث ، فاما أن يكون له أصناف يتعلق بعضها ببعض وبعضها ببعض آخر ، كحب الجاه أعنى طلب المنزلة في القلوب : فانه إن كان المقصود منه الاستيلاء على الخلق والتفوق عليهم ، كان من رذائل قوة الغضب . وإن كان المقصود منه طلب المال ليتوسل به الى شهوة البطن والفرج ، كان من رذائل قوة الشهوة ، وكذا الحسد أعنى تمنى زوال النعمة عن الغير : إن كان باعته العداوة كان من رذائل القوة الغضبية . وإن كان باعته مجرد وصول النعمة اليه كان من رذائل القوة الشهوية . أو يكون للثلاث أو الاثنتين مدخلة بالاشتراك في نوع الفضيلة والرذيلة أو بعض أصنافه ، كالحسد الذي

باعثه العداوة ، وتوقع وصول النعمة اليه معاً ، وكالغرور وهو سكون النفس الى ما يوافق الهوى ، وتميل النفس اليه بخدعة من الشيطان ، فان النفس إن كانت مائلة بالطبع الى شئ* من مقتضيات الشهوة ، واعتقدت جهلاً كونه خيراً لها كان ذلك من رذائل قوى العاقلة والشهوة ، وإن كانت مائلة الى شئ* من مقتضيات قوة الغضب . واعتقدت جهلاً كونه خيراً لها كان ذلك من رذائل قوى العاقلة والغضب ، وإن كانت مائلة الى شئ* من مقتضياتها معاً مع اعتقادها كونه خيراً لها كان من رذائل الثلاث معاً .

ثم مرادنا من تعلق صفة بالقوى المتعددة وكونها معدودة من رذائلها أو فضائلها أن يكون لكل منها تأثير في حدوثها وإيجادها ، أى يكون من جملة عللها الفاعلة الموجدة ، بحيث لو قطع النظر عن فعل واحدة منها لم يتحقق هذه الصفة ، فان الغرور يتحقق بالميل والاعتقاد ، بمعنى أن كلا منهما مؤثر في إيجادها وإحداثها ، ولو لم يكن الاعتقاد المتعلق بالعاقلة والميل المتعلق بالشهوة والغضب لم يوجد غرور . فلو كانت مدخلية قوة في صفة بمجرد الباعثية ، أى كانت باعثة لقوة أخرى على إيجاد هذه الصفة وإحداثها ، بحيث أمكن تحقق هذه الصفة مع قطع النظر عن هذه القوة ب باعث آخر لم يكن متعلقة بها ، ولم نعدا من رذائلها أو فضائلها ، بل كانت متعلقة بالقوة الأخرى التى هى مباشرة لإحداثها وإيجادها ، مثل الغضب الحاصل من فقد شئ* من مقتضيات شهوة البطن والفرج ، وإن كان باعثه قوة الشهوة إلا أنه ليس لقوة الشهوة وفعلها شركة في إحداثها وإيجادها ، بل الإحداث إنما هو من القوة الغضبية ، ومدخلية الشهوة إنما هو بتحركها وتهيجها الغضبية للإحداث والإيجاد ، ولا ريب في أن للعاقلة هذه الباعثية في صدور أكثر

الصفات مع عدم عدها من ردائلها ، أو فضائلها ، (١) .
وإذا عرفت ذلك فاعلم أنا نذكر أولاً ما يتعلق بالعاقلة من الردائل
والفضائل ، ثم ما يتعلق بالقوة الغضبية منها ، ثم ما يتعلق بالشهوية منها ،
ثم ما يتعلق بهما أو الثلاث .

وصل

العقل النظرى هو المدرك للفضائل والردائل

اعلم أن كل واحد من العقل العملى والعقل النظرى رئيس مطلق من
وجه ، أما الأول ، فمن حيث إن استعمال جميع القوى حتى العاقلة على النحو
الأصلح موكول إليه ، وأما الثانى ، فمن حيث إن السعادة القصوى وغاية
الغايات أعنى التحلى بحقائق الموجودات مستندة إليه ، وأيضاً إدراك ماهو الخير
والصلاح من شأنه فهو المرشد والدليل للعقل العملى فى تصرفاته .

وقيل : إن إدراك فضائل الأعمال وردائلها من شأن العقل العملى ، كما
صرح به الشيخ فى الشفاء بقوله : « إن كمال العقل العملى استنباط الآراء الكلية
فى الفضائل والردائل من الأعمال على وجه البناء على المشهورات المطابقة
فى الواقع للبرهان ، وتحقيق ذلك البرهان متعلق بكمال القوة النظرية » .
والحق أن مطلق الإدراك والإرشاد إنما هو من العقل النظرى فهو
بمنزلة المشير الناصح ، والعقل العملى بمنزلة المنفذ الممضى لإشاراته وما ينفذ
فيه الإشارة فهو قوة الغضب والشهوة .

(١) لم توجد فى نسختنا الخطية أسكنها . موجودة فى نسخة خطية أخرى والمطبوعة .

دفع الاستطال

في تقسيم الحكمة

ان قيل : إن القوم قسموا الحكمة أولاً الى النظرية والعملية ، ثم قسموا العملية الى ثلاثة أقسام : واحد منها علم الأخلاق المشتمل على الفضائل الأربع التي احداها الحكمة ، فيلزم أن تكون الحكمة قسماً من نفسها .

قلنا : الحكمة التي هي المقسم هو العلم بأعيان الموجودات ، سواء كانت لموجودات إلهية أى واقعة بقدرة البارئ سبحانه ، أو موجودات انسانية أى واقعة بقدرتنا واختيارنا ، ولما كان هذا العلم أعنى الحكمة التي هي المقسم قسماً من الموجودات بالمعنى الثاني ، فلا بأس بالبحث عنه في علم الأخلاق ، فان غاية ما يلزم أن تكون الحكمة موضوعاً لمسألة هي جزؤها بان يجعل عنواناً فيها ويحمل عليها كونها ملكة معمودة ، أو طريق اكتسابها كذا .

وبالجملة لا مانع من أن يجعل علم يبحث فيه عن احوال الموجودات موضوعاً لمسألة ، ويبحث عنه فيه باثبات صفة له لأجل انه أيضاً من الموجودات كما انه في العلم الأعلى الذي يبحث فيه عن الموجودات من حيث وجودها ، يبحث عن نفس العلم لكونه من الموجودات ، ويجعل موضوعاً لمسألة من مسائله ، ولا يلزم من هذا كون الشيء جزءاً لنفسه . وأيضاً نقول كما أن الحكمة العملية قسم من مطلق الحكمة لتعلق العمل بالنظر ، فكذا المطلق قسم منها لتعلق النظر بالعمل ، وحينئذ كما أن العدالة من الحكمة باعتبار فكذا الحكمة من العدالة باعتبار آخر ، فتختلف الحيثية ولا يلزم محذور .

وقيل : في الجواب إن المراد من الحكمة التي هي احدى الفضائل الأربع استعمال العقل على الوجه الأصح ، وحينئذ فلا يرد اشكال أصلاً لعدم كون

الحكمة بهذا المعنى عين المقسم لأنها جزء له . وفيه أن الحكمة بهذا المعنى هي العدالة على ما تقرر ، مع أن العدالة أيضاً إحدى الفضائل الأربع .

(تنبيه) قد صرح علماء الأخلاق بأن صاحب الفضائل الأربع لا يستحق المدح ما لم تتعد فضائلها إلى الغير ، ولذا لا يسمى صاحب ملكة السخاء بدون البذل سخياً بل منافقاً ، ولا صاحب ملكة الشجاعة بدون ظهور آثارها شجاعاً بل غيوراً ، ولا صاحب ملكة الحكمة بدونها حكيماً بل مستبصراً . والظاهر أن المراد باستحقاق المدح هو حكم العقل بوجوب المدح ، فإن من تعدى أثره يرجى نفعه ، ويخاف ضرره ، فيحكم العقل بلزوم مدحه جلباً للنفع ، أو دفعاً للضرر ، وأما من لا يرجى خيره وشره فلا يحكم العقل بوجوب مدحه وإن بلغ في الكمال ما بلغ .

فصل

تحقيق الوسط والأطراف

لا ريب . في أنه بازاء كل فضيلة رذيلة هي ضدها ، ولما عرفت أن أجناس الفضائل أربعة فاجناس الرذائل أيضاً في بادى النظر أربعة : الجهل ، وهو ضد الحكمة ، والجبن ، وهو ضد الشجاعة ، والشره وهو ضد العفة ، والجور ، وهو ضد العدالة . وعند التحقيق يظهر أن اسكل فضيلة حدأ معيناً ، والتجاوز عنه بالافراط أو التفريط يؤدي الى الرذيلة ، فالفضائل بمنزلة الأوساط ، والرذائل بمثابة الأطراف ، والوسط واحد معين لا يقبل التعدد ، والأطراف غير متناهية عدداً . فالفضيلة بمثابة مركز الدائرة ، والرذائل بمثابة سائر النقاط المفروضة من المركز الى المحيط ، فإن المركز نقطة معينة ، مع كونه أبعد النقاط من المحيط ، وسائر النقاط المفروضة من جوانبه غير

متناهية ، مع أن كلا منها أقرب منه من طرف إليه .

فعلى هذا يكون بازاء كل فضيلة رذائل غير متناهية ، لأن الوسط محدود معين ، والأطراف غير محدودة ، وتكون الفضيلة في غاية البعد عن الرذيلة التي هي نهاية الرذائل ، ويكون كل منها أقرب منها الى النهاية (١) ، ومجرد الانحراف عن الفضيلة من أى طرف اتفق يوجب الوقوع في رذيلة . والثبات على الفضيلة والاستقامة في سلوك طريقها بمنزلة الحركة على الخط المستقيم ، وارتكاب الرذيلة كالانحراف عنه ، ولا ريب في أن الخط المستقيم هو أقصر الخطوط الواصلة بين النقطتين ، وهو لا يكون إلا واحداً ، وأما الخطوط المنحنية بينها فغير متناهية ، فالاستقامة في طريق الفضيلة وملازمتها على نهج واحد ، والانحراف عنه تكون له مناهج غير متناهية ، ولذلك غلبت دواعي الشر على بواعث الخير .

ويظهر مما ذكر أن وجدان الوسط الحقيقي صعب ، والثبات عليه بعد الوجدان أصعب . لأن الاستقامة على جادة الاعتدال في غاية الاشكال ، وهذا معنى قول الحكماء ، « اصابة نقطة الهدف أعسر من العدول عنها ، ولزوم الصواب (٢) بعد ذلك حتى لا يخطيها أسر ، ولذلك لما أُمرَ نجر الرسل بالاستقامة في قوله تعالى :

« فَاسْتَقِيمْ كَمَا أُمِرْتَ » (٣) .

قال شيببني سورة هود ١١١ ، إذ وجد ان الوسط الحقيقي فيما بين الأطراف الغير المتناهية المتقابلة مشكل ، والثبات عليه بعد الوجدان اشكل .

(١) أى ان كلا من الرذائل أقرب من الفضيلة الى النهاية .

(٢) الصواب : يقال فلان مستقيم الصوت اذا لم يزغ عن قصده يمينا وشمالا .

(٣) هود الآية : ١١٢ .

وقال (المحقق الطوسي) وجماعة : « إن ماورد في اشارات النواميس من ان الصراط المستقيم أدق من الشعر ، وأحد من السيف اشارة الى هذا المعنى ، وغير خفي بأن هذا التأويل جرأة على الشريعة القويمة ، وهتك لأستار السنة الكريمة ، والواجب الأذعان بظاهر ما ورد من أمور الآخرة . نعم يمكن ان يقال كامر : إن الأمور الاخروية التي حصل بها الوعد والوعيد كلها أمور محققة ثابتة على ما اخبر به ، الا انها صور للأخلاق ، والصفات المكتسبة في هذه النشأة قد ظهرت بتلك الصور في دار العقبي بحسب المرتبة ، إذ ظهورات الأشياء مختلفة بحسب اختلاف المراتب والنشآت ، فواد ما يؤذى ويريج من الصور في موطن المعاد انما هو الأخلاق والنيات المكتسبة في هذه النشأة . وهذا المذهب مما استقر عليه آراء اساطين الحكمة والعرفان ، وذكرنا الظواهر الدالة عليه من الآيات والأخبار ، واشرنا إلى حقيقة الحال فيه . وعلى هذا فالصراط المستقيم الممدود كالجسر على الجحيم صورة لتوسط الأخلاق ، والجحيم صورة لأطرافها ، فمن ثبت قدمه على الوسط هنا لم يزل عن الصراط هناك ووصل إلى الجنة التي وعدها الله المتقين ، ومن مال إلى الأطراف هنا سقط هناك في جهنم التي احاطت بالكافرين .

ثم الوسط أما حقيق وهو ما تكون نسبته إلى الطرفين على السواء كالاربعة بالنسبة إلى الاثنين والستة ، وهذا كالمعتدل الحقيق الذي انكر الاطباء وجوده ، أو اضافي وهو اقرب ما يمكن تحقيقه للنوع أو الشخص إلى الحقيق ، ويتحقق به كمالهما « اللائق بكمالهما » (١) وان لم يصل اليه ، فالنسمية بالوسط انما هو بالنسبة الى الأطراف التي هي أبعد من الحقيق بالاضافة اليه . وهذا كالاعتدالات النوعية والشخصية التي اثبتها الاطباء ، فان المراد منها الاعتدالات

(١) غير موجودة في نسختنا الحظية لكنها موجودة في نسخة خطية اخرى وفي المطبوعة

التي يمكن تحققها للأشخاص ، وهو القدر الذي يليق بكل نوع أو شخص أن يكون عليه ، وإن لم يكن اعتدالاً حقيقياً بمعنى تساوى الأجزاء البسيطة العنصرية وتكافؤها في القوة والأقربىة إلى الحقيقي بالنسبة إلى سائر الأطراف سمي اضافياً .

ثم الوسط المعبر هنا هو الاضافى لتعذر وجدان الحقيقي والثبات عليه ، ولذا تختلف الفضيلة باختلاف الأشخاص والأحوال والأزمان ، فربما كانت مرتبة من الوسط الاضافى فضيلة بالنظر إلى شخص أو حال أو وقت ، ورذيلة بالنسبة إلى غيره .

وتوضيح الكلام انه لا ريب في ان الوسط الحقيقي في الأخلاق لكونه في حكم نقطة غير منقسمة لا يمكن وجدانه ولا الثبات عليه ، ولذا ترى من هو متصف بفضيلة من الفضائل لا يمكن الحكم بكون تلك الفضيلة ، هي الوسط الحقيقي ، إلا انه لما كانت تلك الفضيلة ، (١) قريبة اليه ولا يمكن وجود الأقرب منها اليه له ، يحكم بكونها وسطاً اضافياً لا قريبتها اليه بالنسبة إلى سائر المراتب فالاعتدال الاضافى له عرض ، ووسطه الاعتدال الحقيقي ، وطرفاه طرفا الإفراط والتفريط ، إلا انه ما لم يخرج عن هذين الطرفين يكون اعتدالاً اضافياً ، وكلما كان أقرب إلى الحقيقي كان أكمل وأقوى ، وإذا خرج عنهما دخل في الرذيلة .

لا يقال : على هذا ينبغي أن يكون الاعتدال الطبي في المزاج أيضاً كذلك أى له عرض ووسطه الاعتدال الحقيقي وطرفاه خارجان عن الاعتدال الطبي ، حتى انه كلما قرب إلى الحقيقي صار الطبي أقوى وأكمل . مع انه ليس الأمر كذلك ، إذ القياس يقتضى الخروج عن الاعتدال الطبي ، أو ضعفه لقربه إلى الحقيقي .

بيان ذلك ، ان الاعتدال الحقيقي في المزاج أن تكون أجزاء العناصر

(١) هذه العبارة بتمامها لم توجد في نسختنا المطبوعة .

متكافئة القوة ، والاعتدال الطبي في نوع الانسان أو شخص من اشخاصه ان تكون الأجزاء الحارة مثلاً من عشرة إلى اثني عشرة ، والباردة من ثمانية إلى تسعة ، واليابسة من سبعة إلى ثمانية ، والرطبة من ستة إلى سبعة ، فإذا كانت الأجزاء الحارة ستة ، والباردة خمسة ، واليابسة أربعة ، والرطبة ثلاثة كانت خارجة عن الاعتدال الطبي ، مع صيرورته أقرب إلى الحقيقي ، بل إذا فرضت تكافؤ أجزاء العناصر الأربعة حتى حصل نفس الاعتدال الحقيقي خرجت أيضاً عنه ، فلا يكون الحقيقي وسط الطبي حتى انه كلها يصير اليه أقرب يكون أقوى وأكمل .

لأننا نقول نحن لا ندعى : أن الحقيقي وسط الطبي بل هو أمر مغاير له ، والحقيقي في طرفه الخارج ، فان له طرفين : أحدهما ، أن يصير الأجزاء أقرب في التساوي مما كان للطبي الى أن يبلغ إلى الحقيقي ، « والثاني ، أن يصير أبعد فيه مما كان له الى غير النهاية ، إلا أن بعض مراتب الطرفين التي منها الاعتدال الحقيقي غير ممكن الوقوع فتأمل .

فان قيل : ان الوسط المعبر هنا إن كان اضافياً ، لكان له عرض كعرض المزاج ، فلا يناسب وصفه بالحدة والدقة ، قلنا : كما في عرض المزاج مرتبة هي أفضل المراتب وأقربها إلى الاعتدال الحقيقي ، كذلك في عرض الوسط للملكات مرتبة هي أفضل المراتب وأقربها إلى الحقيقي ، وهي المطلوبة بالذات ، ولا ريب في أن خصوص هذه ليس لها عرض واسعة ، فلا بأس بوصفها بالدقة والحدة ، وأما سائر المراتب المحدودة من الوسط وان لم تكن خالية عن شوائب الإفراط والتفريط ، إلا أنه لما كان لها قرب محدود إلى المرتبة المطلوبة بحيث يصدق معه كون النوع أو الشخص باقياً على كماله اللاتق به عدت من الأوساط والفضائل ، كما ان غير الأقرب إلى الاعتدال الحقيقي من مراتب عرض

المزاج يعد من الاعتدال: لكون النوع أو الشخص معه باقياً محفو ظاً بحيث لا يظهر خلل بين أفعاله وإن لم يخل عن الانحراف، ولو وصف هذه المراتب أيضاً بالحدة والدقة مع سعتها فوجهه أن وجدانها والثبات عليها لا يخلو أيضاً من صعوبة.

فصل

(أجناس الرذائل وأنواعها)

قد ظهر مما ذكرناه بازاء كل فضيلة رذائل غير متناهية من طرفي الإفراط والتفريط ، وليس لكل منها اسم معين ولا يمكن عد الجميع وليس على صاحب الصناعة حصر مثلها ، لأن وظيفته بيان الأصول والقوانين الكلية ، لا أحصاء الأعداد الجزئية .

والقانون اللازم بيانه هو أن الانحراف عن الوسط إما إلى طرف الإفراط أو إلى طرف التفريط ، فيكون بازاء كل فضيلة جنسان من الرذيلة، ولما كانت أجناس الفضائل أربعة فتكون أجناس الرذائل ثمانية (اثنان) بازاء الحكمة « الجريزة والبله » : و (الأول) في طرف الإفراط وهو استعمال الفكر في ما لا ينبغي أو في الزائد عما ينبغي و (الثاني) في طرف التفريط وهو تعطيل القوة الفكرية وعدم استعمالها في ما ينبغي أو في أقل منه ، والأولى أن يعبر عنهما (بالسفسطة) أي الحكمة المموهة ، و (الجهل) أي البسيط منه ، لأن حقيقة الحكمة هو العلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه وهو موقوف على اعتدال القوة العاقلة ، فإذا حصلت له حدة خارجة عن الاعتدال يخرج عن الحد اللائق ويستخرج أموراً دقيقة غير مطابقة للواقع، والعلم بهذه الأمور هو ضد الحكمة من طرف الإفراط وإذا حصلت لها بلادة لا ينتقل إلى شيء فلا يحصل لها العلم بالحقائق وهذا هو الجهل وهو ضده من

طرف التفريط (واثنان) بازاء الشجاعة ، التهور والجبن ، : (الأول) في طرف الإفراط وهو الاقدام على ما ينبغي الحذر عنه ، و (الثاني) في طرف التفريط وهو الحذر عما ينبغي الاقدام عليه . (واثنان) بازاء العفة وهما : الشره والخمود ، : و (الأول) في طرف الإفراط وهو الانهماك في اللذات الشهوية على ما لا يحسن شرعاً وعقلاً ، و (الثاني) في طرف التفريط وهو سكون النفس عن طلب ما هو ضروري للبدن . (واثنان) بازاء العدالة وهما : الظلم والانظلام ، : و (الأول) في طرف الإفراط وهو التصرف في حقوق الناس وأموالهم بدون حق ، و (الثاني) في طرف تفريط وهو تمكين الظالم من الظلم عليه وانقياده له فيما يريد من الجبر والتعدي على سبيل المذلة ، هكذا قيل .

والحق أن العدالة مع ملاحظة ما لا ينفك عنها من لازمها ، لها طرف واحد يسمى جوراً وظلماً ، وهو يشمل جميع ذمائم الصفات ، ولا يختص بالتصرف في حقوق الناس وأموالهم بدون جهة شرعية ، لأن العدالة بهذا المعنى - كما عرفت - عبارة عن ضبط العقل العملي بجميع القوى تحت إشارة العقل النظري ، فهو جامع للسكالات بأسرها ، فالظلم الذي هو مقابله جامع للنقائص بأسرها ، إذ حقيقة الظلم وضع الشيء في غير موضعه ، وهو يتناول جميع ذمائم الصفات والأفعال فتمكين الظالم من ظلمه لما كان صفة ذميمة يكون ظلماً ، على أن من مكّن الظالم من الظلم عليه وانقاد له ذلة . فقد ظلم نفسه ، والظلم على النفس ايضاً من أقسام الظلم . هذا هو بيان الطرفين لكل من الأجناس الأربعة للفضيلة .

ثم لكل واحد من اجناس الرذائل والفضائل انواع ولوازم من الاخلاق والأفعال ذكرها علماء الاخلاق في كتبهم ، وقد ذكروا للعدالة ايضاً انواعاً ، وقد عرفت فيما تقدم أن تخصيص بعض الصفات بالاندرج

تحتها مما لا وجه له ، إذ جميع الرذائل والفضائل لا يخرج عن التعلق بالقوى الثلاث ، اعنى العاقلة والغضبية والشهوية ، وإن كان للقوة العملية مدخلة في الجميع من حيث التوسط ، فنحن ندخل الجميع تحت اجناس القوى الثلاث من غير اندراج شئ منها تحت العدالة ، وقد عرفت ان بعضها متعلق بالعاقلة فقط ، وبعضها بالقوة الغضبية فقط ، وبعضها بالشهوية فقط ، وبعضها بالاثنتين منها أو الثلاث معاً ، فنحن نذكر ذلك في مقامات أربعة .

ولمزيد الأحاطة نشير هنا إجمالاً الى اسماء الاجناس والأنواع واللوازم التى لكل جنس ، ونذكر أولاً ما يتعلق بالعاقلة ، ثم ما يتعلق بالغضبية ، ثم ما يتعلق بالشهوية ، ثم ما يتعلق بالثلاث أو الاثنتين منها ، ونذكر أولاً الرذيلة ، ثم نشير الى ضدها من الفضيلة ان كان له اسم ، ثم فى باب المعالجات نذكر معالجة كل رذيلة من الاجناس والأنواع والنتائج ونزيلها بذكر ضدها من الفضيلة ، ونذكر أولاً جنسى الرذيلة لكل قوة ، ونزيلها بضدهما الذى هو جنس فضيلتها ، ثم نذكر الأنواع والنتائج على النحو المذكور ، أى نذكر أولاً الرذيلة باحكامها ومعالجاتها ، (١) ، ثم نشير الى ضدها ، وما ورد فى مدحه ترغيباً للطالبين على أخذه والاجتناب عن ضده ، ولذلك لم نتابع القوم فى التفريق بين الرذائل والفضائل وذكر كل منهما على حدة .

ثم بيان الأنواع واللوازم على ما ذكر أكثره القوم لا يخلو عن الاختلال إما فى التعريف والتفسير ، أو فى الفرق والتمييز ، أو فى الادخال تحت ما جعلوه نوعاً له ، أو غير ذلك من وجوه الاختلال ، فنحن لا نتبعهم فى ذلك ، ونبينها ادخالاً وتمييزاً وتعريفاً ما يقتضيه النظر الصحيح ، فنقول :

أما جنس الرذيلة للقوة العقلية ، « فاولها » (الجربرة والسفسطة) وهى

(١) هذه الكلمة موجودة فى نسختنا المخطئة فقط .

من طرف الافراط ، و ثانيهما ، (الجهل البسيط) وهو من طرف التفريط
 وضدهما (العلم والحكمة) ، واما الأنواع واللوازم المترتبة عليهما ، فمنها (الجهل
 المركب) وهو من باب رداءة الكيفية . ومنها (الحيرة والشك) وهو من
 طرف الافراط على ما قيل ، وضد الجهل المركب ادراك ما هو الحق أو زوال
 العلم بأنه يعلم ، وضد الحيرة الجزم بأحد الطرفين . وبذلك يظهر ان اليقين ضد
 لسكل منهما ، لأنه اعتقاد جازم مطابق للواقع ، فمن حيث اعتبار الجزم فيه
 يكون ضداً للحيرة ، ومن حيث اعتبار المطابقة للواقع يكون ضداً للجهل
 المركب ، ومنشأ حصول اليقين هو استقامة الذهن وصفائه مع مراعاة شرائط
 الاستدلال ، ومنشأ الجهل المركب إعوجاج الذهن ، أو حصول الخطأ في
 الاستدلال ، أو وجود مانع من افاضة الحق كعصبية ، أو تقليد أو أمثال
 ذلك ، ومنشأ الحيرة هو قصور الذهن وكدرته ، أو الالتهاب الموجب للتجاوز
 عن المطلوب ، أو عدم الاحاطة بمقدماته ، ومنها (الشرك) وضده التوحيد .
 ومنها الوسوس ، النفسانية والخواطر الباطلة الشيطانية ، وهذا ايضاً من
 باب رداءة الكيفية ، وكان الظاهر ان يعد ذلك من رذائل قوى الوهم والمتخيلة
 دون العاقلة ، إذ الغالب انها لا تنفك عن الاختلال فيهما ، إلا أنك قد عرفت
 العذر في ذلك ، وضدها الخواطر المحمودة التي من جملتها الفكر في بدائع صنع
 الله سبحانه وعجائب مخلوقاته . ومنها (استنباط المسكر والحيلة) للوصول
 الى مقتضيات الشهوة والغضب ، وهو من طرف الافراط .

وأما جنس الرذائل للقوة الغضبية ، فالولها (التهور) وثانيهما (الجبن)
 وقد عرفت ان ضدهما من الفضيلة (الشجاعة) . وأما الأنواع واللوازم والنتائج
 المترتبة عليها ، فمنها (الخوف) وهو هيئة نفسانية مؤذية تحدث من توقع
 مكروه أو زوال مرغوب ، وهو مذموم إلا ما كان لأجل المعصية والخيانة ،

أو من الله وعظمته . والمذموم من رذائل تلك القوة ومن نتائج الجبن وضده
الآمن والطمأنينة ، والممدوح من فضائلها لسكونه مقتضى العقل وضده الآمن
من مكر الله ، وهو - أى الممدوح من الخوف - يلزم الرجاء وضده اليأس .
ومنها (صغر النفس) أى ملسكة العجز عن تحمل الواردات وهو من نتائج
الجبن ، وضده كبر النفس أى ملسكة التحمل لما يرد عليه كائناً ما كان . ومن
جملة التحمل التحمل على الخوض فى الأهوال ، وقوة المقاومة مع الشدائد
والآلام ويسمى (بالثبات) فهو أخص من كبر النفس ، وضده الاضطراب
فى الأهوال والشدائد . ومن جملة الثبات الثبات فى الإيمان ، ومنها (دناءة
الهمة) وهو القصور عن طلب معالى الأمور وهو من لوازم ضعف النفس
وصغرها ، وضده (علو الهمة) الذى هو من لوازم كبر النفس وشجاعته ،
أى السعى فى تحصيل السعادة والكمال وطلب الأمور العالية من دون ملاحظة
منافع الدنيا ومضارها . ومن أفراد علو الهمة الشهامة ، ويأتى تفسيرها .
ومنها (عدم الغيرة والحمية) أى الإهمال فى محافظة ما يلزم حفظه ، وهو أيضاً
من نتائج صغر النفس وضعفها وضده ظاهر . ومنها (العجلة) وهو المعنى
الرائب (١) فى القلب الباعث على الاقدام على الأمر بأول خاطر من دون
توقف فيه ، وهو أيضاً من نتائج صغر النفس وضعفها ، وضدها الاناة
والتأنى ، و (التعسف) قريب من العجلة ، وضده أعنى (التوقف) قريب
من الاناة ، ويأتى الفرق بينهما ، والوقار يتناول التأنى والتوقف ، وهو اطمئنان
النفس وسكونها عند الحركات والأفعال فى الابتداء والائناء ، وهو من لوازم
كبر النفس وشجاعته . ومنها (سوء الظن بالله تعالى وبالمؤمنين) وهو من
لوازم الجبن وضعف النفس ، وربما كان من باب رداة الكيفية ، فضده أعنى

(١) الرائب : عيش رائب : أى دائم ثابت .

حسن الظن بهما من آثار الشجاعة وكبر النفس . ومنها (الغضب) وهو حركة نفسانية يوجب حركة الروح من الداخل الى الخارج للغلبة وهو من باب الافراط ، وضده الحلم . ومنها (الإنتقام) وهو من نتائج الغضب ، وضده العفو . ومنها (العنف) وهو أيضاً من نتائج الغضب ، وضده الرفق . ومنها (سوء الخلق) بالمعنى الأخص وهو أيضاً من نتائجه ، وضده (حسن الخلق) بالمعنى الأخص . ومنها (الحقد) وهو العداوة الكامنة ، أى ارادة الشر وقصد زوال الخير من المسلم ، وهو أيضاً من ثمرات الغضب . ومنها (العداوة) الظاهرة ، وضدها (النصيحة) أى ارادة الخير والصلاح ، ودفع الشر والفساد . عن كل مسلم . ثم للغضب والحقد لوازم هى الضرب والفحش واللعن والطعن . ومنها (العجب) وهو استعظام النفس ، وضده انكسارها واستحقارها (١) . ومنها (الكبر) وهو التعظم الموجب لرؤية النفس فوق الغير ، وضده (التواضع) وهو ان لا يرى لنفسه مزية على الغير . ومنها (الافتخار) وهو المباهاة بما يظنه كمالاً وهو من شعب الكبر . ومنها (البغى) وهو عدم الانقياد لمن يجب أن ينقاد وهو أيضاً من شعب الكبر . وضده (التسليم) والانقياد لمن يجب الانقياد اليه واطاعته ، وقد يفسر بطلق العلو والاستطالة (٢) ومنها (تزكية النفس) وضده الاعتراف بنقائصها . ومنها (العصبية) وهى الحماية عن نفسه وعمما ينتسب اليه بالباطل والخروج عن الحق . ومنها (كتمان الحق) وضدهما الانصاف والاستقامة على الحق . ومنها (القساوة) وهو عدم التأثر عن مشاهدة تألم ابناء النوع ، وضدها الرحمة .

(١) من كلمة (منها) الى قوله و(استحقارها) بتمام العبارة لم توجد في نسختنا الخطية لكنها موجودة في نسخة خطية أخرى .

(٢) من كلمة (منها) الى قوله و(الاستطالة) بتمام العبارة لم توجد في نسختنا الخطية لكنها موجودة في نسخة خطية أخرى .

وأما جنساً الرذائل المتعلقة بالقوة الشهوية فاحدهما (الشره) وثانيهما (الخمود) وضدهما (العفة) ، وأما الأنواع والنتائج واللوازم المتعلقة بها ، فمنها (حب الدنيا) . ومنها (حب المال) وضدهما الزهد . ومنها (الغنى) وضده الفقر . ومنها (الحرص) وضده القناعة . ومنها (الطمع) وضده الاستغناء عن الناس . ومنها (البخل) وضده السخاء ، وتدرج تحته وجوه الانفاقات بأسرها . ومنها (طلب الحرام) وعدم الاجتناب عنه ، وضده الورع والتقوى بالمعنى الخاص . ومنها (الغدر والخيانة) وضدهما الامانة . ومنها (أنواع الفجور) من الزنا واللواط وشرب الخمر والاشتغال بالملاهي وامثالها . ومنها (الخوض في الباطل) . ومنها (التكلم بما لا يعنى وبالفضول) وضدهما الترك والصمت ، أو بالتكلم بما يعنى بقدر الضرورة .

وأما الرذائل والفضائل المتعلقة بالقوى الثلاث ، أو باثنتين منها : فمنها (الحسد) وضده النصيحة . ومنها (الايذاء والاهانة والاحتقار) وضدها كف الأذى والاكرام والتعظيم ، والايذاء قريب من الظلم بالمعنى الخاص أو أعم منه ، وضد الظلم بالمعنى الخاص العدالة بالمعنى الخاص . ومنها (إخافة المسلم وادخال الكرب في قلبه) وضدهما إزالة الخوف والكرب عنه . ومنها (ترك اعانة المسلمين) وضده قضاء حوائجهم . ومنها (المداهنة) في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وضده السعي فيهما . ومنها (الهجرة والتباعد عن الاخوان) وضده التآلف والتزاور . ومنها (قطع الرحم) وضده الصلة . ومنها (عقوق الوالدين) وضده البر اليهما . ومنها (تجسس العيوب) وضده السر . ومنها (إفشاء السر) وضده السكتان . ومنها (الافساد بين الناس) وضده اصلاح بينهم . ومنها (الشتمة بمسلم) . ومنها (المراء والجدال والخصومة) وضدهما طيب الكلام . ومنها (السخرية والاستهزاء) وضدهما

المزاح . ومنها (الغيبة) وضدها المدح ودفع الذم . ومنها (الكذب) وضده الصدق ، ولجميع آفات اللسان مما له ضد خاص ، وما ليس له ضد بخصوصه ضد عام هو الصمت . ومنها (حب الجاه والشهرة) وضده حب الخمول . ومنها (حب المدح وكرهه الذم) وضده مساواتهما . ومنها (الريا) وضده الاخلاص . ومنها (النفاق) وضده استواء السر والعلانية . ومنها (الغرور) وضده الفطانة والعلم والزهد . ومنها (طول الأمل) وضده قصره . ومنها (مطلق العصيان) وضده الورع والتقوى بالمعنى الاعم . ومنها (الوقاحة) وضده الحياء . ومنها (الاصرار على المعصية) وضده التوبة ، وأقصى مراتبها الانابة والمحاسبة والمراقبة قريبة من التوبة . في ضديتها للاصرار . ومنها (الغفلة) وضدها النية والارادة . ومنها (عدم الرغبة) وضده الشوق . ومنها (السكراهة) وضده الحب . ومنها (الجفاء) وضده الوفاء وهو من تمام الحب . ومنها (البعد) وضده الانس ومن لوازمه حب الخلوة والعزلة . ومنها (السخط) وضده الرضا ، وقريب منه التسليم ويسمى تفويضاً ، بل هو فوق الرضا كما يأتي . ومنها (الحزن) وضده السرور . ومنها (ضعف الوثوق والاعتماد على الله) وضده التوكل . ومنها (الكفران) وضده الشكر . ومنها (الجزع والهلع) وضده الصبر . ومنها (الفسق) وهو الخروج عن طاعة الله وعبادته ، وضده الطاعة والعبادة ، وتندرج تحتها (العبادات الموظفة في الشرع) (١) من الطهارة ، والصلاة ، والذكر وتلاوة القرآن ، والزكاة والخمس والصوم والحج والزيارات . ونحن نذكر الزكاة والخمس في وجوه الانفاق ، وما سواهما في العبادات .

(تنبيه) اعلم أن إحصاء الفضائل والرذائل وضبطهما ، وإدخال البعض في البعض ، والاشارة الى القوة الموجبة لها على ما فصلناه ، مما لم يتعرض له

(١) هذه العبارة بتمامها غير موجودة في نسختنا المخطئة .

علماء الأخلاق ، بل إنما تعرضوا لبعضها ، ويظهر من كلامهم في بعض المواضع المخالفة في الإدخال .

والسرفيه أن كثيراً من الصفات لها جهات مختلفة كل منها يناسب قوة كما أشرنا إليه ، فالاختلاف في الإدخال لأجل اختلاف الاعتبار للجهات . وقد عرفت أن ما له جهات مختلفة يتعلق بالقوى المتعددة نحن نجعل مبدأه الجميع ونعده من رذائله أو فضائله ، ولا نخصه بواحدة منها ، ثم بعض الصفات ربما كان ببعض الاعتبار محموداً معدوداً من الفضائل ، وبعض الاعتبار معدوداً من الرذائل ، وذلك كالحببة والخوف والرجاء ، فإن الحب إن كان متعلقاً بالدنيا ومتعلقاتها كان مذموماً معدوداً من الرذائل ، وإن كان متعلقاً بالله وأوليائه كان محموداً معدوداً من الفضائل ، والخوف إن كان مما لا يخاف منه عقلاً كان من رذائل قوة الغضب ، وإن كان من المعاصي أو من عظمة الله كان من فضائلها ، والرجاء إن لم يكن في موقعه كان من الرذائل ، وإن كان في موقعه كان من الفضائل ، وقس عليها غيرها مما له الاعتبار المختلفة .

فصل

الفرق بين الفضيلة والرذيلة

قد دريت اجمالاً أن الفضائل المذكورة ملسكات مخصوصة ، لها آثار معلومة ، وربما صدر عن بعض الناس أفعال شبيهة بالفضائل ، وليست بها ، فلا بد من بيان الفرق بينهما لئلا يشتبه على الغافل فيضلل ويضل ، فنقول : قد عرفت أن فضيلة الحكمة عبارة عن العلم بأعيان الموجودات على ما هي عليه ، وهو لا ينفك عن اليقين والطمأنينة ، فجرد أخذ بعض المسائل وتقريرها على وجه لاثق من دون وثوق النفس واطمئنانها ليست حكمة ،

والأخذ بمثله ليس حكيماً ، إذ حقيقة الحكمة لا تنفك عن الاذعان القطعي واليقيني وهما مفقودان فيه ، فمثله كمثل الأطفال في التشبه بالرجال ، أو بعض الحيوانات في محاكاة ما للانسان من الأقوال والأفعال .

وأما فضيلة العفة ، فقد عرفت أنها عبارة عن ملكة انقياد القوة الشهوية للعقل ، حتى يكون تصرفها مقصوراً على أمره ونهيه ، فيقدم على ما فيه المصلحة وينزجر عما يتضمن المفسدة بتجويزه ، ولا يخالفه في أوامره ونواهيه ، وينبغي أن يكون الباعث للاتصاف بتلك الملكة وصدور آثارها مجرد كونها فضيلة وكالا للنفس وحصول السعادة الحقيقية بها ، لا شيء آخر من دفع ضرر ، أو جلب نفع ، أو اضطراب وإلجاء ، فالإعراض عن اللذات الدنيوية لتحصيل الأزيد من جنسها ليس عفة ، كما هو شأن بعض تاركي الدنيا للدنيا ، وكذا الحال في تركها لخمود القوة وقصورها وضعف الآلة وفتورها ، أو لحصول النفرة من كثرة تعاطيها ، أو للحذر من حدوث الأمراض والاستقام ، أو اطلاع الناس وتوبيخهم ، أو لعدم درك تلك اللذات كما هو شأن بعض أهالي الجبال والبادي . . . الى غير ذلك .

وأما فضيلة الشجاعة ، فقد عرفت أنها ملكة انقياد القوة الغضبية للعقل حتى يكون تصرفها بحسب أمره ونهيه ، ولا يكون للاتصاف بها وصدور آثارها داع سوى كونها كالا وفضيلة ، فالإقدام على الأمور الهائلة ، والخوض في الحروب العظيمة ، وعدم المبالاة من الضرب والقطع والقتل لتحصيل الجاه والمال ، أو الظفر بامرأة ذات جمال ، أو للحذر من السلطان ومثله ، أو للشهوة بين أبناء جنسه ، ليست صادرة عن ملكة الشجاعة ، بل منشأها إما رذيلة الشره أو الجبن ، كما هو شأن عساكر الجائرين ، وقاطعي الطرق والسارقين ، فمن كان أكثر خوفاً في الأهوال ، وأشد جرأة على الإبطال

للوصول الى شئ من تلك الاغراض ، فهو أكثر جبناً وحرصاً ، لا أكثر شجاعة ونجدة . وقس على ذلك الوقوع في المهالك والاهوال ، تعصباً عن الأقارب والاتباع ، وربما كان باعته تكرر ذلك منه مع حصول الغلبة ، فاغتر بذلك ولم يبال بالإقدام اتكالاً على العادة الجارية . ومثله مثل رجل ذى سلاح لم يبال بالمحاربة مع طفل أعزل ، فان عدم الحذر عنه ليس لشجاعته ، بل لمعجز الطفل . ومن هذا القبيل ما يصدر عن بعض الحيوانات من الصولة والإقدام ، فانه ليس صادراً عن ملكة الشجاعة ، بل عن طبيعة القوة والغلبة .

وبالجملة : الشجاع الواقعي ما كانت افعاله صادرة عن اشارة العقل ولم يكن له باعث سوى كونها جميلة حسنة ، وربما كان الحذر عن بعض الاهوال من مقتضيات العقل فلا ينافي الشجاعة ، وربما لم يكن الخوض في بعض الأخطار من موجباته فينافيها ، ولذا قيل عدم الفرع مع شدة الزلازل وتواتر الصواعق من علام الجنون دون الشجاعة ، وإيقاع النفس في الهلكات بلا داع عقلي أو شرعي كتعرضه للسباع المؤذية ، أو إلقاء نفسه من المواضع الشاهقة ، أو في البحار والشطوط الغامرة من دون علم بالسباحة من إمارات الفحقة والحماقة .

ثم الشجاع الحقيقي من كان حذره من العار والفضيحة أكثر من خوفه من الموت والهلاك ، فمن لا يبال بذهاب شرفه ، وفضيحة أهله وحرمه ، فهو من أهل الجنون والحماقة ، ولا يستحق اسم العقل والشجاعة ، كيف والموت عند الشجاع مع بقاء الفضيلة احسن من الحياة بدونها ، ولذا يختار الموت الجميل على الحياة القبيحة . على أن الشجاعة في المبادئ ربما كانت موزية ، وإنما تظهر لذتها في العاقبة (لا) سيما اذا حصلت بها الحماية عن الدين والملة ، والذب عن العقائد الحققة ، فان الشجاع لحبه الجميل ونباته على الرأي الصحيح إذا علم أن عمره في معرض الزوال والدثور ، وأثر الفعل الجميل يبقى على مر

الدهور ، يختار الجميل الباقي على الرذيل الفاني ، فيحامي عن دينه وشريعته ، ولا يبالي بما يحذر عنه غيره من أبناء طبيعته ، لعلمه بأن الجبان المقصر في حماية الدين ، ومقاومة جنود الشياطين إن بقي أياماً معدودة ، فع تكدرها بالذل والصغار تكون زائلة ، ولا ترضى نفسه بالحرمان عن السعادة الباقية ، ولذا قال نحر الشجعان وسيد ولد عدنان عليه صلوات الله الملك الرحمان لأصحابه : « أيها الناس إنكم إن لم تقتلوا تموتوا والذي نفس ابن أبي طالب بيده لألفد ضربة بالسيف على الرأس أهون من ميتة على الفراش » .

وبالجملة : كل فعل يصدر عن الشجاع في أى وقت يكون مقتضى للعقل مناسباً لهذا الوقت واقعاً في موقعه ، وله قوة التحمل على المصائب ، وملكة الصبر على الشدائد والنوائب ، ولا يضطرب من شدائد الأمور ، ويستخف بما يستعظمه الجمهور ، وإذا غضب كان غضبه بمقتضى العقل ، وكان انتقامه مقصوراً على ما يستحسن عقلاً وشرعاً ، ولا يتعدى إلى ما لا ينبغي . وليس مطلق الانتقام مذموماً ، فربما كان في بعض المواضع مستحسناً عند العقل والشرع ، وقد صرح الحكماء بأن عدم الانتقام ممن يستحقه يحدث في النفس ذبولا لا يرتفع إلا بالانتقام ، وربما أدى هذا الذبول إلى بعض الرذائل المهلكة . وأما العدالة فقد عرفت أنها عبارة عن انقياد القوة العملية للعاقلة ، أو امتزاج القوى وتسالمها وانقهار الجميع تحت العاقلة ، بحيث يرتفع بينها التنازع والتجاذب ، ولا يغلب بعضها على بعض ، ولا يقدم على شئ غير ما تقسط له العاقلة . وإنما يتم ذلك إذا حصلت للانسان ملكة راسخة تصدر لأجلها جميع الأفعال على نهج الاعتدال بسهولة ، ولا يكون له غاية في ذلك سوى كونها فضيلة وكالا ، فمن يتكلف أعمال العدول رياء وسمعة ، أو لجلب القلوب ، أو تحصيل الجاه والمال ليس عادلا .

وقس على ذلك جميع انواع الفضائل المتدرجة تحت الأجناس المذكورة فانه بازاء كل منهار ذيلة شبيهة بها . فينبغي لطالب السعادة ان يعرفها ويحتنب عنها ، مثلاً السخاء عبارة عن ملكة سهولة بذل المال على المستحق ، مع كون الغاية الباعثة له عليه مجرد كونه فضيلة وكالاً ، دون الأغراض الأخر ، فبذل المال لتحصيل الأزيد ، أو لدفع الضرر ، أو نيل الجاه ، أو للوصول الى شئ من اللذات الحيوانية ليس سخاءً ، وكذلك بذله لغير المستحق والاسراف في انفاقه ، فان المبذر جاهل بعظم قدر المال ، والاحتياج اليه في مواقع لولاه لأدى الى تضييع الأهل والعيال والعجز عن كسب المعارف وفضائل الأعمال ، وله دخل عظيم في ترويج احكام الملة ونشر الفضيلة والحكمة ، ولذا ورد في الصحيفة السليمانية (ان الحكمة مع الثروة يقظان ، ومع الفقر نائم) (١) . وربما كان منشأ التبذير عدم العلم بصعوبة تحصيل الحلال منه ، وهذا يكون في الأغلب لمن يظفر بمال بغتة من ميراث أو غيره مما لا يحتاج الى كد وعمل ، فان مثله غافل عن صعوبة كسب الحلال منه ، اذ المكاسب الطيبة قليلة جداً ، وارتكابها للاحرار مشكل ، ولذا ترى أفاضل الأحرار ناقصي الحظوظ منه شاكين عن بختهم ، وأضدادهم على خلاف ذلك ، لعدم مبالاتهم من تحصيله بأي نحو كان . وقد قال بعض الحكماء : «إن تحصيل المال بمنزلة نقل الحجر الى قمة الجبل وانفاقه كاطلاقه» .

فصل

العدالة أشرف الفضائل

العدالة أشرف الفضائل وأفضلها ، إذ قد عرفت أنها كل الفضائل

(١) كذلك في النسخ ولم نثر على مصدر لهذه الكلمة لتصبحها .

أو ما يلزمها ، كما أن الجور كل الرذائل أو ما يوجبها ، لأنها هيئة نفسانية يقتدر بها على تعديل جميع الصفات والأفعال ، ورد الزائد والناقص الى الوسط ، وانكسار سورة التخالف بين القوى المتعادية ، بحيث يمتزج البكل ويتحقق بينها مناسبة واتحاد تحدث في النفس فضيلة واحدة تقتضى حصول فعل متوسط بين أفعالها المتخالفة ، وذلك كما نحصل من حصول الامتزاج والوحدة بين الاشياء المتخالفة صورة وحدانية يصدر عنها فعل متوسط بين أفعالها المتخالفة ، فجميع الفضائل مترتبة على العدالة ، ولذا قال افلاطون الإلهي : (العدالة إذا حصلت للانسان اشرق بها كل واحد من اجزاء نفسه ، ويستضىء بعضها من بعض ، فتتقوى النفس حينئذ لفعلها الخاص على أفضل ما يكون ، فيحصل لها غاية القرب الى مبدعها سبحانه) .

ومن خواص العدالة وفضيلتها انها أقرب الصفات الى الوحدة ، وشأنها اخراج الواحد من الكثرات ، والتأليف بين المتباينات ، والتسوية بين المختلفات ، ورد الاشياء من القلة والكثرة والنقصان والزيادة الى التوسط الذي هو الوحدة ، فتصير المتخالفات في هذه المرتبة متحدة نوع اتحاد ، وفي غيرها توجد اطراف متخالفة متكاثرة ، ولا ريب في أن الوحدة أشرف من الكثرة ، وكلما كان الشيء أقرب اليها يكون أفضل وأكمل وأبقى وأدوم ، ومن تطرق البطلان والفساد أبعد ، فالمتخالفات اذا حصل بينها مناسبة واتحاد وحصلت منها هيئة وحدانية صارت اكمل مما كان ، ولذا قيل : كمال كل صفة ان يقارب ضدها ، وكمال كل شخص ان يتصف بالصفات المتقابلة بجعلها متناسبة متسالمة ، وتأثير الاشعار الموزونة والنغمت والايقاعات المتناسبة ، وجذب الصور الجميلة للنفوس ، إنما هو لوحدة التناسب ، ونسبة المساواة في صناعة الموسيقى أو غيرها اشرف النسب لقربها الى الوحدة ، وغيرها من النسب يرجع اليها .

وبالجملة: اختلاف الأشياء في الكمال والنقص بحسب اختلافها في الوحدة والكثرة ، فأشرف الموجودات هو الواحد الحقيقي الذي هو موجد الكل ومبدؤه ، ويفيض نور الوحدة على كل موجود بقدر استعداده كما يفيض عليه نور الوجود كذلك ، فكل وحدة من الوحدات جوهرية كانت أو خلقية أو فعلية أو عددية أو مزاجية ، فهو ظل من وحدته الحققة ، وكلما كان أقرب إليها يكون أشرف وجوداً ، ولولا الاعتدال والوحدة العرضية التي هي ظل الوحدة الحقيقية لم تتم دائرة الوجود ، لأن تولد المواليد من العناصر الأربعة يتوقف على حصول الاتحاد والاعتدال ، وتعلق النفس الربانية بالبدن إنما هو لحصول نسبة الاعتدال ، ولذا يزول تعلقها به بزوالها ، بل النفس عاشقة لتلك النسبة الشريفة أينما وجدت .

والتحقيق أنها معنى وحداني يختلف باختلاف محالها ، فهي في الأجزاء العنصرية الممزجة اعتدال مزاجي ، وفي الأعضاء حسن ظاهري ، وفي الكلام فصاحة ، وفي المملكات النفسية عدالة ، وفي الحركات غنج ودلال ، وفي النغات ابعاد شريفة لذيدة والنفس عاشقة لهذا المعنى في أي مظهر ظهر ، وبأي صورة تجلى ، وبأي لباس تلبس .

فاني أحب الحسن حيث وجدته وللحسن في وجه الملاح مواقع والكثرة والقلة والنقصان والزيادة تفسد الأشياء إذا لم تكن بينها مناسبة يحفظ عليها الاعتدال والوحدة بوجه ما ، وفي هذا المقام تفوح نفحات قدسية تهتز بها نفوس أهل الجذبة والشوق ، ويتعطر منها مشام اصحاب التأله والذوق ، فتعرض لها إن كنت أهلاً لذلك .

وإذا عرفت شرف العدالة وإيجابها للعمل بالمساواة ، ورد كل ناقص وزائد إلى الوسط ، فاعلم: أنها إما متعلقة بالأخلاق والأفعال ، أو بالكرامات

وقسمة الاموال ، أو بالمعاملات والمعاوضات ، أو بالأحكام والسياسات .
والعادل في كل واحد من هذه الأمور ما يحدث التساوى فيه برد الإفراط
والتفريط إلى الوسط ، ولا ريب في انه مشروط بالعلم بطبيعة الوسط ، حتى
يمكن رد الطرفين إليه ، وهذا العلم في غاية الصعوبة ، ولا يقيس إلا بالرجوع
إلى ميزان معرف للأوساط في جميع الاشياء ، وما هو إلا ميزان الشريعة
الإلهية الصادرة عن منبع الوحدة الحققة الحقيقية، فانها هي المعرفة للأوساط
في جميع الاشياء على ما ينبغي ، والمتضمنة لبيان تفاصيل جميع مراتب الحكمة
العملية، فالعادل بالحقيقة يجب ان يكون حكيماً عالماً بالنواميس الإلهية الصادرة
من عند الله سبحانه لحفظ المساواة .

وقد ذكر علماء الأخلاق أن العدول ثلاثة : « الأول ، العادل
الاكبر ، وهو الشريعة الإلهية الصادرة من عند الله سبحانه لحفظ المساواة .
« الثاني ، العادل الأوسط ، وهو الحاكم العادل التابع للنواميس الإلهية
والشريعة النبوية فانه خليفة الشريعة في حفظ المساواة . « الثالث ، العادل
الصامت ، وهو الدينار لأنه يحفظ المساواة في المعاملات والمعاوضات .
بيان ذلك : أن الانسان مدني بالطبع فيحتاج بعض افراده إلى بعض
آخر، ولا يتم عيشهم إلا بالتعاون ، فيحتاج الزارع إلى عمل التاجر وبالعكس ،
والتجار إلى عمل الصباغ وبالعكس ، وهكذا فتقع بينهم معاوضات ، فلا بد من حفظ
المساواة بينهم دفعاً للتنازع والنشاجر ، ولا يمكن حفظها بالأعمال لاختلافها بالزيادة
والنقصان والقلة والكثرة وغير ذلك ، وربما كان أدنى عمل مساوياً لعمل كثير
كنظر المهندس وتدبير صاحب الجيش ، فان نظرهما في لحظة واحدة ربما تساوى
عملاً كثيراً لمن يعمل ويحارب ، لحفظ المساواة بينها بالدينار والدرهم بأن تقوم
بهما الاعمال والاشياء المختلفة ، ليحصل الاعتدال والاستواء ، ويتبين وجه

الآخذ والاعطاء، وتصح المشاركات والمعاملات على نهج لا يتضمن إفراطاً ولا تفريطاً قيل: وقد أشير إلى العدول الثلاثة في الكتاب الإلهي بقوله سبحانه: (وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ) (١).

فإن الكتاب إشارة إلى الشريعة، والميزان إلى آلة معرفة النسبة بين المختلفات ومنها الدينار، والحديد إلى سيف الحاكم العادل المقوم للناس على الوسط. هذا والمقابل للعادل - أعني الجائر المبطل للنسوى أيضاً - إما جائر أعظم - وهو الخارج عن حكم الشريعة - ويسمى كافراً - أو جائر أو سط - وهو من لا يطيع عدول الحكم في الأحكام - ويسمى طاغياً وباغياً - أو جائر أصغر - وهو من لا يقوم على حكم الدينار، فيأخذ لنفسه أكثر من حقه ويعطي غيره أقل من حقه - ويسمى سارقاً وخائناً -.

ثم العدالة على أقسام ثلاثة:

أحدها، ما يجرى بين العباد وبين خالقهم سبحانه، فانها لما كانت عبارة عن العمل بالمساواة على قدر الامكان، والواجب سبحانه واهب الحياة والكمالات وما يحتاج اليه كل حي من الارزاق والافوات، وهياً لنا في عالم آخر من البهجة والسرور ما لا عين رأت، ولا اذن سمعت، وما من يوم إلا ويصل إلينا من نعمه وعطاياه ما تسكل الاسنة عن حصره وعده، فيجب أن يكون له تعالى علينا حق يقابل به تلك النعم التي لا تحصى كثرة حتى تحصل عدالة في الجملة، إذ من أعطى خيراً ولم يقابل به بضرب من المقابلة فهو جائر.

ثم المقابلة والمكافأة تختلف باختلاف الأشخاص ، فإن ما يؤدي به حق احسان السلطان غير ما يؤدي به حق احسان غيره ، فإن مقابلة احسانه انما تكون بمثل الدعاء ونشر المحاسن ، ومقابلة احسان غيره تكون بمثل بذل المال والسعي في قضاء حوائجه وغير ذلك . والواجب سبحانه غنى عن معونتتنا ومساعدتنا . ولا يحتاج إلى شيء من أعمالنا وأفعالنا ، ولكن يجب علينا بالنظر إلى شرع العدالة حقوق تحصل بها مساواة في الجملة ، كمعرفته ومحبته ، وتحصيل العقائد الحققة والأخلاق الفاضلة ، والاجتهاد في امتثال ما جاءت به رساله وسفراؤه من الصوم والصلاة ، والنسعى إلى المواقف الشريفة وغير ذلك ، وإن كان التوفيق لا يدرك ذلك كله من جملة نعمائه ، إلا أن العبد إذا أدى ما له فيه مدخلية واختيار من وظائف الطاعات ، وترك ما تقتضى الضرورة بتمكينه على تركه من المعاصي والسيئات ، لخرج عن الجور المطلق ولم يصدق عليه انه جائر مطلق ، وإن كان أصل تمكينه واختياره ، بل أصل وجوده وحياته كلها من الله سبحانه .

« الثاني ، ما يجري بين الناس بعضهم لبعض : من أداء الحقوق وتأدية الأمانات والنصفة في المعاملات والمعاوضات وتعظيم الأكرام والرؤساء وإغاثة المظلومين والضعفاء ، فهذا القسم من العدالة يقتضى ان يرضى بحقه ، ولا يظلم أحداً . ويقيم كل واحد من أبناء نوعه على حقه بقدر الامكان ، لئلا يحور بعضهم بعضاً ، ويؤدي حقوق أخوانه المؤمنين بحسب استطاعته . وقد ورد في الحديث النبوى : « إن المؤمن على أخيه ثلاثين حقاً لا براعة له منها إلا بالأداء أو العفو : يغفر ذلته ، ويرحم غربته ، ويستتر عورته ، ويقلل عثرته ، ويقبل معذرتة . ويرد غيبته ، ويدبم نصيحته ، ويحفظ خلته ، ويرعى ذمته ، ويعود مرضته ، ويشهد ميتته ، ويحجب دعوته ، ويقبل هديته ، ويكافئ .

صلته ، ويشكر نعمته ، ويحسن نصرته ، ويحفظ حليته ، ويقضى حاجته ،
ويشفع مسألته ، ويسمى عطسته ، ويرشد ضالته ، ويرد سلامه ، ويطيب
كلامه ، ويبر انعامه ، ويصدق أقسامه ، ويواليه ولا يعاديه ، وينصره ظالماً
أو مظلوماً ، فأما نصرته ظالماً فيرده عن ظلمه ، وأما نصرته مظلوماً فيعينه
ظلمه ، وأما نصرته مظلوماً فيعينه على أخذ حقه ، ولا يسأله ، ولا يخذله ،
ويحب له من الخير ما يحب لنفسه ، ويكره له من الشر ما يكره لنفسه .

« الثالث ، ما يجري بين الأحياء وذوى حقوقهم من الاموات : من
أداء ديونهم وانفاذ وصاياهم والترحم عليهم بالصدقة والدعاء ، وقد أشار خاتم
الرسالة صلى الله عليه وآله وسلم إلى أقسام العدالة بقوله صلى الله عليه وآله
وسلم : « التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله » ، وبقوله صلى الله عليه
وآله وسلم في خبر آخر : « الدين النصيحة . قيل لمن ؟ قال : لله ولرسوله
ولعامة المؤمنين » .

إيقاظ

قد ظهر مما ذكر أن الكمال كل الكمال لكل شخص هو العدل والتوسط
في جميع صفاته وأفعاله الباطنة والظاهرة ، سواء كانت مختصة بذاته أو متوسطة
بينه وبين أبناء نوعه ، ولا تحصل النجاة والسعادة إلا بالاستقامة على وسط
الاشياء المتخالفة ، والتثبت على مركز الاطراف المتباعدة . فكن يا حبيبي
جامعاً للكمالات ، متوسطاً بين مراتب السعادات ، ومركزاً لدائرة نيل
الافاضات . فكن أولاً متوسطاً بين العلم والعمل جامعاً بينهما بقدر الامكان ،
ولا تكتف بأحدهما حتى لا تكون واحداً من الرجلين القاصمين (١) لظهر

(١) إشارة الى قوله صلى الله عليه وآله وسلم : (قسم ظهري رجلان : عالم منتهك

وجاهل منتهك) .

نظر الثقلين صلى الله عليه وآله وسلم . وكن في العمل متوسطاً بين حفظ الظاهر والباطن، فلا تكن في باطنك خبيثاً وظاهرك نقياً، حتى تكون كشوهاً ملبسة بزي حوراء مدلسة بأنواع التدائسات ، ولا بالعكس لتكون مثل درة ملوثة بأقسام القاذورات ، بل ينبغي أن يكون ظاهرك مرآة لباطنك ، حتى يظهر من محاسنك بقدر ما اقتضته ملكاتك الفاضلة الباطنة . وكن في جميع ملكاتك الباطنة وفعالك الظاهرة متوسطاً بين الإفراط والتفريط على ما يقرع سمعك في هذا الكتاب . ثم كن في العلوم متوسطاً بين العلوم الباطنة العقلية والعلوم الظاهرة الشرعية ، فلا تكن من الذين قصرُوا أنظارهم على ظواهر الآيات ولم يعرفوا من حقائق البينات ، يذمون علماء الحقيقة وينسبونهم إلى الاتحاد والزندقة، ولا من الذين صرفوا أعمارهم في فضول أهل يونان وهجروا ما جاء به حامل الوحي والفرقان ، يذمون علماء الشريعة ويثبتون لهم سوء القرينة، يدعون لأنفسهم الذكاء والفطنة وينسبون ورثة الانبياء إلى الجهل والبطالة . ثم كن في العقليات متوسطاً بين طرق العقلاء من غير جمود على واحدة منها بمجرد التقليد أو التعصب، فتوسط بين الحكمة والكلام والاشراق والعرفان، واجمع بين الاستدلال وتصفية النفس بالعبادة والرياضة، فلا تكن متكليماً صرفاً لا تعرف سوى الجدل، ولا مشائياً محضاً اضاع الدين وأهمل، ولا متصوفاً استراح بدعوى المشاهدة والعيان من دون يدنة وبرهان . وكن في العلوم الشرعية متوسطاً بين الأصول والفروع ، فلا تكن اخبارياً تاركاً للقواعد القطعية ، ولا أصولياً عاملاً بقياسات عامة . وقس على ذلك جميع أمورك الباطنة والظاهرة، واعمل به حتى يرشدك إلى طريق السداد ، ويوفقك لاكتساب زاد المعاد .

دفع اشكال

إن قيل : قد تلخص بما ذكر : أن الفضيلة في جميع الاخلاق والصفات إنما هو المساواة من غير زيادة ونقصان ، مع انه قد ثبت إن للتفضل محمود وهو زيادة فلا يدخل تحت العدالة الراجعة إلى المساواة . (قلنا) : التفضل احتياط يقع لتحصيل القطع بعدم الوقوع في النقصان ، وليس الوسط في طرفين من الاخلاق على نهج واحد ، فإن الزيادة في السخاء إذا لم يؤد إلى الاسراف احسن من النقصان عنه ، وأشبه بالمحافظة على شرائطه ، فالتفضل إنما يصدر عن فضيلة العدالة ، لأنها مبالغة فيها ولا يخرجها عن حقيقتها ، إذ المتفضل من يعطى المستحق أزيد مما يستحقه ، وهذه الزيادة ليست مذمومة ، بل هي العدالة مع الاحتياط فيها ، ولذا قيل : « إن المتفضل أفضل من العادل » ، والمذموم ان يعطى غير المستحق أو يترك المساواة بين المستحقين ، لأنه انفق فيما لا ينبغي أو على ما لا ينبغي ، وصاحبه لا يسمى متفضلاً بل مضيعاً ، ولكون التفضل احتياطاً إنما يحسن من الرجل بالنسبة إلى صاحبه في المعاملة التي بينهما ، ولو كان بين جماعة ولم يكن له نصيب في ما يحكم فيه لم يسمه إلا العدل المحض ولم يحزن له التفضل .

تخميم

(اصلاح النفس قبل اصلاح الغير وأشرف وجوه العدالة عدالة السلطان)
قد تلخص ان حقيقة العدالة أو لازمها ان يغلب العقل الذي هو خليفة الله على جميع القوى حتى يستعمل كلاً منها فيما يقتضى رأيه ، فلا يفسد نظام العالم الانساني ، فان الواجب سبحانه لما ركب الانسان بحكمته الحققة ومصلحته التامة من القوى الكثيرة المتضادة ، فهي إذا تهايجت وتغالبت ولم يقهرها قاهر خير ، حدثت فيه بهيجاتها واضطرابها أنواع الشر ، وجذبه كل واحدة منها

إلى ما يقتضيه ويشتهي ، كما هو الشأن في كل مركب . وقد شبه المعلم الأول مثله بمن يجذب من جهتين حتى ينقطع وينشق بنصفين أو من جهات كثيرة فينقطع بحسبها . فيجب على كل انسان ان يجاهد حتى يغلب عقله الذي هو الحكم العدل والخير المطلق على قواه المختلفة ، ليرفع اختلافها وتجاذبها ويقيم الجميع على الصراط القويم .

ثم كل شخص ما لم يعدل قواه وصفاته لم يتمكن من اجراء احكام العدالة بين شركائه في المنزل والبلد ، اذ العاجز عن اصلاح نفسه كيف يقدر على اصلاح غيره ، فان السراج الذي لا يضيء قريبه كيف يضيء بعيده ، فمن عدل قواه وصفاته أولاً واجتنب عن الإفراط والتفريط واستقر على جادة الوسط ، كان مستعداً لسلوك هذه الطريقة بين ابناء نوعه ، وهو خليفة الله في أرضه . وإذا كان مثله حاكماً بين الناس وكان زمام مصالحهم في قبضة اقتداره ، لتنورت البلاد بأهلها ، وصلحت امور العباد بأسرها ، وزاد الحرث والنسل ، ودامت بركات السماء والأرض .

وغير خفي أن اشرف وجوه العدالات وأهمها وأفضل صنوف السياسات وأعمها هو عدالة السلطان ، إذ غيرها من العدالات مرتبطة بها ولولاها لم يتمكن أحد من رعاية العدالة ، كيف وتهذيب الأخلاق وتديبر المنزل يتوقف على فراغ البال وانتظام الأحوال ، ومع جور السلطان امواج الفتن متلاطمة ، وافراج المحن متراكمة ، وعوائق الزمان متزاحمة ، وبوائق (١) الحدثنان متصادمة ، وطالبو الكمال كالحيارى في الصحارى لا يجدون الى منازلهم سبيلاً ولا الى جداوله مرشداً ودليلاً ، وعزصات العلم والعمل دراسة الآثار ،

(١) البائقة : الداهية والشر . ويقال : رفعت عنك بائقة فلان أى غائلته وشره ،
جمعه بوائق .

ومنازلها مظلمة الأرجاء والأقطار ، فلا يوجد ما هو الملاك في تحصيل السعادات ، اعني تفرغ الخاطر والاطمئنان وانتظام أمر المعاش الضروري لافراد الانسان . ولذا لو تصفحت في امثال زماننا زوايا المدن والبلاد واطلعت على بواطن فرق العباد ، لم تجد من الالوف واحداً تمكن من اصلاح نفسه ويكون يومه خيراً من أمسه ، بل لا تجد ديناً إلا وهو باك على فقد الاسلام وأهله ، ولا طالباً إلا وهو لعدم المسكنة باق على جهله . ولعمري إن هذا الزمان هو الزمان الذي أخبر عنه سيد الأنام وعترته الأبرار الكرام عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام من انه : « لا يبقى من الاسلام إلا اسمه ، ولا من القرآن إلا رسمه » .

وبالجملة : المناطق كل المناطق في تحصيل الكمالات واخراج النفوس من الجهالات ، هو عدالة السلطان ، واعتناؤه باعلاء الكلمة ، وسعيه في ترويج أحكام الدين والملة ، ولذا ورد في الآثار : (أن السلطان إذا كان عادلاً كان شريكاً في ثواب كل طاعة تصدر عن كل رعية ، وإن كان جائراً كان سعيها في معاصيهم) . وقال سيد الرسل صلى الله عليه وآله وسلم : « أقرب الناس يوم القيامة الى الله تعالى الملك العادل وأبعدهم عنه الملك الظالم » . وورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم : « عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة » . والسر أن اثر عدل ساعة واحدة ربما يصل الى جميع المدن والأصهار ويبقى على مر الدهور والأعصار ، وقال بعض الأكابر : لو علمت انه يستجيب لي دعوة واحدة لخصصتها باصلاح حال السلطان حتى يعم نفعه .

تنوير

(لا حاجة الى العدالة مع رابطة المحبة)

لو استحكمت رابطة المحبة وعلاقة المودة بين الناس لم يحتاجوا الى سلسلة

العدالة ، فان أهل الوداد والمحبة في مقام الإيثار ولو كان بهم خصاصة ، فكيف يحور بعضهم على بعض . والسر ان رابطة المحبة أتم وأقوى من رابطة العدالة ، لأن المحبة وحدة طبيعية جبلية ، والعدالة وحدة قهرية قسرية . على انها لا تنتظم بدون المحبة ، لسكونها باعثة للإيجاد ، كما اشير اليه في الحديث القدسي : كنت كنزاً مخفياً فاحببت أن اعرف . فالمحبة هو السلطان المطلق ، والعدالة نائبها وخليفتها (١) .

وصل

(التكميل الصناعي لاكتساب الفضائل على طبق ترتيب الكمال الطبيعي)
لاكتساب الفضائل ترتيب ينبغي ان لا يتعدى عنه . وبيان ذلك : ان مبادئ الحركات المؤدية الى الكالات : إما طبيعية كحركة النطفة في الاطوار المختلفة الى بلوغ كمال الحيوانيه ، أو صناعية كحركة الخشب بتوسط الآلات الى بلوغ كمال السريرية . ثم الطبيعية وتحريكاتها لاستنادها الى المادى العالیه تكون متقدمة على الصناعية المستندة الى الانسان ، ولما كان كمال الثوانى ان تشبه بالاولئ ، فينبغى ان تقتدى الصناعية في تحريكاتها المؤدية الى كمالها بالطبيعية . وإذا ثبت ذلك فاعلم : ان تهذيب الاخلاق لما كان أمراً صناعياً لزم ان يقتنى في تحصيله من حيث الترتيب بأفعال الطبيعة في ترتيب حصولها ، فنقول : لا ريب في أن أول ما يحصل في الطفل قوة طلب الغذاء ، وإذا زادت تلك القوة يبكى ويرفع صوته لأجل الغذاء ، وإذا قويت حواسه وتمكن من حفظ

(١) ولذلك ان الشريعة الاسلامية أول ما دعت فها دعت الى الاخوة والتآلف بين الناس ، وكثير من احكامها مثل الجماعة والجمعة والايثار والاحسان وتحريم الغيبة والنميمة ونحو ذلك تستهدف ايجاد رابطة الحب بين الشعوب والقبائل والافراد ، ليستغنوا عن الأخذ بقانون العدل الصارم المر .

بعض الصور يطلب صورة الام أو الظئر (١)، وجميع ذلك متعلق بالقوة الشهوية، ونهاية هذه القوة وكألها ان يتم ما يتعلق بالشخص من الامور الشهوية، وينبعث منه الميل الى استبقاء النوع، فيحدث ميل النكاح والوقاح. ثم تظهر فيه آثار القوة الغضبية حتى يدفع عن نفسه ما يؤذيه ولو بالاستعانة بغيره. وغاية كمال هذه القوة حصول التمكن من حفظ الشخص والافدام على حفظ النوع، فيحدث فيه الميل الى ما يحصل به التفوق من أصناف الرئاسات والكرامات. ثم تظهر فيه آثار قوة التمييز وتزايد الى ان يتمكن من تعقل السكليات.

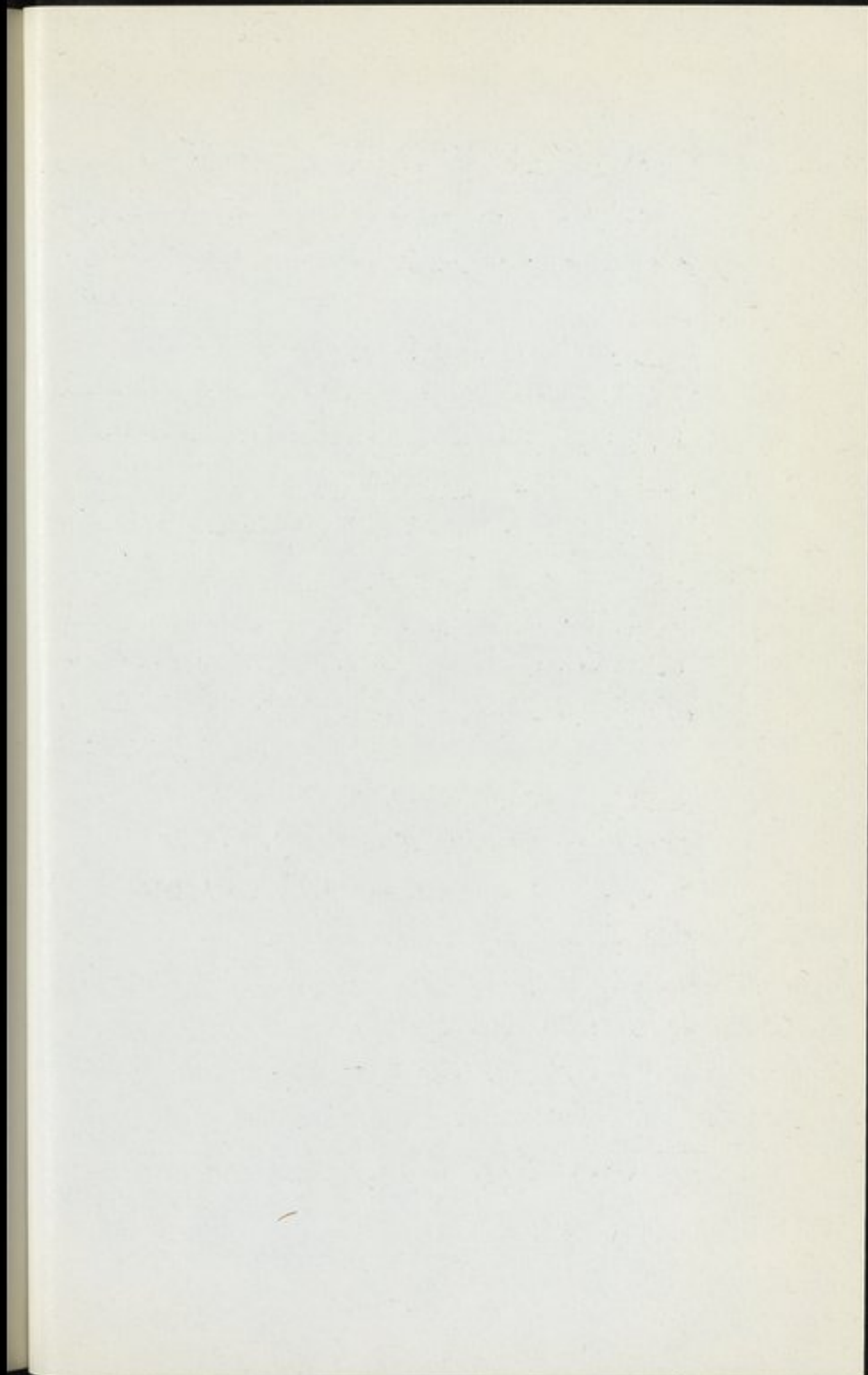
وهنا يتم ما يتعلق بالطبيعة من التدبير والتكميل، ويكون ابتداء التكميل الصناعي، فلو لم يحصل الاستكمال بالكسب والصناعة بقى على هذه الحالة، ولم يبلغ الى السكالات الحقيقية الذي خلق الانسان لأجله، لأنه لم يخلق أحد مجبولا على الاتصاف بجميع الفضائل الخلقية إلا من أيد من عند الله بالنفس القدسية، وإن كان بعض الناس أكثر استعداداً لتحصيل بعض السكالات من بعض آخر، فلا بد لجل الانام في تكميل نفوسهم من الكسب والاستعلام.

فظهر مما ذكر: ان الطبيعة تولد أولاً قوة الشهوة، ثم قوة الغضب، ثم قوة التمييز، فيجب أن يقتدى به في التكميل الصناعي، فيهذب أولاً القوة الأولى ليكتسب العفة، ثم الثانية ليتصف بالشجاعة، ثم الثالثة ليتجلى بالحكمة، فمن حصل بعض الفضائل على الترتيب الحكيم كان تحصيل الباقي له في غاية السهولة، ومن حصله لا على الترتيب، فلا يظن ان تحصيل الباقي حينئذ متعذر بل هو ممكن، وإن كان أصعب بالنسبة الى تحصيله بالترتيب، فان عدم الترتيب يوجب عسر الحصول لا تعذره، كما ان الترتيب يوجب يسره لا مجرد إمكانه.

(١) يريد بها الموضة.

فلا يترك السعى والجد في كل حال ولا ييأس من رحمة الله الوهاب المتعال ،
وليشمر ذيل الهمة على منطقة الطلب حتى ييسر الله له الوصول الى ما هو
المقصد والمطلب .

ثم الفضيلة إن كانت حاصلة لزم السعى في حفظها وابقائها ، وإن لم
تكن حاصلة بل كان ضدها حاصلًا وجب تحصيلها بإزالة الضد . ولذا كان فن
الأخلاق على قسمين : (أحدهما) راجع الى حفظ الفضائل ، (وثانيهما) نافع
في دفع الرذائل ، فيكون شبيهاً بعلم الطب ، من حيث انقسامه الى قسمين :
(أحدهما) في حفظ الصحة ، (وثانيهما) في دفع المرض ، ولذا يسمى طباً
روحانياً ، كما أن الطب المتعارف يسمى طباً جسدياً . ومن هنا كتب جالينوس
الى روح الله ﷻ : « من طبيب الأبدان الى طبيب النفوس » . فكما ان لكل من
حفظ الصحة ودفع المرض في الطب الجسماني علاجاً خاصاً ، فكذلك لكل
من حفظ الفضائل وازالة الرذائل في الطب الروحاني معالجات معينة ، كما نذكره
إن شاء الله تعالى .



الباب الثالث

في طريق حفظ اعتدال الأخلاق المحمودة واستحصالتها

بإزالة نقائصها المذمومة

الطريق لحفظ اعتدال الفضائل - قانون العلاج في الطب الروحاني -
طريقة معرفة الأمراض النفسية - المعالجات الكلية لأمراض النفس -
المعالجات الخاصة لأمراض النفس . وله أربعة مقامات :

(الأول) ما يتعلق بالقوة العاقلة من الرذائل والفضائل وكيفية علاج
الرذائل .

(الثاني) ما يتعلق بالقوة الغضبية من الرذائل والفضائل وكيفية العلاج .

(الثالث) ما يتعلق بالقوة الشهوية من الرذائل والفضائل وكيفية العلاج .

(الرابع) ما يتعلق بالقوى الثلاث أو باثنتين منها .

وفيه فصول (١) :

فصل

(الطريق لحفظ اعتدال الفضائل)

قد تقرر في الطب الجسماني أن حفظ الصحة بإيراد المثل وملائم المزاج ، فيجب أن يكون حفظ اعتدال الفضائل أيضاً بذلك . وإيراد المثل لحفظ اعتدالها يكون بأمور :

(منها) اختيار مصاحبة الأخيار ، والمعاشرة مع أولى الفضائل الخلقية ، واستماع كيفية سلوكهم مع الخالق والخليقة ، والاجتناب عن مجالسة الأشرار وذوى الأخلاق السيئة ، والاحتراز عن استماع قصصهم وحكاياتهم وما صدر عنهم من الأفعال ومزخرفاتهم ، فإن المصاحبة مع كل أحد أقوى باعث على الاتصاف بأوصافه ، فإن الطبع يسترق من الطبع كلا من الخير والشر . والسر : أن النفس الانسانية ذات قوى بعضها يدعو إلى الخيرات والفضائل وبعضها يقتضى الشرور والذائل ، وكلها حصل لأحدهما أدنى باعث لما تقتضيه جبلته مال إليه وغلب على صاحبه إلى الخير ، ولـ يكون دواعي الشر من القوى أكثر من بواعث الخير منها ، يكون الميل إلى الشر أسرع وأسهل بالنسبة إلى الميل إلى الخير ، ولذا قيل : إن تحصيل الفضائل بمنزلة الصعود إلى الأعلى ، وكسب الرذائل بمثابة النزول منها . وإلى ذلك يشير قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات » .

(ومنها) إعمال القوى في شرائف الصفات ، والمواظبة على الأفعال التي هي آثار فضائل الملوكات ، وحمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق

(١) هذه الفصول كتمهيد للقامات الأربعة التي تتعلق بالعلاج الخامس لتدعيم الأخلاق ،

الذى يريد حفظه ، فالحافظ للمسكة الجود يجب أن يواظب على انفاق المال وبذله على المستحقين ، ويقهر على نفسه عند وجدان ميلها الى الامساك ، والحافظ للمسكة الشجاعة يجب ألا يترك الاقدام فى الأخطار والأهوال بشرط اشارة العقل ، ويغضب على نفسه عند وجدان الجبن منها . وهكذا الحال فى سائر الصفات . وهذا بمثابة الرياضة الجسمانية فى حفظ الصحة البدنية .

(ومنها) ان يقدم التروى على كل ما يفعله ، لئلا تصدر عنه غفلة خلاف ما تقتضيه الفضيلة . ولو صدر عنه أحياناً خلاف مقتضاها ، فليؤدب نفسه بارتكاب ما يضاده ، ويشق عليها عقوبة ، بعد تعييرها وتوبيخها ، كما إذا أكل ما يضره من المطاعم فليؤدبها بالصوم ، وإذا صدر عنه غضب مذموم فى واقعة فليؤدبها بايقاعها فى مثلها مع الصبر عليها ، أو فى معرض اهانة السفهاء حتى يكسر جاهه أو يؤدبها بارتكاب ما يشق عليها من النذر والصدقة وغير ذلك . وينبغى ألا يترك الجد والسعى فى التحصيل والحفظ وان بلغ الغاية ، لأن التعطيل يؤدى الى الكسالة وهى الى انقطاع فيوضات عالم القدس ، فتتسلخ الصورة الانسانية وتحصل الهلاكه الأبدية ، والسعى يوجب ازدياد تجرد النفس وصفاتها والانس بالحق والآلف بالصدق (١) ، فيتنفّر عن الكذب والباطل ، ويتصاعد فى مدارج الكمالات ومراتب السعادات ، حتى تنكشف له الاسرار الإلهية والغوامض الربانية ، ويتشبه بالروحانيات القادسة ، وينخرط فى سلك الملائكة المقدسة . ويجب ان يكون سعيه فى امور الدنيا بقدر الضرورة ، ويحرّم على نفسه تحصيل الزائد ، لأنه لا شقاوة أشد من صرف الجوهر الباقى النورانى فى تحصيل الخزف الفانى الظلمانى الذى يفوت عنه وينتقل الى أعدائه من الوراث وغيرهم .

(١) كذا فى النسخ . والصحيح « للصدق » .

(ومنها) أن يحترز عما يهيج الشهوة والغضب رؤية وسماعاً وتخيلاتاً ، ومن هيجهما كتب هيج كلباً عقوراً أو فرساً شمساً ، ثم يضطر الى تدبير الخلاص عنه . وإذا تحررت كتاباً بالطبع فليقتصر في تسكينها بما يسد الخلة ولا ينافي حفظ الصحة ، وهو القدر الذي جوزه العقل والشرعة .

(ومنها) أن يستقصي في طلب خفايا عيوب نفسه ، وإذا عثر على شيء منها اجتهد في إزالته . ولما كانت النفس عاشقة لصفاتها وأفعالها ، فكثيراً ما يخفى عليها بعض عيوبها ، فيلزم على كل طالب للصحة وحافظها أن يختار بعض أصدقائه ليتفحص عن عيوبه ويخبره بما اطلع عليه ، وإذا أخبره بشيء منها فليفرح وليبادر الى إزالته حتى يثق صديقه بقوله ، ويعلم أن اهداء شيء من عيوبه اليه أحسن عنده من كل ما يحبه ويهواه ، وربما كان العدو في هذا الباب أنفع من الصديق ، لأن الصديق ربما يستر العيب ولا يظهره ، والعدو مصر على اظهاره ، بل ربما يتجاوز الى البهتان ، فاذا أظهر الأعداء عيوبه فليشكر الله على ذلك وليبادر الى رفعها وقمعها .

ومما ينفع في المقام ان يجعل صور الناس مرآة لعيوبه ويتفقد عيوبهم ، وإذا عثر على عيب منهم تأمل في قبضه ، ويعلم أن هذا العيب إذا صدر عنه يكون قبيحاً ويدرك غيره هذا القبح ، فليجتهد في إزالته . وينبغي أن يحاسب نفسه في آخر كل يوم وليلة ، ويتفحص عن جميع ما صدر من الأفعال فيها ، فإن لم يصدر عنه شيء من القبائح والذمائم فليحمد الله على حسن تأييده ، وإن صدر عنه شيء من ذلك فليعاتب نفسه ويتوب ، ويجتهد في ألا يصدر عنه بعد ذلك مثله .

قانون العلاج في الطب الروحاني

(تنبيه) قد تبين أن للطب الروحاني أسوة بالطب الجسدي . والقانون في معالجة الأمراض الجسدية ان يعرف جنس المرض أولاً ، ثم الأسباب والعلامات ، ثم يبين كيفية العلاج . والعلاج فيه إما كلي يتناول جميع الأمراض ، أو جزئي يختص بمرض دون مرض ، فكذلك الحال في الطب الروحاني . ونحن نشير الى ذلك في فصول :

فصل

(طريق معرفة الامراض النفسانية)

الأمراض النفسانية هي انحرافات الأخلاق عن الاعتدال . وطريق معرفتها : أنك قد عرفت ان القوى الانسانية محصورة في أنواع ثلاثة : (احدها) قوة التمييز ، (وثانيها) قوة الغضب ويعبر عنها بقوة الدفع ، (وثالثها) قوة الشهوة ويعبر عنها بقوة الجذب . وانحراف كل منها إما في الكمية أو في الكيفية ، والانحراف في الكمية إما للزيادة من الاعتدال أو للنقصان عنه ، والانحراف في الكيفية إنما يكون برداءتها . فأمراض كل قوة إما بحسب الافراط أو التفريط ، أو بحسب رداءة الكيفية .

فالافراط في قوة التمييز : كالجربرة والدهاء ، والتجاوز عن حد النظر ، والمبالغة في التنقير (١) ، والتوقف في غير موضعه للشبه الواهية ، والحكم على المجردات بقوة الوهم ، وإعمال الذهن في ادراك ما لا يمكن دركه ، والتفريط فيه كالبلاهة ، وقصور النظر عن درك مقدار الواجب ، كإجراء أحكام المحسوسات على المجردات . والرداءة كالسفسطة في الاعتقاد ، والميل

(١) التنقير : البحث والتنبع .

الى العلوم الغير اليقينية - كعلم الجدل والخلاف - أزيد مما يميل الى اليقينيات ، واستعمالها في مقام اليقينيات ، والشوق الى علم السكهاة والشعبذة وأمثالها للوصول الى الشهوات الخسيسة .

وأما الإفراط في قوة الدفع : كشدة الغضب والغیظ وفرط الانتقام بحيث يتشبه بالسباع . وأما التفريط : كعدم الغيرة والحمية والنسبة بالأطفال والنسوان في الأخلاق والصفات . وأما الرذالة فيها : كالغیظ على الجمادات والبهائم أو على الناس لا بسبب موجب للانتقام .

وأما الإفراط في قوة الجذب : فكالحرص على الأكل والجماع أزيد من قدر الضرورة . والتفريط فيه : فكالفطور عن تحصيل الأفوات الضرورية وتضييع العيال والخمود عن الشهوة حتى ينقطع عنه النسل . أما الرذالة فيها : كشهوة الطين والميل الى مقارنة الذكور .

ثم إنك قد عرفت أن أجناس الفضائل أربعة ، فاجناس الرذائل بحسب الكمية ثمانية ، لكل فضيلة ضدان كل منهما ضد للآخر ، وبحسب الكيفية أربعة ، ويحصل من تركيبها وامتزاجها انواع واصناف لا يعد كثرة ، كما عرفت أكثرها .

فضل

(أسباب الأمراض النفسانية)

إعلم أن اسباب الانحراف في الأخلاق ، إما نفسية حاصلة في النفس في بدو فطرتها ، أو حادثة من مزاولتها للأعمال الرديّة ، أو جسمية - وهي الأمراض الموجبة لبعض المللحات الرديّة - والسّر في ذلك أن النفس لما كانت متعلقة بالبدن علاقة ارتباطية ، فيتأثر كل منهما بتأثر الآخر ، وكل

كيفية تحدث في أحدهما تسرى في الآخر ، كما أن غضب النفس أو تعشقها
يوجب اضطراب البدن وارتعاشه ، وتأثر البدن بالأمراض ، (لا) سيما إذا
حدثت في الأعضاء الرئيسية يوجب النقص في ادراك النفس وفساد تخيلها .
وكثيراً ما يحدث من بعض الأمراض السوداوية فساد الاعتقاد والجبن وسوء
الظن ، ومن بعضها التهور ، ويحصل من أكثر الأمراض سوء الخلق .

فصل

(المعالجات الكلية لمرض النفس)

سبب الانحراف إن كان مرضاً جسمانياً فيجب أن يبادر إلى إزالته
بالمعالجات الطبية ، وإن كان نفسانياً فالمعالجة الكلية هنا كالمعالجة الكلية في
الطب الجسماني . والمعالجة الكلية فيه أن يعالج المرض أولاً بالغذاء الذي هو
ضد المرض طبعاً ، كأن يعالج المرض البارد بالغذاء الحار ، فإن لم ينفع فبالدواء ،
وإن لم ينفع فبالسمومات ، وإن لم يحصل بها البرء فبالكي أو القطع ، وهو
آخر العلاج . فالقانون الكلي في المعالجة هنا أيضاً كذلك ، وهو أن يبادر بعد
معرفة الانحراف إلى تحصيل الفضيلة التي هي ضده ، والمواظبة على الأفعال
التي هي آثارها ، وهذا ينزلة الغذاء المضاد للمرض . فكما أن حصول الحرارة
في المزاج يدفع البرودة الحادثة فيه ، فكذا كل فضيلة تحدث في النفس تزيل
الرذيلة التي هي ضدها . فإن لم ينفع فليوبخ النفس ويعبرها على هذه الرذيلة
فكراً أو قولاً أو عملاً ، ويعاتبها ويخاطبها بلسان الحال والمقال : أيتها النفس
الامارة قد هلكت وتعرضت لسخطة الله وغضبه ، وعن قريب تعذبن في
النار مع الشياطين والاشرار . فإن لم يؤثر ذلك فليرتكب آثار الرذيلة التي
هي ضد هذه الرذيلة ، بشرط محافظة التعديل ، فصاحب الجبن مثلاً يعمل

أعمال المتهورين ، فيخوض في المخاوف والأهوال ، ويلقى نفسه في موارد الحذر والأخطار . وصاحب البخل يكثر من بذل الأموال ، بشرط أن يكفّ إذا قرب زوال الجبن والبخل لئلا يقع في التهور والاسراف ، وهذا بمنزلة المداواة بالسم . فإن لم ينفع ذلك لقوة استحكام المرض فليعذب النفس بأنواع التكاليف الشاقة والرياضات المتعبة المضعفة للقوة الباعثة على هذه الرذيلة ، وهذا بمثابة السكى والقطع ، وهو آخر العلاج .

المعالجات الخاصة لمرض النفس

(تنبيه) لما عرفت المعالجة الكلية الشاملة لجميع الرذائل بأجناسها وأنواعها وأصنافها ، فلنشتغل الآن ببيان معالجة كل من الرذائل بخصوصه . وقد عددنا قبل ذلك ما يتعلق بالقوى الثلاث من الرذائل وأضدادها من الفضائل بما له اسم مشهور ، فهمنا نذكر معالجة كل رذيلة بخصوصها ، ونذيله بذكر ما يضادها من الفضيلة ، وما ورد في مدحها عقلا ونقلا ، لأن العلم بمعرفة كل فضيلة وحسنة أعون شئ على إزالة ما يضادها من الرذيلة . وربما كانت جملة من الرذائل المختلفة في الاسم مشتركة في المعالجة ، وربما كان للرذائل أو الفضائل المتعددة ضد واحد منهما ، فنحن نشير الى ذلك ، ونشير ايضاً في تلو كل رذيلة وفضيلة الى ما يتولد منهما من أفعال الجوارح مع معالجته - إن كان له ذلك - ونراعى الترتيب المذكور في مقام الاجمال : فنذكر أولاً ما يتعلق بالقوة العاقلة من الجنسين وأنواعهما ، ثم ما يتعلق بالقوة الغضبية ، ثم ما يتعلق بالشهوية ، ثم ما يتعلق بالثلاث والاثنين منها ، فهنا أربعة مقامات :

المقام الأول

(في معالجة الرذائل المتعلقة بالقوة العاقلة)

الجريرة وعلاجها - الجهل البسيط وعلاجه - شرف العلم والحكمة -
آداب التعلم والتعليم - العلم الإلهي والأخلاق والفقهاء أشرف العلوم - أصول
العقائد المجمع عليها - الجهل المركب والشك - اليقين - علامات صاحبه -
مراتب اليقين - الشرك - التوحيد - التوكل على الله - حق التوكل بماذا يحصل -
مناجاة السر لأرباب القلوب - الخواطر النفسانية والوساوس - أقسام
الخواطر ومنها الإلهام - المطاردة بين جندي الملائكة والشياطين في معركة
النفس - العلائم الفارقة بين الإلهام والوسوسة - علاج الوسواس - ما يتم به
علاج الوسواس - ما يتوقف قطع الوسواس عليه - حديث النفس لأمواخذة
عليه - الخاطر المحمود والتفكر - مجارى التفكير في العوالم والمخلوقات .

أما جنسها (١) (فأولها) :

الجرينة

الموجبة للخروج في الفكر عن الحد اللائق وعدم استقامة الذهن على شيء ، بل لا يزال يستخرج أموراً دقيقة غير مطابقة للواقع ويتجاوز عن الحق ولا يستقر عليه ، وربما أدى في العقليات إلى الإلحاد وفساد الاعتقاد ، بل إلى نفي حقائق الأشياء رأساً كما للسوفسطائية ، وفي الشرعيات إلى الوسواس . (وعلاجه) بعد تذكر قبجه وإيجابه للهلاك ، أن يكلف نفسه على الاستقامة على مقتضى الأدلة المعتبرة عند أولى الأفهام المستقيمة ، ولا يتجاوز عن معتقدات أهل الحق المعروفين بالتحقيق واستقامة القريحة ، ولا يزال يكلف نفسه على ذلك حتى يعتاد القيام على الوسط . وربما كان للاشتغال بالتعليمات نفع في ذلك .

(وثانيهما) :

الجهل البسيط

وقد عرفت أنه من باب التفريط ، وهو خلو النفس عن العلم من دون اعتقاد بكونها عالمة . وهو في البداية غير مذموم لتوقف التعلم عليه ، إذ ما لم تعتقد النفس جهلها بالمعارف لم تنتهض لتحصيلها . وأما الثبات عليه فهو من المهلكات العظيمة . والطريق في إزالته أمور : (الأول) أن يتذكر ما يدل على قبجه ونقصه عقلاً ، وهو أن يعلم أن الجاهل ليس إنساناً بالحقيقة ، وإنما يطلق عليه الإنسان مجازاً ، إذ فضل الإنسان عن سائر الحيوانات إنما هو إدراك

(١) أي القوة العاقلة .

الكلى المعبر عنه بالعلم ، لمشاركتها معه في سائر الامور من الجسمية والقوى الغضبية والشهوية والصوت وغير ذلك ، فلو لا علمه بحقائق الأشياء وخواصها لكان حيواناً بالحقيقة ، ولذا ترى أن من كان في محل محاورات العلماء وكان جاهلاً بأقوالهم لم يكن فرق بينه وبين البهائم بالنسبة اليهم . وأى هلاك أعظم من الخروج عن حدود الانسانية والدخول في حد البهيمية . (الثاني) أن يتذكر ما ورد في الشريعة من الذم عليه مثل قوله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « ستة يدخلون في النار قبل الحساب لسته » ، وعد منهم أهل الرساتيق بالجهالة . (الثالث) أن يتذكر ما يدل على فضيلة العلم عقلاً ونقلاً كما نذكره . وإذا وقف على جميع ذلك فليتيقظ عن سنة الغفلة ، ويصرف في إزالته الهمة ، ويجتهد في تحصيل العلم عن أهاليه ، ويصرف فيه أيامه ولياليه .

فصل

(شرف العلم والحكمة)

قد علم أن ضد الجذسين - أى الجريزة والسفسطة والجهل - هو الحكمة ، اعنى العلم بحقائق الأشياء . فلنذكر أولاً بعض ما يدل على شرافته عقلاً ونقلاً ، ترغيباً للطلاب على السعى في تحصيله وإزالة الجهل عن نفوسهم ، فنقول :

لا ريب في أن العلم أفضل الفضائل الكالية وأشرف النعوت الجمالية ، بل هو أجل الصفات الربوبية وأجمل السمات الالهوية ، وهو الموصل الى جوار رب العالمين والدخول في افق الملائكة المقربين ، وهو المؤدى الى دار المقامة التى لا تزول ومحل الكرامة التى لا تحول ، وقد تطابق العقل والبرهان واجماع ارباب الأديان على : أن السعادة الأبدية والقرب من الله سبحانه

لا يتيسر ان بدونه ، وأى شيء أفضل مما هو ذريعة اليهما . وأيضاً قد ثبت في الحكمة المتعالية : أن العلم والتجرد متلازمان ، فكلما ازداد النفس علماً ازداد تجرداً ، ولا ريب في أن التجرد أشرف الكمالات المتصورة للانسان ، إذ به يحصل التشبه بالملا الأعلى وأهل القرب من الله تعالى .

ومن جملة العلوم معرفة الله التي هي السبب الكلى لاييجاد العالم العلوى والسفلى ، كما دل عليه الخبر القدسى : «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن اعرف خلقت الخلق» . على أن العلم لذيق في نفسه محبوب في ذاته ، وما يحصل منه من اللذة والابتهاج قلما يحصل من غيره . والسرفيه ان ادراك الأشياء والاحاطة بها نوع تملك وتصرف لها ، إذ تتقرر في ذات المدرك حقائقها وصورها ، ومثل هذا التملك لدوامه وجزئية المدرك للمدرك أقوى من ملكية الأعيان المباشرة لذات المالك الزائلة عنه . والتحقيق : أن اطلاق الملكية عليه مجازى ، والنفس لسكونها من سنخ عالم الربوبية تحب القهر والاستيلاء على الأشياء والمالكية لها بأى نحو كان ، إذ معنى الربوبية التوحد بالكمال والاقتدار والغلبة على الأشياء .

ثم من فوائد العلم في الدنيا العز والاعتبار عند الأخيار والأشرار ، ونفوذ الحكم على الملوك وأرباب الاقتدار ، فان طباع الأنام من الخاص والعام مجبولة على تعظيم أهل العلم وتوقيرهم ووجوب اطاعتهم واحترامهم ، بل جميع الحيوانات من البهائم والسباع مطيعة للانسان مسخرة له ، لاختصاصه بقوة الادراك ومزيد التمييز . ولو تصفحت آحاد الناس لم تجد أحداً له تفوق وزيادة على غيره في جاه أو مال أو غير ذلك إلا وهو راجع الى اختصاصه بمزيد تمييز وادراك ، ولو كان من باب المسكر والحيل .

هذا وما يدل على شرافة العلم من الآيات والأخبار أكثر من أن

تخصي . نبذة منها قوله تعالى :

« إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » (١).

وقوله تعالى :

« هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » (٢).

وقوله تعالى :

« وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا » (٣).

وقوله تعالى :

« وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا

الْعَالِمُونَ » (٤).

وقول النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - : « اللهم ارحم خلفائي . قيل : يا رسول الله ! من خلفاؤك ؟ قال : الذين يأتون من بعدى ويروون حديثي وسنتي » . وقوله - صلى الله عليه وآله وسلم - لأبي ذر : « جلوس ساعة عند مذاكرة العلم أحب الى الله تعالى من قيام ألف ليلة يُصلى في كل ليلة ألف ركعة وأحب اليه من ألف غزوة » ، ومن قراءة القرآن كله اثني عشر ألف مرة ، وخير من عبادة سنة صام نهارها وقام ليلها ، ومن خرج من بيته ليلتمس باباً من العلم كتب الله عز وجل له بكل قدم ثواب نبي من الأنبياء ، وثواب ألف شهيد من شهداء بدر ، وأعطاه الله بكل حرف يسمع أو يكتب مدينة في الجنة ، وطالب العلم يحبه الله وتحبه الملائكة والنبيون ، ولا يحب العلم إلا السعيد ، وطوبى لطالب العلم ، والنظر في وجه العالم خير من عتق ألف رقبة ،

(٢) الزمر ، الآية : ٩ .

(١) الفاطر ، الآية : ٢٨ .

(٤) العنكبوت ، الآية : ٤٣ .

(٣) البقرة ، الآية : ٢٦٩ .

ومن أحب العلم وجبت له الجنة ، ويصبح ويمسي في رضى الله ، ولا يخرج من الدنيا حتى يشرب من الكوثر ويأكل من ثمرة الجنة ، ولا يأكل الدود جسده ، ويكون في الجنة رفيق خضر عليه السلام .

وقول أمير المؤمنين عليه السلام : « ان كمال الدين طلب العلم والعمل به ، وإن طلب العلم أوجب عليكم من طلب المال ، وإن المال مقسوم مضمون لكم قد قسمه عادل بينكم ، وقد ضمنه وسيتفى لكم ، والعلم مخزون عند أهله فاطلبوه ، . وقوله عليه السلام : « إذا مات مؤمن وترك ورقة واحدة عليها علم ، تكون تلك الورقة سترأ بينه وبين النار ، وأعطاه الله بكل حرف عليها مدينة أوسع من الدنيا سبع مرات ، .

وقول سيد الساجدين على بن الحسين - عليهما السلام - : « لو يعلم الناس ما في طلب العلم لطلبوه ، ولو بسفك المهج وخوض اللجج ، .

وقول الباقر عليه السلام : « عالم ينتفع بعلمه أفضل من سبعين ألف عابد ، .
وقول الصادق عليه السلام : « لو يعلم الناس ما في فضل معرفة الله تعالى ما مدوا أعينهم الى ما متع به الأعداء من زهرة الحياة الدنيا ونعيمها ، وكانت دنياهم أقل عندهم مما يطؤون بأرجلهم ، ولتنعموا بمعرفة الله وتلذذوا بها تلذذ من لم يزل في روضات الجنان مع أولياء الله . إن معرفة الله تعالى انس من كل وحشة ، وصاحب من كل وحدة ، ونور من كل ظلمة ، وقوة من كل ضعف ، وشفاء من كل سقم ، قد كان قوم قبلكم يُقتلون ويُحرقون ويُنشقون وتضيق عليهم الأرض برحبها ، فما يردهم عما هم عليه شئ مما هم فيه من غير ترة وتروا من فعل ذلك بهم ولا أذى بما نعموا منهم :

« لَا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ » (١) ،

فاسألوا ربكم درجاتهم ، واصبروا على نوائب دهركم تدركوا سعيهم .
وعن الرضا عليه السلام عن آبائه - عليهم السلام - عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - انه قال : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ، فاطلبوا العلم في مظانه ، واقتبسوه من أهله . فان تعلمه الله تعالى حسنة ، وطلبه عبادة ، والمذاكرة به تسبيح ، والعمل به جهاد ، وتعليمه من لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قرينة الى الله ، لأنه معالم الحلال والحرام ، ومنار سبيل الجنة ، والمؤنس في الوحشة ، والصاحب في الغربة والوحدة ، والمحدث في الخلوة ، والدليل على السراء والضراء ، والسلاح على الأعداء . والزين عند الأخلاء ، يرفع الله به أقواماً ، ويجعلهم في الخير قادة ، تقتبس آثارهم ، ويقتدى بأفعالهم ، وينتهي الى آرائهم .
ترغب الملائكة في خلعتهم ، وبأجنحتهم تسبحهم ، وفي صلاتها تبارك عليهم ، ويستغفر لهم كل رطب ويابس حتى حيتان البحر وهوامه وسباع البر وأنعامه .
إن العلم حياة القلوب من الجهل ، وضياء الأبصار من الظلمة ، وقوة الأبدان من الضعف ، يبلغ بالعبد منازل الأخيار وبجالس الأبرار والدرجات العلى في الآخرة والاولى . الذكر فيه يعدل بالصيام ومدارسته بالقيام . به يطاع الرب ويعبد ، وبه توصل الأرحام ، ويعرف الحلال والحرام . العلم إمام والعمل تابعه ، يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء ، فطوبى لمن لم يحرمه الله من حظه . »

آداب التعلم والتعاليم

(تنبيه) لكل من التعلم والتعاليم آداب وشروط :

(أما آداب التعلم) :

(فمنها) أن يحتذب المتعلم عن اتباع الشهوات والهوى والاختلاط بأبناء الدنيا . ولقد قال بعض الأكابر : « كما أن الحاسة الجليدية إذا كانت

مؤوفة برمد ونحوه فهي محرومة من الأشعة الفائضة عن الشمس ، كذلك البصيرة إذا كانت مؤوفة بمتابعة الشهوات والهوى والمخالطة بأبناء الدنيا فهي محرومة من ادراك الأنوار القدسية ومحجوبة عن ذوق اللذات الانسية .

(ومنها) ان يكون تعلمه لمجرد التقرب الى الله والفوز بالسعادات الآخروية ، ولم يكن باعنه شيئاً من المراء والمجادلة ، والمباهاة والمفاخرة ، والوصول الى جاه ومال ، أو التفوق على الأقران والأمثال . قال الباقر عليه السلام : « من طلب العلم ليباهي به العلماء أو يمارى به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس فليتبوأ مقعده من النار ، إن الرئاسة لا تصلح إلا لأهلها » . وقال الصادق عليه السلام : « طلبية العلم ثلاثة ، فأعرفهم بأعيانهم وصفاتهم : صنف يطلبه للجهل (١) والمراء ، وصنف يطلبه للاستطالة والختل ، وصنف يطلبه للفقه والعقل . فصاحب الجهل والمراء مؤذمار ، متعرض للمقال في أندية الرجال بتذاكر العلم وصفة الحلم ، وقد تسربل بالخشوع وتغلى من الورع ، فدق الله من هذا خيشومه وقطع منه حيزومه . وصاحب الاستطالة والختل ذو خب وملق ، يستطيل على مثله من أشباهه . ويتواضع للأغنياء من دونه ، فهو خلوانهم (٢) هاضم ولدينه حاطم ، فاعى الله على هذا خبره وقطع من آثار العلماء أثره . وصاحب الفقه والعقل ذو كآبة وحزن وسهر ، قد تحنك في برنسه وقام الليل في حننسه ، يعمل ويخشى وجلاً داعياً مشفقاً مقيلاً على شأنه عارفاً بأهل زمانه

(١) (الجهل) هنا بمعنى الجفاء والغلظة .

(٢) قال الشيخ (ملا صالح المازندراني) في تعليقه على اصول الكافي عن هذا الحديث :

« الخلوان - بضم الخاء المهملة وسكون اللام - ما تأخذه الحكام والقضاة والكهنة من الأجر والرشوة على أعمالهم ، يقال : خلوته أهلوه خلواناً ، فهو مصدر كالغفران ، ونونه زائدة ، وأصله من الخلاوة ، وفي بعض النسخ (بخلوانهم) - بالهمزة بعد الألف - والخلوان - بالمد والقصر - ما يتخذ من الخلاوة » .

مستوحشاً من أوثق أخوانه ، فشد الله من هذا أركانه وأعطاه يوم القيامة أمانه . .
(ومنها) أن يعمل بما يفهم ويعلم ، فإن من عمل بما يعلم ورثه الله ما لم يعلم . وقال الصادق عليه السلام : « العلم مقرون إلى العمل ، من علم عمل ، ومن عمل علم ، والعلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل عنه . » وعن السجاد عليه السلام : « مكتوب في الإنجيل : لا تطلبوا علم ما لا تعملون ولما تعملوا بما علمتم ، فإن العلم إذا لم يعمل به لم يزد صاحبه إلا كفرأ ولم يزد من الله إلا بعداً . » وعن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - : « من أخذ العلم من أهله وعمل بعلمه نجا ، ومن أراد به الدنيا فهي حظه . » وعنه - صلى الله عليه وآله وسلم - : « العلماء رجلان : رجل عالم أخذ بعلمه فهذا ناج ، وعالم تارك لعلمه فهذا هالك ، وأن أهل النار ليتأذون من ريح العالم التارك لعلمه ، وأن أشد أهل النار ندامة وحسرة رجل دعا عبداً إلى الله فاستجاب له وقبل منه ، فاطاع الله فأدخله الجنة ، وأدخل الداعي النار بترك عمله (١) واتباعه الهوى وطول الأمل ، أما اتباع الهوى فيصد عن الحق وطول الأمل ينسى الآخرة . .

(ومنها) أن يحافظ شرائط الخضوع والآداب للمعلم ، ولا يرد عليه شيئاً بالمواجهة ، ويكون محباً له بقلبه ، ولا ينسى حقوقه ، لأنه والده المعنوي الروحاني ، وهو أعظم الآباء الثلاثة . قال الصادق عليه السلام : « اطلبوا العلم وتزينوا معه بالحلم والوقار ، وتواضعوا لمن تعلمونه العلم ، وتواضعوا لمن طلبتم منه العلم ، ولا تكونوا علماء جبارين فيذهب باطلكم بحقكم . »

هذا وقد اشرنا سابقاً إلى أن اللازم لكل متعلم أن يطهر نفسه أولاً من رذائل الأخلاق وذمائم الأوصاف بأسرها ، إذ ما لم يجرد لوح نفسه عن

(١) صححه على بعض نسخ أصول الكافي المصححة . وفي نسخ جامع العبادات هكذا : (بتركه علمه) .

التقوش الردية لم تشرق عليه لمعات أنوار العلم والحكمة من ألواح العقول
الفعالة القدسية .

(وأما آداب التعليم) :

(فمنها) ان يخلص المعلم تعليمه لله سبحانه ولم يكن له فيه باعث دنيوى
من طمع مالى أو جاه ورئاسة أو شهرة بين الناس ، بل يكون الباعث مجرد
التقرب الى الله تعالى والوصول الى المثوبات الأبدية ، فإن من علم غيره علماً
كان شريكاً فى ثواب تعليم هذا الغير لآخر ، وفى ثواب تعليم هذا الآخر
لغيره ... وهكذا الى غير النهاية ، فيصل بتعليم واحد الى مثوبات التعاليم
الغير المتناهية ، وكفى بهذا له فضلاً وشرفاً .

(ومنها) ان يكون مشفقاً على المتعلم ناصحاً له ، مقتصرأ فى الافادة على
قدر فهمه ، متكلماً معه باللين والحشاشة لا بالغلظة والفظاظة .

(ومنها) أن لا يضمن العلم من أهله ويمنعه عن غير أهله ، لأن بذل الحكمة
للجهال ظلم عليها ، ومنعها عن أهلها ظلم عليهم ، كما ورد فى الخبر (١) .

(ومنها) أن يقول ما يعلم ويسكت عما لا يعلم حتى يرجع اليه ويعلمه ،
ولا يخبر المتعلمين ببيان خلاف الواقع . وهذا الشرط لا يختص بالمعلمين ،
بل يعم كل من تصدر عنه المسائل العلمية كالمفتى والقاضى وأمثالهما . وقال الباقر
عليه السلام : « حق الله على العباد أن يقولوا ما يعلمون ويقفوا عند ما لا يعلمون » (٢)

(١) روى فى اصول الكافى فى باب بذل العلم عن الصادق - عليه السلام - : « قام
عيسى بن مريم خطيباً فى بنى اسرائيل فقال : يا بنى اسرائيل ! لا تمدنوا الجهال بالحكمة فنظلموها
ولا نمنعوها أهلها فنظلموهم » .

(٢) الحديث المروى فى اصول الكافى هكذا : « عن زرارة بن أعين قال : سألت
أبا جعفر - عليه السلام - ما حق الله على العباد ؟ قال : ان يقولوا ما يعلمون ... »
الى آخر الحديث .

وقال الصادق عليه السلام : « إن الله تعالى خص عباده بآيتين من كتابه : ألا يقولوا حتى يعلموا ولا يردوا ما لم يعلموا ، فقال :

« أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ » (١) . وقال : « بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَا تَبَهُمُ تَأْوِيلُهُ » (٢) .

وعنه عليه السلام : « إذا سُئِلَ الرجل منكم عما لا يعلم ، فليقل : لا أدري ، ولا يقل : الله أعلم ، فيوقع في قلب صاحبه شكاً . وإذا قال المسؤول : لا أدري ، فلا يتهمة السائل . » . وعنه عليه السلام : « إياك وخصلتين فقيهما هلك من هلك . إياك أن تفتي الناس برأيك ، أو تدين بما لا تعلم . » . وعن الباقر عليه السلام : « من أفتى الناس بغير علم ولا هدى لعنته ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، ولحقه وزر من عمل بفتياه . » .

وربما كان لسلك من المتعلم والمعلم آداب آخر تظهر لمن وقف على فن الأخلاق . ثم العارف بأهل زماننا يعلم أن آداب التعلم والتعليم كسائر الآداب والفضائل فيهم مهجورة ، والأمر في مثل الزمان كما قال في وصفه بعض أهل العرفان : « قد فسد الزمان وأهله ، وتصدى للتدريس من قل علمه وكثر جهله ، فانحطت مرتبة العلم وأصحابه ، واندرست مراسمه بين طلابه . » .

تتميم

(العلم الإلهي وعلم الأخلاق والفقهاء أشرف العلوم)

العلم كله وإن كان كمالاً للنفس وسعادة ، إلا أن فنونه متفاوتة في الشرافة

(١) الاعراف ، الآية : ١٦٩ . (٢) يونس ، الآية : ٣٩ .

والجمال ووجوب التحصيل وعدمه ، فان بعضها كالطب والهندسة والعروض والموسيقى وامثالها ، مما ترجع جل فائدته الى الدنيا ولا يحصل بها مزيد بهجة وسعادة في العقبى ، ولذا عدت من علوم الدنيا دون الآخرة ، ولا يجب تحصيلها ، وربما وجب تحصيل بعضها كفاية .

وما هو علم الآخرة الواجب تحصيله ، وأشرف العلوم وأحسنها هو العلم الإلهي المعروف لاصول الدين ، وعلم الأخلاق المعروف لمنجيات النفس ومهلكاتها ، وعلم الفقه المعروف لسكيفية العبادات والمعاملات ، والعلوم التي مقدمات لهذه الثلاثة كالعربية والمنطق وغيرهما يتصف بالحسن ووجوب التحصيل من باب المقدمة . وهذه العلوم الثلاثة وإن وجب أخذها اجمالاً إلا انها في كيفية الأخذ مختلفة : فعلم الأخلاق يجب أخذه عيناً على كل أحد على ما بينته الشريعة وأوضحه علماء الأخلاق ، وعلم الفقه يجب أخذه بعينه إما بالدليل أو التقليد من مجتهد حي ، والتارك للطريقين غير معذور ، ولذا ورد الحث الأكيد على التفقه في الدين ، قال الصادق عليه السلام : « عليكم بالتفقه في دين الله ولا تكونوا اعراباً ، فانه من لم يتفقه في دين الله لم ينظر اليه يوم القيامة ولم يرك له عملاً ، وقال : « ليت الشياطين على رؤس اصحابي حتى يتفقهوا في الحلال والحرام ، وقال عليه السلام : « إن آية الكذاب ان يخبرك خبر السماء والأرض والمشرق والمغرب ، فاذا سألته عن حرام الله وحلاله لم يكن عنده شيء . »

وأما اصول العقائد فيجب أخذها عيناً من الشرع والعقل ، وهما متلازمان لا يتخلف مقتضى أحدهما عن مقتضى الآخر ، إذ العقل هو حجة الله الواجب امتثاله والحاكم العدل الذي تطابق احكامه الواقع ونفس الأمر ، فلا يرد حكمه ، ولولاه لما عرف الشرع ، ولذا ورد : « انه ما أدى العبد

فرائض الله حتى عقل عنه ، ولا بلغ جميع العابدين في فضل عبادتهم ما بلغ العاقل ، (١) . فهما متعاضدان ومتظاهران ، وما يحكم به أحدهما يحكم به الآخر أيضاً ، وكيف يكون مقتضى الشرع مخالفاً لمقتضى ما هو حجة قاطعة وأحكامه للواقع مطابقة ، فالعقل هو الشرع الباطن والنور الداخل ، والشرع هو العقل الظاهر والنور الخارج . وما يتراءى في بعض المواضع من التخالف بينهما إنما هو لقصور العقل أو لعدم ثبوت ما ينسب إلى الشرع منه ، فإن كل عقل ليس تاماً ، وكلما ينسب إلى الشرع ليس ثابتاً منه ، فالمناط هو العقل الصحيح وما ثبت قطعاً من الشريعة ، وأصح العقول وأقواها وأمتنها وأصفها هو عقل صاحب الوحي ، ولذا يدرك بنوريته ما لا سبيل لأمثال عقولنا إلى دركه ، كتفاصيل أحوال نشأة الآخرة . فاللازم في مثله أن نأخذه منه إذعاناً وإن لم نعرف مأخذه العقلي .

اصول العقائد المجمع عليها

ثم ما أجمعت الأمة المختارة عليه من اصول العقائد هو : أن الواجب سبحانه موجود ، وأنه واحد في الألوهية ، وبسيط عن شوائب التركيب ، ومنزه عن الجسمية وعوارضها ، وأن وجوده وصفاته عين ذاته ، وأنه متقدم على الزمان والمكان ومتعال عنهما ، وأنه حي قديم أزلي قادر مريد عالم بجميع الأشياء ، وعلمه بها بعد إيجادها كعلمه بها قبله ، ولا يزداد باحداثها علماً ، وأن قدرته عامة بالنسبة إلى جميع الممكنات ، وأنه يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد ، ولا يكون شيء إلا بمشيئته ، وأنه عدل في حكمه صادق في وعده . وبالجمل

(١) هذا الحديث رواه في اصول الكافي عن النبي - صلى الله عليه وآله - في كتاب

العقل والجهل فصيحناه عليه ، وفي نسخ جامع العبادات اختلاف عما هنا .

مستجمع لجميع الصفات الكمالية ، وليس كمثل شئ ، ولا يتصور عقل ولا وهم مثله ، بل هو تام فوق التمام .

وأن القرآن كلامه ، ومحمد - صلى الله عليه وآله وسلم - رسوله ، ما أتى به من أمور النشأة الآخرة من الجنة والنار والحساب والثواب والعقاب والصراط والميزان والشفاعة وغير ذلك مما ثبت في شريعته المقدسة حق ثابت ، فيجب على كل مؤمن أن يأخذ بجميع ذلك ويتشبث به ويجرد باطنه له ، بحيث لو أورد عليه ما ينقضه لم يقبله ولم يعرضه شك وريب .

ثم إن المكلفين مختلفون في كيفية التصديق والاذعان بالعقائد المذكورة ، فبعضهم فيها على يقين مثل ضوء الشمس ، بحيث لو كشف عنهم الغطاء ما ازدادوا يقيناً (١) ، وبعضهم على يقين دون ذلك ، وأقل هؤلاء رتبة أن تصل مرتبة يقينهم إلى طمأنينة لا اضطراب فيها ، وبعضهم على مجرد تصديق ظني يزلزل من الشبهات والقاء النقيض ، وإلى هذا الاختلاف أشار الإمام محمد ابن علي الباقر - عليهما السلام - بقوله : « إن المؤمنين على منازل : منهم على واحدة ، ومنهم على اثنتين ، ومنهم على ثلاث ، ومنهم على أربع ، ومنهم على خمس ، ومنهم على ست ، ومنهم على سبع ، فلو ذهبت تحمل على صاحب الواحدة ثنتين لم يقو ، وعلى صاحب الثنتين ثلاثاً لم يقو ... إلى آخره » (٢) . والإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام بقوله : « إن للإيمان حالات ودرجات وطبقات ومنازل ، فمنه التام المنتهى تمامه ، ومنه الناقص البين نقصانه ، ومنه الراجح الزائد رجحانه » .

(١) كما قال أمير المؤمنين - عليه الصلاة والسلام - : « لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً » .

(٢) الحديث مروي في أصول الكافي في باب درجات الإيمان وبقية : « وعلى صاحب الثلاث أربعاً لم يقو ، وعلى صاحب الأربع خمساً لم يقو ، وعلى صاحب الخمس ستاً لم يقو ، وعلى صاحب الست سبعاً لم يقو ... وعلى هذه الدرجات » .

ولاريب في أن تحصيل ما يطمئن به القلب في العقائد الواجبة اخذها مما لا بد منه لكل مكلف ، ومجرد التصديق من غير اطمئنان القلب غير كاف للنجاة في الاخرى والوصول إلى مراتب المؤمنين . ومع حصول الاطمئنان تحصل النجاة والفوز بالفلاح . وإن لم يكن حصوله من تفاصيل البراهين الحكيمية والدلائل الكلامية ، بل كان حاصلًا من دليل اجمالي برهاني أو اقناعي ، إذ الشرع الشريف لم يكلف بأكثر من التصديق والجزم بظاهر العقائد المذكورة ، ولم يكلف البحث والتفتيش عن كيفياتها وحقائقها وعن تكلف ترتيب الأدلة في نظمها ، فلو حصل لأحد طمأنينة في اتصاف الواجب بجميع الصفات الكمالية وبرأته عن الصفات السلبية ، بمجرد ان عدم الاتصاف بالأولى والاتصاف بالثانية نقص لا يليق بذاته الأقدس ، كان كافياً في النجاة والدخول في زمرة المؤمنين . وكذا إذا حصل له ذلك بمجرد أن هذا مما اتفق عليه فرق الأنبياء وأساطين الحكماء والعلماء ، وقوة عقولهم ودقة أفهامهم تأتي عن اتفاقهم على محض الخطأ . وقس على ذلك غيره مما يفيد الاطمئنان كائناً ما كان .

قال العلامة (الطوسي) - ره - في بعض تصانيفه : « أقل ما يجب اعتقاده على المكلف هو ما ترجمه قول لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ثم إذا صدق الرسول ينبغي ان يصدق في صفات الله واليوم الآخر وتعيين الإمام المعصوم ، كل ذلك مما يشتمل عليه القرآن من غير مزيد برهان : أما في صفات الله فبأنه - حي عالم قادر مرید متكلم ليس كمثل شيء وهو السميع البصير ، وأما في الآخرة فبالإيمان بالجنة والنار والصراط والميزان والحساب والشفاعة وغيرها ، ولا يجب عليه أن يبحث عن حقيقة الصفات ، وأن الكلام والعلم وغيرهما حادث أو قديم ، بل لو لم تخطر هذه بباله ومات مات مؤمناً ، فإن غلب على قلبه شك أو إشكال ، فإن أمكن إزالته بكلام قريب من الافهام

وإن لم يكن قوياً عند المتكلمين ولا مرضياً فذلك كاف ، ولا حاجة الى تحقيق الدليل ، فإن الدليل لا يتم إلا بذكر الشبهة والجواب ، ومهما ذكرت الشبهة لا يؤمن أن تنشب بالخاطر والقلب فيظنها حققة لقصوره عن ادراك جوابها ، إذ الشبهة قد تكون جلية والجواب دقيقاً لا يحتمله عقله ، ولذا ورد الزجر عن البحث والتفتيش في الكلام ، وإنما زجر ضعفاء العوام ، وأما أئمة الدين فلمهم الخوض في غمرة الاشكالات . ومنع العوام عن الكلام يجري مجرى منع الصبيان عن شاطئ دجلة خوفاً من الغرق ، ورخصة الأقوياء فيه أيضاً هي رخصة الماهر في صناعة السباحة ، إلا أن ههنا موضع غرور ومزلة قدم ، وهو أن كل ضعيف في عقله يظن أنه يقدر على أدراك الحقائق كلها ، وأنه من جملة الأقوياء . فربما يخوضون ويغرقون في بحر الجهالات من حيث لا يشعرون ، فالصواب منع الخلق كلهم - إلا الشاذ النادر الذي لا تسمح الأعصار إلا بواحد منهم أو اثنين - من تجاوز سلوك أهل العلم في الإيمان المرسل والتصديق المجمل بكل ما أنزل الله وأخبر به رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فن اشتغل بالخوض فيه فقد أوقع نفسه في شغل شاغل ، إذ قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - حين رأى أصحابه يخوضون ، بعد أن غضب حتى احمرت وجنتاه : أفبهذا أمرتم ؟ تضربون كتاب الله ببعضه ببعض ! انظروا فيما أمركم الله فافعلوا وما نهاكم عنه فانتهوا . فهذا تنبيه على منهج الحق .

ثم لا ريب في أن نورانية اليقين ووضوحه ، بل واطمئنان القلب وسكونه . لا يحصل من مجرد صناعة الجدل والكلام ، كما لا يحصل من محض التلقين وتقليد العوام . بل (الأول) - اعني الاستضاءة بنور اليقين - يتوقف على ملازمة الورع والتقوى ، وفطام النفس عن الهوى ، وإزالة كندرتها وصدأها :

« وَقدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا » (١).

وتطهيرها عن ذمائم الصفات والاشتغال بمشاق الرياضة والمجاهدات، حتى يقذف في قلبه نوراً إلهياً تنكشف به الحجب والأستار عن حقائق هذه العقائد، وهو غاية مقصد الطالبين وقرّة عيون الصديقين والمقرّبين، وله درجات ومراتب، والناس فيه مختلفون بحسب اختلافهم في القوة والاستعداد والسعي والاجتهاد، كما هم مختلفون في إدراك أنواع العلوم والصنائع « وكل ميسر لما خلق له » (٢).
وأما (الثاني) - أعني مجرد الاعتقاد الجازم الراسخ بظواهر تلك العقائد - فيمكن أن يحصل بما دون ذلك، بأن يشتغل - بعد تلقي هذه العقائد والتصديق بها - بوظائف الطاعات، ويصرف برهة من وقته في شرائف العبادات، ويواظب على تفسير القرآن وتلاوته، ودرس الحديث ودرايته، ويحترز عن مخالطة أولى المذاهب الفاسدة وذوى الآراء الباطلة، بل يجتنب كل الاجتناب عن مرافقة أرباب الهوى وأصحاب الشر والشقاء، ويختار مصاحبة أهل الورع واليقين، ومجالسة الأتقياء والصالحين، ويلاحظ سيئاتهم وسيرتهم وهيئاتهم في الخضوع لله والاستكانة، فيكون التلقين كالتقاء البذر في الصدر، وهذه الأمور كالسقى والترية له، فينمو ذلك البذر بها ويتقوى ويزداد رسوخاً، حتى يرتفع شجرة طيبة راسخة أصلها ثابت وفرعها في السماء. ثم من وصل إلى مقام العقيدة الجازمة إن اشتغل بالشواغل الدنيوية ولم يشتغل بالرياضة والمجاهدة لم ينكشف له غيره، ولكنه إذا مات مات مؤمناً على الحق وسلم في الآخرة، وإن اشتغل بتصقيل النفس وارتياضها انشرح صدره وانفتح له باب الافاضة، ووصل إلى المرتبة الأولى.

(١) الشمس، الآية: ٩.

(٢) حديث نبوي مشهور، تقدم ذكره صفحة ٢٦.

انواع الرذائل المتعلقة بالعاقلة

أما الأنواع المتعلقة بالعاقلة فمنها :

المجهل المركب :

وهو خلو النفس عن العلم واذعانها بما هو خلاف الواقع ، مع اعتقاد كونها عالمة بما هو الحق ، فصاحبه لا يعلم ، ولا يعلم انه لا يعلم ، ولذا سمي مركباً . وهو أشد الرذائل واصعبها ، وازالته في غاية الصعوبة ، كما هو ظاهر من حال بعض الطلبة . وقد اعترف اطباء النفوس بالعجز عن معالجته كما اعترف اطباء الأبدان بالعجز عن معالجة بعض الأمراض المزمنة ، ولذا قال عيسى - عليه السلام - : « انى لا اعجز عن معالجة الأكمة والابرص وأعجز عن معالجة الأحق » . والسرفيه : أنه مع قصور النفس بهذا الاعتقاد الفاسد لا يتنبه على نقصانها ، فلا يتحرك للطلب ، فيبقى في الضلالة والردى ما دام باقياً في دار الدنيا . ثم المنشأ له ان كان اعوجاج السليقة فأنفع العلاج له تحريض صاحبه على تعلم العلوم الرياضية من الهندسة والحساب ، فانها موجبة لاستقامة الذهن لآلافه لأجلها باليقينيات فيتنبه على خلل اعتقاده ، فيصير جهلها بسيطاً ، فينتهض للطلب . وإن كان خطأ في الاستدلال ، فليوازن استدلاله لاستدلالات أهل التحقيق والمشهورين باستقامة القرينة ، ويعرض أدلة المطلوب على القواعد الميزانية باحتياط تام واستقصاء بليغ ، حتى يظهر خطاه . وإن كان وجود مانع من عصبية أو تقليد أو غير ذلك فليجتهد في ازالته .

ومنها الشك والحيرة :

وهو من باب رداءة الكيفية . وهو عجز النفس عن تحقيق الحق وإبطال

الباطل في المطالب الخفية ، والغالب حصوله من تعارض الأدلة . ولا ريب انه مما يهلك النفس ويفسدها ، إذ الشك يناقض اليقين الذي لا يتحقق الايمان بدونه . قال أمير المؤمنين - عليه السلام - في بعض خطبه : « لا ترتابوا فتشكروا ولا تشكروا فتكفروا ، وكان الارتياب في كلامه - عليه السلام - مبدأ الشك . وقال الباقر - عليه السلام - : « لا ينفع مع الشك والجحود عمل » . وقال الصادق - عليه السلام - : « إن الشك والمعصية في النار ليس منا ولا لنا » . وسئل - عليه السلام - عن قول الله تعالى :

« الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ » (١) .

قال : « بشك » . وقال - عليه السلام - : « من شك في الله تعالى بعد مولده على الفطرة لم يبق إلى خير أبداً » . وقال - عليه السلام - : « من شك أو ظن فأقام على أحدهما احبط الله عمله ، إن حجة الله هي الحجة الواضحة » . وقال - عليه السلام - : « من شك في الله تعالى وفي رسوله - صلى الله عليه وآله وسلم - فهو كافر » . وبمضمونه وردت أخبار أخر . وغير خفي ان المراد بالشك ما يضعف الاعتقاد ويزيل اليقين لا مجرد الوسوسة وحديث النفس ، لما يأتي أنه لا يناقض الايمان ، بل الظاهر من بعض الأخبار أن إيجاب الشك للكفر إذا انجر إلى الجحود ، كما روى أن أبا بصير سأل الصادق - عليه السلام - ما تقول فيمن شك في الله تعالى ؟ قال : « كافر » ، قال : فشك في رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ؟ قال : « كافر » ، ثم التفّت الى زرارة فقال : « انما يسكفر إذا جحد » .

ثم علاجه ان يتذكر أولاً قضية بديهية هي : أن النقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان ، ومنه يعلم اجمالاً أن أحد الشقوق العقلية المتصورة في المطلوب

ثابت في الواقع ونفس الأمر والبواقي باطلة ، ثم يتصفح المقدمات المناسبة للمطلوب ويعرضها على الأقيسة المنطقية باستقصاء بليغ واحتياط تام في كل طرف ، حتى يقف على موضع الخطأ ويجزم بحقيقة أحد الشقوق وبطلان الآخر . والغرض من وضع المنطق (لا سيما مباحث القياسات السوفسطائية) المشتملة على المغالطات إزالة هذا المرض . ولو كان ممن لا يقتدر على ذلك ، فالعلاج في حقه أن يواظب على العبادة وقراءة القرآن ، ويشغل بمطالعة الأحاديث وسماعها من أهلها ، ويجالس الصالحاء والمتقين وأصحاب الورع وأهل اليقين ، لتكتسب نفسه بذلك نورانية يدفع بها ظلمة شكه .

وصل

اليقين :

قد عرفت : أن ضد الجهل المركب والخيرة والشك هو (اليقين) ، وأول مراتبه اعتقاد ثابت جازم مطابق للواقع غير زائل بشبهة وإن قويت ، فالاعتقاد الذي لا يطابق الواقع ليس يقينياً ، وإن جزم به صاحبه واعتقد مطابقته للواقع ، بل هو - كما أشير إليه - جهل مركب ينشأ عن اعوجاج القرينة ، أو خطأ في الاستدلال ، أو حصول مانع من إفاضة الحق كتقليد أو عصبية أو غير ذلك . فاليقين من حيث اعتبار الجزم فيه يكون ضد الخيرة والشك ، ومن حيث اعتبار المطابقة للواقع فيه يكون ضد الجهل المركب . ثم العلم أن لم يعتبر فيه المطابقة للواقع ففرقه عن اليقين ظاهر ، والافيتساويان وينتشاركان في المراتب المثبتة لليقين .

هذا ومتعلق اليقين إما أجزاء الإيمان ولوازمه ، من وجود الواجب وصفاته الكمالية وسائر المباحث الإلهية من النبوة وأحوال النشأة الآخرة ،

أو غيرها من حقائق الأشياء التي لا يتم الايمان بدونها . ولا ريب في أن مطلق اليقين أقوى أسباب السعادة ، وإن كان اليقين في المباحث الإلهية أدخل في تكميل النفس وتحصيل السعادة الآخروية ، لتوقف الايمان عليه ، بل هو أصله وركنه ، وغيره من المراتب فرع و غصنه ، والنجاة في الآخرة لا تحصل إلا به ، والفائدة له خارج عن زمرة المؤمنين داخل في حزب الكافرين .

وبالجملة : اليقين أشرف الفضائل الخلقية وأهمها ، وأفضل الكمالات النفسية وأعظمها ، وهو الكبريت الأحمر الذي لا يظفر به إلا أوحى من أعظم العرفاء أو ألمعى من أكابر الحكماء . ومن وصل اليه فاز بالرتبة القصوى والسعادة العظمى . قال سيد الرسل - صلى الله عليه وآله وسلم - : « أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ، ومن أوتي حظه منهما لم يبال ما فاته من صيام النهار وقيام الليل ، وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « اليقين الايمان كله ، وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « ما أدى إلا وله ذنوب ، ولكن من كانت غريزته العقل وسجيته اليقين لم تضره الذنوب ، لأنه كلما أذنب ذنباً تاب واستغفر وندم فتكفر ذنوبه ويبقى له فضل يدخل به الجنة ، وقال الصادق - عليه السلام - : « إن العمل الدائم القليل على اليقين أفضل عند الله تعالى من العمل الكثير على غير يقين ، وعنه - عليه السلام - : « إن الله تعالى بعدله وقسطه جعل الروح والراحة في اليقين والرضا ، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط ، وفي وصية لقمان لابنه : « يا بني ! لا استطاع العمل إلا باليقين ، ولا يعمل المرء إلا بقدر يقينه ، ولا يقصر عامل حتى ينقص يقينه ، .

علامات صاحب اليقين :

ثم لصاحب اليقين علامات :

(منها) ألا يلتفت في أموره إلى غير الله سبحانه ، ولا يكون اتكاله

في مقاصده إلا عليه ، ولا ثقته في مطالبه إلا به . فيتبرى عن كل حول وقوة سوى حول الله وقوته ، ولا يرى لنفسه ولا لأبناء جنسه قدرة على شيء ولا منشأية لأثر . ويعلم أن ما يرد عليه منه تعالى وما قدر له وعليه من الخير والشر سيساق إليه ، فتستوى عنده حالة الوجود والعدم ، والزيادة والنقصان ، والمدح والذم ، والفقر والغنى ، والصحة والمرض ، والعز والذل ، ولم يكن له خوف ورجاء إلا منه تعالى . والسرفيه : أنه يرى الأشياء كلها من عين واحدة هو مسبب الأسباب ، ولا يلتفت إلى الوسائط ، بل يراها مسخرة تحت حكمه . قال الإمام أبو عبد الله - عليه السلام - : « من ضعف يقينه تعلق بالأسباب ، ورخص لنفسه بذلك ، واتبع العادات واقليل الناس بغير حقيقة ، والسعي في أمور الدنيا وجمعها وامساكها ، مقرأ باللسان أنه لا مانع ولا معطى إلا الله ، وأن العبد لا يصيب إلا ما رزق وقسم له ، والجهد لا يزيد في الرزق ، وينكر ذلك بفعله وقلبه ، قال الله سبحانه :

« يَقُولُونَ بِأَفْوَهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ » (١) .

وقال - عليه السلام - : « ليس شيء إلا وله حد » قيل : فما حد التوكل ؟ قال : « اليقين » ، قيل : فما حد اليقين ؟ قال : « ألا تخاف مع الله شيئاً » . وعنه - عليه السلام - : « من صحته يقين المرء المسلم ألا يرضى الناس بسخط الله ولا يلومهم على ما لم يؤثمه الله . فإن الرزق لا يسوقه حرص

(١) الآية من سورة آل عمران : ١٦١ . وهذا الحديث منقول عن (مصباح الصريفة ومفتاح الحقيقة) المنسوب إلى الصادق - عليه السلام - . وهذا الكتاب قال فيه المجلسي - قدس سره - في مقدمة البحار : « فيه ما يريب القلب الماهر ، واسلوبه لا يشبه سائر كلمات الأئمة وآثارهم » ، ثم قال : « وإن سنده يقيناً إلى الصوفية ، ولذا اشتمل على كثير من اصطلاحاتهم وعلى الرواية عن مشايخهم » .

حريص ولا ترده كراهية كاره، ولو أن أحدهم فر من رزقه كما يفر من الموت لا دركه رزقه كما يدركه الموت .

(ومنها) ان يكون في جميع الأحوال خاضعاً لله سبحانه . خاشعاً منه ، قائماً بوظائف خدمته في السر والعلن ، مواظباً على امتثال ما أعطته الشريعة من الفرائض والسنن ، متوجهاً بشرائره اليه ، متخضعاً متذاللاً بين يديه ، معرضاً عن جميع ما عداه ، مفرغاً قلبه عما سواه ، منصرفاً بفكره الى جناب قدسه ، مستغرقاً في لجة حبه وانسه . والسر أن صاحب اليقين عارف بالله وعظمته وقدرته ، وبأن الله تعالى مشاهد لا أعماله وأفعاله ، مطلع على خفايا ضميره وهو اجس خاطره ، وأن :

« مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ » وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » (١).

فيكون دائماً في مقام الشهود لديه والحضور بين يديه ، فلا ينفك لحظة عن الحياء والخجل والاشتغال بوظائف الأدب والخدمة ، ويكون سعيه في تخلية باطنه عن الرذائل وتخليته بالفضائل لعين الله السكاينة أشد من تزيين ظاهره لأبناء نوعه .

وبالجملة : مَنْ يقينه بمشاهدته تعالى لا أعماله الباطنة والظاهرة وبالجزاء والحساب ، يكون أبداً في مقام امتثال أوامره واجتناب نواهيه . وَمَنْ يقينه بما فعل الله في حقه من اعطاء ضروب النعم والاحسان ، يكون دائماً في مقام الانفعال والخجل والشكر لمنعمه الحقيقي . وَمَنْ يقينه بما يعطيه المؤمنين في الدار الآخرة من البهجة والسرور ، وما اعده لخلص عبيده مما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب

أحد ، يكون دائماً في مقام الطمع والرجاء .

وَمَنْ يَقِينُهُ بِاسْتِنَادِ جَمِيعِ الْأُمُورِ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ ، وبأن صدور ما يصدر في العالم إنما يكون بالحكمة والمصلحة والعناية الأزلية الراجعة إلى نظام الخير ، يكون أبداً في مقام الصبر والتسليم والرضا بالقضاء من دون عروض تغير وتفاوت في حاله .

وَمَنْ يَقِينُهُ بِكَوْنِ الْمَوْتِ دَاهِيَةً مِنَ الدَّوَاهِي الْعَظْمَى وما بعده أشد وأدهى ، يكون أبداً محزوناً مهموماً .

وَمَنْ يَقِينُهُ بِخُصَاسَةِ الدُّنْيَا وفنائها ، لا يركن إليها . قال الصادق - عليه السلام - في الكنز الذي قال الله تعالى :

« وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا » (١) :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : عَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالْمَوْتِ كَيْفَ يَفْرَحُ ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالْقَدْرِ كَيْفَ يَحْزَنُ ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالدُّنْيَا وَتَقْلِبِهَا بِأَهْلِهَا كَيْفَ يَرْكُنُ إِلَيْهَا » .

وَمَنْ يَقِينُهُ بِعَظَمَةِ اللَّهِ الْبَاهِرَةِ وَقُوَّتِهِ الْقَاهِرَةِ ، يكون دائماً في مقام الهيبة والدهشة . وقد ورد أن سيد الرسل - صلى الله عليه وآله وسلم - كان من شدة خضوعه وخشوعه لله تعالى وخشيته منه تعالى بحيث إذا كان يمشي يظن أنه يسقط على الأرض .

وَمَنْ يَقِينُهُ بِكَالَاتِهِ الْغَيْرِ الْمُنْتَاهِيَةِ وَكَوْنِهِ فَوْقَ النَّمَامِ ، يكون دائماً في مقام الشوق والوله والحب . وحكايات أصحاب اليقين من الأنبياء والمرسلين والأولياء والكاملين في الخوف والشوق وما يعتريهم من الاضطراب والتغير والتلون وأمثال ذلك في الصلاة وغيرها مشهورة ، وفي كتب التواريخ والسير مسطورة . وكذا ما يأخذهم من الوله والاستغراق والابتهاج والانبساط بالله

سبحانه . وحكاية حصول تكرر الغشيات لمولانا أمير المؤمنين - عليه السلام - في أوقات الخلوات والمناجاة وغفلته عن نفسه في الصلوات مما تواتر عند الخاصة والعامة . وكيف يتصور لصاحب اليقين الواقعي بالله وبعظمته وجلاله وباطلاعه تعالى على دقائق أحواله ، أن يعصيه في حضوره ولا يحصل له الانفعال والخشية والدهشة وحضور القلب والتوجه التام إليه عند القيام لديه والمثول بين يديه ، مع أنا نرى أن الحاضر عند من له أدنى شوكة مجازية من الملوك والامراء مع رذالته وخساسته أولاً وآخرأ يحصل له من الانفعال والدهشة والتوجه إليه بحيث يغفل عن ذاته .

(ومنها) أن يكون مستجاب الدعوات ، بل له الكرامات وخرق العادات . والسرفيه أن النفس كلما ازدادت يقيناً ازدادت تجرداً ، فتحصل لها ملكة التصرف في موارد الكائنات . قال الإمام أبو عبد الله الصادق - عليه السلام - : « اليقين يوصل العبد إلى كل حال سنى ومقام عجيب ، كذلك أخبر رسول الله - صلى الله عليه وآله - من عظم شأن اليقين حين ذكر عنده أن عيسى بن مريم - عليه السلام - كان يمشى على الماء ، فقال : لو زاد يقينه لمشى في الهوى . . فهذا الخبر دل على أن الكرامات تزداد بازدياد اليقين ، وأن الأنبياء مع جلالة محلهم من الله متفاوتون في قوة اليقين وضعفه .

مراتب اليقين :

وقد ظهر مما ذكر : أن اليقين جامع جميع الفضائل ولا ينفك عن شيء منها ، ثم له مراتب : (أولها) علم اليقين ، وهو اعتقاد ثابت جازم مطابق للواقع - كما مر - وهو يحصل من الاستدلال باللوازم والملزومات ، ومثاله اليقين بوجود النار من مشاهدة الدخان . و (ثانيها) عين اليقين ، وهو مشاهدة المطلوب ورؤيته بعين البصيرة والباطن ، وهو أقوى في الوضوح والجلاء من

المشاهدة بالبصر ، وإلى هذه المرتبة أشار أمير المؤمنين عليه السلام بقوله : « لم أعبد رباً لم أره ، بعد سؤال ذعبل اليماني عنه - عليه السلام - : « رأيت ربك ؟ » وبقوله - عليه السلام - : « رأى قلبي ربي » . وهو إنما يحصل من الرياضة والتصفية وحصول التجرد التام للنفس ، ومثاله اليقين بوجود النار عند رؤيتها عياناً . و (ثالثها) حق اليقين ، وهو أن تحصل وحدة معنوية وربط حقيقي بين العاقل والمعقول ، بحيث يرى العاقل ذاته رشحة من المعقول ومرتباً به غير منفك عنه ، ويشاهد دائماً ببصيرته الباطنة فيضان الأنوار والآثار منه إليه ، ومثاله اليقين بوجود النار بالدخول فيها من غير احتراق . وهذا إنما يكون لسكّال العارفين بالله المستغرقين في لجة حبه وانسه ، المشاهدين ذواتهم بل سائر الموجودات من رشحات فيضه الأقدس ، وهم الصديقون الذين قصرُوا أبصارهم الباطنة على ملاحظة جماله ومشاهدة أنوار جلاله . وحصول هذه المرتبة يتوقف على مجاهدات شاقة ورياضات قوية ، وترك رسوم العادات وقطع أصول الشهوات ، وقلع الخواطر النفسانية وقمع الهواجس الشيطانية ، والطهارة عن ادناس جيفة الطبيعة ، والتزهد عن زخارف الدنيا الدنية ، وبدون ذلك لا يحصل هذا النوع من اليقين والمشاهدة :

وكيف ترى ليلي بعين ترى بها سواها وما طهرتها بالمدامع
ثم فوق ذلك مرتبة يثبتها بعض أهل السلوك ويعبرون عنه (بحقيقة حق اليقين) والفناء في الله ، وهو أن يرى العارف ذاته مضمحلاً في أنوار الله محترقاً من سبحات وجهه ، بحيث لا يرى استقلالاً ولا تحصيلاً أصلاً ، ومثاله اليقين بوجود النار بدخوله فيها واحتراقه منها .

ثم لا ريب في أن اليقين الحقيقي النوراني المبرق عن ظلمات الأوهام والشكوك ولو كان من المرتبة الأولى لا يحصل من مجرد الفكر والاستدلال ،

بل يتوقف حصوله على الرياضة والمجاهدة وتصقيل النفس وتصفيته عن
كدورات ذمائم الأخلاق وصدأها، ليحصل لها التجرد التام فتحاذى شطر
العقل الفعال، فتتضح فيها جليلة الحق حق الاتضاح. والسر أن النفس بمنزلة
المرآة تنعكس اليها صور الموجودات من العقل الفعال، ولا ريب في أن
انعكاس الصور من ذوات الصور الى المرآة يتوقف على تمامية شكلها وصقالة
جوهرها وحصول المقابلة وارتفاع الحائل بينهما والظفر بالجهة التي فيها الصور
المطلوبة، فيجب في انعكاس حقائق الأشياء من العقل إلى النفس :- ١ - عدم
نقصان جوهرها. فلا يكون كنفس الصبي التي لا تنجلي لها المعلومات لنقصانها
:- ٢ - وشفائها عن كدورات ظلمة الطبيعة وخبث المعاصي، ونقاؤها عن
رسوم العادات وخبث الشبهوات، وهو بمنزلة الصقالة عن الخبث والصدأ
:- ٣ - وتوجهها التام وانصراف فكرها إلى المطلوب، فلا يكون مستوعب الهم
بالأمور الدنيوية وأسباب المعيشة وغيرهما من الخواطر المشوشة لها. وهو
بمنزلة المحاذاة :- ٤ - وتخليتها عن التعصب والتقليد. وهو بمثابة ارتفاع الحجب
:- ٥ - واستحصال المطلوب من تأليف مقدمات مناسبة للمطلوب على الترتيب
المخصوص والشرائط المقررة، وهو بمنزلة العثور على الجهة التي فيها الصورة.
ولو لا هذه الأسباب المانعة للنفوس عن افاضة الحقائق اليقينية اليها،
لكانت عالمة بجميع الأشياء المرتسمة في العقول الفعالة، إذ كل نفس لكونها
أمراً ربانياً وجوهرأ مملوكوتياً فهي بحسب الفطرة صالحة لمعرفة الحقائق، ولذا
امتازت عن سائر المخلوقات من السماوات والأرض والجبال، وصارت قابلة
لحمل أمانة الله (١) التي هي المعرفة والتوحيد، فحرمان النفس عن معرفة اعيان

(١) اشارة الى قوله تعالى : « انا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض فأبين أن

يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوماً جهولاً » الانزاب ، الآية : ٧٢ .

الموجودات انما هو لأحد هذه الموانع ، وقد أشار سيد الرسل - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى موانع التعصب والتقليد بقوله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون ابواه يهودانه ويمجسانه (١) وينصرانه » ، وإلى موانع كدورات المعاصي وصدأها بقوله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « لو لا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماوات والأرض » . فلو ارتفعت عن النفس حجب السيئات والتعصب وحاذت شطر الحق الأول تجلت لها صورة عالم الملك والشهادة بأسره ، اذ هو متناه يمكن لها الاحاطة به ، وصورة عالمي الملكوت والجبروت بقدر ما يتمكن منه بحسب مرتبته ، لأنها الاسرار الغائبة عن مشاهدة الأبصار المختصة بأدراك البصائر ، وهي غير متناهية ، وما يلوح منها للنفس متناه ، وان كانت في نفسها وبالإضافة إلى علم الله سبحانه غير متناهية ، وبمجموع تلك العوالم يسمى بـ (العالم الربوبي) ، إذ كل ما في الوجود من البداية إلى النهاية منسوب إلى الله سبحانه ، وليس في الوجود سوى الله سبحانه وأفعاله وآثاره ، فالعالم الربوبي والحضرة الربوبية هو العالم المحيط بكل الموجودات ، فعدم تناهيه ظاهر بين ، فلا يمكن للنفس أن تحيط بكلمه ، بل يظهر لها منه بقدر قوتها واستعدادها . ثم بقدر ما يحصل للنفس من التصفية والتزكية وما يتجلى لها من الحقائق والأسرار ، ومن معرفة عظمة الله ومعرفة صفات جلاله ونعوت جماله ، تحصل لها السعادة والبهجة واللذة والنعمة في نعيم الجنة ، وتكون

(١) روى السيد المرتضى علم الهدى هذا الحديث في الجزء الثالث من أماليه بدون كلمة

(يمجسانه) ، وكذا في غوالي الثال ، إلا أن المعروف في روايته إضافة كلمة (يمجسانه) وإمكانها بعد كلمة (ينصرانه) ، كما أرسلها في مجمع البيان : ج ٨ ص ٣٠٣ طبع صيدا ، وكذا في مجمع البحرين في مادة (فطر) ، وكذا في صحيح البخاري : ج ١ ص ٢٠٦ ، وصحيح مسلم : ج ٢ ص ١١٣ ، ومعالم التنزيل في هامش تفسير الخازن : ج ٥ ص ١٢٢ ، وغير هؤلاء .

سعة مملكته فيها بحسب سعة معرفته بالله وبعظمته وبصفاته وأفعاله ، وكل منها لا نهاية له . ولذا لا تستقر النفس في مقام من المعرفة . والبهجة والكمال والتفوق والغلبة تكون غاية طلبتها ، ولا تكون طالبة لما فوقها . وما اعتقده جماعة من أن ما يحصل للنفس من المعارف الإلهية والفضائل الخلقية هي الجنة بعينها فهو عندنا باطل ، بل هي موجبة لاستحقاق الجنة التي هي دار السرور والبهجة .
ومنها :

الشرك

وهو أن يرى في الوجود مؤثراً غير الله سبحانه ، فإن عبد هذا الغير - سواء كان صنماً أو كوكباً أو انساناً أو شيطاناً - كان شرك عبادة ، وإن لم يعبدته ولكن لا اعتقاد كونه منشأ أثر أطاعه فيما لا يرضى الله فهو شرك طاعة ، والأول يسمى بالشرك الجلي ، والثاني يسمى بالشرك الخفي ، واليه الإشارة بقوله تعالى :

« وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ » (١)

وكون الشرك أعظم الكبائر الموبقة وموجباً لخلود النار مما لا ريب فيه ، وقد انعقد عليه اجماع الامة ، والآيات والأخبار الواردة به خارجة عن حد الاحصاء .

ثم للشرك مراتب تظهر في بحث ضده الذي هو التوحيد ، والشرك وإن كان شعبة من الجهل ، كما أن التوحيد الذي هو ضده من أفراد اليقين والعلم ، فذكرهما على حدة لم يكن لازماً هنا ، إلا أنه لما كان المتعارف ذكر

التوحيد في كتب الأخلاق. فنحن أيضاً ذكرنا له عنواناً على حدة تأسيساً بها، وأشرنا إلى لمعة يسيرة منه ، إذ الاستقصاء فيه والخوض في غمراته مما ليس في وسعنا ولا يليق هنا ، فإن التوحيد هو البحر الخضم الذي لا ساحل له .

وصل

(التوحيد في الفعل)

ضد الشرك (التوحيد) ، وهو إما توحيد في أصل الذات بمعنى عدم تركيب خارجي وعقلي في ذاته تعالى وعينية وجوده وصفاته لذاته ، ويلزمه كونه تعالى صرف الوجود وبجته ، أو توحيد في وجوب وجوده بمعنى نفى الشرك في وجوب الوجود عنه (ولا بحث لنا هنا عن اثبات هذين القسمين ، لثبوتها في الحكمة المتعالية) ، أو توحيد في الفعل والتأثير والايجاد ، بمعنى أن لا فاعل ولا مؤثر إلا هو ، وهو الذي نذكر هنا مراتبه وما يتعلق به ، فنقول :

هذا التوحيد - على ما قيل - له أربع مراتب : قشر ، وقشر القشر ، ولب ، ولب اللب كالجوز الذي له قشرتان وله لب ، وللب دهن وهو لب اللب . (فالمرتبة الأولى) ان يقول الانسان باللسان : لا إله إلا الله ، وقلبه منكرو غافل عنه ، كتوحيد المنافقين ، وهذا توحيد بمجرد اللسان ولا فائدة فيه إلا حفظ صاحبه في الدنيا من السيف والسنان . (الثانية) ان يصدق بمعنى اللفظ قلبه ، كما هو شأن عموم المسلمين ، وهو اعتقاد العوام وصاحبه موحد ، بمعنى انه معتقد بقلبه خال عن التكذيب بما انعقد عليه قلبه . وهو عقد على القلب لا يوجب انشراحاً وانفتاحاً وصفاء له . ولكنّه يحفظ صاحبه عن العذاب في الآخرة ان مات عليه ولم يضعف بالمعاصي . (الثالثة) ان يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق ، وذلك بأن يرى أشياء كثيرة ولكن

يراها بكثرتها صادرة عن الواحد الحق ، وهو مقام المقربين ، وصاحبه موحد ، بمعنى أنه لا يشاهد إلا فاعلاً ومؤثراً واحداً ، لأنه انكشف له الحق كما هو عليه . (الرابعة) ألا يرى في الوجود إلا واحداً ، ويسميه أهل المعرفة الفناء في التوحيد ، لأنه من حيث لا يرى إلا واحداً . فلا يرى نفسه أيضاً ، وإذا لم ير نفسه لكونه مستغرقاً بالواحد كان فانياً عن نفسه في توحيده ، بمعنى أنه فنى عن رؤية نفسه ، وهو مشاهدة الصديقين ، وصاحبه موحد بمعنى أنه لم يحضر في شهوده غير الواحد ، فلا يرى الكل من حيث أنه كثير بل من حيث أنه واحد . وهذا هي الغاية القصوى في التوحيد .

فالمرتبة الأولى : كالقشرة العليا من الجوز ، وكما أن هذه القشرة لا خير فيها أصلاً ، بل إن أكلتها فهمى مر المذاق ، وإن نظرت إلى باطنها فهو كريحه المنظر ، وإن اتخذتها حطباً أطفأت النار واكثرت الدخان ، وإن تركتها في البيت ضيقت المسكان ، فلا تصلح إلا أن تترك مدة على الجوز لحفظ القشرة السفلى ، ثم ترمى ، فكذلك التوحيد بمجرد اللسان عديم الجدوى كثير الضرر مذموم الظاهر والباطن ، لكن ينفع مدة في حفظ المرتبة الثانية إلى وقت الموت . والمرتبة الثانية : كالقشرة السفلى ، فكما أن هذه القشرة ظاهرة النفع بالاضافة إلى القشرة العليا ، فإنها تصون اللب عن الفساد عند الادخار ، وإذا فصلت أمكن أن يفتقع بها حطباً ، لئلا نازلة القدر بالاضافة إلى اللب ، فكذلك مجرد الاعتقاد من غير كشف كثير النفع بالنسبة إلى مجرد نطق اللسان ، إذ تحصل به النجاة في الآخرة ، لئلا ينقص القدر بالاضافة إلى الكشف والعيان الذي يحصل بانسراح الصدر وانفتاحه بأشراق نور الحق فيه . والمرتبة الثالثة : كاللب ، وكما أن اللب نفيس في نفسه بالاضافة إلى القشر وكأنه المقصود لئلا يخلو عن شوب عصارة بالاضافة إلى الدهن منه ،

فكذلك توحيد الفعل على طريق الكشف مقصد عال للسالكين ، إلا أنه لا يخلو عن شوب ملاحظة الغير والالتفات الى الكثرة بالاضافة الى من لا يشاهد سوى الواحد الحق . والمرتبة الرابعة : كالدهن المستخرج من اللب ، وكما ان اللب هو المطلوب لذاته والمرغوب في نفسه ، فكذلك قصر النظر على مشاهدة الحق الأول هو المقصود لذاته والمحجوب في نفسه .

(تنبيه) ان قيل : كيف يمكن تحقيق المرتبة الرابعة من التوحيد لتوقعها على عدم مشاهدة غير الواحد ، مع أن كل أحد يشاهد الارض والسماء وسائر الأجسام المحسوسة وهي كثيرة ، فكيف يكون الكثير واحداً ؟ (قلنا) : من يتقن أن الممكنات بأسرها اعدام صرفة في نفسها ، وأن ما به تحققها من الله سبحانه ، ثم احاط على قلبه نور عظمته وجلاله بحيث بهرته وغلب على قلبه الحب والانس حتى عن غيره اغفله ، فأى استبعاد في ان يوجب شدة استغراقه في لجة العظمة والجلال والكمال والجمال وغلبة الحب والانس عليه ، مع عدمية الكثرة ووحدة ما به التحقق عنده ورسوخ ذلك ، وارتكازه في قلبه أن لا يرى في نظر شهوده إلا هو ، ويغيب عنه غيره ، لقصر نظر بصيرته الباطنة على ما هو الحقيقة والواقع . وبما يكسر سورة استبعادك : ان المشغول بالسلطان والمستغرق في ملاحظة سطوته ربما غفل عن مشاهدة غيره ، وان العاشق قد يستغرق في مشاهدة جمال معشوقه ويبهره حبه بحيث لا يرى غيره ، مع تحقق الكثرة عنده ، وان الكواكب موجودة في النهار مع انها لا ترى لمغلوية أنوارها واضمحلالها في جنب نور الشمس ، فاذا جاز ان يغلب نور الشمس على نور الكواكب ويقهرها بحيث يضمحل ويغيب عن بصر الظاهر ، فأى استبعاد في ان يغلب نور الوجود الحقيقي القاهر على الموجودات الضعيفة الامكانية ويقهرها ، بحيث يغيب عن نظر العقل

والبصيرة ، ثم هذه المشاهدات التي لا يظهر فيها إلا الله الواحد الحق لا تدوم ، بل هي كالبرق الخاطف والدوام فيها عزيز نادر .

فصل

(ابتناء التوكل على حصر المؤثر في الله تعالى)

اعلم : انه لا يمكن التوكل على الله تعالى في الامور حق التوكل إلا بالبلوغ إلى المرتبة الثالثة من التوحيد ، وهي التي يرتبط بها التوكل دون غيرها من المراتب ، إذ المرتبة الرابعة لا يتوقف ولا يبنى عليها التوكل ، والاولى مجرد نفاق لا يفيد شيئاً ، والثانية - اعني مجرد التوحيد بالاعتقاد - لا يورث حال توكل كما ينبغي ، فانه موجود في عموم المسلمين مع عدم وجود التوكل كما ينبغي فيهم .

فالمناط في التوكل هو ثالث المراتب في التوحيد ، وهو ان ينكشف للعبد بنور الحق ان لا فاعل إلا الله ، وان كل موجود : من خلق ورزق ، وعطاء ومنع ، وغنى وفقر ، وصحة ومرض ، وعز وذل ، وحياة وموت ... إلى غير ذلك مما يطلق عليه اسم ، فالمتفرد بابداعه واختراعه هو الله تعالى لا شريك له فيه ، واذا انكشف له هذا لم ينظر الى غيره ، بل كان منه خوفه واليه رجاءه ، وبه ثقته وعليه اتكاله ، فانه الفاعل بالانفراد دون غيره ، وما سواه مسخرون لا استقلال لهم بتحريك ذرة في ملكوت السماوات والارض . واذا انفتح له ابواب المعارف اتضح له هذا اتضاحاً أتم من المشاهدة بالبصر ، وإنما يصدده الشيطان عن هذا التوحيد ، ويوقع في قلبه شائبه الشرك بالالتفات الى بعض الوسائط التي يتراءى في بادى النظر منشئتها لبعض الامور ، كالاعتماد على الغيم في نزول المطر ، وعلى المطر في خروج الزرع ونباته ونمائه ،

وعلى الريح في استواء السفينة وسيرها ، وعلى بعض نظرات السكواكب واتصالاتها في حدوث بعض الحوادث في الأرض ، وكالاتفات الى اختيار بعض الحيوانات وقدرتها على بعض الأفعال ، فيوسوس الشيطان في قلبه ويقول له : كيف ترى الكل من الله تعالى ، وهذا الانسان يعطيك رزقك باختياره فان شاء أعطاك وإن شاء منع ، وهذا الشخص قادر على جز رقبتك بسيفه فان شاء جز رقبتك وان شاء عني عنك ، فكيف لا تخافه ولا ترجوه وأمرك بيده ، وأنت تشاهد ذلك ولا تشك فيه ؟ !

ولا ريب في أن امثال هذه الالتفاتات جهل بحقائق الامور ، ومن مكن الشيطان وسلطه على نفسه حتى يوقع هذه الوسوس في قلبه فهو من الجاهلين بابواب المعارف ، إذ من انكشف له أمر العالم كما هو عليه ، علم ان السماء والسكواكب والريح والغيم والمطر والانسان والحيوان ... وغير ذلك من المخلوقات كلهم مقهورون مسخرون للواحد الحق الذي لا شريك له ، فيعلم ان الريح مثلاً هواء ، والهواء لا يتحرك بنفسه ما لم يحركه محرك ، وهذا المحرك لا يحرك الهواء ما لم يحركه على التحريك محرك آخر... وهكذا إلى ينتهي إلى المحرك الأول الذي لا محرك له ولا هو متحرك في نفسه . وكذا الحال في توسط غيره من الافلاك ونجومها ، وكائنات الجو ، والموجودات على الأرض من الجماد والنبات والحيوان .

فالتفات العبد في نجاته إلى بعض الأشياء من الرياح والأمطار أو الانسان أو الحيوان يضاهي التفات من أخذ لتجز رقبتة ، فأمر الملك كاتبه بأن يكتب توقيماً بالعفو عنه وتخليته ، فأخذ العبد يشتغل بمسح الحبر أو السكاغد أو القلم أو السكاتب ، ويقول : لو لا الحبر أو القلم أو السكاغد أو السكاتب ما تخلصت ، فيرى نجاته من الحبر والسكاغد دون القلم أو من القلم

دون محرك - أعنى الكاتب - أو من الكاتب دون الملك الذي هو محرك الكاتب ومسخره . ومن علم أن القلم لا حكم له في نفسه وإنما هو مسخر في يد الكاتب ، وإن الكاتب لا حكم له وإنما هو مسخر تحت يد الملك ، لم يلتفت إلى القلم والكاتب ولم يشكر إلا الملك ، بل ربما يدهشه فرح النجاة وشكر الملك عن أن يخطر بباله السكاغد والخبر والقلم والكاتب . ولا ريب في أن جميع المخلوقات من الشمس والقمر والنجوم والغيم والمطر والأرض وكل حيوان أو جماد مسخرات في قبضة القدرة ، كتسخير القلم في يد الكاتب وتسخير الكاتب في يد السلطان ، بل هذا تمثيل في حق العبد لا اعتقاده أن الملك الموقع هو الكاتب حقيقة ، وليس الأمر كذلك ، إذ الحق أن الكاتب هو الله سبحانه كما قال تعالى :

« وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى » (١)

فمن انكشف له أن جميع ما في السماوات والأرض مسخرات للواجب الحق ، لم ير في الوجود مؤثراً إلا هو ، وانصرف عنه الشيطان خائباً ، وأيس عن مزج توحيده بهذا الشرك .

وأما من لم ينشرح بنور الله صدره ، قصرت بصيرته عن ملاحظة جبار السماوات والأرض ومشاهدة كونه وراء الكل ، فوقف في الطريق على بعض المسخرات ، وهو جهل محض . وغلظه في ذلك كغلط النملة مثلاً لو كانت تدب على السكاغد فترى رأس القلم يسود السكاغد ، ولم يمتد بصرها إلى الأصابع واليد ، فضلاً عن صاحب اليد ، وظنت أن القلم هو المسود للبياض ، وذلك لقصور بصرها عن مجاوزة رأس القلم لضيق حدقتها .

فصل

(مناجاة السر لأرباب القلوب)

قال بعض العارفين (١) : أرباب القلوب والمشاهدات قد انطق الله في حقهم كل ذرة في الأرض والسموات بقدرته التي انطق بها كل شيء ، حتى سمعوا تقديسها وتسبيحها وشهادتها على نفسها بالعجز ، بلسان الواقع الذي هو ليس بعربي ولا أعجمي ، وليس فيه حرف وصوت ، ولا يسمعه أحد إلا بالسمع العقلي المملكون دون السمع الظاهر الحسي الناسوتي ، وهذا النطق الذي لسكل ذرة من الأرض والسموات مع أرباب القلوب إنما هو (مناجاة السر) ، وذلك مما لا ينحصر ولا يتناهى ، فانها كلمات تستمد (٢) من بحر كلام الله الذي لا نهاية له :

« قُلْ لَوْ كُنَّا الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا » (٣).

ثم انها لما كانت مناجية بأسرار الملك والمملوك ، وليس كل أحد موضعاً للسر ، بل صدور الأحرار قبور الأسرار ، فاختصت مناجاتها بالأحرار من أرباب القلوب . وهم أيضاً لا يحكون هذه الأسرار لغيرهم ، إذ

(١) المقصود به (أبو حامد الغزالي) في أحياء العلوم ، راجع الجزء الرابع من ١١٤ المطبوع بالمطبعة العثمانية بمصر سنة ١٣٥٢ ، وسترى ان هذه الفصول مقتبسة منه بتغيير في العبارة وتقديم وتأخير . وكذلك هذا الفصل المنقول عنه فيه تغيير واختصار كثير ، وصاحب الكتاب اعترف - فيما سيأتي - باقتباس هذه الفصول من الغزالي .

(٢) وفي نسخة الخطية : (لأنها كلام يستمد) ، واسكن الوجود في المطبوعة وفي نسخة أحياء العلوم كما اتينا في المتن .

(٣) الكهف ، الآية : ١٠٩ .

إفشاء السر لؤم ، وهل رأيت قط أميناً على أسرار الملك قد فوجى بخفاياه
فينادى بها على الملائكة من الخلق ، ولو جاز إفشاء كل سر لما نهى النبي - صلى الله
عليه وآله وسلم - عن إفشاء سر القدر ، ولما خص أمير المؤمنين عليه السلام
ببعض الأسرار ، ولما قال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « لو تعلمون ما أعلم
لضحكتكم قليلاً ولبسكنكم كثيراً » ، بل كان يذكر لهم ذلك حتى يسكنون
ولا يضحكون .

فاذن عن حكايات مناجاة ذرات الملك والملائكة لقلوب أرباب
المشاهدة مانعان : (أحدهما) المنع عن إفشاء السر ، (ثانيهما) خروج كلماتها
عن الحصر والنهاية . ونحن نحكى في فعل الكتابة قدراً يسيراً من مناجاة بعض
ما يرى أسباباً ووسائط ، وقرارها بالعجز على انفسها ، ليقاس عليه جميع
الأفعال الصادرة عن جميع الأسباب والوسائط المسخرة تحت قدرة الله ،
ويفهم به على الاجمال كيفية ابتناء التوكل عليه ، ونردُّ لضرورة الفهم
كلماتها المملوكة الى الحروف والأصوات ، وإن لم تكن أصواتاً وحروفاً ، فنقول :
قال بعض الناظرين عن مشكاة نور الله للمكافئ ، وقد رأى وجهه أسوداً
بالخبر : « لم سودت وجهك وقد كان أبيض مشرقاً ؟ » .

فقال : « ما سودت وجهي ، وإنما سوده الخبر ، فأسأله لم فعل كذا ؟ »
فسأل الخبر عن ذلك ، فقال : « هذا السؤال على القلم الذي أخرجني
من مستقرى ظلماً » .

فسأل القلم : فأحاله الى اليد والأصابع ، وهى الى القدرة والقوة ، وهى
الى الإرادة . معترفاً كل واحد منهم بعجز نفسه ، وبكونه مقهوراً مسخرأ
تحت قهر المحال عليه من دون استطاعة لمخالفته .

ولما سأل الإرادة ، قالت : « ما انتهضت بنفسى ، بل بُعثت على

إشخاص القدرة وإنهاضها ، وبحكم رسول قاهر ورد على من حضرة القلب
بلسان العقل ، وهذا الرسول هو العلم ، فالسؤال عن انتهاضي يتوجه على
العقل والقلب والعلم .

ولما سألهما قال (العقل) : « أما أنا فسراج ما اشتعلت بنفسى
ولكننى أشعلت » .

وقال (القلب) : « أما أنا فلوح ما انبسطت بنفسى ولكننى بسطت » .
وقال (العلم) : « أما أنا فنقش نقش في لوح القلب لما أشرق سراج
العقل ، وما انتقشت بنفسى بل نقشنى غيرى ، فسل القلم الذى نقشنى ورسمنى
على لوح القلب بعد اشتعال سراج العقل » .

وعند هذا تحير السائل وقال : « ما هذا القلم وهذا اللوح وهذا الخط
وهذا السراج ؟ فأنى لا أعلم قلباً إلا من القصب ، ولا لوحاً إلا من الحديد
أو الخشب ، ولا خطأ إلا بالخبر ، ولا سراجاً إلا من النار . وانى لأسمع في
هذا المنزل حديث اللوح والقلم والخط والسراج ، ولا اشاهد من ذلك شيئاً »
فقال له (العلم) : « فاذن بضاعتك مزجاة ، وزادك قليل ، ومركبك
ضعيف ، والمهالك في الطريق الذى توجهت اليه كثيرة ، فان كنت راغباً في
استتمام الطريق الى المقصد ، فاعلم أن العوالم في طريقك ثلاثة : (أولها) عالم
المملك والشهادة ، ولقد كان السكاغد والخبر والقلم واليد والأصابع من هذا
العالم ، وقد جاوزت تلك المنازل على سهولة (وثانيها) عالم الملكوت الأسفل ،
وهو يشبه السفينة التى بين الارض والماء ، فلا هى حد اضطراب الماء ، ولا
هى في حد سكون الأرض وثباتها ، والقدرة والارادة والعلم من منازل هذا
العالم . (وثالثها) عالم الملكوت الاعلى ، وهو من ورأى ، فاذا جاوزتني
انتهيت إلى منازل . وأول منازل القلم الذى يكتب به العلم على لوح القلب .

وفي هذا العالم المهامه الفسيحة والجبال الشاهقة والبحار المغرقة ، .
فقال له السائل السالك : « قد تحيرت في أمرى ولست أدرى انى
أقدر على قطع هذا الطريق المخوف أم لا ، فهل لذلك علامة أعرف بها تمكنى
على قطع هذا الطريق ؟ » .

فقال : « نعم ! افتح بصرك ، واجمع ضوء عينك وحدّقه نحوى . فان
ظهر لك القلم الذى به يكتب فى لوح القلب ، فيشبه أن تكون أهلاً لهذا
الطريق ، فان كل من جاوز الملكوت الأسفل وقرع أول باب من الملكوت
الأعلى كوشف بالقلم . أما ترى النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - كوشف به
وانزل عليه قوله تعالى :

« إقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ... الى قوله : إقرأ وَرَبُّكَ
الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » (١) ،
وهذا القلم قلم إلهى ليس بقصب ولا خشب . أو ما سمعت أن متاع
البيت يشبه رب البيت ؟ وقد علمت ان الله تعالى لا تشبه ذاته سائر الذوات ،
فليس فى ذاته بجسم ولا هو فى مكان ، فكذلك لا تشبه يده سائر الأيدي ،
ولا قلبه سائر الأقاليم ، ولا كلامه سائر الكلام ، ولا خطه سائر الخطوط .
بل هذه أمور إلهية من عالم الملكوت الأعلى ، فليست يده من لحم وعظم
ودم ، ولا قلبه من قصب ، ولا لوحه من خشب ، ولا كلامه من صوت
وحرف ، ولا خطه من نقش ورسم ورقم ، ولا خبره من زاج وعفص . فإن
كنت لا تشاهد هذا هكذا فأنت من أهل التشبيه والتجسم وما عرفت ربك ،
إذ لو نزهت ذاته تعالى وصفاته عن ذات الأجسام وصفاتها ونزهت كلامه

عن الحروف والأصوات ، فما بالك تتوقف في يده وقلبه ولوحه وخطه ،
ولا تنزهها عن الجسمية والتشبيه بغيرها ؟ .

فلما سمع السائل السالك من العلم ذلك ، استشعر قصور نفسه وفتح
بصر بصيرته ، بعد الابتغال الى ربه ، فانكشف له القلم الإلهي ، فاذا هو كما
وصفه العلم ، ما هو من خشب ولا قصب ، ولا له رأس ولا ذنب ، وهو
يكاتب على الدوام في قلوب البشر اصناف العلم ، فشكر العلم وودعه ، وسافر
الى حضرة القلم الإلهي ، وقال له :

« أيها القلم ! مالك تخط على الدوام في القلوب من العلوم ما تبحث به
الارادات الى انهاض القدرة وإشخاصها وصرفها إلى المقدورات ؟ . »
فقال له (القلم الإلهي) : « أفنسييت ما رأيت في عالم الملك وسمعت من
جواب القلم الآدمي حيث أحالك الى اليد ؟ فجوابي مثل جوابه ، فاني مسخر
تحت يد الله تعالى الملقبة بـ (يمين الملك) ، فأسأله عن شأني فاني في قبضته وهو
الذي يردني ، وأنا مقهور مسخر ، فلا فرق بين القلم الإلهي والقلم الآدمي
في معنى التسخير ، وإنما الفرق في ظاهر الصورة . »

فقال السائل : « من يمين الملك ؟ » .

قال القلم : « أما سمعت قوله تعالى :

وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ؟ (١) » .

قال : « نعم ! سمعته . »

قال : « والأقلام أيضاً في قبضته وهو الذي يرددها . »

فسافر السائل من عند القلم إلى اليمين ، حتى شاهده ، ورأى من عجائبه
ما يزيد على عجائب القلم ، ورأى أنه يمين لا كالأيمان ، ويد لا كالأيدي ،
واصبع لا كالأصابع ، فرأى القلم متحركاً في قبضته ، فأسأله عن سبب تحريكه القلم .

(١) الزمر ، الآية : ٦٧ .

فقال : « جواني ما سمعته من اليمين التي رأيته في عالم الشهادة ، وهو الحوالة على القدرة ، إذ اليد لا حكم لها في نفسها ، وإنما محركها القدرة . فسافر إلى عالم القدرة ورأى فيها من العجائب ما استحقق لأجلها ما قبلها ، فسألها عن سبب تحريكها اليمين . فقالت : « إنما أنا صفة فاسأل القادر ، إذ العهدة على الموصوف دون الصفة . »

وعند هذا كاد أن يزيغ قلب السائل ، وينطلق بالجرأة لسان السؤال ، فثبتت بالقول الثابت ونودي من وراء سرادقات الحضرة :

« لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ » (١)

فغشيته دهشة الحضرة ، نخر صعقاً في غشيته مدة ، فلما أفاق قال : « سبحانك ! ما أعظم شأنك وأعز سلطانك ، تبت اليك وتوكلت عليك ، وآمنت بآذك الملك الجبار الواحد القهار ، فلا أخاف غيرك ولا أرجو سواك ، ولا أعوذ إلا بعفوك من عقابك ، وبرضاك من سخطك ، وما لي إلا أن أسألك وأتضرع اليك ، وأقول :

(اشرح لي صدري) لأعرفك ، (وأحلل عُقدتي من لساني) (٢) لأثني عليك . »

فنودي من وراء الحجاب : « إياك أن تطمع في الثناء ، فإن سيد الأنبياء - صلى الله عليه وآله وسلم - ما زاد في هذه الحضرة على أن قال : (سبحانك لا اثنى ثناء عليك كما أنت أثنت على نفسك) . وإياك أن تطمع في المعرفة ،

(١) الأنبياء ، الآية : ٢٣ .

(٢) طه ، الآية : ٢٥ ، ٢٢ .

فإن سيد الأوصياء قال : (العجز عن درك الادراك ادراك ، والفحص عن سر ذات السر إشراك) . فيكفيك نصيباً من حضرتنا أنك عاجز عن ملاحظة جلالنا وجمالنا ، وقاصر عن ادراك دقائق حكمتنا وأفعالنا .

فعند هذا رجع السائل السالك ، واعتذر عن أسئلته ومعاينته ، وقال للقدرة واليمين والقلم والعلم والارادة والقدرة وما بعدها : « اقبلوا عذري فاني كنت غريباً جديداً العهد بالدخول في هذه البلاد . والآن قد صبح عندي عنركم وانكشف لي أن المتفرد بالملك والملسكوت والعزة والجبروت هو الواحد القهار ، وما أنتم إلا مسخرون تحت قهره وقدرته ، مرددون في قبضته ، وهو الأول بالاضافة الى الوجود ، إذ صدر منه الكل على ترتيبه واحداً بعد واحد ، وهو الآخر بالاضافة الى سير المسافرين اليه ، فانهم لا يزالون مترقين من منزل الى منزل الى أن يقع الانتهاء الى حضرته ، فهو أول في الوجود وآخر في المشاهدة ، وهو الظاهر بالاضافة الى من يطلبه بالسراج الذي اشتعل في قلبه بالبصيرة الباطنة النافذة في عالم الملسكوت ، وهو الباطن بالاضافة الى العاكفين في عالم الشهادة الطالبين لا دراكه بالحواس . »

وهذا هو التوحيد في الفعل للسالكين ، الذين انكشف لهم وحدة الفاعل بالمشاهدة واستماع كلام ذرات الملك والملسكوت ، وهو موقوف على الايمان بعالم الملسكوت والتمسك من المسافرة اليه واستماع الكلام من أهله . ومن كان أجنبياً من هذا العالم ولم يكن له استعداد الوصول اليه ولم يمكنه ان يسلك السبيل الذي ذكرناه ، فينبغي ان يرد مثله الى التوحيد الاعتقادي الذي يوجد في عالم الشهادة ، وهو ان يعلم ببعض الأدلة وحدة الفاعل ، مثل ان يقال له : إن كل أحد يعلم أن المنزل يفسد بصاحبين والبلد يفسد بأميرين ، فإذا له العالم ومدبره واحد ، إذ :

«لَوْ كَانَ فِيهَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا» (١)

فيكون ذلك على ذوق ما رآه في عالم الشهادة ، فينغمس اعتقاد التوحيد في قلبه بهذا الطريق بقدر عقله واستعداده ، وقد كلفوا الأنبياء أن يكلبوا الناس على قدر عقولهم .

ثم الحق أن هذا التوحيد الاعتقادي إذا قوى يصلح أن يكون عماداً للتوكل وأصلاً فيه ، إذ الاعتقاد إذا قوى عمل عمل الكشف في إثارة الأحوال ، إلا أنه في الغالب يضعف ويتسارع إليه الاضطراب ، فيحتاج إلى من يجرسه بكلامه ، وأما الذي شاهد الطريق وسلكه بنفسه ، فلا يخاف عليه شيء من ذلك ، بل لو كشف له الغطاء لما ازداد يقيناً وإن كان يزداد وضوحاً .

(تنبيه) اعلم أن ما يبتنى عليه التوحيد المذكور ، أعني كون جميع الأشياء من الأسباب والوسائط مقهورات مسخرات تحت القدرة الأزلية ظاهر . وسائر ما أوردنا في هذا المقام مما ذكره أبو حامد الغزالي وتبعه بعض أصحابنا ، ولا اشكال فيه إلا في أفعال الإنسان وحركاته ، (٢) . فإن البديهة تشهد بثبوت نوع اختيار له ، لأنه يتحرك إن شاء ويسكن إن شاء ، مع أنه لو كان مسخراً مقهوراً في جميع أفعاله وحركاته ، لزم الجبر ولم يصح التكليف والثواب والعقاب . ولتحقيق هذه المسألة موضع آخر ، ولا يليق ذكرها هنا . والحق أن كل ما قيل فيها لا يخلو عن قصور ونقصان ، والأولى فيها السكوت والتأدب بأداب الشرع (٣) .

(١) الأنبياء ، الآية : ٢٢ .

(٢) هكذا في المطبوعة وفي نسخة الخطية والنسخة الأخرى : «ولارب في لزوم الاشكال في أفعال الإنسان وحركاته» .

(٣) هذا اعتراف بالعجز وهروب من حل هذه المعضلة التاريخية في سر الخلق ، والحل الذي لم يسبق إليه البشر حتى عند فلاسفتهم الأقدمين والمتأخرين ما قاله إمامنا الصادق (ع) : —

ومنها :

الخواطر النفسانية والوساوس الشيطانية

اعلم أن الخاطر ما يعرض في القلب من الأفكار. فإن كان مذموماً داعياً إلى الشر سمي (وسوسة) ، وإن كان محموداً داعياً إلى الخير سمي (إلهاماً) . وتوضيح ذلك : أن مثل القلب بالنسبة إلى ما يرد عليه من الخواطر مثل هدف تتوارد عليه السهام من الجوانب ، أو حوض تنصب إليه مياه مختلفة من الجداول ، أو قبة ذات أبواب يدخل منها أشخاص متخالفة ، أو مرآة منصوبة تحتاز إليها صور متباينة . فكما أن هذه الأمور لا تنفك عن تلك السوانح ، فكذا القلب لا ينفك عن واردات الخواطر . فلا تزال هذه اللطيفة الإلهية مضراً لتطاردوها ومعركة لجولانها وتزاحمها ، إلى أن يقطع ربطها عن البدن ولذاته ، ويتخلص عن لدغ عقارب الطبع وحياته .

ثم لما كان الخاطر أمراً حادثاً فلا بد له من سبب ، فإن كان سببه شيطاناً فهو الوسوسة ، وإن كان ملكاً فهو الإلهام . وما يستعد به القلب لقبول الوسوسة يسمى إغواءً وخذلاناً ، وما يتهيأ به لقبول الإلهام يسمى لطفاً وتوفيقاً . وإلى ذلك أشار سيد الرسل - صلى الله عليه وآله وسلم - بقوله : « في القلب لمتان (١) : لمة من الملك إيعاد بالخير وتصديق بالحق ، ولمة من

— « لا جبر ولا تفويض ، وإن كان أمر بين أمرين » . فإن القاعل الذي منه الوجود هو الله تعالى وحده لا شريك له في خلقه ، والقاعل الذي به الوجود هو العبد المختار في فعله .

(١) روى الحديث في أحياء العلوم ج ٢ ص ٢٣ هكذا : « في القلب لمتان : لمة من الملك إيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله سبحانه ولا يحمده الله . ولمة من العدو إيعاد بالشر وتكذيب بالحق ونهي عن الخير ، فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم » ، ثم تلا قوله تعالى : « الشيطان يعدم الفقر ... الآية » .

الشيطان إبعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وبقوله - صلى الله عليه وآله وسلم - :
« قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » .

فصل

(أقسام الخواطر ومنها الإلهام)

الخاطر ينقسم الى ما يختلج بالبال من دون أن يكون مبدءاً للفعل : وهي
الأماني الكاذبة والأفكار الفاسدة ، والى محرك الإرادة والعزم على الفعل ،
إذ كل فعل مسبوق بالخاطر أولاً ، فمبدء الأفعال الخواطر ، وهي تحرك
الرغبة ، والرغبة العزم ، والعزم النية ، والنية تبعث الأعضاء على الفعل ،
(والثاني) كما عرفت إن كان مبدءاً للخير يكون إلهاماً ومحموداً ، وإن كان مبدءاً
للشر يكون وسواساً ومذموماً . (والاول) له أنواع كثيرة :

(منها) ما يرجع الى التمني ، سواء كان حصول ما يتمناه ممكنأ أو محالاً ،
وسواء كان المتمني حسناً محموداً أو قبيحاً مذموماً ، وسواء كان عدمه مستنداً
الى قضاء الله وقدره أو الى تقصيره وسوء تدبيره فيخطر بباله أنه ياليت لم
يفعل كذا أو فعل كذا .

(ومنها) ما يرجع الى تذكر الأحوال الغالبة ، إما بدون اختياره أو
مع اختيار ما ، بأن يتصور ما له من النفائس الفانية فيستتر به ، أو يتخيل
فقدته فيحزن لأجله ، أو يتفكر في ما اعتراه من العال والأسقام واختلال
أمر المعاش وسوء الانتظام ، أو يذهب وهمه الى حساب المعاملين أو جواب
المعاندين ، وتصوير إهلاك الأعداء بالألوان المختلفة من دون تأثير وفائدة .

— وهذا الحديث لم نعر عليه من طرقنا ، وكذا الحديث الآتي :

في نهاية ابن الأثير : « في حديث ابن مسعود : لا بين آدم لئان : لمة من الملك ولة من
الشيطان . اللة الهمة والخطرة تقع في القلب ، اراد إلام الملك أو الشيطان به والقرب منه » .

(ومنها) ما يرجع الى التطير ، وربما بلغ حداً يتخيل كثيراً من الامور الاتفاقية الدالة على وقوع مكروه بنفسه أو بما يتعلق به ، ويضطرب بذلك ، وإن لم تكن مشهورة بذلك عند الناس ، وربما حدثت في القوة الوهمية خبائث وشيطننة تذهب غالباً الى ما يؤذيه ويسكره ولا يذهب الى ما يريد ويسره ، فيتخيل ذهاب أمواله وأولاده وابتلاءه بالأمراض والأسقام ووصول المكروه من الغير ومغلوبيته من عدوه ، وربما حصل لنفسه نوع اذعان لهذه التخيلات لمغلوبة العاقلة الواهمة فيعتريه نوع اضطراب وانكسار ، وقلبا يذهب مثل هذه القوة الوهمية فيما يشاء ويريد من تخيل الغلبة وحصول التوسعة في الأموال والاولاد ، بحيث يحصل لنفسه نوع اذعان لها ، فتنبسط وتهتز . وهذا شر الوسوس وأردوها ، وربما كان المنشأ لبعضها نوع اختلال في الدماغ . وجميع الانواع المذكورة بأقسامها مفسدة للنفس يحدث فيها نوع ذبول وانكسار ويصدها عما خلقت لأجله .

(ومنها) ما يرجع الى التفاؤل ، وهذا ليس مذموماً . وقد ورد من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : أنه يحب التفاؤل ، وكثيراً ما يتفاءل ببعض الامور .

(ومنها) الوسواس في العقائد ، بحيث لا يؤدي الى الشك المزيل لليقين ، فإنه قاذح في الايمان كما تقدم . ومرادنا بالوسوسة وحديث النفس في العقائد هنا ما لا يضر بالايمان ولا يؤاخذ به - كما يأتي - .

(تذنيب) قد ظهر مما ذكر : أن أكثر جولان الخاطر إنما يكون في فائت لا تدارك له ، أو في مستقبل لا بد وان يحصل منه ما هو مقدر ، وكيف كان هو تضييع لوقته ، إذ آله العبد قلبه وبضاعته عمره . فاذا غفل القلب في نفس واحد عن ذكر يستفيد به أنساً بالله أو عن فكر يستفيد

معرفة الله ليستفيد بالمعرفة حبا لله ، فهو مغبون . وهذا إن كان فكره ووسواسه في المباحات ، مع أن الغالب ليس كذلك ، بل يتفكر في وجوه الخيل لقضاء الشهوات ، إذ لا يزال ينازع في الباطن كل من فعل فعلاً مخالفاً لغرضه ، أو من يتوهم أنه ينازعه ويخالفه في رأيه ، بل يقدر المخالفة من اخلص الناس في حبه حتى في أهله وولده ، ثم يتفكر في كيفية زجرهم وقهرهم وجوابهم عما يتعلمون به في مخالفتهم ، فلا يزال في شغل دائم مضيق لدينه ودنياه .

فصل

(المطاردة بين جندي الملائكة والشياطين في معركة النفس)

قد عرفت أن الوسواس أثر الشيطان الخناس ، والالهام عمل الملائكة الكرام . ولا ريب في أن كل نفس في بدو فطرتها قابلة لأثر كل منهما على التساوى ، وإنما يترجح أحدهما بمتابعة الهوى وملازمة الورع والتقوى ، فإذا مالت النفس إلى مقتضى شهوة أو غضب وجد الشيطان مجالاً فيدخل بالوسوسة ، وإذا انصرفت إلى ذكر الله ضاق مجاله وارتحل فيدخل الملك بالالهام . فلا يزال التطارد بين جندي الملائكة والشياطين في معركة النفس . لهيولانية وجودها وقابليتها الأمرين بتوسط قوتيهما العقلية والوهمية ، إلى أن يغلب أحد الجندين ويسخر مملكة النفس ويستوطن فيها ، ويهيئ أن يكون اجتياز الثاني على سبيل الاختلاس ، وحصول الغلبة إنما هو بغلبة الهوى أو التقوى ، فإن غلب عليها الهوى وخاضت فيه صارت مرعى الشيطان ومرتعته وكانت من حزبه ، وإن غلب عليها الورع والتقوى صارت مستقر الملك ومهبطه ودخلت في جنده ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « خلق الله الإنس ثلاثة أصناف : صنف كاليهم ، قال الله تعالى :

« لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ
لَا يُبْصِرُونَ بِهَا (١) » ،

وصنف أجسادهم أجساد بني آدم وأرواحهم أرواح الشياطين ،
وصنف كالملائكة في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله ، .

ولا ريب في أن أكثر القلوب قد فتحتها جنود الشياطين وملكوها ،
ويتصرفون فيها بضروب الوسوس الداعية الى إثارة العاجلة وإطراح الآجلة .
والسرفية : أن سلطنة الشيطان سارية في لحم الانسان ودمه وبحيطة بمجامع
قلبه وبدنه ، كما أن الشهوات متمزجة بجميع ذلك ، ومن هنا قال رسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم - : «إن الشيطان ليجرى من بني آدم مجرى الدم ،
وقال الله سبحانه - حكاية عن لسان اللعين - :

« لَا قُودَ لَكَ لَهُمْ صِرَاطُكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ
لَا تَنْتَهُهُمْ مِنْ يَدِي أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ
أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ (٢) » .

فالخلاص من أيدي الشياطين يحتاج الى مجاهدة عظيمة ورياضة شاقة ، فمن لم
يقم في مقام المجاهدة كانت نفسه هدفاً لسهام وسوسهم وداخله في أحزابهم .

فصل

(تسويلات الشيطان ووسوسه)

لما كانت طرق الباطل كثيرة وطريق الحق واحدة ، فالأبواب المفتوحة

(١) الأعراف ، الآية : ١٧٩ .

(٢) الأعراف الآية : ١٦ ، ١٧ .

للشيطان الى القلب كثيرة ، وباب الملائكة واحدة ، ولذا روى أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - خط يوماً لأصحابه خطأ وقال : « هذا سبيل الله » ، ثم خط خطوطاً عن يمينه وشماله فقال : « هذه سُبُل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه » ، ثم تلا قوله سبحانه :

« وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ » (١) .

ثم لسهولة ميل النفس الى الباطل وعسر انقيادها للحق تكون الطرق المؤدية الى الباطل التي هي أبواب الشيطان جليلة ظاهرة ، فكانت أبواب الشيطان مفتوحة أبداً ، والطرق المؤدية الى الحق التي هي باب الملائكة خفية ، فكان باب الملائكة مسدوداً دائماً ، فما أصعب بالمسكين ابن آدم أن يسد هذه الأبواب الكثيرة الظاهرة المفتوحة ويفتح باباً واحداً خفياً مسدوداً . على أن اللعين ربما يلبس بين طريق الحق والباطل ويعرض الشر في موضع الخير ، بحيث يظن أنه لمة الملك وإلهامه ، لا وسوسة الشيطان وإغواؤه ، فيهلك ويضل من حيث لا يعلم ، كما يلقي في قلب العالم أن الناس لكثرة غفلتهم أشرفوا على الهلاك ، وهم من الجمل موتى ، ومن الغفلة هلكى ، أما لك رحمة على عباد الله ؟ أما تريد الثواب والسعادة في العقبى ؟ فما بك لا تنبههم عن رقدة الغفلات بوعظك ، ولا تنقذهم من الهلاك الأبدي بنصيحك ؟ وقد من الله عليك بقلب بصير وعلم كثير ولسان ذلق ولهجة مقبولة ! فكيف تخفى نعم الله تعالى ولا تظهرها ؟ فلا يزال يوسوسه بأمثال ذلك ويثبتها في لوح نفسه ، الى أن يسخره بلطائف الخيل ويشغل بالوعظ ، فيدعوه الى التزين والتصنع

والتحسن بتحسين اللفظ ، والسرور بتملق الجماعة ، والفرح بمدحهم إياه ، والانبساط بتواضعهم لديه وانكسارهم بين يديه ، ولا يزال في أثناء الوعظ يقرر في قلبه شوائب الرياء وقبول العامة، ولذة الجاه وحب الرياسة، والتعزز بالعلم والفصاحة، والنظر الى الخلق بعين الحقدارة ، فيهدى الناس ويضل نفسه، ويعمر يومه ويخرب أمسه ، ويخالف الله ويظن أنه في طاعته ، ويعصيه ويحسب أنه في عبادته ، فيدخل في جملة من قال الله فيهم :

« قُلْ كَلَّ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنََّّهُمْ مُبْتَلَوْنَ مِنْهُمْ كُذِّبُوا (١) » .

ويكون ممن قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فيهم : « إن الله ليؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم » ، وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر . فلا نجاة من مصائد الشيطان ومكائده إلا ببصيرة باطنة نورانية وقوة قدسية ربانية ، كما لا نجاة للمسافر الحيران في بادية كثيرة الطرق غامضة المسلك في ليلة مظلمة إلا بعين بصيرة صحيحة وطلوع شمس مشرقة نيرة .

فصل

(العلام الفارقة بين الإلهام والوسوسة)

من تمكن من معرفة الخير والشر سهل عليه التفرقة بين الإلهام والوسوسة ، وقد قيل إن إلهام الملك ووسوسة الشيطان يقع في النفوس على وجوه وعلامات : (أحدها) كالعلم واليقين الحاصلين من جانب يمين النفس .

وتقابلة الشهوة والهوى الحاصلان من جانب شمالكها . (وثانيها) كالنظر الى آيات الآفاق والأنفس على سبيل النظام والاحكام المزيل للشكوك والأوهام ، والمحصل للمعرفة والحكمة في القوة العاقلة هي جانب الايمن من النفس ويقابله النظر اليها على سبيل الاشتباه والغفلة والاعراض عنها ، الناشئة منها الشبه والوساوس في الواهمة والمتخيلة التي على الجانب الأيسر منها ، فان الآيات المحكمات بمنزلة الملائكة المقدسة من العقول والنفوس السكلية ، لأنها مبادئ العلوم اليقينية ، والمنشأ بها الوهميات بمنزلة الشياطين والنفوس الوهمانية ، لأنها مبادئ المقدمات السفسطية . (وثالثها) كطاعة الرسول المختار والأئمة الاطهار في مقابلة أهل الجحود والانكار وأرباب التعطيل والتشبيه من الكفار . فكل من سلك سبيل الهداية فهو بمنزلة الملائكة المقدسين الملمهين للخير ، ومن سلك سبيل الضلال فهو بمنزلة الشياطين المغوين بالشرور . (ورابعها) كتحصيل العلوم والادراكات التي هي في الموضوعات العالية والاعيان الشريفة ، كالعلم بالله وملائكته ورسله ، واليوم الآخر ، والبحث ، وقيام الساعة ، ومشول الخلائق بين يدي الله تعالى ، وحضور الملائكة والنبين والشهداء والصالحين ، في مقابلة تحصيل العلوم والادراكات التي هي من باب الحيل والخديعة والسفسطة ، والتأمل في أمور الدنيا الغير الخارجة عن دار المحسوسات ، فإن الأول يشبه الملائكة الروحانية وجنود الرحمن الذين هم سكان عالم الملكوت السماوي ، والثاني يشبه الأبالسة المطرودة عن باب الله ، الممنوعة من ولوج السماوات ، المحبوسة في الظلمات ، المحرومة في الدنيا عن الارتقاء ، والمحجوبة في الآخرة عن دار النعيم .

فصل

(علاج الوسوس)

الوسوس إن كانت بواعث الشرور والمعاصي ، فالعلاج في دفعها ان يتذكر سوء عاقبة العصيان ووخامة خائفته في الدنيا والآخرة ، ويتذكر عظيم حق الله وجسيم ثوابه وعقابه ، ويتذكر أن الصبر عما تدعو اليه هذه الوسوس أسهل من الصبر على نار لو قذفت شرارة منها الى الأرض أحرقت نباتها وجمادها ، فاذا تذكر هذه الامور وعرف حقيقتها بنور المعرفة والايمان ، حبس عنه الشيطان وقطع عنه وسواسه ، إذ لا يمكن أن ينكر عليه هذه الامور الحقة ، إذ يقينه الحاصل من قواطع البرهان يمنعه عن ذلك ويخيه ، بحيث يرجع هارباً خائباً . فإن التهاب نيران (١) البراهين بمنزلة رجوم الشياطين ، فإذا قوبلت بها وسوسهم فرت فرار الخمر من الأسد .

وإن كانت مختلجة بالبال بلا ارادة واختيار ، من دون أن تكون مبادئ الأفعال ، فقطعها بالسكينة في غاية الصعوبة والاشكال ، وقد اعترف اطباء النفوس بأنها الداء العضال ويتعسر دفعه بالمرة ، وربما قيل بتعذره ، ولكن الحق امكانه ، لقول النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - : « من صلى ركعتين لم تحدث نفسه فيها بشيء غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر » ، ولو لا امكانه لم يتصور ذلك .

والسرف في صعوبة قطعها بالسكينة أن للشيطان جندين : جنداً يطير وجنداً يسير ، والواهمة جنده الطيار ، والشهوة جنده السيار ، لأن غالب ما خلقتا منه هي النار التي خلق منها الشيطان ، فالمناسبة اقتضت تسلطه عليهما وتبعيتهما .

(١) وفي نسخة الحظية هكذا : « فان نيرات البراهين » .

ثم لما كانت النار بذاتها مقتضية للحركة ، إذ لا تتصور نار مشتعلة لا تتحرك ، بل لا تزال تتحرك بطبيعتها ، فشان كل من الشيطان والقوتين أن يتحرك ولا يسكن ، إلا أن الشيطان لما خلق من النار الصرفة من دون امتزاج شيء آخر بها فهو دائم الحركة والتحريك للقوتين بالوسوسة والهيجان ، والقوتان لما امتزج بغالب مادتهما - أعنى النار - شيء من الطين لم تكونا بمثابة ما خلق من صرف النار في الحركة ، إلا أنهما استعدتا لقبول الحركة منه ، فلا يزال الشيطان ينفخ فيهما ويحركهما بالوسوسة والهيجان ويطير ويجول فيهما . ثم الشهوة لتكون النارية فيها أقل فسكونها ممكن ، فيحتمل أن يكف تسلط الشيطان عن الانسان فيها ، فيسكن بالسكينة عن الهيجان . وأما الواهمة فلا يمكن أن يقطع تسلطه عنها ، فيمتنع قطع وسواسه عن الانسان ، إذ لو أمكن قطعه أيضاً بالمرة ، لصار اللعين منقاداً للانسان مسخراً له ، وانقياده له هو سجوده له ، إذ روح السجود وحقيقته هو الانقياد والاطاعة ، ووضع الجبهة حالته وعلامته ، وكيف يتصور أن يسجد الملعون لأولاد آدم عليهم السلام مع عدم سجوده لأبيهم واستكباره من أن يطمئن عن حركته ساجداً له معللاً بقوله:

« خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَالَقْتَنِي مِنْ طِينٍ (١) »

فلا يمكن أن يتواضع لهم بالكف عن الوسوسة ، بل هو من المنظرين لاغوائهم الى يوم الدين ، فلا يتخلص منه أحد إلا من أصبح وهمومه هم واحد ، فيكون قلبه مشغولاً بالله وحده ، فلا يجد الملعون مجالاً فيه ، ومثله من المخلصين الداخلين في الاستثناء (٢) عن سلطنة هذا اللعين ، فلا تظن أنه

(١) الاعراف ، الآية : ١٢ .

(٢) إشارة الى قوله تعالى : « قال رب بما اغويتني لأزين لهم في الأرض ولاغوينهم

أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين » الحجر ، الآية : ٤٠ .

يخلو عنه قلب فارغ ، بل هو سيال يجري من ابن آدم مجرى الدم ، وسيلانه مثل الهواء في القدر ، فانك إن أردت أن تخل القدر عن الهواء من غير أن تشغله بمثل الماء فقد طمعت في غير مطمع ، بل بقدر ما يدخل فيه الماء يخلو عن الهواء ، فكذلك القلب إذا كان مشغولاً بفكر مهم في الدين يمكن أن يخلو من جولان هذا اللعين ، وأما لو غفل عن الله ولو في لحظة ، فليس له في تلك اللحظة قرين إلا الشيطان ، كما قال سبحانه :

« وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (١) » .

وقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « إن الله يبغيض الشاب الفارغ » . لأن الشاب إذا تعطل عن عمل مباح يشغل باطنه لا بد أن يدخل في قلبه الشيطان ويعيش فيه ويبيض ويفرخ ، وهكذا يتوالد نسل الشيطان توالداً أسرع من توالد الحيوانات ، لأن الشيطان طبعه من النار ، والشهوة في نفس الشاب كالحلفاء (٢) اليابسة ، فإذا وجدها كثر تولده وتولدت النار من النار ولم تنقطع أصلاً .

فظهر أن وسواس الخناس لا يزال يجاذب قلب كل انسان من نب الى جانب ، ولا علاج له إلا قطع العلائق كلها ظاهراً وباطناً ، والفرار عن الأهل والمال والولد والجاه والرفقاء ، ثم الاعتزال الى زاوية ، وجعل الهموم هماً واحداً هو الله . وهذا أيضاً غير كاف ما لم يكن له مجال في الفكر وسير في الباطن في ملكوت السموات والارض وبجانب صنع الله ، فإن

(١) الزخرف ، الآية ٣٥ .

(٢) الحلفاء : ثبت اطرافه محددة كأنها سعف النخل والخوص ، يثبت في منايب المياه . الواحدة (حلقة وحلفاء) .

استيلاء ذلك على القلب واشتغاله به يدفع بجاذبة الشيطان ووسواسه ، وإن لم يكن له سير بالباطن فلا ينجيه إلا الآ وراد المتواصلة المترتبة في كل لحظة من الصلوات والاذكار والأدعية والقراءة . ويحتاج مع ذلك الى تكليف القلب الحضور ، إذ الآ وراد الظاهرة لا تستغرق القلب ، بل التفكير بالباطن هو الذى يستغرقه، وإذا فعل كل ذلك لم يسلم له من الأوقات إلا بعضها، إذ لا يحلو في بعضها عن حوادث تتجدد وتشغله عن الفكر والذكر ، كمرض أو خوف أو ائذاء وطغيان، ولو من مخالطة بعض لا يستغنى عنه في الاستعانة في بعض اسباب المعيشة .

فصل

(ما يتم به علاج الوسواس)

لو أمكن العلاج في القطع الكلى للوسواس فيما يتم بأمر ثلاثة :
(الأول) سد الأبواب العظيمة للشيطان في القلب ، وهى الشهوة ، والغضب ، والحرص ، والحسد ، والعداوة ، والعجب ، والحقد ، والكبر ، والطمع ، والبخل ، والخفة . والجبن ، وحب الخطام الدينوى الدائر ، والشوق الى التزين بالثياب الفاخرة ، والعجلة فى الأمر ، وخوف الفاقة والفقر ، والتعصب لغير الحق ، وسوء الظن بالخالق والخلق . . . وغير ذلك من رؤس ذمائم الصفات ورذائل الملكات ، فإنها ابواب عظيمة للشيطان ، فإذا وجد بعضها مفتوحاً يدخل منه فى القلب بالوسواس المتعلقة به ، وإذا سدت لم يكن له اليه سبيل إلا على طريق الاختلاس والاجتياز .

(الثانى) عمارة القلب باضدادها من فضائل الأخلاق وشرائف الأوصاف ، والملازمة للورع والتقوى ، والمواظبة على عبادة ربه الأعلى .

(الثالث) كثرة الذكر بالقلب واللسان . فإذا فطعت عن القلب أصول
 ذمائم الصفات المذكورة التي هي بمنزلة الابواب العظيمة للشيطان ، زالت عنه
 وجوه سلطنته وتصرفاته ، سوى خطراته واجتيازاته ، والذكر يمنعها ويقطع
 تسلطه وتصرفه بالسلبية ، ولو لم يسد أبوابه أولاً لم ينفع مجرد الذكر اللساني
 في إزالتها ، إذ حقيقة الذكر لا يتمكن في القلب إلا بعد تخليته عن الرذائل
 وتخليته بالفضائل ، ولو لاهما لم يظهر على القلب سلطانه . بل كان مجرد حديث
 نفس لا يندفع به كيد الشيطان وتسلطه . فإن مثل الشيطان مثل كلب جائع ،
 ومثل هذه الصفات المذمومة مثل لحم أو خبز أو غيرهما من مشتبهات الكلب ،
 ومثل الذكر مثل قولك له : إخساً . ولا ريب في أن الكلب إذا قرب اليك
 ولم يكن عندك شيء من مشتبهاته فهو ينزجر عنك بمجرد قولك : إخساً . وإن
 كان عندك شيء منها لم يندفع عنك بمجرد هذا القول ما لم يصل إلى مطلوبه .
 فالقلب الخالي عن قوت الشيطان يندفع عنه بمجرد الذكر ، وأما القلب المملو
 منه فيدفع الذكر إلى حواشيه ، ولا يستقر في سويدائه ، لاستقرار الشيطان
 فيه . وإيضاً الذكر بمنزلة الغذاء المقوى ، فكما لا تنفع الاغذية المقوية ما لم
 ينق البدن عن الاخلاط الفاسدة ومواد الأمراض الحادثة ، كذلك لا ينفع
 الذكر ما لم يطهر القلب عن الأخلاق الذميمة التي هي مواد مرض الوسواس ،
 فالذكر إنما ينفع للقلب إذا كان مطهراً عن شوائب الهوى ومنوراً بأنوار
 الورع والتقوى ، كما قال سبحانه :

« إِنِّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ
 الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَأَوْذَاهُمْ مَّبْصِرُونَ (١) » ،

وقال سبحانه :

« إِنْ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرٌ لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ (١) »

ولو كان مجرد الذكر مطرداً للشيطان اسكان كل احد حاضر القلب في الصلاة ، ولم يخطر بباله فيها الوسواس الباطلة والهواجس الفاسدة ، إذ منتهى كل ذكر وعبادة إنما هو في الصلاة. مع أن من راقب قلبه يجد أن خطور الخواطر في صلاته أكثر من سائر الأوقات ، وربما لا يتذكر ما نسيه من فضول الدنيا إلا في صلاته ، بل يزدحم عندها جنود الشياطين على قلبه ويصير مضطراً لجولانهم ، ويقلبونه شمالاً ويميناً بحيث لا يجد فيه إيماناً ولا يقيناً ، ويجاذبونه الى الأسواق وحساب المعاملين وجواب المعاندين ، ويمرون به في أودية الدنيا ومهاالكها . ومع ذلك كله لا تظن أن الذكر لا ينفع في القلوب الغافلة أصلاً ، فإن الأمر ليس كذلك ، إذ للذكر عند أهله أربع مراتب كلها تنفع الذاكرين ، إلا أن له وروحه والغرض الأصلي من ذلك المرتبة الأخيرة :

(الأولى) اللساني فقط .

(الثانية) اللساني والقلبي ، مع عدم تمكنه من القلب ، بحيث احتاج القلب الى مراقبته حتى يحضر مع الذكر ، ولو خلى وطبعه استرسل في أودية الخواطر .

(الثالثة) القلبي الذي تمكن من القلب واستولى عليه ، بحيث لم يمكن صرفه عنه بسهولة ، بل احتاج ذلك الى سعى وتكلف ، كما احتجج في الثانية اليه في قراره معه ودوامه عليه .

(الرابعة) القلبى الذى يتمكن المذكور من القلب بحيث انمحي عند الذكر ، فلا يلتفت القلب الى نفسه ولا الى الذكر ، بل يستغرق بشراشه فى المذكور، واهل هذه المرتبة يجعلون الالتفات الى الذكر حجاً شاعلاً. وهذه المرتبة هى المطلوبة بالذات. والبواقي مع اختلاف مراتبها مطلوبة بالعرض، لسكونها طرقات الى ما هو المطلوب بالذات .

فصل

(ما يتوقف عليه قطع الوسوس)

السر فى توقف قطع الوسوس بالسكينة على التصفية والتخلية أولاً ، ثم المواظبة على ذكر الله : أن بعد حصول هذه الامور للنفس تحصل لقوتها العاقلة ملكة الاستيلاء والاستعلاء على القوى الشهوية والغضبية والوهمية ، فلا تتأثر عنها وتؤثر فيها على وفق المصلحة ، فتتمكن من ضبط الواهمة والمتخيلة بحيث لو أرادت صرفهما عن الوسوس لأمكنها ذلك ، ولم تتمكن القوتان من الذهاب فى أودية الخواطر بدون رأيها، وإذا حصلت للنفس هذه الملكة وتوجهت الى ضبطهما كلما أرادت الخروج عن الانقياد والذهاب فى أودية الوسوس وتكرر منها هذا الضبط ، حصل لها ثبات الانقياد بحيث لم يحدث فيها خاطر سوء مطلقاً، بل لم يخطر فيهما إلا خواطر الخير من خزائن الغيب وحينئذ تستقر النفس على مقام الاطمئنان، وتفسد عنها أبواب الشيطان وتفتح فيها أبواب الملائكة، ويصير مستقرها ومستودعها، فتستضاء بشروق الانوار القدسية من مشكاة الربوبية ، ويشملها خطاب :

« يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ »

رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (١) .

ومثل هذه النفس أحسن النفوس وأشرفها ، وتقابلها النفس المنكوسة المملوءة من الخبائث الملوثة بأنواع الذمائم والذائل ، وهي التي انفتحت فيها أبواب الشيطان وانسدت منها أبواب الملائكة ، ويتصاعد منها دخان مظلم اليها ، فتعلا جوائنها ويطن نور اليقين ويضعف سلطان الايمان ، حتى تخمد انواره بالكلية ، ولا يخطر فيها خاطر خير أبداً ، وتكون دائماً محل الوسوس الشيطانية ، ومثلها لا يرجع الى الخير أبداً ، وعلامتها عدم تأثرها من النصائح والمواعظ ، ولو اسمعت الحق عميت عن الفهم وصمت عن السمع ، والى مثلها اشير بقوله سبحانه :

« أَرَأَيْتَ مَنْ أَتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (٢) » .

وبقوله تعالى :

« خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ (٣) » .

وبقوله سبحانه :

إِنَّهُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤) .

وبقوله تعالى :

« وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ »

(١) الفجر ، الآية : ٢٧ - ٢٨ .

(٢) الفرقان ، الآية : ٤٣ .

(٣) البقرة ، الآية : ٧ .

(٤) الفرقان ، الآية : ٤٤ .

لا يُؤْمِنُونَ (١) .

وبقوله عز وجل :

« لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ

لا يُؤْمِنُونَ (٢) » .

وبين هاتين النفسين نفس متوسطة في السعادة والشقاوة ، ولها مراتب مختلفة في اتصافها بالفضائل والذائل بحسب الكم والكيف والزمان ، فيختلف فيها فتح أبواب الملائكة والشياطين بالجهات المذكورة ، فتارة يبتدىء فيها خاطر الهوى فيدعوها الى الشر ، وتارة يبتدىء فيها خاطر الايمان فيبعثها على الخير ، ومثلها معركة تطارد جندي الشياطين والملائكة وتجاذبهما ، فتارة يصول الملك على الشيطان فيطرده ، وتارة يحمل الشيطان على الملك فيغلبه ، ولا تزال متجاذبة بين الحزبين مترددة بين الجندين ، الى أن تصل الى ما خلقت لأجله لسابق القضاء والقدر . ثم النفس الاولى في غاية الندرة ، وهي نفوس الكمل من المؤمنين الموحدون ، والثانية في نهاية الكثرة وهي نفوس الكفار بأسرهم ، والثالثة نفوس أكثر المسلمين ، ولها مراتب شتى ودرجات لا تحصى ، ولها عرض عريض ، فيتصل أحد طرفيه بالنفس الاولى ، وآخرهما بالثانية .

فصل

(حديث النفس لا مؤاخذه عليه)

قد عرفت أن الوسوس بأقسامها مشتركة في إحداث ظلمة وكسرة في النفس ، إلا أن مجرد الخواطر - أي (حديث النفس) وما يتولد عنه بلا

(١) يس ، الآية : ١٠ .

(٢) يس ، الآية : ٧ .

اختيار، كالميل وهيجان الرغبة - لا مؤاخذه عليهما، ولا يكتب بهما معصية، لعدم دخولهما تحت الاختيار ، فالمؤاخذه عليهما ظلم ، والنهي عنهما تكليف بما لا يطاق، والاعتقاد وحكم القلب بأنه ينبغي أن يفعل هذا فيؤاخذه به ، ليكون اختيارياً . وكذا الهمم بالفعل والعزم عليه ، إلا أنه إن يفعل مع الهمم خوفاً من الله وندم عنه كتبت له حسنة ، وإن لم يفعل لما منع منه لا لخوف الله سبحانه كتبت عليه سيئة .

والدليل على هذا التفصيل : أما على عدم المؤاخذه على مجرد الخاطر ، فما روى في السكافي : « أنه جاء رجل الى النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فقال : يا رسول الله ! هلكت . فقال له هل أذاك الخبيث فقال لك من خلقك ؟ فقلت : الله تعالى ، فقال لك : الله من خلقه ؟ فقال له : أى الذى بعثك بالحق لكان كذا . فقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : ذلك والله محض الايمان ، ومثله ما روى : أن رجلاً أتى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فقال يا رسول الله ! نافقت ، فقال : « والله ما نافقت ! ولولا فقت ما أتيتنى تعلمنى ، ما الذى رابك ؟ أظن أن العدو الحاضر أذاك ، فقال : من خلقك ؟ فقلت : الله تعالى خلقتنى . فقال لك : من خلق الله ؟ فقال : أى الذى بعثك بالحق لكان كذا ، فقال : إن الشيطان أذاك من قبل الأعمال فلم يقو عليكم ، فأناكم من هذا الوجه لى يستزلكم ، فإذا كان كذلك فليذكر أحدكم الله وحده . » وقريب منه ما روى : أن رجلاً كتب الى ابى جعفر عليه السلام يشكو اليه لمأ يخطر على باله ، فأجابه فى بعض كلامه : « إن الله إن شاء ثبتك فلا يجعل لا بليس عليك طريقاً . قد شكى قوم الى النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - لمأ يعرض لهم لأن تهوى بهم الريح أو يقطعوها أحب اليهم من أن يتكلموا به ، فقال رسول الله : أتجدون ذلك ؟ قالوا : نعم ! قال : والذى نفسى بيده إن ذلك

لصریح الايمان، فإذا وجدتموه فقولوا : آمنا بالله ورسوله ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وسئل الصادق عليه السلام عن الوسوسة وإن كثرت ، فقال : « لا شيء فيها ، تقول لا إله إلا الله » . وعن جميل بن دراج قال : قلت للصادق عليه السلام : إنه يقع في قلبي أمر عظيم ، فقال : « قل لا إله إلا الله » ، قال جميل : فكلمنا وقع في قلبي قلت : لا إله إلا الله ، فيذهب عني .

ومما يدل على عدم المؤاخذه عليه وعلى الميل وهيجان الرغبة إذا لم يكونا داخلين تحت الاختيار ما روى : إنه لما نزل قوله تعالى :

« وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحْسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ (١) » .

جاء ناس من الصحابة إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وقالوا : كلفنا ما لا نطيق ، إن أحدنا ليحدث نفسه بما لا يحب أن يثبت في قلبه ، ثم يحاسب بذلك ؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « لعليكم تقولون كما قال بنو إسرائيل : سمعنا وعصينا ، قولوا : سمعنا وأطعنا ، فقالوا : سمعنا وأطعنا ، فأنزل الله الفرج بعد سنة بقوله تعالى :

« لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا (٢) » .

وما روى عن أمير المؤمنين عليه السلام في قوله سبحانه : « وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحْسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ » : « إن هذه الآية عرضت على الأنبياء والأمم السابقة فأبوا أن يقبلوها من ثقلها ، وقبلها رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وعرضها على أمته فقبلوها فلما رأى الله

(١) البقرة ، الآية : ٢٨٤ .

(٢) البقرة ، الآية : ٢٨٦ .

عز وجل منهم القبول على أنهم لا يطيقونها ، قال : أما إذا قبلت الآية بتشديدها وعظم ما فيها وقد عرضتها على الأمم السابقة فأبوا أن يقبلوها وقبلتها امتك ، لحق على أن أرفعها عن امتك ، وقال عز من قائل : لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، وما روى عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أنه قال : « وضع عن امتي تسع خصال : الخطأ ، والنسيان ، وما لا يعلمونه ، وما لا يطيقونه ، وما اضطرروا عليه ، وما استكروها عليه ، والطيرة ، والوسوسة في التفكير في الخلق ، والحسد ما لم يظهر بلسان أويلد ، وما روى أنه سئل الصادق عليه السلام عن رجل يحى منه الشيء على حد الغضب يؤاخذه الله تعالى ؟ فقال عليه السلام : « إن الله تعالى أكرم من أن يستغلق على عبده ، والمراد من الغضب فيه : الغضب الذي سلب الاختيار .

وبالجملة : القطع حاصل بعدم المؤاخذه والمعصية على ما لا يدخل تحت الاختيار من الخواطر والميل وهيجان الرغبة ، إذ النهي عنها مع عدم كونها اختيارية تكليف بما لا تطاق ، وإن لم ينفك عن إحداث خبائث في النفس .

وأما (١) على أنه يكتب سيئة على الاعتقاد والهمم بالفعل والتصميم عليه مع تركه لما نفع لا خوف من الله ، فهو ان كلاً من الاعتقاد والهمم بالمعصية فعل من الأفعال الاختيارية للقلب ، وقد ثبت في الشريعة ترتيب الثواب والعقاب على فعل القلب إذا كان اختيارياً ، قال الله سبحانه :

« إِنِ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ

كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً » (٢) .

وقال سبحانه :

(١) أي وأما الدليل على أنه يكتب سيئة .

(٢) بنى إسرائيل ، الآية : ٣٨ .

« لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبُكُمْ » (١).

وقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « إنما يخشى الناس على نياتهم » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار » ، قيل : يا رسول الله ! هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال : « لأنه أراد قتل صاحبه » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « لكل امرئ ما نوى » . والآثار الواردة في ترتب العقاب على الهم بالمعصية كثيرة ، وإطلاقها محمول على غير صورة الترك خوفاً من الله ، لما يأتي من أنه في هذه الصورة تكتب بها حسنة ، وكيف لا يؤاخذ على أعمال القلوب مع ان المواخذة على الملوك الردية من الكبر والعجب والرياء والنفاق والحسد وغيرها قطعي الثبوت من الشرع ، مع كونها أفعالا قلبية ، وقد ثبت في الشريعة أن من وطأ امرأة ظاناً أنها أجنبية كان عاصياً وإن كانت زوجته . وأما على أنه يكتب حسنة على الترك بعد الهم خوفاً من الله ، فاروى عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أنه قال : « قالت الملائكة : رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر ، فقال : راقبوه فإن عملها فاكتبوها عليه بمنزلها ، وإن تركها فاكتبوها له حسنة إنما تركها لأجل » . وما روى عن الإمام محمد ابن علي الباقر - عليهما السلام - : « وإن الله تعالى جعل لأدم في ذريته من هم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة ، ومن هم بحسنة وعملها كتبت له عسراً ، ومن هم بسيئة ولم يعملها لم تكتب عليه سيئة ، ومن هم بها وعملها كتبت عليه سيئة » ، وقوله : « لم يكتب عليه » محمول على صورة عدم العمل خوفاً من الله ، لما

تقدم من أنه إن لم يعملها لمانع غير خوف الله كتبت عليه سيئة . وما روى عن الصادق عليه السلام أنه قال : « ما من مؤمن إلا وله ذنب يهجره زماناً ثم يلم به وذلك قوله تعالى :

«إِلَّا أَلَّامَ» (١) .

وقال : « واللم : الرجل يلم بالذنب فيستغفر الله منه » ، وقد وردت بهذا المضمون اخبار أخر .

وصل

(الخاطر المحمود والتفكر)

قد عرفت أن ضد الوسوسة الخاطر المحمود المستحسن شرعاً وعقلاً ، لأن القلب إذا كان مشغولاً بشيء لا يمكن أن يشغله شيء آخر ، فإذا كان مشغولاً بشيء من الخواطر المحمود لا سبيل للخواطر المذمومة إليه ، وربما كان للغفلة التي هي ضد النية تقابل لسكل من الوسوسة والخاطر المحمود ، إذ عند الغفلة لا يتحقق شيء منهما ، إلا أن خلو القلب عن كل نية وخاطر بحيث يكون ساذجاً في غاية الندرة ، على أن الظاهر أن مرادهم من الغفلة خلو الذهن من القصد الباعث وإن كان مشغولاً بالوساوس الباطلة ، كما يأتي تحقيقه .

ثم الخاطر المحمود إن كان قصداً ونية لفعل جميل معين كان متعلقاً بالقوة التي يتعلق هذا الفعل بها ، وإلا كان راجعاً إما إلى الذكر القلبي أو إلى التدبر في العلوم والمعارف والتفكر في عجائب صنع الله وغرائب عظمته ، أو إلى التدبر الإجمالي السكلي فيما يقرب العبد إلى الله سبحانه أو ما يبعده عنه

تعالى ، وليس وراء ذلك خاطر محمود متعلق بالدين أو غير ذلك من الخواطر المذمومة المتعلقة بالدنيا .

وإذا عرفت ذلك فاعلم : أنه من معالجات مرض الوسواس معرفة شرافة ضده الذي هو الخاطر المحمود ، لبيعته على المواظبة عليه الموجبة لدفع الوسواس . وفضيلة الخواطر المحموده الباعثة على الأفعال الجميلة يأتي ذكرها في باب النية ، وربما يعلم من بيان فضيلة نفس هذه الأفعال أيضاً كما يأتي ذكرها في باب النية ، وفضيلة الذكر القلبي يعلم في باب مطلق الذكر .

أما بيان شرافة التفكير وبعض مجاريه من أفعال الله تعالى والاشارة الى كيفية التفكير فيها وفيما يقرب العبد الى الله تعالى وفيما يبعده عنه ، فلنشر الى يحمل منه هنا لتعلقه بالقوة النظرية ، فنقول :

التفكير : هو سير الباطن من المبادئ الى المقاصد ، والمبادئ : هي آيات الآفاق والأنفس ، والمقصد : هو الوصول الى معرفة موجدتها ومبدعها والعلم بقدرته القاهرة وعظمته الباهرة ، ولا يمكن لأحد أن يترقى من حضيض النقصان الى اوج الكمال إلا بهذا السير ، وهو مفتاح الأسرار ومشكاة الأنوار ، ومنشأ الاعتبار ومبدأ الاستبصار ، وشبكة المعارف الحقيقية ومصيدة الحقائق اليقينية ، وهو أجنحة النفس للطيران الى وكرها القدسي ، ومطية الروح للمسافرة الى وطنها الأصلي ، وبه تنكشف ظلمة الجهل واستاره وتنجلي أنوار العلم وأسراره ، ولذا ورد عليه الحث والمدح في الآيات والأخبار كقوله سبحانه :

« أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ » (١) .

وقوله تعالى :

« أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَآسِكُوتِ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِنْ شَيْءٍ » (١).

وقوله تعالى :

« فَاعْتَبِرُوا يٰٓأُولِيَ ٱلْأَبْصَارِ » (٢).

وقوله تعالى :

« قُلْ سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ
ٱلْخَلْقَ » (٣).

وقوله تعالى :

« إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآيٰتٍ لِّأُولِيَ
ٱلْأَلْبَابِ » (٤).

وقوله تعالى :

« وَفِي ٱلْأَرْضِ آيٰتٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ . وَفِي أَنْفُسِكُمْ
أَفْلا تَبْصِرُونَ » (٥).

وقوله تعالى :

(١) الأعراف ، الآية : ١٨٥ .

(٢) الحشر ، الآية : ٢ .

(٣) العنكبوت ، الآية : ٢٥ .

(٤) آل عمران ، الآية : ١٩٠ .

(٥) النّازعات ، الآية : ٢٠ - ٢١ .

«الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ
وَيَتَنَفَّسُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» (١).

وقول رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : «التفكير حياة قلب البصير» ، وقوله - صلى الله عليه وآله وسلم - : «فكرة ساعة خير من عبادة سنة» ، ولا ينال منزلة التفكير إلا من خصه الله عز وجل بنور التوحيد والمعرفة ، وقوله - صلى الله عليه وآله وسلم - : «أفضل العبادة إدمان التفكير في الله وفي قدرته» (٢) ، ومراده من التفكير في الله التفكير في قدرته وصنعه وفي عجائب أفعاله ومخلوقاته وغرائب آثاره ومبدعاته ، لا التفكير في ذاته ، لكونه ممنوعاً عنه في الأخبار ، ومعللاً بأنه يورث الحيرة والدهشة واضطراب العقل ، وقد ورد : «إياكم والتفكير في الله» ، ولكن إذا أردتم أن تنظروا إلى عظمته فانظروا إلى عظيم خلقه . واشتهر عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أنه قال : «تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله» ، فإنكم لن تقدروا قدره ، وقول أمير المؤمنين عليه السلام : «التفكير يدعو إلى البر والعمل به» ، وقوله عليه السلام : «نبه بالتفكير قلبك» ، وجاف عن الليل جنبك ، واثق الله ربك» ، وقول الباقر عليه السلام : «إحالة الفكر يُستدر الرأي المعشب» ، وقول الصادق عليه السلام : «الفكر مرآة الحسنات وكفارة السيئات» ، وضيء للقلوب وفسحة للخلق ، واصابة في صلاح المعاد ، وإطلاع على العواقب ، واستزادة في العلم ، وهي خصلة لا يعبد الله بمثلها ، وقول الرضا عليه السلام : «ليس العبادة كثرة في الصلاة والصوم ، إنما العبادة التفكير في أمر الله عز وجل» .

(١) آل عمران ، الآية ١٩١ .

(٢) روى هذه الأحاديث في الكافي (باب التفكير) عن أبي عبد الله - عليه السلام -

تكملة

(مجارى التفكير فى المخلوقات)

الموجودات بأسرها مجارى التفكير ومطارح النظر، إذ كل ما فى الوجود سوى واجب الوجود فهو من رشحات وجوده وآثار فيضه وجوده، وكل موجود ومخلوق من جوهر أو عرض مجرد أو مادي، فليكن أو عنصرى، بسيط أو مركب، فعل الله وصنعه، وما من ذرة من ذرات العالم إلا وفيها ضروب من عجائب حكمته وغرائب عظمته، بحيث لو تشرع عقلاء الأقطار وحكام الأمصار مدى الأعصار لاستنباطها، انقضت أعمارهم دون الوقوف على عشر عشيرها وقليل من كثيرها.

ثم إن الموجودات المخلوقة منقسمة الى ما لا يعرف أصله فلا يمكننا التفكير فيه، وإلى ما يعرف أصله وبمجملة من دون معرفة تفاصيله فيمكننا التفكير فى تفصيله لتزداد لنا معرفة وبصيرة بخالقه. وهو الى ما لا يدرك بحس البصر ويسمى بـ (الملسكوت)، كالملائكة والجن والشياطين وعوالم العقول والنفوس المجردة، ولها أجناس وطبقات لا يحيط بها إلا موجدتها، وإلى ما يدرك به، وله أجناس ثلاثة: عالم السماوات المشاهدة بكواكبها ونجومها ودورانها فى طلوعها وغروبها، وعالم الأرض المحسوسة ببحارها وجبالها ووهادها وتلالها ومعادنها وانهارها ونباتها وأشجارها وحيواتها وجمادها، وعالم الجو المدرك بسحبه وغيومه وأمطاره وتلوجه وشبهه وبروقه ورياحه ورعوده، وكل من هذه الأجناس الثلاثة ينقسم الى أنواع، ويتشعب كل نوع الى أقسام وأصناف غير متناهية، مختلفة فى الصفات والهيئات، واللوازم والآثار والخواص، والمعانى الظاهرة والباطنة، وليس شئ منها إلا وموجده هو الله

سبحانه ، وفي وجوده وحركته وسكونه حكم ومصالح لا تحصى .
وكل ذلك مجارى التفكير والتدبر لتحصيل المعرفة والبصيرة بخالقها
الحكيم وموجدها القيوم العليم ، إذ كلها شواهد عدل وبيّنات صدق على
وحدانيته وحكمته وكمال كبريائه وعظمته ، فن قدّم قدم حقيقته ، ودار عالم
الوجود وفتح عين بصيرته ، وشاهد مملكة ربه الودود ، لظهر له في كل ذرة
من ذرات الخلق عجائب حكمة وغرائب قدرة ، بهر منها عقله ووهمه ، وحسر
دونها لبه وفهمه .

ثم لا ريب في أن طبقات العوالم المنتظمة المرتبة على النحو الأصلى
والنهج الأحسن بأمر موجدها الحكيم ومديرها العليم ، مبتدأة في الصدور
من الأشرف فالأشرف ، حتى ينتهى إلى أسفل العوالم وأخسها ، وهو عالم
الأرض بما فيه ، وكل عالم أسفل لا قدر له بالنسبة إلى ما فوقه ، فلا قدر
للأرض بالنظر إلى عالم الجو ، ولا للجو بالقياس إلى عالم السموات ، ولا
للسموات بالنسبة إلى عالم المثال ، ولا للمثال بالنظر إلى عالم الملكوت ، ولا
للملكوت بالقياس إلى الجبروت ، ولا للجميع بالنسبة إلى ما لا سبيل لنا إلى
دركه تفصيلاً واجمالاً من عوالم الألوهية ، كما ظهر لعلماء الطبيعة وأهل
الرصد والهندسة . ووضح لأرباب المكاشفة والعرفان واصحاب المشاهدة والعيان .
ثم أخس العوالم الذى عرفت حاله - أعنى الأرض - لا قدر لما على
ظهرها من الحيوان والنبات والجماد ، بالنظر إلى نفسها ، ولذا يفسد من أدنى
تغير لها جل ما عليها ، ولكل جنس مما عليها أنواع وأقسام وأصناف غير
متناهية . وأضعف أنواع الحيوان البعوضة والنحل ، وأشرف أنواعه
الإنسان . فنحن نشير إلى نبذة يسيرة من الحكم والعجائب المودعة فيها ،
وكيفية التفكير فيها ، ليقاس عليها البواقى اجمالاً . فإن بيان مجارى التفكير

باسرها فى حيز المحال ، وما يمكن منه خارج عن حيلة الضبط والتدوين ، ولذا ترى أن البارعين من الحكماء والفائقين من أجلة العرفاء بذلوا وسعهم فى بيان مجارى التفكير ومطارحه وشرح مجال النظر ومسارحه ، فسطروا فيه الأساطير وملأوا منه الطوامير ، وخاضوا فى غمرات بحار الأفكار وغاصوا فى تيار لجج الانظار ، ومع ذلك لم يعودوا بالنظر الى ما هو الواقع إلا صفر اليدين ورجعوا آخر الامر (بخفى حنين) . ونحن لو تعرضنا لشرح ما يمكن لنا دركه من الحكم والغرائب المودعة فى عضو واحد من أعضائها على التفصيل ، لخرجنا عن وضع الكتاب ، وارتكبنا ما يمل الناظرين من الاطناب ، فنشير اجمالاً الى بعض ما فيها من الحكم والعجائب ، تنبيهاً للطالبيين على كيفية التفكير فى الصنائع الإلهية ، فنقول :

أما (البعوض) - فانظر كيف خلقه الله على صغر قدره على شكل الفيل الذى هو أعظم الحيوانات ، إذ خالق له خرطوماً كخرطوميه ، وخلق له مع صغره جميع الأعضاء التى خلقها للفيل بزيادة جناحين ، فقسّم أعضائه الظاهرة ، فأثبت جناحيه وأخرج يديه ورجليه ، وشق سمعه وبصره ، ودبر فى باطنه أعضاء الغذاء ، وركّب فيها من القوى الغازية والجاذبة والدافعة والماسكة والمهاضمة ما ركب فى الحيوانات العظيمة - كما يأتى فى الانسان - ثم هداه الى غذائه الذى هو دم الانسان وغيره من الحيوانات ، فأثبت له آلة الطيران الى الانسان ، وخلق له الخرطوم الطويل وهو محدد الرأس ، وهداه الى الامتصاص من مسام بشرة الانسان حتى يضع خرطوميه فى واحد من مسامه ، ويغرز فيه ويمص الدم ويتجرعه ، وخلق خرطوميه - مع دقته - بجوفاً حتى يجرى فيه الدم الصافى الرقيق وينتهى الى باطنه وينتشر فى معدته وفى سائر أعضائه ، وعرفه أن الانسان يقصده بيده فعلبه حيلة الحرب ، وخلق له

السمع الذى يسمع به حفيف حركة اليد مع كونها بعيدة منه ، فيترك المص ويهرب ، وإذا سكنت اليد عاد ، وخلق له حدقتين حتى يبصر مواضع غذائه فيقصده مع صغر حجم وجهه . ولما كانت حدقة كل حيوان صغيرة بحيث لا يحتمل الأجفان لصغره ، وكانت الأجفان مصقلة لمراة الحدقة عن القذى والغبار ، خلق للبعوض والذباب وغيرهما من الحيوانات الصغيرة يدين لمسح بهما حدقتيه ويظهرهما عن الغبار والقذى ، أولا ترى الذباب أنه على الدوام لمسح حدقتيه بيديه ؟. وأما الانسان وغيره من الحيوانات العظيمة خلق لحدقتيه الأجفان حتى ينطبق أحدهما على الآخر وأطرافهما حادة ، فيجمع الغبار الذى يلحق الحدقة ويرميها الى اطراف الأهداب . فهذه لمعة يسيرة من عجائب صنع الله فيه ، وفيها من العجائب الظاهرة والباطنة ما لو اجتمع الاولون والآخرون على الاحاطة بكنهها عجزوا عن حقيقتها .

أما ﴿النحل﴾ - فانظر كيف أوحى الله تعالى اليها حتى اتخذت :

« مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَمْشُونَ » (١)

واستخرج من لهايبها الشمع والعسل ، وجعل أحدهما ضياء والآخر شفاء . وانظر فى عجائب أمرها فى تناولها الأزهار والأنهار واجتنابها عن النجاسات والأقذار ، وفى طاعتها وانقيادها لواحد من جملتهم ، وأكبرهم شخصاً ، وهو أميرهم . وانظر كيف علم الله أميرهم أن يحكم بالعدل والانصاف بينهم . حتى أنه ليقتل على باب النفذ كل ما وقع منها على نجاسة . ثم انظر الى بناء بيوتها من الشمع واختيارها من جملة الأشكال المسدس ، فلا يبنى مستديراً ولا مربعاً ولا مخمساً ، بل اختار المسدس لخاصية يقصر عن دركها أفهام المهندسين ، وهو أن أوسع الأشكال وأجودها المستدير ، ثم ما يقرب منه ،

فإن المربع تخرج منه زوايا ضايعة ، وشكل النحل مستدير مستطيل ، فترك المربع حتى لا تضيق الزوايا فتبقى فارغة ، ولو بناها مستديرة لبقى خارج البيوت فرج ضايعة ، لأن الأشكال المستديرة إذا اجتمعت لم تجتمع متراسة ، ولا شكل فى الأشكال ذوات الزوايا يقرب فى الوسعة والاحتواء من المستدير ثم تتراس الجملة منه بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فرجة إلا المسدس ، فهذه خاصية هذا الشكل . فانظر كيف علم الله النحل مع صغر جرمها لطفاً بها وعناية بوجودها لينها عيشها ، فسبحانه ما أعظم شأنه . وما ذكرناه قدر يسير من عجائب الحكمة المودعة فيها ، وما فيها من العجائب الظاهرة والباطنة مما لا يمكن الاحاطة به .

وأما (الانسان) — فنقول : لا ريب فى أن أول كل انسان قطرة من ماء قدرة ، لو خلقت بنفسها لانتزعتها الهوام وأفسدها ، وكانت متفرقة فى جميع اجزاء بدن الذكر ، فالتقى الله بلطائف حكمته محبة بينه وبين الاثني وقادهما بسلاسل الشهوة الى الاجتماع ، واستخرج هذه النطفة المنتنة بحركة الوقاع ، وأعطى لآلة الرجل قوة دافعة ، ولرحم الاثني قوة جاذبة ، حتى جذبتها من فم الاحليل الى نفسها ، وامتزجت بمنى الاثني بحيث صارتا واحدة ، واستقرت فى الرحم ، وجعل مبدأ عقد الصورة فى منى الذكر ، ومبدأ انعقادها فى منى الاثني ، فهما بالنظر الى الجنين كالأنفحة واللبن بالقياس الى اللبن ، والحق إن لكل من المنين القوة العاقدة والمنعقدة ، إلا أن الأولى فى الذكورى والثانية فى الانوثة أقوى ، وإلا لم يتحدأ شيئاً واحداً ، ولم ينعقد الذكورى حتى يصير جزءاً من الوالد . فلو كان مزاج الاثني ذكورياً كما فى النساء الشريفة النفوس القوية القوى ، وكان مزاج كبدها حاراً ، كان المنى المنفصل عن كايتهما اليمنى أحرّ كثيراً من المنفصل عن كايتهما اليسرى ، فاذا اجتمعا فى الرحم ،

وكان مزاج الرحم قوياً في الامساك والجذب ، قام المنفصل عن الكلية الجنينية
مقام منى الذكر في شدة قوة العقد ، والمنفصل من اليسرى مقام منى الأنثى في
قوة الانعقاد ، فيخلق الولد ، وبهذا تتصحح ولادة مريم البتول - عليها السلام -
حيث تمثل لها روح القدس بَشَرًا سَوِيًّا حسن الصورة ، فمع تحقق ما ذكر
لها تأيدت به - أي بروح القدس - وسرى أثر اتصالها به الى الطبيعة والبدن ،
وتغير مزاجها ومد جميع القوى في أفعالها بالمدد الروحاني ، فصارت أقدر
على أفعالها بما لا ينضبط بالقياس .

ثم ابتداء خلق الجنين في استقرار الماين في الرحم ، وشبهه بالعجين إذا
أصق بالتنور ، فقيره الله تعالى سبحانه عن حاله قليلا ، كالبنذر إذا نبت من
الأرض ، فصارت نقطة ، فاستجلب دم الحيض من أعماق العروق إليها ، حتى
ظهرت فيها نقط دموية منه وصارت علقة . ثم أظهر فيها حمرة ظاهرة حتى
صار شبيهاً بالدم الجامد ، وهيج فيها ريحا حارة فصارت مضغة . ثم أظهر فيها
رسوم الأعضاء وشكلها وصورها ، فاحسن تصويرها ، فقسم أجزائها المتشابهة
الى أجزاء مختلفة من العظام والأعصاب والعروق والأوتار واللحم والشحم .
ثم ركب الأعضاء الظاهرة والباطنة من اللحم والعروق والأعصاب ،
فدور الرأس ، وشق البصر والسمع والفم والأنف وسائر المنافذ ، ومد اليد
والرجل ، وقسم رؤسها بالأصابع وقسم الأصابع بالأنامل ، وخلق كل واحد
من القلب والدماغ والكبد والطحال والمعدة والرئة والرحم والمثانة والأمعاء
وغيرها من الأعضاء على شكل مخصوص ، وجعل لكل واحد منها عملا
معينا وفعلا مخصوصا ، وجميع ذلك يحصل للجنين وهو في ظلمة الأحشاء
محبوس وفي دم الحيض مغموس ، منضم في صرة ، كفاه على خديه ، ومرفقاه
على حقويه ، جمعت ركبته على صدره وذقنه على رأس ركبتيه ، وهو كشيء

نأثم ، سرته متصلة بسرة أمه يمتص منها الغذاء ، ووجهه الى وجهها إن كان
اثنى والى ظهرها إن كان ذكراً . فتتوارد عليه تلك النقوش العجيبة والتصويرات
الغريبة من غير خبر منها له وللرحم ، ولا الأب والام ، ولا يرى داخل
النطفة أو الرحم ولا خارجهما نقاش يصل اليه أثر نقشه ، فكأن الجنين بلسان
حاله ينادى قلوب العارفين بنغات تهيجها وترقصها : تصورونى فى ظلمة
الاحشاء مغموساً بدم الحيض ، كيف يظهر التخطيط والتصوير على وجهى ،
فينقش النقاش اجفانى وحدقتى ، ويصور المصور خدى وشفتى ، ولا يزال
يظهر على نقش بعد نقش وصورة بعد صورة ، ولا أرى نقاشاً ولا مصوراً ،
أو لا تتعجبون من هذا النقاش الذى لا يحتاج الى تماس ومزاولة ولا يفتقر
الى آلة ومباشرة ، أو لا تنتقلون من عجب صنعته الى عظيم قدرته وجسيم
عظمته ، أو ليس لىكم أعين بها تبصرون أو قلوب بها تفقهون ، فكيف
تنظرون الى تكون اعضائى وعجائبها ولا تعتبرون ؟ !

فانظر الآن - يا حبيبى - فى نبذ من العجائب والحكم المودعة فى بعض
من هذه الاعضاء ، فتأمل فى (العظام) التى هى أجسام قوية صلبة كيف خلقها
من نطفة رقيقة رقيقة ، وأحكمها وصلبها فى الرحم بين المياه ، مع أن صلاحية
المائع فى الماء محال عادة ، وجعلها قواماً ودعامة للبدن ، ولذا صلبها وأحكمها
لئلا تنكسر عند الحركات العنيفة ، وقدرها مقادير مختلفة وشكلها على أشكال
متفاوتة ، ففيها صغير وكبير وطويل وقصير ومستقيم ومستدير ودقيق وعريض
ومجوف ومصمت ، على ما اقتضته الحكمة والمصلحة ، ولما كان الانسان
محتاجاً الى الحركة ، تارة بحملة بدنه ، وتارة ببعض أعضائه ، لم يخلقه من عظم
واحد ، بل جعل له عظاماً كثيرة بينها مفاصل ، حتى تيسر له الحركة بحملة
بدنه وبعض أعضائه ، وقدر شكل كل واحد منها على وفق الحركة المطلوبة

بها ، وما لم تكن فيه فائدة سوى كونه عماداً للبدن خلقه مصمماً ، وان جعل فيه المسام والخلل التي لا بد منها ، وما يحتاج اليه للحركة ايضاً ، زاد في تجويفه ليكون أخف ، وجعل تجويفه في الوسط واحداً اثلاً يحتاج في وصول الغذاء اليه الى التجايف والخلل المتفرقة ، فيصير رخواً ، بل صلبه مع تجويفه ، لئلا ينكسر عند الحركات العنيفة ، وما كانت الحاجة فيه الى الوثاقة أشد جعل تجويفه أقل ، وما كان الاحتياج فيه الى الخفة أكثر جعل تجويفه أزيد ، وجمع غذاءه وهو المخ في حشوه ليغذوه ويرطبه دائماً ، لئلا يتفتت بتجفيف الحركة .

ثم وصل مفاصلها وربط بعضها ببعض بأوتار أنبتها من أحد العظمين وأصقها بالآخر ، كالرباط ، وخلق في أحدهما زوائد خارجه منه وفي الآخر حفراً غائصة فيه موافقة لشكل الزوائد ، ليدخل فيها وينطبق عليها ، ولذلك لو أراد الانسان أن يحرك جزءاً من بدنه دون سائر أعضائه لم يتعسر عليه ، ولولا المفاصل لتعذر عليه ذلك .

ثم وسط بين العظام الصلبة واللحوم الرخوة (الغضاريف) وهي من العظم ألين ومن اللحم أصلب ، ليحسن اتصال الصلب باللين ، فلا يتأذى منه ، خصوصاً عند الضربة والضغط ، وليحسن به مجاورة المفاصل المتجاكة ، فلا تتراض لصلابتها .

ثم انظر - يا أخى - فى (العروق) وما فيها من العجائب والحكم ، فانها خلقت على نوعين : (أحدهما) الشرايين : وهي العروق الضوارب المتحركة ، ومنبتها القلب . ولما كان القلب ينبوع الحياة ومنبع الروح والحرارة الغريزية خلقت هذه العروق مبتدأة منه منتشرة فى سائر الأعضاء لإيصال الروح والحياة منه اليها ، ولها حركتان ، انقباضية يقبض بها الأبخرة الدخانية عن القلب ،

وانبساطية يجذب بها صافى النسيم اليه ، ليستريح ، ولولا هذا القبض والجذب لاختنق القلب بالبخار الدخانى ، وخلقت ذات صفاقين لثلاثين تنشق بقوة حركتها واثلا يتحلل ما فيها من الروح ، وجعل الصفاق الداخلى أصلب لأنه الملاقى لقوة الحرارة الغريزية ومصادمة حركة الروح ، فوجب الحكمة الإلهية زيادة إحكامها حفظاً لها عن الانشقاق ، لقوة حركة الروح ، وتقويةً لمحل الحرارة الغريزية ، لثلاثين يتحلل شئٌ منها يتحلل محلها . وواحد من هذه الشرايين ، ويسمى الشريان الوريدي ، لما كان حاملاً لغذاء الرية لأن غذاءها من القلب ، فيغوص فيها ويصير شعباً ، تخلق لذلك ذا صفاق واحد لثلاثين يزاحم به صلابته الرية لرخاوتها ولينها ، مع عدم مصادمة لحمها له عند الحركة لكثرة لينه ورخاوته . فلم تكن حاجة الى زيادة استحكامه ، على أن الرية تحتاج الى الغذاء على سبيل الترشح بسرعة وسهولة . وكثرة الصلابة منافية لذلك . (وثانيتها) العروق الساكنة : وتسمى الأوردة ، وشأنها جذب الغذاء من المعدة الى الكبد ومنه الى سائر الأعضاء ، وهى ذات صفاق واحد لأنها ساكنة ، فلا يخشى انشقاقها . وجعل واحد منها ويسمى الوريد الشرياني ذا صفاقين لنفوذته فى التجويف الأيمن من القلب ، فكان اللازم زيادة وثاقته ، لثلاثين يهتريه انشقاق بقوة حركة القلب وصلابته ، وهو الذى يأتى بغذاء الرية الى القلب ، وإذا خلص عن القلب وجاوزه يأخذ الشريان الوريدي منه الغذاء وينذهب به الى الرية .

فانظر - يا أخى - الى عجيب حكمة ربك ، فان حامل غذاء الرية ما دام نافذاً فى القلب ومصادماً لحركته خلق صلباً ذا صفاقين ، وإذا خلاص عنه الى الرية التى لا تتحمل الصلب جعل رخواً ذا صفاق واحد ، فسبحانه ما أجل شأنه وأعظم برهانه .

ثم تفكر أيها المتفكر في (الرأس) وعجيب خلقه ، حيث ركبته من عظام مختلفة الأشكال والصور ، وألف بعضها الى بعض حتى استوت كرة كما تراه ، وجعله يجمع الحواس ، ولذا جعله مستديراً ، لان المستدير أبعد من الآفات بالقياس الى ذى الزاوية ، وأعظم مساحة منه مع تساوى احاطتها ، وجعل استدارته الى طول ، لأن منابت الأعصاب الدماغية موضوعة في الطول ، فلو لم يتسع منبتها لازدحمت وانضغطت ، وألف قحفه (١) من ستة أعظم : اثنان بمنزلة السقف وأربعة بمثابة الجدران ، ووصل بعضها ببعض بالدروز والشئون ، وجعل الجدران أصلب من اليافوخ الذى هو السقف ، لاراد الصدمات عليها أكثر ، وتخلخل اليافوخ مما لا بد منه لخروج الابخرة المتحللة (وعدم ثقله على الدماغ) (٢) وفائدة الدروز أن تخرج منها الابخرة المتحللة في الدماغ لئلا يؤدي مكشها الى الصداع وغيره من الامراض الدماغية ، وجعل أصلب الجدران مؤخرها لانه غائب عن البصر فلا يحرسه فاحتاج الى زيادة وثاقة .

وخلق فيها الدماغ ليناً دسماً ، لتنطبع فيه المحسوسات بسهولة ، ولتكون الاعصاب النابتة منه لزجة لئلا تنكسر ، وجعل مزاجه رطباً بارداً لتنفع القوى المودعة فيه عن مدركانها . ولئلا يشتعل بالحرارة الحاصلة عن الحركات الفكرية ، وجعل مقدمه الذى هو منبت الاعصاب الحسية ألين من مؤخره الذى هو منبت أعصاب الحركة ، لان الحركة لا تحصل إلا بالقوة ، والقوة إنما تحصل بالصلابة . ثم جلل الدماغ بغشامين : (أحدهما) رقيق لين ملاصق

(١) القحف : العظام فوق الدماغ وما انفلق من الجمجمة فبان قال في القاموس : « ولا يدعى قحفاً حتى يبين أو ينكسر منه شيء » .
(٢) هذه الجملة مضافة انفسختنا الخطية والمطبوعة ، لكنها غير موجودة في النسخة الخطية الاخرى .

لجوهره ، و (ثانيهما) غليظ صلب ملاصق للقحف ، وهو مثقب بشقب كثيرة لاندفاع الفضول منه ، وانشعبت منه شعب دقاق تصعد من دروز القحف الى ظاهره ، ليتشبت بها هذا الغشاء بالقحف ولا ينفصل عنه ، وجعل بين جزئى الدماغ المقدم والمؤخر حجاً لطيفاً ليحجب عن عاسة الآلين بالاصلب فيتأذى منه ، وخلق تحت الدماغ بين الغشاء الغليظ والعظم نسيجة (١) شبيهة بالشباك ، وقد تكونت من الشرايين الصاعدة من القلب والكبد الى الدماغ ، وقد فرشت هذه الشبكة تحت الدماغ ، ليبرد فيها الدم الشريانى والروح ، ويتشبه بالمزاج الدماغى بعد النضج ، ثم يتخلص الى الدماغ على التدريج ، ولولاه لم يصلح الدم الكبدى والروح القلبي لكثرة حرارتها لتغذية الدماغ ، ولم يناسبها جوهره ، وجعل الفرج التى بين فروع هذه الشريانات محشوة بلحم غددى لئلا تبقى خالية ، ولتعتمد عليه تلك الفروع وتبقى على أوضاعها .

ثم لما كان الدماغ مبدأ الحس والحركة . ولم يكن لسائر الأعضاء حس وحركة بذاتها ، وكان اللازم ايصالها اليها ، ولم يكن ذلك ممكناً بدون واسطة فى الايصال ، فخلق (الأعصاب) من جوهره ، ووصلها منه الى سائر الأعضاء من العظام وغيرها ، ليفيدها الدماغ بتوسطها حساً وحركة ، وايشد ويتقوى بها اللحم والبدن ، وأيضاً لم يجعلها متصلة بالعظم مفردة . بل بعد اختلاطها باللحم والرباط ، لئلا يتأذى من صلابته .

ثم لما كان نزول جميع الأعصاب التى يحتاج اليها من الدماغ موجباً لثقل الرأس وعظمه . خلق الله من جوهر الدماغ أشبه شئ به وهو (النخاع) ، وجعل فى أسفل القحف ثقباً وأخرجه منها ، وخصه بالعنق والصاب ،

(١) الموجود فى استغنا الخطية : « فسحة » بدل (نسيجة) .

وأخرج منه كثيراً من الأعصاب المحتاج إليها إلى الأعضاء . فالدماغ بمنزلة العين واليذنبوع للحس والحركة ، والنخاع بمثابة النهر العظيم الجارى منه ، والأعصاب كالجداول . والمنبع ألين من النهر والنهر ألين من الجداول .

ثم انظر - يا حبيبى - كيف خلق (العين) وفتحها وأحسن شكلها ولونها وهيئتها ، ورتب لها سبع طبقات وثلاث رطوبات كل منها على شكل خاص ولون مخصوص ، لو تغير شئ منها عما عليه لاختل أمر الابصار ، وتأمل كيف أظهر في حدقتها التي بمقدار العدسة صورة السماء مع اتساع أكنافها وتباعداقطارها ، وحماها بالاجفان ليسترها ويحفظها ويصقلها ، وجعلها وقاية لها يدفع بها الأفذاء عنها ، ويمنعها عن وصول الغبار والدخان والشعاع إليها عند انطباقها ، وجعل الجفن الأسفل أصغر من الأعلى ، لأن الأعلى يستر الحدقة تارة ويكشفها أخرى لتحركه ، وأما الأسفل فغير متحرك ، فلو زيد على هذا القدر يستر شيئاً من الحدقة دائماً ، ويجتمع فيه الفضول ولا تسيل . ثم زين الأجفان بـ (الأهداب) ليمنع من الحدقة بعض الأشياء التي لا يمنعها الأجفان مع انفتاح العين - كما ترى عند هبوب الرياح التي يأتى بالأفذاء - فيفتح العين أدنى فتح ، وتتصل الأهداب الفوقانية بالسفلانية ، فيحصل شبه شبك ينظر من ورائه ، فتحصل الرؤية مع دفع القذى .

ثم انظر كيف شق (الأذن) وأودعها ما يحفظ سمعها ويدفع الهواء عنها ، وجعل ثقبها محاطة بصدقة مرتفعة لئلا تتأذى من البرد والحر وغيرهما مما يؤذى ، وليجتمع فيها الهواء المتحرك من الأصوات فينفذ فيها ويحرك الهواء الذى فى داخلها ويموجه - كما ترى من دوائر الماء إذا وقع فيه شئ - حتى يصل إلى العصبية المفروشة على الصماخ التي فيها قوة السمع ، فيدرك الصوت . وجعل فى منفذها تجويفات واعوجاجاب كثيرة لتسكث حركة

ما يدب فيها ويطول طريقها ، فيتنبه صاحبها إذا قصدته دابة مؤذية فيدفع شرها ، وخلق فيها جرماً تنأى عنها لتفر عنه الدواب المؤذية ولا تدخلها .
ثم تأمل كيف زين الوجه بـ (الحاجبين) وحسنهما بدقة الشعر واستقواس الشكل .

وزين وجه الرجل بـ (اللحية) ووجه المرأة بعدمها ، والمتأمل يعرف ان اللحية زين للرجل وشين للمرأة ، وهذا من عجائب الحكمة .

وزين الوجه برفع (الأنف) من وسطه ، وحسن شكله وفتح منخريه ، وأودع فيها حاسة الشم ليستدل باستنشاق الروائح على مطاعمه وأغذيته ، وليستشوق الهواء الطيب الصافي ، ويدفع الهواء الحار الدخاني ، ترويحاً لقلبه ، وجعل له منخرين لتميل الفضلات النازلة من الدماغ غالباً الى أحدهما ، ويبقى الآخر مفتوحاً ، فلا تسد طرق الاستنشاق بأسرها .

ثم انظر الى (الفم) وعجائبه والى اللسان وغرائبه ، فانه سبحانه لعظيم قدرته وحكمته فتح الفم ، وأودعه اللسان وجعله ناطقاً معرباً عما فى القلب ، وممكنه من التكلم باللغات المتخالفة وتقطيع الأصوات وإخراج الحروف المتباينة ، وجعل له قدرة على الحركة فى مخارج مختلفة تختلف بها الحروف ليتسع طريق النطق بكثرتها . وخلق (الفكين) وركب فيهما الاسنان لتكون آلة للطحن والقطع والكسر ، فاحكم اصولها ، وحسن لونها ، ورتب صفوفها متساوية الرأس متناسقة الترتيب ، كالدرر المنظومة ، مختلفة الاشكال باختلاف الاغراض والمقاصد ، متفاوتة الاوضاع بتفاوت الغايات والقوائد ولما كان الطعام يحتاج تارة الى الكسر وتارة الى القطع واخرى الى الطحن ، فقسّم الاضراس الى عريضة طواحن كالاضراس ، والى حادة قواطع كالرباعيات ، والى ما يصلح للكسر كالانياب . والاضراس التى فى الفك

الاعلى لما كانت معلقة جعل أصولها ثلاثة أو أربعة ، والتي في الفك الاسفل اكتفى في اصولها باثنين أو ثلاثة لعدم الاحتياج ، وجعل اسائر الاسنان أصلاً واحداً لعدم ثقل فيها . ثم جعل مفصل (الفكين) متخلخلاً بحيث يتقدم الفك الاسفل ويتأخر حتى يدور على الفك الاعلى دوران الرحى ، وهو ثابت لا يتحرك ، فيتم الطحن بذلك . فانظر في عجب صنع الله في هذه الرحى حيث يدور الاسفل منها على الاعلى على خلاف سائر الأرحية ، لدوران الاعلى منها على الاسفل . والحكمة في تحرك الاسفل دون الاعلى : أن الاعلى على مجمع الدماغ والحواس ، فتحركه كان موجباً لاذيتها واضطرابها ، وايضاً هو مفصل الرأس والعنق ، فلو تحرك لم يستحكم ، مع أن الوثاقفة فيه لازمة . ثم لما كان مضغ الطعام محتاجاً الى تحركه فيما تحت الاسنان ، فاعطى الله سبحانه قدرة اللسان على أن يطوف في جوانب الفم ويرد الطعام من الوسط الى الاسنان بحسب الحاجة . ولما كان الطعام يابساً فلم يمكن ابتلاعه إلا بنوع رطوبة ، فخلق تحت اللسان عيناً جارية يفيض منها اللعاب وينصب بقدر الحاجة ، حتى يعجن به الطعام ويقدر على ابتلاعه .

ثم تفكر كيف خلق (الحناجر) وهياها لخروج الأصوات ، وجعلها بخلفة الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة والطول والقصر وصلابة الجوهر ورخاوته ، حتى اختلفت بها الأصوات ، فلا يتشابه صوتان ، بل يظهر به بين كل صوتين فرق حتى يميز السامع أصوات آحاد الناس بمجرد سماعها في الظلمة والغيبة .

ثم مد (العنق) وجعله مركباً للرأس ، وربكه من سبع خرزات مجوفات مستديرات فيها تجويفات وزيادات ونقصان ، لينطبق البعض على البعض ، ولما كان أكثر منافعه في الحركة جعل مفاصله سلسلة ، ولم يجعل زوائدها المفصلية

كبيرة كزوائد فقرات الصلب ، لتكون حركاته أسرع ، وتدارك تلك السلسلة بأعصاب وعضلات كثيرة محيطة به .

ثم انظر الى عجائب (المعدة) وآلاتها التى يتم بها الاكل ، فجعل سطح الفم متصلاً بفم المعدة بحيث كأنهما سطح واحد ، حتى يحصل أولاً نوع انهضام بالمضغ ، ثم هياً (المارى) (١) والخنجرة ، وجعل على رأسها طبقات تنفتح لاحذ الطعام ثم تنطبق وتنضغط حتى يهوى الطعام من دهليز المرى الى المعدة ، وإذا ورد عليها لا يصلح لان يصير عظماً ولحماً ودماً على هذه الهيئة ، بل لا بد أن ينطبق انطباًحاً تاماً تتشابه أجزاؤه ، فخلق الله المعدة على هيئة قدر يقع فيه الطعام وتنغلق عليه الأبواب ، وخلق فيها حرارة صالحة للطبخ ، ومع ذلك جعلها محاطة من جوانبها الأربعة بالحرارة المنبجسة من الكبد والطحال والثرب ولحم الصلب ، فن هذه الحرارة ينطبق الطعام فى المعدة وينهضم ، حتى يصير كيلوساً (٢) أى جوهرأ سيالاً يشبه ماء الكشك (٣) الثخين .

ثم خلق الله بعظيم حكمته ورأفته لإيصال صفو ما طبخ فى المعدة الى الكبد قسمين من العروق : (أحدهما) العروق المخلوقة فى تحت المعدة المتصلة بالمعاء المسماة بـ (ماساريقا) (٤) ، وجعل لها فوهات كثيرة لينصب لطيف المطبوخ فيها ، و (ثانيهما) العروق المسمى بباب الكبد النافذ فيه بعد تفرقه بعروق شعرية ليفية منتشرة فى اجزائه ، وجعل الماساريقا متصلة بباب الكبد ، فاذا انصب خالص الكيلوس فى الماساريقا يوصله الى باب الكبد ،

(١) هو الخرطوم المتصل بالاوواج الاربعة الى الخنجرة .

(٢) كلمة يونانية ، للراد منه هو الطعام المطبوخ فى المعدة طبخاً ناقصاً .

(٣) ماء الكشك : هو ماء الصبر .

(٤) أى العروق تحت المعدة المتصلة بالمعاء . والكلمة يونانية .

وينصب منه الى العروق الليفية المتفرقة في جوهر الكبد ، فنستولى قوة الكبد على هذا الكيلوس ، بحيث يلاقي كاه كاه ، ولذا يصير فعله فيه أشد وأسرع ، فيمتصه ويجذبه الى نفسه فيطبخه ويفيده الحرارة والحرارة ، حتى ينصبغ بلون الدم ، ومن هذا الطبخ يحصل شئ كالرغوة وهي (الصفراء) ، وشئ كالوددى وهو (السوداء) ، وشئ كيباض البيض وهو (البلغم) ، وهو كما يتكون من هذا الطبخ يتكون من الطبخ الأول ايضاً ، وقد يصير شئ من هذا البلغم الى الكبد مع عصارة الطعام ، ويبقى المتصفي من هذه الجملة دماً ناضجاً ذا رطوبة مائية منتشرة في العروق الشعرية ، فلو بقيت الصفراء والسوداء والبلغم والمائية مختلطة بالدم ولم تنفصل عنه لفسد مزاج البدن ، فخلق الله بحكمته الكليتين والمرارة والطحال ، وجعل لكل منهما عنقاً معدوداً في الكبد ، وجعل عنق الآخرين داخل في تجويف الكبد ، ولم يجعل عنق الكليتين داخل في تجويفه ، بل جعلهما متصلين بالعروق الطالعة من حدة الكبد حتى يجذبا مائته بعد الطلوع من العروق الدقيقة التي في الكبد ، إذ لو اجتذبت قبل ذلك لغلظت ولم تخرج بسهولة عن العروق الدقيقة الشعرية .

ثم إذا انجذبت المائية من جانب محدب الكبد من طريق العروق الطالعة منه الى الكليتين ، حملت مع نفسها من الدم ما يكون صالحاً كماً وكيفاً لغذائهما فتغذوان الدسومة والدموية من تلك المائية ، ويندفع باقيها الى المثانة ، ومنها الى الاحليل . وأما (المرارة) فتأخذ الرغوة الصفراوية من محدب الكبد بعنقها الذي اتصل بالكبد ، وتقذفها من منفذ آخر لها الى الأمعاء ، ليلذعها بمحدثها فتحركها على دفع الأثقال التي بقيت من الكيلوس بعد ذهاب صفوه الى الكبد ، فينضغط حتى تندفع منها الأثقال ، وبخروجها تخرج تلك الرغوة الصفراوية ، وصفرتها لذلك . وأما (الطحال) فيأخذ بعنقه المتصل بمحدث

السكبد منه الرسوب السوداء ويحيله حتى يكتسب قبضاً وحوضه ، ثم يرسل منه فى كل يوم شيئاً الى فم المعدة لتتنبه بالجوع ، فيحرك الشهوة بحموضته وقبضه ، ثم يخرج بخروج الثفل ايضاً . وأما (الدم) فيتوجه الى الاعضاء ويتوزع عليها فى شعب العرق الأجوف العظيم النابت من محذب السكبد ، فيسلك فى الأوردة المتشعبة منه فى جداول ، ثم فى سواقي الجداول ، ثم فى رواضع السواقي ، ثم فى العروق الشعرية الليفية ، ثم يترشح من فوهاتنا فى الاعضاء بتقدير خالق الأرض والسماء .

وبما ذكر ظهر أنه لو حدث بواحد من المرارة والطحال والكليتين آفة ، فسد الدم وحصلت امراض الخلط الذى يجذبه من السكبد ، فلو عرضت آفة بالمرارة حدثت الامراض الصفراوية ، ولو حلت آفة بالطحال حصلت امراض سوداوية ، ولو لم تندفع المائىة الى الكلى بعروض آفة لها حصل مرض الاستسقاء .

وأما (البلغم) فما يتكون فى السكبد أو يصير اليه مع عصارة الطعام انهضم فيه وصار دماً ، وما بقى منه فى الأمعاء ولم ينحدر الى السكبد انفسل بمررة الصفراء الى شأنها تنقية الأمعاء من الفضول بحرافتها وحدثها وسيلانها ، ومن البلغم ما يبقى فى البدن لاحتياجه اليه فى حركة المفاصل وترطيب الأمعاء ، ومنه ما يخرج من الفم بالقيء والبصاق أو ينحدر من الرأس الى الفم ويخرج منه بالتنخع .

ثم انظر - يا أخى - فى (القلب) وعجائبه ، حيث خلقه جسماً صنوبرياً وجعله منبعاً لروح الحياة ، ولذا خلقه صلباً ليكون محفوظاً من الواردات ، وجعل هذا الروح جرماً حاراً لطيفاً نورانياً شفافاً ، وجعله مطية للنفس وقواها ، وأناط به حياة الانسان وبقائه ، فيبقى ببقائه ويفنى بفنائه ، فكل عضو

يفيض عليه من سلطان نوره يكون حياً ، وإلا كان ميتاً ، ولذا لو حصل بعضو سدة مانعة من نفوذه فيه بطل حسه وحركته . ويتوزع هذا الروح من القلب الذى هو منبعه الى سائر الاعضاء العالية والسافلة ، بواسطة سفراء الشرايين والأوردة . فما يصعد منه الى الدماغ بأيدي خوادم الشرايين ، ويعتدل بكسب البرودة من جوهر الدماغ ، ثم يفيض على الأعضاء المدركة والمتحركة منبثاً فى جميع البدن ، يسمى (روحاً نفسانياً) . وما ينزل بصحابة أمناه الأوردة الى السكبد الذى هو مبدأ القوى النباتية ، ومنه يتفرق الى سائر الأعضاء ، يسمى (روحاً طبيعياً) . وقد خلق الله سبحانه هذا الروح من لطائف الامشاج الأربعة ، كما خلق الأعضاء من كشافها . وهذا الروح مثاله جرم نار السراج ، والقلب الذى يحله كالمسرجة له ، والدم الأسود الذى فى باطن القلب ويتكون هذا البخار اللطيف منه بمنزلة الفتيلة له ، والغذاء له كالزيت ، والحياة الظاهرة فى جميع أجزاء البدن بسببه كالضوء للسراج فى جملة البيت ، وكما أن السراج إذا انقطع زيته انطفأ ، فسراج الروح ايضاً ينطفىء . مهما انقطع غذاؤه ، وكما أن الفتيلة قد تحترق وتصير رماداً بحيث لا تقبل الزيت ، فكذلك الدم الأسود الذى فى باطن القلب قد يحترق بحيث لا يقبل الغذاء الذى تبقى الروح به ، كما لا يقبل الرماد الزيت قبولاً تشبث النار به ، وكما أن السراج ينطفىء نارة بسبب من داخل - كما ذكرنا - ونارة بسبب من خارج ، كهبوب ريح أو إطفاء انسان ، فكذلك إنطفاء الروح نارة يكون بسبب من داخل ونارة بسبب من خارج ، كالقتل ، وكما أن انطفاء السراج هو منتهى وقت وجوده كذلك إنطفاء الروح هو منتهى وقت وجود الانسان ، وهو أجله الذى أجل له فى أم الكتاب . وكما أن السراج إذا انطفأ أظلم البيت كله كذلك الروح إذا انطفأ أظلم البدن كله ، وفارقت أنواره التى كان يستفيد منها من الروح ، وهى

أنوار الاحساسات والقدرة والارادات وسائر ما يجمعها معنى الحياة .
ثم انظر - يا حبيبى - إن كنت من أهل اليقظة فى (اليدين) وحكمتها ،
حيث طوله لهما لتمتدا الى المقاصد ، وعرض الكف ووضع عليها الأصابع
الخمس ، وقسم كل اصبع بثلاث أنامل ، وجعل الابهام فى جانب ، والبواقي فى
جانب ، ليدور عليها ، ولو اجتمع الأولون والآخرون على أن يستنبطوا بدقيق
الفكر وجهاً آخر فى وضع الاصابع سوى ما وضعت عليه من بُعد الابهام
من الأربع وترتيبها فى صف واحد وتفاوتها فى الطول والقصر ، على أن
يكون هذا الوجه أزين وأصلح منه أو مثله وشبهه فى الزينة والمصلحة لم
يقدروا عليه ، إذ بهذا الترتيب صلحت للقبض والاعطاء ، فان بسطتها كانت
لك طبقة تضع عليها ما تريد ، وإن جمعتها كانت لك آلة للضرب ، وإن نشرتها
ثم ضممتها كانت آلة للقبض ، وإن ضممتها ضمما غير تام كانت لك مغرفة ،
وإن وضعت الابهام على السبابة كانت لك مخرفة ، وإن بسطت الكف مع
اتصال الأصابع كانت لك مجرفة . وإن بسطت الكف وجمعت عليها الأصابع
كانت لك محرزة ، الى غير ذلك من المنافع .

ثم خلق (الأظفار) على رؤسها ، زينة للأنامل وعماداً لها من ورائها ،
حتى لا تنفت ، وليلتقط بها الأشياء الدقيقة التى لا تتناولها الأنامل ، وليحك
بها بدنه عند الحاجة ، فالظفر الذى هو أحسن الأعضاء لو عدمه الانسان
وحدثت به حكة لسكان أضعف الخلق وأعجزهم ، ثم هدى (اليد) الى موضع
الحك حتى تمتد اليه ولو فى حالة النوم والغفلة ، من غير حاجة الى فحص وطلب ،
ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحك .

ثم خلق (الرجلين) مركبتين من الفخذ والساق والقدم ، كل منها على
شكل خاص وتركيب خاص ، ليتحرك بهما الانسان الى أى موضع أراد ،

ولو تغير شيء من الشكل أو الوضع أو التركيب في جزء من أجزائها لاختل أمر الحركة ، ووضع عليهما جملة البدن وجعلهما دعامة وأساساً له وحاملين لثقله ، مع خفتهمما وصغر جثتهما بالنسبة إليه ، إذ حسن التركيب وسهولة الحمل والحركة في مثل هذا الخلق لا يتصور بدون ذلك . فانظر في عجيب حكمة ربك حيث جعل الأخف والأدق والأصغر أساساً وحاملاً للأثقل والأغلظ والأكبر ، مع أن كل بناء يكون أساسه أكبر وأغلظ مما يبنى عليه ، وكل حامل يكون أعظم جثة من المحمول ، فسبحانه من خالق لا نهاية لعجائب حكمته وغرائب قدرته .

ثم خلق جميع ذلك في النطفة في جوف الرحم في ظلمات ثلاث ، ولو كشف عنها الغطاء وامتد إليها البصر ، لكان يرى التخطيط والتصوير يظهر عليها شيئاً فشيئاً ، ولا يرى المصور ولا آله ، فسبحانه من مصور فاعل يتصرف في مصنوعه من دون احتياج إلى مباشرة آلة ولا افتقار إلى مكادحة عمل .

تزيين

ثم تأمل - أيها المتأمل - في عجائب حكم ربك : إنه لما كبر الصبي وضاق عنه الرحم كيف هداه السبيل إلى الخروج حتى تنكس وتحرك ، وخارج من ذلك المضيق كأنه عاقل بصير ، ولما خرج وكان محتاجاً إلى الغذاء ولم يحتفل بدنه الأغذية الكثيفة لينه ورخاوته خلق له اللبن اللطيف ، واستخرجه من بين الفرث والدم ، خالصاً سائغاً ، وخلق الثديين وجمع فيهما هذا اللبن ، وأنبت منهما الحلمة على قدر ما ينطبق فم الصبي ، وهداه إلى التقامها ، وفتح فيها ثقباً ضيقاً جداً ، حتى لا يخرج اللبن إلا بعد المص تدريجاً ، لأن الطفل لا يطيق

منه إلا القليل ، ثم هداه الى الامتصاص حتى يستخرج من مثل هذا المضيق اللبن الكثير عند شدة الجوع ، وأخر خلق الأسنان الى تمام الحولين ، لأنه لا يحتاج فيهما اليها لتغذيته باللبن ، وما دام مغتذيا به لما كان فى دماغه رطوبة كثيرة سيطر عليه البكاء ، لتسيل به تلك الرطوبة ، فلا تنزل الى بصره أو الى غيره من أعضائه فتفسده ، ثم لما كبر ولم يوافق اللبن السخيف وافتقر الى الأغذية الغليظة المحتاجة الى المضغ والطحن أنبت له الأسنان عند الحاجة من دون تقديم وتأخير ، وحن عليه قلوب الوالدين بالقيام على تربيته وتكفله جاله ما دام عاجزاً عن تدبير نفسه .

ثم رزقه الادراك والفهم والقدرة والعقل على التدريج حتى بلغ ما بلغ ، وأودع فى نفسه المجردة وقواها الباطنة أسراراً عجيبة تحير طوايح العقول وتدهش منها نواقب الأنظار والفهوم . فانظر الى قوة الخيال بعرضيتها الغير المنقسمة كيف تطوى السماء والأرض وتتحرك من المغرب الى المشرق فى آن واحد ، والى قوة الوهم كيف تستنبط كثرة المعانى الجزئية فى لحظة واحدة ، وتأخذها من حواك الاشياء ، والى المتخيلة كيف تركب بعضها ببعض وتأخذ منها ما فيه الصلاح والرشاد فى أمر المعاش والمعاد .

ثم انظر فى عجائب النفس وعالمها : من إحاطتها بالبدن كله وتديرها له ، مع نزهاها عن صقع المكان واتصافها بالعلم والقدرة وسائر الصفات الكمالية ، وتمسكها من الاحاطة على حقائق الاشياء بأسرها ، وتصرفها فى الملك والمملوكوت بقوتها العقلية والعملية ، ومع ذلك عاجزة عن معرفة ذاتها وحقيقتها ، ومن تطوراتها فى الاطوار المختلفة ، وتقلبها فى النشآت المتباينة ، وترقياتها بحسب درجاتها ومقاماتها ، من لدن تعلقها بالنطفة القدرة الى صيرورتها عالماً ربانياً محيطاً بحقائق الاشياء متصلاً بالمملوكوت الاعلى ، ومن

اجتماع عوالم السباع والبهائم والملائكة والشياطين فيه (١) ، واطاعة جميع الموجودات له ، حتى السباع تخضع لديه والطيور تخفض أجنحة الذل بين يديه ، ويستخدم الجن ويسخر السكواكب وروحانيتها ، ومن عجائب عالمه الطبع الموزون والصوت الحسن ، وعلمه بصناعة الموسيقى ، واستنباطه أنواع الصنائع الارض ، وقد يتعدى الى عالم العجيبة والحرف الغريبة .

ومنها أمر الرؤيا واخباره بالمغيبات لاتصاله بالجواهر الروحانية ، وتأثيره في مواد الاكوان بنزع صورة والباس اخرى ، فيؤثر بانقطاعه الى الله في استحالة الهواء الى الغيم ونزول الأمطار ، وإزالة انواع الأمراض ، وإهلاك قوم وإنجائهم ، وتمسكه من فعل أو تحريك يخرج عن وسع مثله ، وإمساكه عن القوت مدة غير معتادة ، واقتداره على اظهار بدنه المثالي في مواضع مختلفة في وقت واحد ، واحضاره ما يريد من المطاعم والملابس ، ومصاحبته مع الملائكة وأخذ العلوم منهم . فانظر - يا أخى - إن كنت من أهل اليقظة الى قدرة ربك العظيم حيث أودع جميع ذلك فيما عرفت حاله من النطفة السخيفة القذرة ، وهذه النطفة هي التي قد تصير ملكاً شديداً الهمة والبطش مسخراً للربيع المسكون ، بحيث ينوط به انتظام النوع واختلاله ، وقد يصير بحيث تظهر منه خوارق العادات وغرائب المعجزات في عالم الأرض ، وقد يتعدى الى عالم الافلاك ، فينشق القمر ويرد الشمس .

وليت شعري ان الناس كيف يتعجبون من صيرورة الميت حياً ، مع انه جثته كانت موجودة وإنما أفيض عليه مجرد حس وحركة ، ولا يتعجبون من بلوغ قطرة ماء قدرة الى المراتب التي عرفتھا . وليس المنشأ لذلك إلا كثرة مشاهدتهم وتكرار ملاحظتهم له ، مع أن هذا لا يدفع العجب والغرابة لو

(١) نذكر الضمير هنا وفيما يأتي باعتبار الانسان ، ونقدم مثله صفحة (١١١) .

نظروا بعين العبرة والبصيرة ، إذ منشأهما إما عظم الصنع وحسن الابداع ،
فهما فى بلوغ النطفة الى المراتب المذكورة أقوى وأشد من احياء ميت ، أو
دلالة هذا الصنع والفعل على صانع حكيم وفاعل عليم ، فلا ريب أيضاً فى أن
دلالة الأول على ذلك أشد من دلالة الثانى عليه ، إذ كل من رزق أدنى حظ
من البصيرة يعلم ان بلوغ قطرة ماء قدرة الى المراتب المذكورة ليس إلا من
قدرة قادر حكيم وصنع صانع عليم ، أو من حدوث الفعل من دون مشاهدة
سبب مباشر ، فهذا فى امر النطفة أظهر ، وعلى أى تقدير كان يكون التعجب
والغربة فى بلوغ النطفة السخيفة القذرة الى المراتب المذكورة أشد وأحرى
من التعجب فى احياء ميت أو ابراء أكه أو ابرص أو تكلم حيوان أو نبات
أو جماد أو غير ذلك من خوارق العادات وغرائب المعجزات ، فالنظر الذى
لا يقتضى منه العجب إنما هو نظرة حمقاء لم ينشأ عن حقيقة الروية والاتقان
ولم يصدر عن ذى قلب يقظان . وبالجملة : الحكم والمجائب المودعة فى النشأة
الانسانية أكثر من أن تحصى ، وإنما اشرنا الى نبذة قليلة منها تبصرة لمن
استبصر ، وتنبهاً على كيفية التفكير فى سائر مجارى الفكر والنظر ، قال
الإمام أبو عبدالله الصادق عليه السلام : « إن الصورة الانسانية أكبر حجة لله على
خلقه ، وهى الكتاب الذى كتبه بيده ، وهى الهيكل الذى بناه بحكمته ، وهى
بمجموع صور العالمين ، وهى المختصر من العلوم فى اللوح المحفوظ ، وهى الشاهد
على كل غائب ، وهى الحجة على كل جاحد ، وهى الطريق المستقيم الى كل خير ،
وهى الصراط الممدود بين الجنة والنار . »

• • •

وإذ عرفت نبذاً من عجائب نفسك وبدنك ، فقس عليه عجائب الارض التى
هى مقرك : بوهاذا ، وتلاها ، وسهلها ، وجبالها ، وأشجارها ، وانهارها ، وبحارها

وازهارها ، وبرارها ، وعمارها ، ومدنها ، وامصارها ، ومعادنها ، وجمادها ، وحيوانها ، ونباتها ، فان كل ما نظرت اليه منها لو تأملته لوجدته مشتملا على غرائب حكم لا تعد وعجائب مصالح لا تحصى ، ولرايته آية باهرة على عظمة مبدعه وحجة قاطعة على جلالة موجدته .

فانظر - أولا - الى (رواسى الجبال) وشوامخ الصم الصلاب ، كيف أحكم بها جوانب الأرض وأودع المياه تحتها ، فانفجرت من هذه الاحجار اليابسة والتربة الكدرة مياه عذبة صافية ، وأودع فيها الجواهر النفيسة العالية ، وهدى الناس الى استخراجها واستعمالها فيما ينبغي ، وخلق فى الأرض معادن يحتاج اليها نوع الانسان ، ولو فقد واحدا منها لم يتم انتظامه ، ولم يترك معمورة لم يكن فى قربها هذه المعادن ، وجعل ما يكون الاحتياج اليه أشد وأكثر اعم وجوداً وأقرب مسافة ، كالملح ومثله .

ثم انظر الى (انواع النبات) بكثرتها واختلافها فى الاشكال والالوان والطعوم والروائح والخواص والمنافع ، فهذا يغذى ، وهذا يقوى ، وهذا يقتل ، وهذا يحيى ، وهذا يسخن ، وهذا يبرد ، وهذا يحفف ، وهذا يرطب ، وهذا يسهر ، وهذا ينوم ، وهذا يحزن ، وهذا يفرح . . . الى غير ذلك من المنافع المختلفة والفوائد المتباينة ، مع اشتراكها فى السقى من ماء واحد ، والخروج من أرض واحدة . (فان قلت) : اختلافها لا اختلاف بذورها ، (قلنا) : متى كانت فى النواة نخلة مطوقة بعناقيد الرطب ؟ ومتى كانت فى حبة واحدة سبع سنابل فى كل سنبل مائة حبة ؟ وانظر الى كل شجرة ونبت إذا أنزل عليها الماء كيف يهتز ويربو ويخضر وينمو بجميع اجزائه من الاصول والاغصان والاوراق والثمار على نسبة واحدة ، من غير زيادة لجزء على آخر ، لوصول الماء اليها على نسبة واحدة وقسمته عليها بالسوية ، فمن هذا

القاسم العدل فى فعل ما ليس له شعور ولا إدراك ؟ فتباً لأقوام يسندون هذه الحكم المتقنة الظاهرة والمصالح المحكمة الباهرة الى ما لا خبر له بوجوده وذاته ولا بافعاله وصفاته !

ثم انظر الى (أنواع الحيوانات) وأصنافها وكثرتها واختلافها : من الطيور والوحوش والسباع والبهائم ، كيف هدى الله كل واحد منها الى ترتيب المنزل وتحصيل القوت ، وجعل ما لا يتم معاش الانسان بدونه من الانعام والبهائم مأنوساً به غير متوحش عنه ، وغيره وحشياً عنه غير ألف به ، وجعل فى كل منها من عجائب الحكم وغرائب المصالح ما تتحير منه العقول ، فمن ذا الذى يقدر أن يحيط بعجائب خلق العنكبوت والنحلة - بل البقرة والغلة - وغرائب أفعالها مع كونها من صغار الحيوانات ، من وضع منازلها وجمع أقواتها وادخالها لنفسها وهدايتها الى حوائجها ؟ فأى مهندس يقدر على رسم بيوت النحل والعنكبوت على هذا التناسب الهندسى ؟ وانظر كيف جعل العنكبوت بيته شبكة ليصيد بها البق والذباب . وبالجملة : كل شخص من الحيوان أودع فيه من العجائب ما لا يمكن وصفه ، وكل أحد انما يدرك قدر ما يصل اليه فهمه .

ثم انتقل من عالم الارض الى (عالم البحر) وعجائبه من الحيوانات والجواهر والنفائس ، فان العجائب المودعة فيه أضعاف عجائب الارض ، كما أن سمته أضعاف سمته ، وكل حيوان يوجد فى الارض يوجد فيه ، وفيه حيوانات آخر ليس لها نظير فى البر أصلاً ، وقد يوجد فيه من الحيوانات ما عظمه بقدر جزيرة عظيمة ، وكثيراً ما ينزل الركبان عليه فيتحرك . ومن عجائبه خلق اللؤلؤ فى صدفه تحت الماء ، وإنبات المرجان من صم الصخور تحته ، مع كونه على هيئة شجرة ثابتة نامية ... وقس عليه الغير وسائر النفائس التى يقذفها البحر وتستخرج منه . وبالجملة : عجائب البحر أضعاف عجائب البر ، وقد صنف جماعة فيها

مجلدات من الكتب ، ومع ذلك لم يأتوا إلا باليسير ، ولم يذكروا إلا قليلاً من كثير .

ثم انتقل الى (عالم الجو) وعجائبه . من السحب والغيوم والأمطار والثلوج والشهب والبروق والصواعق والرياح ، فانظر الى السحاب الخفيف مع رغاوته كيف يحمل الماء الثقيل ويسكن في جو صاف لا يتحرك . إلا أن يأذن الله سبحانه في إرساله الماء ، وتقطع القطرات كل قطرة بالقدر الذي شاء وأراد ، فينزل قطرات متفصلة لا تدرك قطرة منها أخرى ، ولا يتقدم المتأخر ولا يتأخر المتقدم ، حتى يصبب الأرض قطرة قطرة ، وعين كل قطرة جزء من الأرض أو قوتاً لحيوان معين ، ولو كنت - يا حبيبي - ذا قلب لشاهدت في كل قطرة خطأ إلهياً مكتوباً بقلم إلهي : إنه يصبب الجزء الفلاني من الأرض ، أو رزق للحيوان الفلاني في الموضع الفلاني .

ثم ارفع رأسك إلى هذا (السيقف الأخضر) قائلاً : سبحانك ! ما خلقت هذا باطلاً . وانظر الى هذه الاجرام النورية وعجائبها ، واصرف برهة من وقتك في الفحص عن حقائق غرائبها : من الشمس واضاءتها عالم الأكوان ، والقمر واختلاف تشكيلاته في الزيادة والنقصان ، وسائر الانجم الدائرة ، والكواكب الثابتة والسائرة ، واختلاف صورها وأشكالها ومقاديرها وأوضاعها ، وتفاوت مشارقها ومغاربها ، وتباين منازلها ومواضعها ، واجتماعها واتصالها ، وتفرقها وانفصالها ، وطلوعها وافولها ، وكسوفها وخسوفها ، وانتظام حركاتها واتساق دورانها ، وحسن وضعها وترتيبها وعجيب نضدها وترصيعها ، بحيث حصل من كيفية نضدها ووضعها صور جميع الحيوانات : من العقرب والحمل والثور والجدى والانسان والحوت والسرطان ، بل صور

غير الحيوان : من السنبلة والميزان والقوس والدلو وغير ذلك ، حتى ما من صورة فى الأرض إلا ولها تمثال فى السماء ، أیظن عاقل أن وضع هذه السكواكب على هذه الصورة واختلاف بعضها فى اللون : كسكودة زحل ، وحمرة المريخ ، وقلب العقرب ، وصفرة عطارد ، ورصاصية الزهرة والمشتري ، بمجرد الاتفاق ، وليس لخالقها فى ذلك حكمة ومصلحة ؟ فما أشد جهلا وحمقا من توهم ذلك !

ثم انظر الى حركة (الشمس) يسير فلسكها وإتمامها الدور بهذا السير فى سنة ، وبه تقرب من وسط السماء وتبعد عنه ، وبسير آخر تطلع وتغرب فى كل يوم ، وتتم الدور بيوم وليلة ، فلو لا سيرها الأول الموجب لغاية قربها الى وسط السماء مدة ، وغاية بعدها عنه تارة ، وتوسطها بين الغائتين مرتين ، لم تحصل الفصول الاربعة الموجبة لنشو النباتات والثمار ونضجها وبلوغها الى غاياتها المطلوبة ، ولولا سيرها الثانى لم يختلف الليل والنهار ، فلم يتميز وقت المعاش عن وقت الاستراحة ، ولم تعرف المواقيت من الشهور والأعوام والساعات والأيام . وتأمل فى أنه لو لم تكن السماوات مستديرة وحركاتها دورية ، لم يتم شىء من الفوائد والحكم المطلوبة من الحركة والزمان وما ارتبط بها من امور العالم السفلى .

ثم انظر الى عظم اقدار هذه الأجرام السماوية ، حتى لا قدر لجميع العوالم السفلية من الأرض والبحار وعالم الجو بالنسبة اليها ، فلا يمكن ان يقال جميع ذلك بالنسبة اليها ، بل بالنسبة الى فلك الشمس فقط - مثلاً - كنسبة قطرة الى البحر المحيط ، وقد قال المهندسون : إن جرم كوكب الشمس فقط مائة ونيف وستون ضعف الأرض بجميعها ، بل قال بعضهم أكثر من ذلك ، ومع ذلك يذنوا ان ثخن فلك المريخ ثلاثة أمثال غاظ فلك الشمس ، مع ما فيه من أفلاك

الزهرة وعطارد والقمر والعناصر الأربعة ، ثم أصغر كوكب تراه في السماء هو مثل جميع الأرض ثمانى مرات ، وأكبرها ينتهى الى قريب من مائة وعشرين مثلاً للأرض .

ثم انظر مع هذا العظم الى سرعة حركتها وخفتها ، فإن شدة سرعة حركتها مما لا يمكن دركها ، إلا انك لا تشك في أن كل جزء من الفلك في لحظة يسيرة يسير مقدار عرض كوكب ، والزمان من طلوع أول جزء من كوكب الى تمامه في غاية القلة . وقد علمت أن هذا الكوكب إما مثل الأرض مائة ونيف وستين مرة أو أكثر أو مائة وعشرين مرة أو مائة مرة ، والأقل قدراً أن يكون مثلها ثمانى مرات ، فقد دار كل جزء من الفلك في هذه اللحظة مثل الأرض مائة وسبعين مرة أو مائة وعشرين مرة . وقد عبر روح الأمين عليه السلام عن سرعة حركة الفلك ، إذ قال سيد الرسل - صلى الله عليه وآله وسلم - : « هل زالت الشمس ؟ » قال : لا . نعم ! فقال له : « كيف تقول لا . نعم ! » فقال : من حيث قلت : لا ، الى أن قلت نعم ، سارت الشمس مسيرة خمسمائة عام .

فتيقظ - يا أخى - من نوم الطبيعة ، وتأمل من الذى حرك هذه الأجسام الثقيلة العظيمة بهذه الحركة السريعة الخفيفة ، وأدخل صورتها مع اتساع أكنافها في حدقة العين بصفرها ، وتفكر من ذا الذى سخرها وأدار رحاها ، فقل : (بسم الله مجريها ومرسيها) ، ولو نظرت اليها بعين البصيرة ، لعلمت انها عباد طائعون خاضعون ، وعشاق إلهيون والهون ، وبأشارة من ربهم الى يوم القيامة رقاصون دائرون .

وبالجملة : لو نظرت بعين العبرة في ذرات الوجود لا تجد ذرة من ملكوت السماوات والأرض إلا وفيها غرائب حكمة يكمل البيان عن وصفها ،

ولو كان لك قلب وألقيت السمع وأنت شهيد ، لعلمت أن جميع ذرات الكائنات شواهد ظاهرة وآيات متظافرة على عظمة ربك الأعلى ، وما من ذرة إلا وهي بلسان حالها ناطقة وعن جلالة بارئها مفسحة ، قائلة لأصحاب الشهود بحركاتها وسكناتها ، ومنادية لأرباب القلوب بنغماتها : أو ما تنظرون الى خلقى وتكوينى وتصويرى وتركيبى واختلاف صفاتى وحالاتى وتحولى فى اطوارى وتقلبائى ؟ أو لا تشاهدون كثرة فوائدى ومنافعى وغرائب حكمى ومصالحى ؟ أنظنون أنى تكونت بنفسى أو خلقتنى أحد من جنسى ؟ أو تستحيون تنظرون فى كلبة مرقومة من ثلاثة أحرف ، فنجزمون أنها صنعة آدمى يريد عالم ومتكلم قادر ، ثم تنظرون الى عجائب الخطوط الإلهية المرقومة على صفحات وجهى والعجائب الربانية المودعة فى باطنى وظاهرى ، ومع ذلك عن عظمة ربى غافلون وعن علمه وحكمته ذاهلون !؟

(تتميم)

قد دريت اجمالاً أن التفكير النافع محصور بين التفكير فى صفات الله وعجائب أفعاله ، والتفكير فى ما يقرب العبد الى الله ليفعله وفيما يبعده عنه ليتركه . وغير ذلك من الأفكار ليس نافعا ولا متعلقا بالدين . مثال ذلك : أن حال السائر الى الله الطالب للقائه ، كحال العاشق المستمتر ، فكما أن تفكره لا يتجاوز عن التفكير فى معشوقه وجماله وفى صفاته وأفعاله وفى افعال نفسه التى تقربه منه وتجيبه اليه ليتصف بها ، أو التى تبعده عنه وتسقطه عن عينه ليتنزه عنها . ولو تفكر فى غير ذلك كان ناقص العشق ، كذلك الحب الخالص لله ينبغى ان يحصر فكره فى الله وفى صفاته وأفعاله وفيما يقربه منه ويحببه اليه أو يبعده عنه ، ولو تفكر فى غير ذلك كان كاذبا فيما يدعيه من الشوق والحب

ثم التفكير في ذات الله ، بل في بعض صفاته مما لا يجوز ، وقد منعت الشريعة الحق الإلهية والحكمة المتعالية الحقيقية ، لأن ذاته أجل من أن تكون مرقى لأقدام الأفهام ، أو مرمى لسهام الأوهام ، فطرح النظر إليه يورث اختلاط الذهن والحيرة ، وجولان الفكر فيه يوجب اضطراب العقل والدهشة ، وبعض الصديقين المتجربين عن جلباب البدن لو اطاقوا إليه مد البصر فأنما هو كإبرق الخاطف ، ولو تجاوزوا عن ذلك لاحترقوا من سبحات وجهه . وحال الصديقين في ذلك كحال الإنسان في النظر إلى الشمس ، فإنه وإن قدر على مد البصر إليها ، إلا أن أدامته يورث الضعف والعمش ، بل لا مشابة بين الحالين ، وإنما هو مجرد تقريب وتفهم ، فإن المناسبة بين نور الشمس ونور البصر في الجملة ثابتة ، وأين مثل هذه المناسبة بين نور البصر ونور الأنوار القاهر على كل نور بالاحاطة والغلبة ، وما من نور إلا وهو منبجس من نوره ومترشح عن ظهوره ، فشكل نور في مرتبة نوره زائل ، وكل ظهور في جنب ظهوره وشروقه مضمحل باطل .

ولما كان التفكير في ذاته تعالى مذموماً ، فأنحصر التفكير الممدوح في التفكير في عجائب صنعه وبدائع خلقه - وقد تقدم - وفي ما يقرب العبد إلى الله من الفضائل الخلقية والطاعات العزوية ، وما يبعده عنه من المملكات الباطنة والمعاصي الظاهرة . وهذه المملكات والأفعال هي المعبر عنها بالمنجيات والمهلكات والطاعات والسيئات التي تذكر في هذا الكتاب وفي غيره من كتب الأخلاق ، والمراد بالتفكير فيها ههنا أن يتفكر العبد في كل يوم وليلة في وقت واحد أو أوقات متعددة في أخلاقه الباطنة وأعماله الظاهرة ، ويتفحص عن حال قلبه وأعضائه ، فإن وجد قلبه مستقيماً على جادة العدالة متصفاً بجميع الفضائل الخلقية ومجتنباً عن الرذائل الباطنة ، ووجد أعضائه

ملازمة للطاعات والعبادات المتعلقة بها تاركة للمعاصي المنسوبة اليها ، فليشكر الله على عظيم توفيقه ، وإن وجد في قلبه شيئاً من الرذائل أو رآه خالياً عن بعض الفضائل ، فليبادر الى العلاج بالقوانين المقررة ، بعد التفكير في سوء خاتمته وادائه الى مقت الله وهلاكه ، وكذلك إن عثر بالتفكير على صدور موصية أو ترك طاعة منه فليتداركه بالندم والتوبة وقضاء تلك الطاعة .

ولا ريب في أن هذا القسم من التفكير له مجال متسع والقدر الضروري منه يستغرق اليوم بليلته ، والاستقصاء فيه خارج عن حیطة شهر وسنة ، إذ اللازم منه أن يتفكر في كل يوم وليلة في كل واحد من الملسكات المهلكة : من البخل ، والكبر ، والعجب ، والرياء ، والحقد ، والحسد ، والجبن ، وشدة الغضب ، والحرص ، والطمع وشره الطعام والوقاع ، وحب المال ، وحب الجاه ، والنفاق ، وسوء الظن ، والغفلة ، والغرور ... وغير ذلك . وينظر بنور الفكرة والبصيرة في زوايا قلبه ، ويتفقد منها هذه الصفات ، فإن وجدها بظنه خالية عنها ، فليتفكر في كيفية امتحان القلب والاستشهاد بالعلامات الدالة على البراءة اليقينية ، فإن النفس قد تلبس الأمر على صاحبها : فإن ادعت البراءة من الكبر ، فينبغي أن يمتحن بحمل قربة ماء أو حزمة حطب في السوق ، فإن ادعت البراءة من الغضب فليجرب بايقاعها في معرض اهانة السفهاء ، وهكذا فليمتحن في غيرهما من الصفات بالامتحانات التي كان الأولون والسلف الصالحون يجربون بها انفسهم ، حتى يطمئن بانقطاع اصولها وفروعها من قلبه . ولو وجد بالامتحان أو تصریح المشاهدة والعيان شيئاً منها في قلبه ، فليتفكر في كيفية الخلاص من المعالجة بالضد أو بالموعظة والنصيحة والتوبيخ والملازمة ، أو ملازمة أولى الأخلاق الفاضلة ومجالسة اصحاب الورع والتقوى ، أو بالرياضة والمجاهدة وغير ذلك . فإن نفع شيء منها في الازالة بالسهولة

فليحمد الله على ذلك ، وإلا فليواظب على هذه المعالجات وتكررها حتى يوفقه الله للخلاص بمقتضى وعده .

ثم يتفكر في كل واحد من الفضائل المنجية : كاليقين ، والتوكل ، والصبر على البلاء ، والرضا بالقضاء ، والشكر على النعماء ، واعتدال الخوف والرجاء ، والشجاعة والسخاء ، والزهد والورع ، والاخلاص في العمل ، وستر العيوب . والندم على الذنوب ، وحسن الخلق مع الخلق ، وحب الله والخشوع له ... وغير ذلك ، فان وجد قلبه متصفاً بالجميع فليجرب به بالعاملات حتى يطمئن من تلبيس النفس - كما علمت طريقه - وإن وجد قلبه خالياً من شيء منها فليتفكر في طريق تحصيله - كما أشير اليه - . ثم يتوجه الى كل واحد من أعضائه ويتفكر في المعاصي المتعلقة به ، مثل أن ينظر في لسانه ، ويتفكر في أنه هل صدر منه شيء من الغيبة ، أو الكذب ، أو الفحش ، أو فضول الكلام ، أو النخبة ، أو الثناء على النفس ، أو غير ذلك . ثم ينظر في سمعه ، ويتفكر في أنه هل سمع شيئاً من ذلك . ثم ينظر في بطنه هل عصي الله بأكل حرام أو شبهة ، أو كثرة مانعة عن صفاء النفس وغير ذلك ... وهكذا يفعل في كل عضو عضو .

ثم يتفكر في الطاعات المتعلقة بكل واحد منها وفيما خلق هذا العضو لأجله من الفرائض والنوافل ، فإن وجد - بعد التفكير - عدم صدور شيء من المعاصي عن شيء منها ، وإتيانها بالطاعات المفروضة عليها بامرها وبالنوافل المرغبة اليها بقدر اليسر والاستطاعة ، فليحمد الله على ذلك ، وإن عثر على صدور شيء من المعاصي أو ترك شيء من الفرائض ، فليتفكر أولاً في الأسباب الباعثة على ذلك ، من الاشتغال بفضول الدنيا أو مصاحبة أقران السوء أو غير ذلك ، فليبادر الى قطع السبب ، ثم التدارك بالتوبة والندم ،

لثلا يكون غده مثل يومه . وهذا القدر من التفكر في كل يوم وليلة لازم لسكل دين معتقد بالنشأة الآخرة ، وقد كان ذلك عادة وديناً لسلفنا المتقين في صبيحة كل يوم أو عشية كل ليلة ، بل كانت لهم جريدة يكتبون فيها رؤس المهمات والمنجيات ويعرضون في كل يوم وليلة صفاتهم عليها ، ومهما اطمأنوا بقطع رذيلة أو الاتصاف بفضيلة يخطون عليها في الجريدة ، ويدعون الفكر فيها ، ثم يقبلون على البراق ، وهكذا يفعلون حتى يخطوا على الجميع ، ومن كان أقل مرتبة منهم من الصالحاء ربما يثبتون في جريدتهم بعض المعاصي الظاهرة ، من اكل الحرام ، والشبهة ، واطلاق اللسان ، والكذب ، والغيبة والمراء ، والنميمة ، والمداهنة مع الخلق بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ... وغير ذلك ، ويفعلون بمثل ما مر .

وبالجملة : كان اخواننا السالفون وسلفنا الصالحون لا ينفكون عن هذا النوع من التفكير ، ويرونه من لوازم الايمان بالحساب ، فاف علينا حيث تركنا بهم التأسى والقذوة ، وخضنا في غمرات الغفلة ، واعمرى انهم لو رأونا لحكموا بكفرنا وعدم ايماننا بيوم الحساب ، كيف واعمالنا لا تشابه أعمال من يؤمن بالجنة والنار . فان من خاف شيئاً هرب منه ، ومن رجا شيئاً طلبه ، ونحن ندعى الخوف من النار ونعلم ان الهرب منها بترك المعاصي ومع ذلك منهمكون فيها ، وندعى الشوق الى الجنة ونعلم أن الوصول اليها بكثرة الطاعات ومع ذلك مقصرون في فعلها .

ثم هذا النوع من التفكير إنما هو تفكر العلماء والصالحين ، وأما تفكر الصديقين فاجل من ذلك ، لأنهم مستغرقون في لجة الحب والانس ، منقطعون بشرائهم الى جناب القدس ، ففكرهم مقصور على جلال الله وجماله وقلبهم مستهتر به ، بحيث فنى عن نفسه ونسى صفاته وأحواله ، فخالهم أبداً كحال

العشاق المستهترين عند لقاء المعشوق ، ولا تظن أن هذا التفكير - بل أدنى مراتب التلذذ بالتفكير في عظمة الله وجلاله - ممكن الحصول بدون الانفكاك عن جميع الرذائل المهلكة والاتصاف بجميع الفضائل المنجية ، فإن حال المتفكر في جلال الله وعظمته مع اتصافه بالاخلاق الرذيلة ، كحال العاشق الذى خلى بمحبوبه ، وكان تحت ثيابه حيات وعقارب تلدغه مرة بعد اخرى ، فتمنعه عن لذة المشاهدة والانس . ولا يتم ابتهاجه إلا باخراجها عن ثيابه . ولا ريب أن الملسكات الرذيلة كلها كالحيات والعقارب مؤذيات ومشوشات ، ومن كان له أدنى معرفة وتوجه الى مناجاة ربه وكان في نفسه شيء منها ، يجد أنه كيف يشوشه ويصده عن الابتهاج ، ثم إن لدغ هذه الصفات لا يظهر ظهوراً بيناً للمنهكمين في علائق الطبيعة ، وبعد مفارقة النفس عن البدن يشتد ألم لدغها بحيث يزيد على ألم لدغ الحيات والعقارب بمراتب شتى .

(نصيحة)

تيقظ - يا حبيبى - من نوم الغفلة ، وتفكر اليوم لغدك ، قبل أن تُنشبَ مخالب الموت في جسدك ، ولا تنفك قوتك العاقلة عن التفكير في صفاتك وأحوالك ، واعلم على سبيل القطع واليقين أن كل ما في نفسك من فضيلة أو رذيلة وكل ما يصدر عنك من طاعة أو معصية يكون بازائه جزاء عند رحلتك عن هذه الدار الفانية ، واسمع قول سيد الرسل - صلى الله عليه وآله وسلم - ولو كنت ذا قلب لكفأك ايظاً وتنبهياً ، حيث قال : « إن روح القدس نفث في روعى : أحب ما أحببت فإنك مفارقة ، وعش ما شئت فانك ميت ، واعمل ما شئت فانك مجزى به » . واعمرى أنك إن كنت مؤمناً بالمبدأ والمعاد لكفأك هذا الكلام واعظاً وحائلاً بينك وبين الالتفات الى الدنيا وأهلها . وبالجملة : ينبغى للمؤمن ألا يخلو في كل يوم وليلة عن التفكير

في صفاته وأفعاله ، وإذا صرف برهة من وقته في هذا التفكير وبرهة أخرى في التفكير في عجائب قدرة ربه ، وصار ذلك معتاداً له ، حصل لنفسه كمال قوتها العقلية والعملية ، وخلصت عن الوسوس الشيطانية والخواطر النفسانية ، وفقنا الله بعظيم فضله الوصول الى ما خلقنا لأجله .
(ومنها) - أى ومن رذائل القوة العاقلة - استنباط وجوده :

المكر والحيل

للوصول الى مقتضيات قوى الغضب والشهوة . وأعلم أن المكر ، والحيلة ، والخدعة ، والنكر ، والدهاء : ألفاظ مترادفة ، وهى فى اللغة قد تطلق على شدة الفطنة، وأرباب المعقول يطلقونها على استنباط بعض الامور من المآخذ الخفية البعيدة على ما تجاوز عن مقتضى استقامة القريحة ، ولذا جعلوها ضدّاً للذكاء وسرعة الفهم ، والعرف خصصها باستنباط هذه الامور إذا كانت موجبة لاصابة مكروه إلى الغير من حيث لا يعلم ، وربما فسر بذلك فى اللغة أيضاً ، وهذا المعنى هو المراد هنا .

ولتركبه من اصابة المكروه إلى الغير ومن التلبس عليه ، يكون ضده استنباط الامور المؤدية الى الخيرية ، والنصيحة لىكل مسلم ، واستواء العلانية للسريّة .

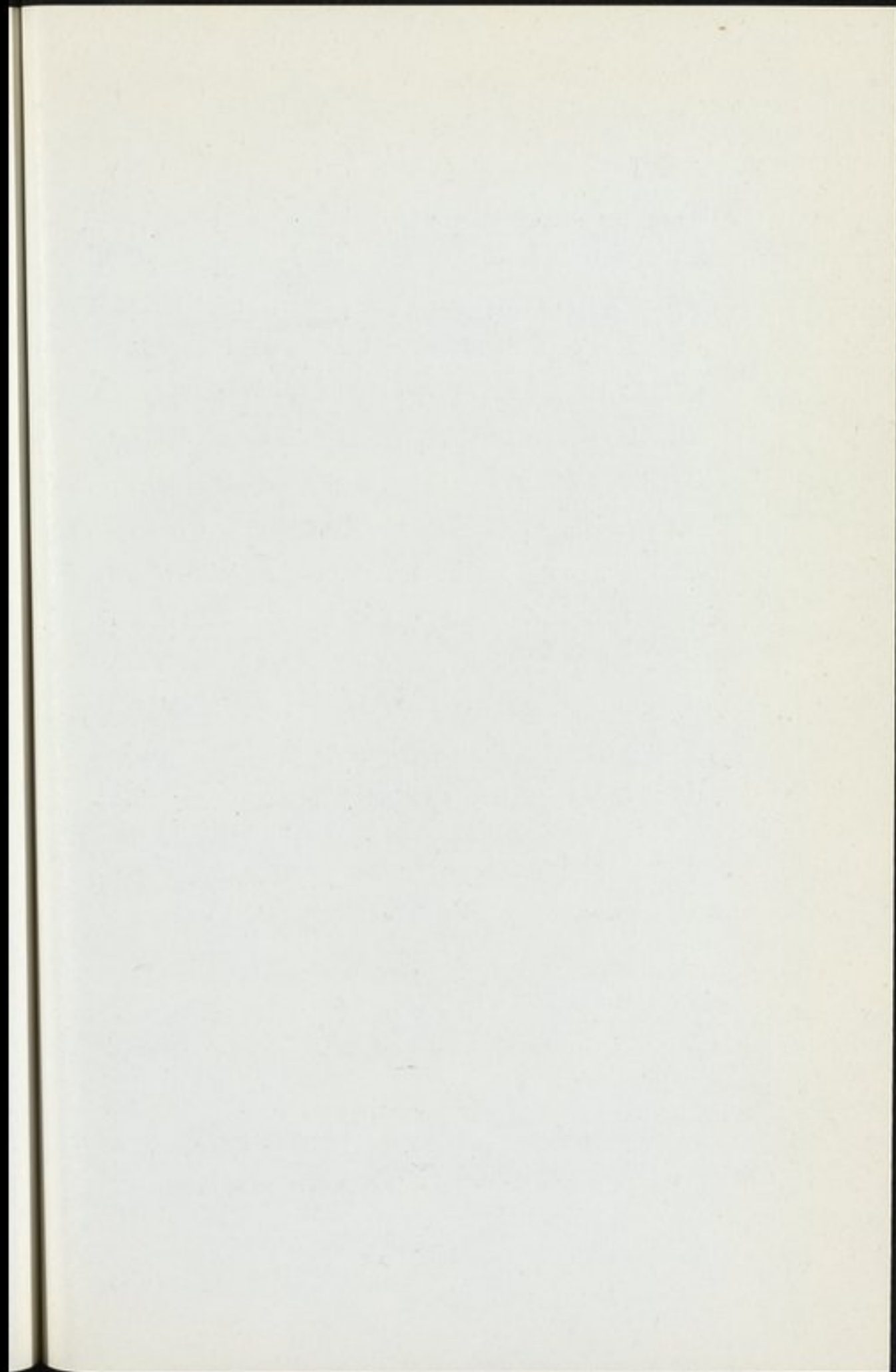
ثم فرق المكر ومرادفاته عن التلبس والغش والغدر وامثالها، إما باعتبار خفاء المقدمات وبعدها فيها دونها . أو بتخصيص الاولى بنفس استنباط الامور المذكورة والثانية بارتكابها، ولذا عدت الاولى من رذائل القوة الوهمية أو العاقلة للمعذر المذكور، والثانية من رذائل الشهوية، وربما كان استعمالها على الترادف، واطلق كل منهما على ما تطلق عليه الأخرى .

هذا وللمسكر مراتب شتى ودرجات لا تحصى من حيث الظهور والخفاء،
 فربما لم يكن فيه كثير دقة وخفاء فيشعر به من له أدنى شعور ، وربما كان
 في غاية الغموض والخفاء بحيث لم يتفطن به الأذكىاء . ومن حيث الموارد
 والمواضع كالباعث لظهور المحبة والصداقة واطمئنان عاقل ، ثم التهميم عليه
 بالايذاء والمكروه ، والباعث لظهور الأمانة والديانة وتسليم الناس أموالهم
 ونفائسهم اليه على سبيل الوديعة أو المشاركة أو المعاملة ، ثم أخذها وسرقها على
 نحو آخر من وجوه المسكر ، وكالباعث لظهور ورعه وعدالته واتخاذ الناس
 إياه إماماً أو أميراً فيفسد عليهم باطناً دينهم ودنياهم . وقس على ذلك غيره
 من الموارد والمواضع .

ثم المسكر من المهلكات العظيمة ، لأنه أظهر صفات الشيطان والمتصف
 به أعظم جنوده ، ومعصيته أشد من معصية إصابة المسكروه الى الغير في
 العلانية ، إذ المطلع بارادة الغير ايذاءه يحتاط ويحافظ نفسه عنه ، وربما دفع
 أذيته ، وأما الغافل فليس في مقام الاحتياط ، لظنه أن هذا المسكر المحيل
 محب وناصح له ، فيصل اليه ضرره وكسيده في لباس الصداقة والمحبة . فمن
 أحضر طعاماً مسموماً عند الغير يريد إهلاكه فهو أخبث نفساً وأشد معصية
 ممن شهر سيفه علانية يريد أ قتله ، إذ الثاني أظهر ما في بطنه وأعلم هذا الغير
 بارادته ، فيجزم بأنه عدو محارب له فيتعرض لصرف شره ومنع ضرره ، وربما
 تمكن من دفعه ، وأما الأول فظاهره في مقام الاحسان وباطنه في مقام
 الايذاء والعدوان ، والغافل المسكين لا خبر له عن خبائث باطنه ، فيقطع بأنه
 يحسن اليه ، فلا يكون معه في مقام الدفع والاحتياط ، بل في مقام المحبة
 والوداد ، فيقتله وهو يعلم أنه يحسن اليه ، ويهلكه وهو في مقام الخجل منه .
 وبالجملة : هذه الرذيلة اخبث الرذائل واشدها معصية ، ولذلك قال

رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « ليس منا من ماكر مسلماً ، وقال أمير المؤمنين عليه السلام : « لو لا أن المكر والخديعة في النار لكانت أمكر الناس » ، وكان عليه السلام كثيراً ما يتنفس الصعداء ويقول : « واويلاه يمكرون بي ويعلمون أني بمكرهم عالم وأعرف منهم بوجوه المكر ، ولكنني أعلم أن المكر والخديعة في النار فأصبر على مكرهم ولا ارتكب مثل ما ارتكبوا » .

وطريق علاجه - بعد اليقظة - أن يتأمل في سوء خاتمته ووخامة عاقبته ، وفي تآديته الى النار وبجاورة الشياطين والاشرار ، ويتذكر أن وبال كل مكر وحيلة يرجع في الدنيا الى صاحبه ، كما نطق به الآيات والأخبار وشهدت به التجربة والاعتبار . ثم يتذكر فوائد ضد المكر ومحامده ، اعني استنباط ما يوجب النصيحة والخيرية للمسلمين وموافقة ظاهره لباطنه في افعاله واقواله - كما يأتي في محله - وبعد ذلك لو كان عاقلاً مشفقاً على نفسه لا جتنب عنه كل الاجتناب ، وينبغي أن يقدم التروى في كل فعل يصدر عنه لئلا يكون له فيه مكر وحيلة ، وإذا عثر على فعل يتضمنه فليتركه معاتباً لنفسه ، وإذا تكرر منه ذلك تزول عن نفسه اصول المكر وفروعه بالسكينة بعون الله وتوفيقه .



المقام الثاني

(فيما يتعلق بالقوة الغضبية من الرذائل والفضائل وكيفية العلاج)

التهور والجبن والشجاعة - الخوف - الخوف المذموم وأقسامه -
الخوف المحمود وأقسامه ودرجاته - بهم يتحقق الخوف - الخوف من الله
أفضل الفضائل - الخوف اذا جاوز حده كان مذموماً - طرق تحصيل الخوف
الممدوح - خوف سوء الخاتمة وأسبابه - الفرق بين الاطمئنان والامن من مكر
الله - التلازم بين الخوف والرجاء - مواقع الخوف والرجاء وترجيح أحدهما
على الآخر - العمل على الرجاء اعلى منه على الخوف - مداواة الناس بالخوف
والرجاء على اختلاف امراضهم - صغر النفس وكبرها وصلابتها - الثبات -
دناءة الهمة وعلوها - الغيرة والحمية وعدمهما - الغيرة على الدين والحريم
والاولاد - العجلة - الاناة والتوقف والوقار والسكينة - سوء الظن - حسن
الظن - الغضب - الافراط والتفريط والاعتدال في قوته - ذم الغضب -
امكان ازالة الغضب وطرق علاجه - فضيلة الحلم وكظم الغيظ - الانتقام
والعفو - العنف والرفق - فضيلة الرفق - المداراة - سوء الخلق بالمعنى الاخص -
طرق اكتساب حسن الخلق - الحقد - العداوة الظاهرة - الضرب والفحش
واللعن والظعن - العجب - ذمه - آفاته - علاجه اجمالاً وتفصيلاً - انكسار
النفس - التكبر - ذمه - التكبر على الله والناس - درجات التكبر - علاجه
علماً وعملاً - التواضع - الذلة - الافتخار - البغى - تزكية النفس - العصبية -
كتمان الحق - الانصاف والاستقامة على الحق - القساوة .

فنقول : أما جنسا رذائلها (١) فأحدهما :

التهور

كما علم، وهو من طرف الافراط : أى الاقدام على ما لا ينبغي والخوض في ما يمنعه العقل والشرع من المهالك والمخاوف . ولا ريب في انه من المهلكات في الدنيا والآخرة . ويدل على ذمه كل ماورد في وجوب محافظة النفس وفي المنع عن إلقائها في المهالك ، كقوله تعالى :

« وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ » (٢)

وغير ذلك من الآيات والأخبار . والحق أن من لا يحافظ نفسه عما يحكم العقل بلزوم المحافظة عنه فهو غير خال عن شائبة من الجنون ، وكيف يستحق اسم العقل من ألقى نفسه من الجبال الشاهقة ولم يبال بالسيوف الشاهرة ، أو وقع (٣) في الشطوط الغامرة الجارية ولم يحذر من السباع الضارية . كيف ومن ألقى نفسه فيما يظن به العطب ، فهلك ، كان قاتل نفسه بحكم الشريعة ، وهو يوجب الهلاكة الابدية والشقاوة السرمدية .

وعلاجه - بعد تذكر مفاسده في الدنيا والآخرة - أن يقدم التروى في كل فعل يريد الخوض فيه ، فإن جوزه العقل والشرع ولم يحكما بالحذر عنه ارتكبه ، وإلا تركه ولم يقدم عليه . وربما احتاج في معالجته أن يلزم نفسه الحذر والاجتناب عن بعض ما يحكم العقل بعدم الحذر عنه ، حتى يقع في طرف التفريط ، وإذا علم من نفسه زوال التهور تركه وأخذ بالوسط الذي هو الشجاعة .

(١) أي القوة النفسية .

(٢) البقرة ، الآية : ١٩٥ .

(٣) كسذا في النسخين ، ولعل الصحيح (أو أوقع نفسه) .

الجبن

وهو سكون النفس عن الحركة الى الانتقام أو غيره ، مع كونها أولى . والغضب إفراط في تلك الحركة ، فله ضدية للغضب باعتبار ، وللتهور باعتبار آخر . وعلى الاعتبارين هو في طرف التفريط من المهلكات العظيمة ، ويلزمه من الأعراض الذميمة : مهانة النفس ، والذلة ، وسوء العيش ، وطمع الناس فيها يملكه ، وقلة ثباته في الأمور ، والكسل ، وحب الراحة ، وهو يوجب الحرمان عن السعادات بأسرها وتمكين الظالمين من الظلم عليه ، وتحمله للفوضى في نفسه وأهله ، واستماع القبايح من الشتم والقذف ، وعدم مبالاة بما يوجب الفضيحة والعار ، وتعطيل مقاصده ومهاتته ، ولذلك ورد في ذمه من الشريعة ما ورد قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « لا ينبغي للمؤمن أن يكون بخيلاً ولا جباناً » ، وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « اللهم إني أعوذ بك من البخل ، وأعوذ بك من الجبن ، وأعوذ بك أن أردد إلى أرذل العمر » .

وعلاجه - بعد تنبيه نفسه على نقصانها وهلاكها - أن يحرّك الدواعي الغضبية فيما يحصل به الجبن ، فإن القوة الغضبية موجودة في كل أحد ، ولكنها تضعف وتنقص في بعض الناس فيحدث فيهم الجبن ، وإذا حرّكت وهيجت على التواتر تقوى وتزيد ، كما أن النار الضعيفة تتوقد وتلتهب بالتجريك المتواتر . وقد نقل عن الحكماء أنهم يلقون أنفسهم في المخاطر الشديدة والمخاوف العظيمة دفعاً لهذه الرذيلة . وما ينفع من المعالجات أن يكلف نفسه على المخاصمة مع من يأمن غوائله ، تحريكاً لقوة الغضب ، وإذا وجد من نفسه حصول ملكة الشجاعة فليحافظ نفسه لئلا يتجاوز ويقع في طرف الإفراط .

وصل

(الشجاعة)

قد عرفت أن ضدَّ هذين الجنسَيْن هو (الشجاعة) ، فتذكر مدحها وشرافتها ، وكلف نفسك المواظبة على آثارها ولوازمها ، حتى يصير ما تكلفته طبعاً وملسك ، فترتفع عنك آثار الضدين بالسلبية . وقد عرفت أن الشجاعة طاعة قوة الغضب للعاقلة في الاقدام على الأمور الهائلة وعدم اضطرابها بالخوض في ما يقتضيه رأيها . ولا ريب في أنها اشرف المملكات النفسية وأفضل الصفات الكمالية ، والفاقد لها برىء عن الفجلية والرجولية ، وهو بالحقيقة من النسوان دون الرجال ، وقد وصف الله خيار الصحابة بها في قوله :

« أَشَدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ » (١)

وأمر الله نبيه بها بقوله :

« وَاعْلَظْ عَلَيْهِمْ » (٢)

إذ الشدة والغلظة من لوازمها وآثارها ، والأخبار مصرحة باتصاف المؤمن بها . قال أمير المؤمنين عليه السلام في وصف المؤمن : « نفسه أصلب من الصلد » . وقال الصادق عليه السلام : « المؤمن أصلب من الجبل إذ الجبل يستفل (٣) منه والمؤمن لا يستفل من دينه » .

◊ ◊ ◊

(١) الفتح ، الآية : ٢٩ .

(٢) التوبة ، الآية : ٧٣ .

(٣) استفل الشيء : أخذ منه أدنى جزء كعشره .

وأما الانواع ولوازمها المتعلقة بالقوة الغضبية فمنها :

الخوف

وهو تألم القلب واحترافه بسبب توقع مكروه في الاستقبال مشكوك الوقوع ، فلو علم أو ظن حصوله سمي توقعه انتظار مكروه ، وكان تألمه أشد من الخوف ، وكلامنا في كليهما . وفرقه عن الجبن على ما قررناه من حدّهما ظاهر ، فإن الجبن هو سكون النفس عما يستحسن شرعاً وعقلاً من الحركة الى الانتقام أو شيء آخر ، وهذا السكون قد يتحقق من غير حدوث التألم الذى هو الخوف ، مثلاً من لا يجترئ على الدخول فى السفينة أو النوم فى البيت وحده أو التعرض لدفع من يظلمه ويتعرض له يمكن اتصافه بالسكون المذكور مع عدم تألم له بالفعل ، فثله جبان وليس بخائف . ومن كان له ملكة الحركة الى الانتقام وغيره من الأفعال التى يجوزها الشرع والعقل ربما حصل له التألم المذكور من توقع حدوث بعض المكروه ، كما إذا أمر السلطان بقتله ، فثله خائف وليس بجبان .

ثم الخوف على نوعين : (أحدهما) مذموم بجميع أقسامه ، وهو الذى لم يكن من الله ولا من صفاته المقتضية للهبة والرعب ، ولا من معاصى العبد وجنایاته ، بل يكون لغير ذلك من الأمور التى يأتى تفصيلها . وهذا النوع من رذائل قوة الغضب من طرف التفريط ، ومن نتائج الجبن . و (ثانيهما) محمود وهو الذى يكون من الله ومن عظمتته ومن خطأ العبد وجنایته ، وهو من فضائل القوة الغضبية ، إذ العاقلة تأمر به وتحسنه . فهو حاصل من انقيادها لها . ولنفصل القول فى أقسام النوعين ، وبيان العلاج فى إزالة أقسام الأول وتحصيل الثانى :

فصل

(الخوف المذموم وأقسامه)

للتنوع الأول أقسام يقبحها العقل بأسرها ولا يجوزها ، فلا ينبغي للعاقل أن يتطرقها الى نفسه . بيان ذلك : ان باعث هذا الخوف يتصور على أقسام : (الأول) أن يكون أمراً ضرورياً لازم الوقوع ، ولم يكن دفعه في مقدرة البشر . ولا ريب في أن الخوف من مثله خطأ محض ، ولا يترتب عليه فائدة سوى تعجيل عقوبة بصدده عن تدبير مصالحه الدنيوية والدينية . والعاقل لا يتطرق على نفسه مثل ذلك ، بل يسلي نفسه ويرضيها بما هو كائن ادراكاً لراحة العاجل وسعادة الآجل .

(الثاني) أن يكون أمراً ممكناً لم يجزم بشيء من طرفيه ، ولم يكن لهذا الشخص مدخلة في وقوعه ولا وقوعه . ولا ريب في أن الجزم بوقوع مثله والتألم لأجله خلاف مقتضى العقل ، بل اللازم إبقاؤه على إمكانه من دون جزم بحصوله ، ف :

« لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا » (١)

وهذا القسم مع مشاركته للاول في استلزامه تعجيل العقوبة بلا سبب ، لعدم مدخليته لاختياره فيه ، يمتاز عنه بعدم الجزم بوقوعه ، فهو بعدم الخوف أولى منه .

(الثالث) أن يكون أمراً ممكناً فاعله هذا الشخص ، وهو ناشئ . عن سوء اختياره ، فعلاجه ألا يرتكبه ولا يقدم على فعل يخاف من سوء عاقبته ، فانه إما فعل غير قبيح من شأنه التأدي الى ما يضره ، ولا ريب في أن

ارتكاب مثله خلاف حكم العقل ، ولو ظهر التأدي بعد إيقاعه فيكون من الثاني ، أو فعل قبيح لو ظهر أوجب الفضيحة والمؤاخذه ، وإنما فعله ظناً منه أنه لا يظهر ، ثم يخاف من الظهور والمؤاخذه ، ولا ريب في أن هذا الظن ناشئ عن الجهل ، إذ كل فعل يصدر عن كل فاعل ولو خفية يمكن أن يظهر ، وإذا ظهر يمكن إيجابه للفضيحة والمؤاخذه . والعامل العالم بطبيعة الممكن لا يرتكب مثله ، فباعث الخوف في الثاني هو الحكم على الممكن بالوجوب ، وفي هذا الحكم عليه بالامتناع ، ولو حكم عليه بما يقتضى ذاته أمن من الخوفين . (الرابع) أن يكون مما تتوحش منه الطباع ، بلا داع عقلي ولا باعث نفس امرى ، كالليت والجرب وأمثالهما ، (لا) سيما في الليل مع وحدته . ولا ريب في أن هذا ناشئ عن قصور العقل ومقهوريته عن الواهمة ، فليحرك القوة الغضبية ويهيئها لتغلب به العاقلة على الوهم . وربما ينفع إلزام نفسه على الوحدة في الليالي المظلمة والصبر عليها ، حتى يزول عنه هذا الخوف على التدريج .

ثم لما كان خوف الموت أشد أقسام هذا النوع وأعمها ، فلنشر إلى علاجه بخصوصه ، فنقول : باعث خوف الموت يحتمل أموراً :

(الأول) تصور فناء ذاته بالسكلية وصيرورته عدماً محضاً بالموت . ولا ريب في كونه ناشئاً عن محض الجهل ، إذ الموت ليس إلا قطع علاقة النفس عن بدنه ، وهي باقية أبداً ، كما دلت عليه القواطع العقلية والشواهد الذوقية والظواهر السمعية ، ولعل ما تقدم يكفى لاثبات هذا المطلوب . ومع قطع النظر عن ذلك نقول : كيف يجوز لمن له أدنى بصيرة أن يجتمع عظماء نوع الانسان بحذاقيرهم ، كأهل الوحي والالهام وأساطين الحكمة والعرفان على محض الكذب وصرف الباطل ! فمن تأمل أدنى تأمل يتخلص من هذا الخوف .

(الثاني) تصور ايجابه ألماً جسمانياً عظيماً لا يتحمل مثله ولم يدرك في الحياة شبهه . وهذا ايضاً من الخيالات الفاسدة ، فان الألم فرع الحياة ، والألم الجسماني ما دامت الحياة لا يكون أشد مما رآه كل انسان في حياته من الأوجاع وقطع الاتصال ، وبعد زوال الحياة لا معنى لوجوده ، إذ كل جسماني إدراكه بواسطة الحياة ، وبعد انقطاعها لا إدراك ، فلا ألم .

(الثالث) تصور عروض نقصان لأجله . وهو أيضاً غفلة عن حقيقة الموت والانسان ، إذ من علم حقيقتهم يعلم أن الموت متمم الانسانية وآثارها ، والمائت جزء لحد الانسان . ولذا قال أوائل الحكماء : (الانسان حي ناطق مائت) . وحد الشيء يوجب كماله لا نقصانه ، فبالموت تحصل التمامية دون النقصان ، نشيده أي كه هر كه بمر د أو تمام شد ، (١) فالانسان الكامل يشترك الى الموت ، لاقتضائه تماميته وكماله ، وخروجه عن ظلمة الطبيعة وبجورة الأشرار الى عالم الأنوار ومرافقة الأخيار من العقول القادرة والنفوس الطاهرة ، وأي عاقل لا يرجح الحياة العقلية والابتهاجات الحقيقية على الحياة الموحشة الهولانية ، المشوبة بأنواع الآلام والمصائب واصناف الاسقام والنوائب !

فيا حبيبي ! تيقظ من نوم الغفلة وسكر الطبيعة ، واستمع النصيحة بمن هو أحوج منك الى النصيحة : حرك الشوق الكامن في جوهر ذاتك الى عالمك الحقيقي ومقرك الأصلي ، وانسلخ عن القشورات الهولانية ، وانفض عن روحك القدسي ما لزقه من السكدورات الجسمانية ، وطهر نفسك الزكية عن ادناس دار الغرور وارجاس عالم الزور ، واكسر قفصك الترابي الظلماني وطر

(١) هذه الجملة من الكلمات الحكيمية القصار ، ومعناها : (أما سمعت بأن كل من

مات صار انساناً كاملاً) .

بجناح همتك الى وكرك القدسي النوراني ، وارتفع عن حضيض الجهل والنقصان الى أوج العزة والعرفان ، وخلص نفسك عن مضيق سجن الناسوت وسيرها في فضاء قدس اللاهوت ، فما بالك نسيت عمود الحى ورضيت بمصاحبة من لا ثبات له ولا وفاء ١٩

زد سحر طائر قدسم زمر سدره صفير . كه در اين دامگه حادثه آرام مگير (٨)
(الرابع) صعوبة قطع علاقته من الأولاد والأموال والمناصب والاحباب . ومعلوم أن هذا ليس خوفاً من الموت في نفسه ، بل هو حزن على مفارقة بعض الزخارف الفانية . وعلاجه : أن يتذكر أن الأمور الفانية بما لا يليق بالعاقل ان يرتبط بها قلبه ، وكيف يحب العاقل خسائس عالم الطبيعة ويطمئن اليها ، مع علمه بأنه عن قريب يفارقها ، فاللازم أن يخرج حب الدنيا وأهلها عن قلبه ليتخلص من هذا الألم .

(الخامس) تصور سرور الأعداء وشماتتهم بموته . وهذا وسوسة شيطانية صادرة عن محض التوهم ، إذ مسرة الأعداء أو شماتتهم لا توجب ضرراً في إيمانه ودينه ، ولا ألماً في روحه وجسمه ، على أن ذلك لا يختص بالموت ، إذ العدو يشمت ويفرح بما يرد عليه في حال الحياة ايضاً من البلايا

(١) هذا البيت للشاعر الفارسي الفيلسوف الشهير (حافظ الشيرازي) ، وهو من أبيات المرفان . وأراد (بالسر) على سبيل الرمز وقت استكمال النفس وتنبهها ، و (بالعائر القدسي) ما يرمز اليه المرفاء للسمى عندهم ايضاً (البيضاني) ، وهو أحد المقول المجردة التي بصغيره يوقف الرافدين في مرافد الظلمات ، وبصوته ينبه الغافلين عن تذكر الآيات ، و (بالسدر) سدرة المنتهى المقصود منها منتهى قوس الصعود في سلسلة الممكنات . وحاصل معنى البيت المطابق : قد صفر الطائر القدسي المنسوب الى من على السدر في السر ، ويقول في صغيره : لا تستقر في المصيدة الخفيفة (وهي الدنيا وعوالم السفليات) ، والمراد أن ينهب عنها الى عالم المجردات النوراني حراً مطلقاً .

والحن ، فمن كره ذلك فليجتهد في قطع العداوة وإزالتها بالمعالجات المقررة للحقد والحسد .

(السادس) تصور تضييع الأولاد والعيال ، وهلاك الأعوان والانصار . وهذا أيضاً من الوسوس الباطلة الشيطانية والخواطر الفاسدة النفسانية ، إذ ذلك يوجب ظن منشئته لاستكمال الغير وعزته ، ومدخليته في قوته وثروته ، وذلك ناشئ من جهله بالله وبقضائه وقدره ، إذ فيضه الأقدس اقتضى إيصال كل ذرة من ذرات العالم الى ما يليق بها وإبلاغها الى ما خلقت لأجله ، وليس لاحد أن يغير ذلك أو يبدله . ولذا ترى أكثر الأفاضل يحتمدون في تربية أولادهم ولا ينجح سعيهم أصلاً ، وتشاهد غير واحد من الأغنياء يخلفون لأولادهم أموالاً كثيرة وتخرج عن أيديهم في مدة قليلة ، وترى كثيراً من أيتام الأطفال لا تربية لهم ولا مال ، ومع ذلك يبلغون بالتربية الأزلية مدارج الكمال ، أو يحصلون ما لا حصر له من الأموال . والغالب أن الأيتام الذين ذهب عنهم الآباء في حالة الصبي تكون تربياتهم في الآخرة والدنيا أكثر من الأولاد الذين نشؤا في حجر الآباء . والتجربة شاهدة بأن من اطمأن من أولاده بمال يخلفه لهم أو ذى قوة يفوض اليه أمورهم ، اعتراهم بعده الفقر والفاقة والذلة والمهانة ، وربما صار ذلك سبباً لهلاكهم وانقراضهم . ومن فوض أمورهم الى رب الأرباب وخالق العباد ازداد لهم بعده عزاً وقوة وكثرة وثروة . فاللائق بالعقلاء أن يفوضوا أمور الأولاد وغيرهم من الأقارب والانصار الى من خلقهم ورباهم ، ويوكلمهم الى موجدهم ومولاهم ، وهو نعم المولى ونعم الوكيل . وقد ظهر أن الخوف من الموت لأجل البواعث المذكورة لا وجه له .

ثم ينبغي للعاقل أن يتفكر في أن كل كائن فاسد ألبته ، كما تقرر في

الحكمة . وهو من الكائنات ، والفساد ضروري له . فمن أراد وجود بدنه أراد فساده اللازم له ، فتمنى دوام الحياة من الخيالات الممتنعة ، والعاقلة لا يحوم حولها ولا يتمنى مثلها . بل يعلم يقيناً أن ما يوجد في النظام الكلي هو الأصلح الأكمل وتغييره يناقض الحكمة والخيرية ، فيرضى بما هو واقع على نفسه وغيره من غير ألم وكدورة . ثم من يتمنى طول عمره فقصوده منه إن كان حب الذات الجسمية وامتداد زمانها ، فليعلم أن الشيب إذا أدركه ضعفت الأعضاء واختلت القوى وزالت عنه الصحة التي هي عمدة لذاته فضلاً عن غيرها ، فلا يلتذ بالأكل والجماع وسائر اللذات الحسية ، ولا يخلو لحظة عن مرض وألم ، وتراجع جميع أحواله ، فتبدل قوته بالضعف وعزه بالذل ، وكذا سائر أحواله ، كما أشير إليه في الكتاب الإلهي بقوله تعالى :

« وََمَنْ لَعَمْرُهُ تُنْكَسُهُ فِي الْخَلْقِ » (١)

ومع ذلك لا يخلو كل يوم من مفارقة حبيب أو شفيق ، ومهاجرة قريب أو رفيق . وربما ابتلى بأنواع المصيبات ، ويهجم عليه الفقر والفاقة والنكبات ، وطالب العمر في الحقيقة طالب هذه الزحمت . وإن كان مقصوده منه اكتساب الفضائل العلمية والعملية ، فلا ريب في أن تحصيل الكمالات بعد أوان الشيخوخة في غاية الصعوبة ، فمن لم يحصل الفضائل الخلقية إلى أن أدركه الشيب ، واستحكمت فيه الملل من المهلكات من الجهل وغيره ، فاني يمكنه بعد ذلك إزالتها وتبديلها بمقابلاتها ، إذ رفع ما رسخ في النفس مع الشيخوخة التي لا يقتدر معها على الرياضات والمجاهدات غير ممكن . ولذا ورد في الآثار : « أن الرجل إذا بلغ أربعين سنة ولم يرجع إلى الخير ، جاء الشيطان ومسح على وجهه وقال : بأبي وجهه من لا يفلح أبداً . » على أن

الطالب للسعادة ينبغي أن يكون مقصور الهم في كل حال على تحصيلها ، ومن جعلتها دفع طول الأمل والرضا بما قدر له من طول العمر وقصره ، ويكون سعيه أبداً في تحصيل الكمالات بقدر الامكان والتخلص عن مزاحمة الزمان والمكان ، وقطع علاقته من الدنيا وزخارفها الفانية والميل الى الحياة والذات الباقية ، والاهتمام في كسب الابتهاجات العقلية والاتصال التام بالحضرة الإلهية ، حتى يتخلص عن سجن الطبيعة ويرتقي الى اوج عالم الحقيقة ، فيتفق له الموت الارادى الموجب للحياة الطبيعية . كما قال (معلم الأشرار) : « مت بالارادة تحي بالطبيعة » . فينقل الى مقعد صدق هو مستقر الصديقين ، ويصل الى جوار رب العالمين ، وحينئذ يشاقق الموت ولا يبالي بتقدمه وتأخيره ، ولا يركن الى ظلمات البرزخ الذي هو منزل الأشقياء والفجار ومسكن الشياطين والأشرار ، ولا يتمنى الحياة الفانية أصلاً ، وينطق بلسان الحال :

خرم آن روز كزين منزل ويران بروم

راحت جان ظلم وزپی جانان بروم

بهوای لب او ذرته صفت رقص کنان

تا لب چشمة خورشید درخشان بروم (١)

(السابع) تصور العذاب الجسماني والروحاني المترتب على ذمائم

الأعمال وقبائح الأفعال . ولا ريب في أن الخوف من ذلك ممدوح ، وهو

(١) البيتان للشاعر الفيلسوف (حافظ الشيرازي) . ومعنى الاول : « إن سروري

يكون في يوم الرحيل من هذه الدار الحربية طلباً لراحة نفسي وإفاء الحبيب » . ويقصد بحبيبه : الحق الأول ، وراحة نفسه : النعم الأبدي ، وبالرحيل عن الدار الحربية : انتقال نفسه من بدنه بالموت .

ومعنى البيت الثاني : « اني لشوق الى لقاء الحبيب اهتز اهتزاز القرة في ضوء الشمس

لكي اصل الى لقاء عين الشمس المنوهجة » . ويقصد بعين الشمس : خالق الكائنات .

معدود من أقسام النوع الثاني ، إلا أن البقاء عليه وعدم السعي فيما يدفعه من ترك الخطيئات وكسب الطاعات جهل وبطالة ، إذ هذا الخوف ناشئ من سوء الاختيار ، وقد بعث الله الرسل وأوصيهم لاستخلاص الناس عنه . فعلاجه ترك المعاصي وتحصيل معالي الأخلاق . ومعلوم أن المنهمك في المعاصي مع خوفه من العذاب كالملق نفسه في البحر أو النار مع خوفه من الغرق والحرق ، ولا ريب في أن إزالة هذا الخوف باختياره ، فليترك المعاصي ويحتمد في كسب وظائف الطاعات ليتخلص عنه ، واهتمام أكابر الدين من الأنبياء والمرسلين والحكماء والصديقين في وظائف الطاعات وصبرهم على مشاق العبادات ومجاهدتهم مع جنود الشياطين إنما هو لدفع هذا الخوف عن نفوسهم ، فهو في الحقيقة ناشئ منك ومن سوء اختيارك ، فبادر إلى تقليله بالمواظبة على صوالح الأعمال وفضائل الأفعال . وقد يأتي أن هذا الخوف هو سوط الله الباعث على العمل ، ومعه لو كان مفرطاً فليعالج بأسباب الرجاء ، وبدونه فلا بد أن يكون حتى يبعثه عليه ، على أنه مع عظم جرمه وقصور باعه عن تداركه فلا ينبغي أن ييأس من روح الله ، فلعل واسع الرحمة السابقة على الغضب يدركه بسابقة من القضاء والقدر .

فصل

(الخوف المحمود وأقسامه ودرجاته)

وللنوع الثاني من الخوف أقسام : (الأول) أن يكون من الله سبحانه ومن عظمته وكبريائه ، وهذا هو المسمى بالخشية والرهبة في عرف أرباب القلوب . (الثاني) من جناية العبد باقترافه المعاصي . (الثالث) أن يكون منها جميعاً . وكلما ازدادت المعرفة بجلال الله وعظمته وتعالیه وبعبوب

نفسه وجنباياته ، ازداد الخوف ، إذ أدرك القدرة القاهرة والعظمة الباهرة والقوة القوية والعزة الشديدة ، يوجب الاضطراب والدهشة . ولا ريب في أن عظمة الله وقدرته وسائر صفاته الجلالية والجمالية غير متناهية شدة وقوة ويظهر منها على كل نفس ما يطيقه ويستعمله . وأنى لأحد من أولى المدارك أن يحيط بصفاته على ما هي عليه ، فإن المدارك عن إدراك غير المتناهي قاصرة . نعم ، لبعض المدارك العالية أن يدرك على الاجمال . مع أن ما يظهر للعقل من صفاته ليس هو من حقيقة صفاته ، بل هو غاية ما تتأدى إليه عقولهم ويتصور كالا . ولو ظهر قدر ذرة من حقيقة بعض صفاته لأقوى العقول وأعلى المدارك ، لاحترق من سبحات وجهه ، وتفرقت أجزاءه من نور ربه . ولو انكشف من بعضها الغطاء لزهقت النفوس وتمطعت القلوب ، فغاية ما للمدارك العالية من العقول والنفوس القادرة ، أن يتصور غدم تنهيتها في الشدة والقوة ، وكونها في السكال والبهاء غاية ما يمكن ويتصور ويحتمله ظرف الواقع ونفس الأمر ، كما هو الشأن في ذاته سبحانه . وإدراك هذه الغاية أيضاً يختلف باختلاف علو المدارك ، فمن كان في الدرك أقوى وأقدم كان بربه أعرف ، ومن كان به أعرف كان منه أخوف ، ولذا قال تعالى :

« إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » (١)

وقال سيد الرسل : « أنا أخوفكم من الله » . وقد قرع سمعك حكايات خوف زمرة المرسلين ومن بعدهم من فرق الأولياء والعارفين ، وعروض الغشيات المتواترة في كل ليلة لمولانا أمير المؤمنين عليه السلام . وهذا مقتضى كمال المعرفة الموجب لشدة الخوف ، إذ كمال المعرفة

يوجب احتراق القلب ، فيفيض أثر الحرقه من القلب الى البدن بالنحول
والصفار والغشيه والبكاء ، والى الجوارح بكفها عن المعاصي وتقييدها
بالطاعات تلافياً لما فرط في جنب الله . ومن لم يجتهد في ترك المعاصي وكسب
الطاعات فليس على شيء من الخوف . ولذا قيل : ليس الخائف من يبكي ويمسح
عينيه ، بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه . وقال بعض الحكماء : « من
خاف شيئاً هرب منه ، ومن خاف الله هرب اليه » ، وقال بعض العرفاء :
« لا يكون العبد خائفاً حتى ينزل نفسه منزلة السقيم الذي يحتسى مخافة طول
السقام » . والى الصفات بقمع الشهوات وتكدر الذات ، فتصير المعاصي
المحبوبة عنده مكروهة ، كما يصير العسل مكروهاً عند من يشتميه اذا عرف
كونه مسموماً ، فتحترق الشهوات بالخوف ، وتتأدب الجوارح ، ويحصل في
القلب الذبول والذلة والخشوع والاستكانة ، وتفارقه ذمائم الصفات ، ويصير
مستوعب الهم بخوفه والنظر في خطر عاقبته ، فلا يتفرغ لغيره ، ولا يكون
له شغل إلا المجاهدة والمحاسبة والمراقبة والضئنة بالأنفاس والمحظرات ،
ومواخذة النفس في الخطرات والكلمات ، ويشغل ظاهره وباطنه بما هو
خائف منه لا يتسع فيه لغيره ، كما أن من وقع في مخالب ضاري السبع يكون
مشغول الهم به ولا شغل له بغيره . وهذا حال من غلبه الخوف واستولى عليه ،
كما جرى عليه جماعة من الصحابة والتابعين ومن يحدوهم من السلف الصالحين .
فقدوة المجاهدة والمحاسبة بحسب شدة الخوف الذي هو حرقه القلب
وتألمه ، وهو بحسب قوة المعرفة بجلال الله وعظمته وسائر صفاته وأفعاله ،
وبعيوب النفس وما بين يديها من الأخطار والأهوال .

وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره في الأعمال أن يكف عن
المحظورات ، ويُسمى الكف منها (ورعاً) ، فإن زادت قوته كف عن الشبهات ،

ويسمى ذلك (تقوى) ، إذ التقوى أن يترك ما يريه الى ما لا يريه ، وقد يحمله على ترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس ، وهو الصدق في التقوى ، فاذا انضم اليه التجرد للخدمة ، وصار ممن لا يبنى ما لا يسكنه ، ولا يجمع ما لا يأكله ، ولا يلتفت الى دنيا يعلم أنه يفارقها ، ولا يصرف الى غير الله نفساً عن أنفاسه ، فهو (الصدق) ، ويسمى صاحبه (صديقاً) ، فيدخل في الصدق التقوى ، وفي التقوى الورع ، وفي الورع العفة ، لأنها عبارة عن الامتناع من مقتضى الشهوات .

فاذن يؤثر الخوف في الجوارح بالكف والإقدام .

فصل

(بهم يتحقق الخوف)

إعلم أن الخوف لا يتحقق إلا بانتظار مكروه ، والمكروه إما أن يكون مكروهاً في ذاته كالنار ، أو مكروهاً لافضائه الى المكروه في ذاته كالمعاصي المفضية الى المكروه لذاته في الآخرة ، ولا بد لكل خائف أن يتمثل في نفسه مكروه من أحد القسمين ، ويقوى انتظاره في قلبه حتى يتألم قلبه بسبب استشعاره ذلك المكروه ، ويختلف مقام الخائفين فيما يغلب على قلوبهم من المكروهات المحظورة :

فالذين يغلب على قلوبهم خوف المكروه لذاته ، فاما أن يكون خوفهم من سكرات الموت وشدته وسؤال التكبيرين وغلظته ، أو عذاب القبر ووحده وهول المطلع ووحشته ، أو من الموقف بين يدي الله وهيبته والحياة من كشف سريره ، أو من الحساب ودقته والصراط وحدته ، أو من النار وأهوالها والجحيم وأغلاها ، أو الحرمان من دار النعيم وعدم وصوله الى الملك

المقيم ، أو من نقصان درجاته في العليين وعدم مجاورته المقربين ، أو من الله سبحانه بأن يخاف جلاله وعظمته والبعد والحجاب منه ويرجو القرب منه ، وهذا أعلاها رتبة ، وهو خوف أرباب القلوب العارفين من صفاته ما يقتضى الهيبة والخوف ، والعالمين بلذة الوصال وألم البعد والفراق ، والمطلعين على سر قوله :

« وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ » (١) ، وقوله : « اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ » (٢) .

وقيل : ذلك خوف العابدين والزاهدين وكافة العاملين .
وأما الذين غلب على قلوبهم خوف المكروه لغيره ، فاما يكون خوفهم من الموت قبل التوبة ، أو نقصها قبل انقضاء المدة ، أو من ضعف القوة عن الوفاء بتمام حقوق الله ، أو تخليته مع حسناته التي اتكل عليها وتعزز بها في عباد الله ، أو من الميل عن الاستقامة ، أو الى اتباع الشهوات المألوفة استيلاء للعادة ، أو تبديل رقة القلب الى القساوة ، أو تبعات الناس عنده من الغش والعداوة ، أو من الاشتغال عن الله بغيره ، أو حدوث ما يحدث في بقية عمره ، أو من البطر والاستدراج بتوانر النعم ، أو انكشاف غوائل طاعته حتى يبدو له من الله ما لم يعلم ، أو من الاغترار بالدنيا وزخاؤها الفانية ، أو تعجيل العقوبة بالدنيا وافتضاحه بالعلائية ، أو من اطلاع الله على سريره وهو عنه غافل ، وتوجهه الى غيره وهو اليه ناظر ، أو من الختم له عند الموت بسوء الخاتمة ، أو مما سبق له في الأزل من السابقة . وهذه كلها مخاوف العارفين .
ولسلك واحد منها خصوص فائدة ، هو الحذر عما يفضي الى الخوف ،

(١) آل عمران ، الآية : ٢٨ .

(٢) آل عمران ، الآية : ١٠٢ .

فالاخائف من تبعات الناس يجتهد في براءة ذمته عنها ، ومن استيلاء العادة
يوأظب على فطام نفسه عنها ، ومن اطلاع الله على سريره يشتغل بتطهير
قلبه عن الوسوس . وهكذا في بقية الأقسام .

وأغلب هذه المخاوف على المتقين خوف سوء الخاتمة ، وهو الذي قطع
قلوب العارفين ، إذ الأمر فيه مخطر - كما يأتي - وأعلى الأقسام وأدناها على
كمال المعرفة خوف السابقة ، لأن الخاتمة فرع السابقة ، ويترتب عليها بعد
تحلل أسباب كثيرة ، ولذا قال العارف الأنصاري : « الناس يخافون من اليوم
الآخر وأنا أخاف من اليوم الأول » . فالخاتمة تظهر ما سبق به القضاء في أم
الكتاب ، واليه أشار النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في المنبر ، حيث رفع
يده اليمنى قابضاً على كفه ، ثم قال : « أتندرون أيها الناس ما في كفي ؟ » ،
قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم إلى
يوم القيامة » . ثم رفع يده اليسرى وقال : « أيها الناس ! أتندرون ما في كفي ؟ » ،
قالوا : الله ورسوله أعلم ، فقال : « أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم إلى
يوم القيامة » . ثم قال : « حَكَّمَ اللهُ وَعَدَلَ ، حَكَّمَ اللهُ :

« فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ » (١) .

وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « يسلك بالسعيد في طريق الأشقياء
حتى يقول الناس : ما أشبهه بهم بل هو منهم » ، ثم تتدارك السعادة . وقد يسلك
بالشقي طريق السعداء حتى يقول الناس : ما أشبهه بهم ، بل هو منهم ، ثم
يتدارك الشقاء . إن من كتبه الله سعيداً وإن لم يبق من الدنيا إلا فواق ناقة
ختم له بالسعادة ، (٢) .

(٢) هذا الحديث مرثى في أصول

(١) الثوري ، الآية : ٧ .

السكافي في (باب الدعاء والشقاوة) عن أبي عبد الله الصادق - عليه السلام - .

فصل

(الخوف من الله أفضل الفضائل)

الخوف منزل من منازل الدين ومقام من مقامات الموقنين ، وهو أفضل الفضائل النفسانية ، إذ فضيلة الشيء بقدر إعانتته على السعادة ، ولا سعادة كسعادة لقاء الله والقرب منه ، ولا وصول إليها إلا بتحصيل محبته والانس به ، ولا يحصل ذلك إلا بالمعرفة ، ولا تحصل المعرفة إلا بدوام الفكر ، ولا يحصل الانس إلا بالمحبة ودوام الذكر ، ولا تتيسر المواظبة على الفكر والذكر إلا بانقلاع حب الدنيا من القلب ، ولا ينقلع ذلك إلا بقمع لذاتها وشهواتها ، وأقوى ما تنقمع به الشهوة هو نار الخوف ، فالخوف هو النار المحرقة للشهوات ، فاذن فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوات ويكف من المعاصي ويحث على الطاعات ، ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف كما مر . -

وقيل : من أنس بالله ، وملك الحق قلبه ، وبلغ مقام الرضا ، وصار مشاهداً لجمال الحق : لم يبق له الخوف ، بل يتبدل خوفه بالأمن ، كما يدل عليه قوله سبحانه :

« أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُسْتَسِدُونَ » (١)

إذ لا يبق له التفات إلى المستقبل ، ولا كراهية من مكروهه ، ولا رغبة إلى محبوب ، فلا يبق له خوف ولا رجاء ، بل صار حاله أعلى منهما . نعم ، لا يخلو عن الخشية - أي الرهبة من الله ومن عظمتته وهيبته - وإذا صار متجلياً بنظر الوحدة لم يبق فيه أثر من الخشية أيضاً ، لأنه من لوازم التكثير ،

وقد زال . ولذا قيل : « الخوف حجاب بين الله وبين العبد » . وقيل أيضاً :
« إذا ظهر الحق على السرائر لا يبقى فيها محل لخوف ولا رجاء » . وقيل أيضاً :
« المحب إذا شغل قلبه في مشاهدة المحبوب بخوف الفراق كان ذلك نقصاً في
دوام الشهود الذي هو غاية المقامات » .

وأنت خبير بأن هذه الأقوال مما لا التفات لنا اليها ، فلنرجع الى
ما كنا بصدد من بيان فضيلة الخوف . فنقول : الآيات والأخبار الدالة عليه
أكثر من أن تحصى ، وقد جمع الله للخائفين العلم والهدى والرحمة والرضوان ،
وهي مجامع مقامات أهل الجنان ، فقال :

« إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » (١) . وقال : « مُهْدَى
وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ » (٢) . وقال : « رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ » (٣) .

وكثير من الآيات مصرحة بكون الخوف من لوازم الإيمان ،
كقوله تعالى :

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ » (٤)
وقوله : « وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » (٥) .
ومدح الخائفين بالتذكر في قوله :

(١) الفاطر ، الآية : ٢٨ .

(٢) الأعراف ، الآية : ١٥٤ .

(٣) البينة ، الآية : ٨ .

(٤) الأنفال ، الآية : ٢ .

(٥) آل عمران ، الآية : ١٧٥ .

« سَيِّدٌ كَرُّ مَنْ يَخْشَى » (١)

ووعدهم الجنة وجنتين ، بقوله :

« وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ »
فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٢) . وقوله : « وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ
رَبِّهِ جَنَّتَانِ » (٣) .

وفي الخبر القدسي : « وعزني لا أجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له
أمنين ، فإذا أمني في الدنيا أخفته يوم القيامة . وإذا خافي في الدنيا أمنت يوم
القيامة » . وقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « رأس الحكمة
مخافة الله » ، وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « من خاف الله أخاف الله
منه كل شيء » ، ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء ، (٤) ، وقال لابن مسعود :
« إن أردت أن تلقاني فاكثر من الخوف بعدي » ، وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « أتمكم عقلا أشدكم لله خوفا » .

وعن ليث بن أبي سليم قال : « سمعت رجلا من الانصار يقول : بينما
رسول الله مستظل بظل شجرة في يوم شديد الحر ، إذ جاء رجل فنزع ثيابه ،
ثم جعل يتمرغ في الرمضاء ، يكوى ظهره مرة ، وبطنه مرة ، وجبهته مرة ،
ويقول : يا نفس ذوقى ، فما عند الله أعظم مما صنعت بك . ورسول الله ينظر
إليه ما يصنع . ثم إن الرجل لبس ثيابه ، ثم أقبل ، فأومى إليه النبي - صلى الله
عليه وآله وسلم - بيده ودعاه ، فقال له : يا عبدالله ! رأيتك صنعت شيئا

(١) الأعلى ، الآية : ١٠ .

(٢) النازعات ، الآية : ٤٠ - ٤١ .

(٣) الرحمن ، الآية : ٤٦ .

(٤) روى الحديث في أصول الكافي في باب الخوف والرجاء عن الصادق - عليه السلام -

ما رأيت أحداً من الناس صنعه ، فما حملك على ما صنعت؟ فقال الرجل : حملني على ذلك مخافة الله ، فقلت لنفسى : يا نفس ذوقى فما عند الله أعظم مما صنعت بك . فقال النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - : لقد خفت ربك حق مخافته ، وإن ربك ليباهى بك أهل السماء ، ثم قال لأصحابه : يا معشر من حضروا ادنوا من صاحبكم حتى يدعوا لكم . فدنوا منه . فدعاهم ، وقال : اللهم اجمع أمرنا على الهدى ، واجعل التقوى زادنا ، والجنة مأبنا .

وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : ما من مؤمن يخرج من عينيه دمعة ، وإن كانت مثل رأس الذباب ، من خشية الله ، ثم يصيب شيئاً من حر وجهه ، إلا حرمه الله على النار . وقال : إذا اقشعر قلب المؤمن من خشية الله تحانت عنه خطاياهم كما يتحات من الشجر ورقها ، وقال : لا يلج النار أحد بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع . وقال سيد الساجدين عليه السلام : في بعض أدعيته : سبحانك ! عجبا لمن عرفك كيف لا يخافك . وقال الباقر عليه السلام : صلى أمير المؤمنين عليه السلام بالناس الصبح بالعراق ، فلما انصرف وعظهم ، فبكى وأبكاهم من خوف الله ، ثم قال : أما والله لقد عهدت أقواماً على عهد خليلي رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : وإنهم ليصبحون ويمسون شعثاً غبراً خمضاً بين أعينهم كركب البعير يبيتون لربهم سجداً وقياماً ، يراو حون بين أقدامهم وجباههم ، يناجون ربهم في فكك رقابهم من النار ، والله لقد رأيتهم مع هذا وهم خائفون مشفقون ، وفي رواية أخرى : وكان زفير النار في آذانهم ، إذا ذكر الله عندهم مادوا كما تميد الشجر ، كأنما القوم بانوا غافلين ، ثم قال عليه السلام : فإرثي بعد ذلك ضاحكاً حتى قبض . وقال الصادق عليه السلام : من عرف الله خاف الله ، ومن خاف الله سخط نفسه عن الدنيا ، وقال عليه السلام : إن من العبادة شدة الخوف من الله تعالى

يقول : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » . وقال :

« قُلْ لَا تَخْشَوْنَ النَّاسَ وَاخْشَوْنِي » (١) . وقال : « وَمَنْ

يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا » (٢) .

وقال : « إن حب الشرف والذكر لا يكونان في قلب الخائف الراهب » ،
وقال عليه السلام : « المؤمن بين مخافتين : ذنب قد مضى ما يدرى ما صنع الله فيه ، وعمر
قد بقي لا يدرى ما يكتسب فيه من المماليك ، فهو لا يصبح إلا خائفاً ولا
يصلحه إلا الخوف » . وقال عليه السلام : « خف الله كأنك تراه ، وإن كنت لا تراه فإنه
يراك ، وإن كنت ترى أنه لا يراك ، فقد كفرت ، وإن كنت تعلم أنه يراك
ثم برزت له بالمعصية فقد جعلته من أهول الناظرين اليك » ، وقال عليه السلام : « لا يكون
المؤمن مؤمناً حتى يكون خائفاً راجياً ، ولا يكون خائفاً راجياً حتى يكون عاملاً لما
يخاف ويرجو » ، وقال عليه السلام : « بما حفظ من خطب النبي - صلى الله عليه وآله -
وسلم - أنه قال : أيها الناس ! إن لكم معالماً فانتبهوا إلى معالمكم ، وإن لكم
نهاية فانتبهوا إلى نهايتكم ، ألا إن المؤمن يعمل بين مخافتين : بين أجل قد مضى
لا يدرى ما الله صانع فيه ، وبين أجل قد بقي لا يدرى ما الله قاض فيه ،
فليأخذ العبد المؤمن من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبهة قبل
الكبر ، وفي الحياة قبل الممات ، فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الدنيا من
مستعيب وما بعدها من دار إلا الجنة أو النار » .

ثم الأخبار الواردة في فضل العلم والتقوى والورع والبكاء والرجاء
تدل على فضل الخوف ، لأن جملة ذلك متعلقة به تعلق السبب أو تعلق

(١) المائدة ، الآية : ٤٤ .

(٢) الطلاق ، الآية : ٢ .

المسبب ، إذ العلم سبب الخوف ، والتقوى والورع يحصلان منه ويترتبان عليه - كما ظهر مما سبق - والبسكاء ثمرته ولازمه ، والرجاء يلزمه ويصاحبه ، إذ كل من رجا محبوباً فلا بد أن يخاف فوته ، إذ لو لم يخف فوته لم يحبه فلا ينفك أحدهما عن الآخر ، وإن جاز غلبة أحدهما على الآخر ، اذ من شرطهما تعلقهما بالمشكوك ، لأن المعلوم لا يرجى ولا يخاف ، فالمحجوب المشكوك فيه تقدير وجوده يروح القلب وهو الرجاء ، وتقدير عدمه يؤلمه وهو الخوف ، والتقديران يتقابلان . نعم ، أحد طرفي الشك قد يترجح بحضور بعض الاسباب ، ويسمى ذلك ظناً ، ومقابله وهماً ، فاذا ظن وجود المحجوب قوى الرجاء وضعف الخوف بالإضافة اليه ، وكذا بالعكس ، وعلى كل حال فهما متلازمان ، ولذلك قال الله سبحانه :

« وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا » (١) . وقال : « يَدْعُمُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا » (٢) .

وقد ظهر أن ما يدل على فضل الخمسة يدل على فضيلته ، وكذا ما ورد في ذم الأمن من مكر الله يدل على فضيلته ، لأنه ضده ، وذم الشئ مدح لضده الذي ينفيه . وما يدل على فضيلته ما ثبت بالتواتر من كثرة خوف الملائكة والأنبياء وأئمة الهدى - عليهم السلام - كخوف جبرائيل ، وميكائيل ، واسرافيل ، وحملة العرش ، وغيرهم من الملائكة المهيمين والمسلمين . وخوف نبينا ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ودأود ، ويحيى . . . وغيرهم . وخوف أمير المؤمنين وسيد الساجدين وسائر الأئمة الطاهرين - عليهم السلام - وحكاية

(١) الانبياء ، الآية : ٩٠ .

(٢) السجدة ، الآية : ١٦ .

خوف كل منهم في كتب المحدثين مذكورة وفي زبرهم مسطورة ، فليرجع اليها من أراد ، ومن الله العصمة والسداد .

فصل

(الخوف اذا جاوز حده كان مذموماً)

اعلم ان الخوف ممدوح الى حد ، فان جاوزه كان مذموماً . وبيان ذلك :
ان الخوف سوط الله الذي يسوق به العباد الى المواظبة على العلم والعمل ، لينالوا بهما رتبة القرب اليه تعالى ولذة المحبة والانس به ، وكما ان السوط الذي تساق به البهيمة ويأدب به الصبي ، له حد في الاعتدال ، لو قصر عنه لم يكن نافعا في السوق والتأديب ، ولو تجاوز عنه في المقدار أو الكيفية أو المبالغة في الضرب كان مذموماً لأدائه الى إهلاك الدابة والصبي ، فكذلك الخوف الذي هو سوط الله لسوق عباده له حد في الاعتدال والوسط ، وهو ما يوصل الى المطلوب ، فان كان قاصراً عنه كان قليل الجدوى ، وكان كقضيبي ضعيف يضرب به دابة قوية ، فلا يسوقها الى المقصد . ومثل هذا الخوف يجرى مجرى رقة النساء عند سماع شيء محزن يورث فيهن البكاء ، وبمجرد انقطاعه يرجعن الى حالهن الأولى ، او يجرى خوف بعض الناس عند مشاهدة سبب هائل ، وإذا غاب ذلك السبب عن الحس رجع القلب الى الغفلة . فهذا خوف قاصر قليل الجدوى . فالخوف الذي لا يؤثر في الجوارح بكفها عن المعاصي وتقييدها بالطاعات حديث نفس وحركة خاطر لا يستحق أن يسمى خوفاً . ولو كان مفرطاً ربما جاوز الى القنوط وهو ضلال :

« وَمَنْ يَقْنُطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ » (١) .

أو الى اليأس وهو كفر :

« لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ » (١)
ولا ريب في أن الخوف المجاوز الى اليأس والقنوط يمنع من العمل ،
لرفعهما نشاط الخاطر الباعث على الفعل ، وإيجابهما كسالة الأعضاء المانعة من
العمل . ومثل هذا الخوف محض الفساد والنقصان وعين القصور والخسران .
ولا رجحان له في نظر العقل والشرع مطلقاً ، إذ كل خوف بالحقيقة نقص
لسكونه منشأ العجز ، لأنه متعرض لمخذور لا يمكنه دفعه ، وباعث الجهل
لعدم اطلاعه على عاقبة أمره ، إذ لو علم ذلك لم يكن خائفاً ، لما مر من أن
الخوف هو ما كان مشكوكاً فيه ، فبعض أفراد الخوف إنما يصير كالألأ بالزيادة
الى نقص أعظم منه ، وباعتبار رفعه المعاصي وافضائه الى ما يترتب عليه من
الورع والتقوى والمجاهدة والذكر والعبادة وسائر الأسباب الموصلة الى قرب
الله وأنسه ، ولو لم يؤد اليها كان في نفسه نقصاً لا كمالاً ، إذ الكمال في نفسه
هو ما يجوز أن يوصف الله تعالى به ، كالعلم والقدرة وأمثالها ، وما لا يجوز
وصفه به ليس كمالاً في ذاته ، وربما صار محموداً بالزيادة الى غيره وبالنظر
إلى بعض فوائده ، فالأيفضى الى فوائده المقصودة منه لأفراطه فهو مذموم . وربما
أوجب الموت أو المرض أو فساد العقل ، وهو كالضرب الذي يقتل الصبي
أو يهلك الدابة أو يمرضها أو يكسر عضواً من أعضائها . وإنما مدح صاحب
الشرع الرجاء وكلف الناس به ، ليعالج به صدمة الخوف المفرط المفضي الى اليأس
أو الى أحد الأمور المذكورة . فالخوف المحمود ما يفضي الى العمل مع بقاء الحياة
وصحة البدن وسلامة العقل ، فإن تجاوز الى إزالة شيء منها فهو مرض يجب
علاجه ، وكان بعض مشائخ العرفاء يقول للمرتاضين من مريديه الملازمين

للجوع إيماناً كثيرة : « احفظوا عقولكم ، فإنه لم يكن لله تعالى ولي ناقص العقل ، وما قيل : « إن من مات من خوف الله تعالى مات شهيداً ، معناه أن موته بالخوف أفضل من موته في هذا الوقت بدونه ، فهو بالنسبة إليه فضيلة ، لا بالنظر الى تقدير بقائه وطول عمره في طاعة الله وتحصيل المعارف ، إذ للمترقى في درجات المعارف والطاعات له في كل لحظة ثواب شهيد أو شهداء ، فأفضل السعادات طول العمر في تحصيل العلم والعمل ، فكل ما يبطل العمر أو العقل والصحة فهو خسران ونقصان .

فصل

(طرق تحصيل الخوف الممدوح)

لتحصيل الخوف الممدوح وجلبه طرق :

(الأول) أن يجتهد في تحصيل اليقين : أى قوة الايمان بآله ، واليوم الآخر ، والجنة ، والنار ، والحساب ، والعقاب . ولا ريب في كونه مهيباً للخوف من النار والرجاء للجنة . ثم الخوف والرجاء يؤديان الى الصبر على المسكاره والمشاق ، وهو الى المجاهدة والتجرد لذكر الله تعالى والفكر فيه على الدوام ، ويقوى دوام الذكر على الانس ، ودوام الفسك على كمال المعرفة ، ويؤدى الانس وكمال المعرفة الى المحبة ، ويتبعها الرضا والتوكل وسائر المقامات . وهذا هو الترتيب فى سلوك منازل الدين ، فليس بعد أصل اليقين مقام سوى الخوف والرجاء ، ولا بعدهما مقام سوى الصبر ، ولا بعده سوى المجاهدة والتجرد لله ظاهراً وباطناً ، ولا بعده سوى الهداية والمعرفة ، ولا بعدهما سوى الانس والمحبة . ومن ضرورة المحبة الرضا بفعل المحبوب والثقة بعنايته ، وهو التوكل . فاليقين هو سبب الخوف ، فيجب

تحصيل السبب ليؤدي الى المسبب .

(الثاني) ملازمة التفكير في أحوال القيامة ، وأصناف العذاب في الآخرة ، واستماع المواعظ المنذرة ، والنظر الى الخائفين ومجالستهم ، ومشاهدة أحوالهم واستماع حكاياتهم . وهذا مما يستجلب الخوف من عذابه تعالى ، وهو خوف عموم الخلق ، وهو يحصل بمجرد اصل الايمان بالجنة والنار ، وكونهما جزامين على الطاعة والمعصية ، وإنما يضعف للغفلة أو ضعف الايمان ، وتزول الغفلة والضعف بما ذكر . وأما الخوف من الله بأن يخاف البعد والحجاب ويرجو القرب والوصال ، وهو خوف أرباب القلوب ، العارفين من صفاته ما يقتضى الخوف والهيبة ، المطلعين على سر قوله :

« وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ » (١) . وقوله : « اتَّقُوا اللَّهَ »

حقُّ تَقَاتِهِ » (٢) .

فالعلاج في تحصيله الارتقاء الى ذروة المعرفة ، إذ هذا الخوف ثمرة المعرفة بالله وبصفات جلاله وجماله ، ومن لم يمكنه ذلك فلا يترك سماع الأخبار والآثار وملاحظة أحوال الخائفين من هيبتة وجلاله ، كالأنبياء والأولياء وزمرة العرفاء ، فإنه لا يخلو عن تأثير .

(الثالث) أن يتأمل في أن الوقوف على كنه صفات الله في حيز المحال ، وأن الاحاطة بكنه الامور ليس في مقدرة البشر ، إذ هي مرتبطة بالمشية ارتباطاً يخرج عن حد المعقول والمألوف . ومن عرف ذلك على التحقيق يعلم أن الحكم على أمر من الامور الآتية غير ممكن بالحدس والقياس ، فضلاً

(١) آل عمران ، الآية : ٢٨ .

(٢) آل عمران ، الآية : ١٠٢ .

عن القطع والتحقيق ، وحينئذ يعظم خوفه ويشتد ألمه ، وإن كانت الخيرات كلها له ميسرة ونفسها عن الدنيا بالمرّة منقطعة . وإلى الله بشرائرها ملتفتة ، إذ خطر الخاتمة وعسر الثبات على الحق مما لا يمكن دفعه ، وكيف يحصل الاطمئنان من تغير الحال ، وقلب المؤمن بين اصبعين من أصابع الرحمن ، وأنه أشد تقلباً من القدر في غليانها ، وقد قال مقلب القلوب :

« إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَا مُنُونٍ » (١)

فأني للناس أن يطمثوا وهو يناديهم بالتحذر ، ولذا قال بعض العرفاء : لو حالت بيني وبين من عرفته بالتوحيد خمسين سنة اسطوانة فمات لم أقطع له بالتوحيد ، لأنني لا أدري ما ظهر له من التقلب ، (٢) .

فصل

(خوف سوء الخاتمة وأسبابه)

قد اشير الى أن أعظم المخاوف خوف سوء الخاتمة ، وله أسباب مختلفة ترجع الى ثلاثة :

(الأول) وهو الأعظم ، وهو أن يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله ، إما الجحود أو الشك ، فتقبض الروح في تلك الحالة ، وتصير عقدة الجحود أو الشك حجاباً بينه وبين الله تعالى ، وذلك يقتضى البعد الدائم ، والحرمان اللازم ، وخسران الأبد ، والعذاب المخلد . ثم هذا الجحود أو الشك إما يتعلق ببعض العقائد الأصولية ، كالتوحيد

(١) المارج ، الآية : ٢٨ .

(٢) نقل هذه الكلمة في احياء العلوم (ج ٤ ص ١٤٩) عن بعض العارفين ، ولم يذكر اسمه أيضاً .

وعلمه تعالى أو غير ذلك من صفاته الكمالية ، أو بضروريات أمر الآخرة والنبوة . وكل واحد من ذلك كاف في الهلاك وزهوق النفس على الزندقة . أو يتعلق بجميعها إما إصالة أو سراية ، والمراد بالسراية أن الرجل ربما اعتقد في ذات الله وصفاته وأفعاله خلاف ما هو الحق والواقع ، إما برأيه ومعقوله ، أو بالتقليد ، فإذا قرب الموت وظهرت سكراته واضطرب القلب بما فيه ، ربما انكشف بطلان ما اعتقده جهلاً ، إذ حال الموت حال كشف الغطاء ، ويكون ذلك سبباً لبطلان بقية اعتقاداته أو الشك فيها ، وإن كانت صحيحة مطابقة للواقع ، إذ لم يكن عنده أولاً فرق بين هذا الاعتقاد الفاسد الذي انكشف فسادُه وبين سائر عقائده الصحيحة ، فإذا علم خطأه في البعض لم يبق له اليقين والاطمئنان في البواقي . كما نقل أن (الفخر الرازي) بكى يوماً ، فسأله عن سبب بكائه ، قال : « اعتقدت في مسألة منذ سبعين سنة على نحو انكشف اليوم لي بطلانه ، فما أدراني أن لا تكون سائر عقائدي كذلك » . وبالجمله : إن اتفق زهوق روحه في هذه الخطرة قبل أن ينيب ويعود إلى أصل الإيمان ، فقد ختم له بالسوء وخرجت روحه على الشرك ، أعاذنا الله منه ، وثبتنا على الاعتقاد الحق لديه ، وهم المقصودون من قوله :

« وَبَدَأْ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ » (١) .
ومن قوله : « قُلْ هَلْ تُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً » (٢) .

(١) الزمر ، الآية : ٤٧ .

(٢) الكهف ، الآية : ١٠٣ - ١٠٤ .

والبله : اعني الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر ايماناً بجملاً راسخاً ، بمعزل عن هذا الخطر ، ولذلك ورد : أن أكثر أهل الجنة البله . وورد المنع من البحث والنظر والخوض في الكلام ، والأخذ بظواهر الشرع ، مع اعتقاد كونه تعالى منزهاً عن النقص متصفاً بما هو الغاية والنهاية من صفات الكمال . والسر في ذلك : أن البله إذا أخذوا بما ورد من الشرع واعتقدوا به ، يثبتون عليه لقصور اذهانهم عن درك الشبهات وعدم اعتيادهم بالنشكك ، فلا يختلج ببالهم شك وشبهة ولو عند الموت .

وأما الخائفون في غمرات البحث والنظر ، والأخذون عقائدهم من عقولهم المزجاة ، فليس لهم تثبيت على عقائدهم ، إذ العقول عن درك صفات الله وسائر العقائد الأصولية على ما هي عليه قاصرة ، والأدلة التي يستخرجها مضطربة متعارضة . وابواب الشكوك والشبهات بالخوض والبحث تصير مفتوحة . فاذهانهم دائماً محل تعارض العقائد والشكوك ، فربما ثبتت لهم عقيدة بملاحظة بعض دلائله ، فيحصل لهم فيها طمأنينة ، ثم يعرض لهم شك يرفعها أو يضعفها ، فهم دائماً في غمرات الحيرة والاضطراب . فاذا كان حالهم هذا فأخذتهم سكرات الموت ، فأى استبعاد في أن يختلج لهم حينئذ شك في بعض عقائدهم . ومثله مثل من انكسرت سفيفته وهو في ملتطم الأمواج يرميه موج الى موج ، والغالب في مثله الهلاك ، وان اتفق نادراً أن يرميه موج الى الساحل . وقد نقل عن (نصير الدين الحلي) - وهو من أعظم المتكلمين - أنه قال : « اني تفكرت في العلوم العقلية سبعين سنة ، وصنفت فيها من الكتب ما لا يحصى ، ولم يظهر لي منها شيء سوى أن لهذا المصنوع صانعاً ، ومع ذلك عجائز القوم في ذلك أشد يقيناً مني ، فالصواب تلقى أصل الايمان والعقائد من صاحب الوحي ، مع تطهير الباطن عن خبائث الأخلاق ، والاشتغال

بالطاعات وصوالح الأعمال ، وعدم التعرض لما هو خارج عن طاقتهم من التفكير في حقائق المعارف ، إلا من أيده الله بالقوة القدسية والقريحة المستقيمة ، واشرق نور الحكمة في قلبه . وشمله خفي الالطاف من ربه ، فله الخوض في غمرات العلوم . وأما غيره فينبغي أن يأخذ منه اصول عقائده الواردة من الشرع ، ويشغل بخدمته حتى أشمله بركات انفاسه ، فإن العاجز عن المجاهدة في صف القتال ينبغي أن يسقى القوم ويتعهد دوابهم ، ليحشر يوم القيامة في زمرة منهم وإن كان فاقداً لدرجتهم .

(الثاني) ضعف الايمان في الاصل ، ومهما ضعف الايمان ضعف حب الله وقوى حب الدنيا في القلب ، واستولى عليه بحيث لا يبقى في القلب موضع لحب الله إلا من حيث حديث النفس ، فلا يظهر له أثر في مخالفة النفس والشيطان ، فيورث ذلك الانهماك في اتباع الشهوات ، حتى يظلم القلب ويسود ، وتتراكم ظلمة الذنوب عليه ، ولا يزال يظنى ما فيه من نور الايمان حتى ينطفئ بالكلية ، فاذا جاءت سكرة الموت ازداد حب الله ضعفاً ، وربما عدم بالمرّة ، لما يستشعر من فراق محبوبه الغالب على قلبه ، وهو الدنيا ، فيتألم ويرى ذلك من الله ، فيختلج ضميره بانكار ما قدره الله من الموت ، وربما يحدث في باطنه بغض الله بدل الحب ، لما يرى أن موته من الله ، كما أن من يحب ولده حباً ضعيفاً ، إذا أخذ مالا له هو أحب اليه منه وأتلفه ، انقلب حبه بغضاً . فان اتفق زهوق روحه في تلك اللحظة التي خطر فيها هذه الخطرة فقد ختم له بالسوء . نعوذ بالله من ذلك .

وقد ظهر أن السبب المفضي الى ذلك غلبة حب الدنيا مع ضعف الايمان الموجب لضعف حب الله ، فمن وجد في قلبه حب الله اغلب من حب الدنيا فهو أبعد من هذا الخطر ، وإن أحب الدنيا أيضاً ، ومن وجد في قلبه عكس

ذلك فهو قريب من هذا الخطر . والسبب في قلة حب الله قلة المعرفة به ، إذ لا يحب الله إلا من عرفه ، وإلى هذا القسم من سوء الخاتمة اشير في الكتاب الإلهي بقوله :

« قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَلِأَخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنََهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ » (١) .

فمن فارقه روحه في حالة كراهة فعل الله وبغضه له في تفريقه بينه وبين أهله وماله وسائر محابه ، فيكون موته قدوماً على ما أبغضه وفراقاً لما أحبه فيقدم على الله قدوم العبد المبغض الأبق إذا قدم به على مولاه قهراً ، ولا يخفى ما يستحق مثله من الخزي والنكال وأما الذي يموت على حب الله والرضا بفعله كان قدومه قدوم العبد المحسن المشتاق إلى مولاه ، ولا يخفى ما يلقاه من الفرح والسرور .

(والثالث) كثرة المعاصي وغلبة الشهوات ، وإن قوى الإيمان . وبيان ذلك : أن مقارفة المعاصي سببها غلبة الشهوات ورسوخها في القلب بكثرة الألف والعادة ، وجميع ما ألفه الإنسان في عمره يعود ذكره في قلبه عند موته ، فإن كان أكثر ميله إلى الطاعات كان أكثر ما يحضره عند الموت طاعة الله ، وإن كان أكثر ميله إلى المعاصي غلب ذكرها على قلبه عنده ، وإن

كان أكثر شغله السخرية والاستهزاء والمزاح وأمثال ذلك كان الغالب عند الموت ذلك ، وهكذا الحال في جميع الأشغال والأعمال الغالبة في عمره ، فانها تغلب على قلبه عند موته ، فربما يقبض روحه عند غلبة شهوة من شهوات الدنيا ومعصية من المعاصي ، فيعتقد بها قلبه ، ويصير محجوباً عن الله تعالى . وهو المراد بالختم على السوء . فالذي غلبت عليه المعاصي والشهوات ، وكان قلبه أميل اليها منه الى الطاعة ، فهذا الخطر قريب في حقه ، ولا يميل اليها أصلاً ، فهو بعيد منه جداً . ومن غلبت عليه الطاعات ولم يقارف المعاصي إلا نادراً ، فلعل الراجع في حقه النجاة منه ، وإن أمكن حصوله . ومن لم يغلب شيء من طاعاته ومعاصيه على الآخر فأمره في هذا الخطر الى الله ، ولا يمكن لنا الحكم بشيء من القرب والبعد في حقه .

والسر في ذلك : أن الغشية المتقدمة على الموت شبيهة بالنوم ، فكما أن الانسان يرى في منامه جملة من الأحوال التي عهدها طول عمره وألفها ، حتى انه لا يرى في منامه إلا ما يماثل مشاهداته في اليقظة ، وحتى ان المراهق الذي يحتمل لا يرى صورة الواقع ، فكذلك حاله عند سكرات الموت وما يتقدمه من الغشية ، لسكونه شبيهاً بالنوم وإن كان فوقه ، فيقتضي ذلك تذكر المألوفات وعودها الى القلب ، فربما يكون غلبة الألف سبباً لأن تتمثل صورة فاحشة في قلبه وتميل نفسه اليها وتقبض عليها روحه ، ويكون ذلك سبب سوء خاتمته ، وان كان أصل الايمان باقياً بحيث يرجي له الخلاص منها بعناية الله وفضله . وكما أن ما يخطر بالبال في اليقظة إنما يخطر بسبب خاص لا يعلمه بحقيقته أحد إلا الله ، فكذلك ما يرى في آحاد المنامات وما يختلج في القلب عند سكرات الموت له أسباب عند الله لا نعرف بعضها ، وربما نتمكن من معرفة بعضه ، فانا نعلم أن الخاطر ينتقل من الشيء الى ما يناسبه ، إما بالمشابهة ،

بأن ينظر الى جميل فيتذكر جميلاً آخر ، وإما بالمضادة ، بأن ينظر الى جميل فيتذكر قبيحاً ، وإما بالمقارنة ، بأن ينظر الى فرس قد رآه من قبل مع انسان فيتذكر ذلك الانسان ، وقد يفتقل الخاطر من شيء الى شيء ، ولا يدري وجه المناسبة له ، وربما ينتقل الى شيء لا يعرف سببه أصلاً . وكذلك انتقالات الخواطر بالمنام وعند سكرات الموت لها أسباب لا نعرف بعضها ونعرف بعضها بالنحو المذكور . ومن أراد أن يكف خاطره عن الانتقال الى المعاصي والشهوات ، فلا طريق له إلا المجاهدة طول عمره في فطام نفسه عنها ، وفي قمع الشهوات عن قلبه ، فهذا هو القدر الذي يدخل تحت الاختيار ، ويكون طول المجاهدة والمواظبة على العلم وتخليه السر عن الشواغل الدنيوية وتقييده بالتوجه الى الله وحبه وأنسه عدة وذخيرة لحالة سكرات الموت ، إذ المرء يموت على ما عاش عليه ، ويحشر على ما مات عليه ، كما ورد في الخبر (١) . وقد دلت المشاهدة على أن كل أحد يكون عند موته مشغول القلب بما هو الغالب عليه طول عمره ، حيث يظهر منه عنده ذلك ، وأنما الخوف الموجب لسوء الخاتمة هو خاطر سوء يخطر ، ومنه عظم خوف العارفين ، إذ اختلاج الخواطر والاتفاقات المقتضية لكونها مذمومة أو ممدوحة لا يدخل تحت الاختيار دخولاً كلياً ، وإن كان لطول الألف والعادة تأثير ومدخلية ، ولذا إذا أراد الانسان ألا يرى في المنام إلا الأنبياء والأئمة - عليهم السلام - وأحوال الصالحين والعبادات لم يتيسر له ، وإن كانت كثرة الحب والمواظبة على الصلاح والطاعة مؤثرة فيه . وبالجمل : اضطرابات الخيال لا تدخل بالكلية تحت الضبط ، وإن كان الغالب مناسبة ما يظهر في النوم لما غالب في

(١) لم نعثر على مصدر لهذا الخبر ، وجاء ذكر هذا الخبر مرسل في (الحقائق) - ص

٨٨ طبع إيران - للشيخ (ملا محسن الفيض) ولم يذكر المصدر له .

اليقظة . وبذلك يعلم ان أعمال العبد كلها ضائعة إن لم يسلم في النفس الأخير الذي عليه خروج الروح ، وان السلامة مع اضطراب أمواج الخواطر مشكلة ، ولذلك قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة إلا فواق ناقة ، فيختم له بما سبق به الكتاب ، ومعلوم أن فواق الناقة لا يتسع لأعمال توجب الشقاوة ، بل هي الخواطر التي تضرب وتخطر خطوط البرق الخاطف . ومن هنا قيل (١) : « إني لا أعجب ممن هلك كيف هلك ، ولمكني أعجب ممن نجا كيف نجا ، « وورد (٢) : « أن الملائكة إذا صعدت بروح المؤمن ، وقد مات على الخير والاسلام ، تعجبت الملائكة منه ، وقالوا : كيف نجا من دنيا فسد فيها خيارنا . » ولذلك قيل (٣) : « من وقعت سفينته في لجة البحر ، وهجمت عليه الرياح العاصفة ، واضطربت الأمواج ، كانت النجاة في حقه أبعد من الهلاك ، وقلب المؤمن أشد اضطراباً من السفينة ، وأمواج الخواطر أعظم التطاماً من أمواج البحر ، ومقلب القلوب هو الله . ومن هنا يظهر سر قوله : « الناس كلهم هلكي إلا العالمون ، والعالمون كلهم هلكي إلا العاملون ، والعالمون كلهم هلكي إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم » (٤) .

(١) القائل هو (مطرف بن عبدالله) كما في أحياء العلوم : ج ٤ ص ١٥٥ .

(٢) يظهر من كلمة (ورد) ان هذا حديث . وفي أحياء العلوم - ج ٤ ص ١٥٥ - كلام ينقله عن (حامد الآفاق) .

(٣) القائل هو (الغزالي) في أحياء العلوم ، في الصفحة المتقدمة .

(٤) جاء نص هذا الكلام في أثناء كلام (الغزالي) في أحياء العلوم - ج ٤ ص ١٥٦ - وكأنه من كلام نفسه . إلا انه جاء نص هذه العبارة في (مجموعة الشيخ ورام) ص ٣٢٠ ، عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - منسلاً . وكذلك جاء في (مصباح الصريفة) المنسوب إلى الصادق - عليه السلام - في الباب ٧٧ ما يقرب من هذا النص . فإذا فطن أراد المؤلف بقوله : (سر قوله) ، هل أراد الغزالي يا ترى ؟ .

ولأجل هذا الخطر العظيم كانت الشهادة مطلوبة وموت الفجأة مكروها ،
اذ موت الفجأة ربما يتفق عند غلبة خاطر سوء واستيلائه على القلب .
واما الشهادة في سبيل الله فانها عبارة عن قبض الروح في حالة لم يبق في
القلب غير حب الله ، وخرج حب الدنيا والمال والولد . فإن من هجم على صف
القتال بأمر الله وأمر رسوله يكون موطناً نفسه على الموت لرضا الله وحبه ،
بائناً دنياه بآخرته ، راضياً بالبيع الذي بايعه الله به في قوله :

« إِنْ أَلَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ
بِأَنْ لَّهُمُ الْجَنَّةَ » (١) .

وبذلك يظهر أن القتل لا بسبب الشهادة التي حقيقتها ما فسر ، لا يفيد
الاطمئنان من هذا الخطر ، وإن كان ظاهراً ، وإن كان في الجهاد ، إذا لم تكن
هجرة فيه الى الله ورسوله ، بل الى دنيا يصيبها أو امرأة يأخذها .

وقد ظهر مما ذكر : ان سوء الخاتمة باختلاف أسبابه راجع الى احوال
القلب ، وحالة القلب إما خاطر خير أو خاطر سوء أو خاطر مباح ، فمن زهق
روحه على خاطر مباح لم يمكن الحكم بانه ختم على خير أو سوء . بل أمره الى
الله ، وان كانت النجاة له اقرب بعد غلبة صالحات أعماله على فاسداتها ، ومن
زهق روحه على خاطر سوء وهو أحد الخواطر المتقدمة :

« فَقَدْ ضَلَّ سَبِيلَهُ بِمَعِيدٍ » ، و « خَسِرَ خُسْرَانًا
مُبِينًا » (٢) .

ومن زهق روحه على خاطر خير وهو ان يكون قلبه في حالة الموت

(١) التوبة ، الآية : ١١١ .

(٢) النساء ، الآية : ١١٦ ، ١١٩ .

متوجهاً الى الله ممتلياً من حبه وأنسه ، فقد فاز فوزاً عظيماً ، . وهذا موقوف على المجاهدة في فطام النفس عن الشهوات الحيوانية ، وإخراج حب الدنيا عنها رأساً ، والاحتراز عن فعل المعاصي ومشاهداتها والتفكير فيها ، وعن مجالسة أهلها واستماع حكاياتهم ، بل عن مباحات الدنيا بالسكينة ، وتخليه السر عما سوى الله ، والانقطاع بشراشره اليه ، وإخراج محبة كل شيء سوى محبته عن قلبه ، حتى يصير حبه سبحانه والانس به ملكة راسخة ، ليغلب على القلب عند سكرة الموت ، وبدون ذلك لا يمكن القطع بذلك ، كيف وقد علمت أن الغشية المتقدمة على الموت شبه النوم ، وأنت في غالب الرؤيا الظاهرة عليك في المنام لا تجد في قلبك حباً لله وأنساً به وتوجهاً اليه ، بل لا يخطر ببالك أن لك رباً متصفاً بالصفات السكالية ، بل ترى ما كنت تألفه وتعتاده من الأمور الباطلة والخيالات الفاسدة ، فإن زهق روحك عند اشتغال خاطرك بشيء من الأمور الدنيوية ، ولم يكن متوجهاً الى الله ومستحضراً معرفته ومبتهجاً بحبه وأنسه ، لبقيت على تلك الحالة أبداً ، وهو الشقاوة العظمى والخبية الكبرى .

فتيقظ - يا حبيبي - من سنة الغفلة ، وتنبه عن سكر الطبيعة ، وإخراج حب الدنيا عن قلبك ، وتوجه بشراشرك الى جناب ربك ، واكتف من الدنيا بقدر ضرورتك ولا تطلب منها فوق حاجتك ، واقنع من الطعام بما يقيم صلبك ولا تنكسر التناول منه ليزيل من ربك قربك ، وارض من اللباس بما يستر عورتك ولا يظهر للناس سوءتك ، واكتف من المسكن بما يحول بينك وبين الأبصار ويدفع عنك حر الشمس وبرد الأمطار ، فإن جاوزت عن ذلك تشعبت همومك وتنكثرت غمومك ، واحاط بك الشغل الدائم والعناء اللازم ، وذهب عنك جل خيراتك وضاعت بركات أوقاتك . وبعد ذلك راقب قلبك

في جميع الأوقات ، وإياك أن تهمله لحظة من اللحظات ، واحفظه من أن يكون محلاً لغير معرفة الله وحبه ، وليكن القرب إلى الله والانس به غاية همك ، إذ العاقل إنما يميل ويشتاق إلى ما هو الأشرف والأكمل ، ويسر ويرتاح بماله أحسن وانفع ، ولا ريب في أن اشرف الموجودات وأكملها هو سبحانه ، بل هو الموجود الحقيقي والكمال الواقعي ، وغيره من الموجودات والكمالات من لوازم فيضه ورشحات وجوده وفضله ، وله غاية ما يتصور من العلو والكمال والبهاء والجلال ، وإن معرفته وحبه أحسن الأشياء وانفعها لكل أحد ، لأنه الباعث للسعادة الأبدية والبهجة الدائمة ، فلا ينبغي للعاقل أن يترك ذلك اشتغالا بفضول الدنيا وخسائسها ، بل يلزم عليها أن يترك حبلها على غاربها ، ويخلص نفسه الشريفة عن مخالبتها ، ويتوجه بكليته إلى جناب ربه ، ولم يكن فرحه وابتهاجه إلا بحبه وأنسه .

فصل

(الفرق بين الاطمئنان والأمن من مكر الله)

ضد الخوف المذموم هو اطمئنان القلب في الأمور المذكورة، ولا ريب في كونه فضيلة وكالا ، إذ قوة القلب وعدم اضطرابه مما يحكم العقل بعدم الحذر عنه صفة كمال ، ونقيضه نقص ورذيلة .

وأما الخوف الممدوح ، فضده الأمن من مكر الله ، وهو من المهلكات ، وقد ورد به الذم في الآيات والأخبار ، قال الله سبحانه :

« فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ » (١)

وقد ثبت بالتواتر : أن الملائكة والأنبياء كانوا خائفين من مكره ، كما

روى : « انه لما ظهر على ابليس ما ظهر ، طفق جبرئيل وميكائيل يبكيان ، فأوحى الله اليهما : ما لكما تبكيان ؟ فقالا : يا رب ! لا نأمن مكرك . فقال الله : هكذا كونا ، لا تأمنا مكرى . » وروى : « أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وجبرئيل بكيا من خوف الله تعالى ، فأوحى الله اليهما : لم تبكيان وقد أمنتكما ؟ فقالا : ومن يأمن مكرك ؟ وكأنهما لم يأمنا أن يكون قوله (قد أمنتكما) ابتلاء لهما وامتحاناً ، حتى أن سكن خوفهما (١) ظهر أنهما قد أمنا المسكر وما وفيا بقولهما ، كما أن ابراهيم عليه السلام لما وضع في المنجنيق قال : حسبي الله . وكان هذا القول منه من الدعاوى العظيمة ، فامتحن وعرض بجبرئيل عليه السلام في الهواء حتى قال : ألك حاجة ؟ قال : أما اليك فلا . وكان ذلك وفاء بمقتضى قوله ، فاخبر الله تعالى عنه وقال :

« وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى » (٢)

وبالجملة : ينبغي للمؤمن ألا يأمن من مكر ربه ، كما لم يأمن منه الملائكة والانبيا ، واذا لم يأمن منه كان خائفاً منه دائماً .

(تتميم)

(التلازم بين الخوف والرجاء)

الرجاء ارتياح القلب لا انتظار المحبوب ، وهو يلزم الخوف ، إذ الخوف - كما عرفت - عبارة عن التألم من توقع مكروه ممكن الحصول ، وما يمكن حصوله يمكن عدم حصوله أيضاً ، وما كان حصوله مكروهاً كان عدم حصوله محبوباً ، فكما انه يتألم بتوقع حصوله يرتاح ليتوقع عدم حصوله أيضاً ، فالخوف عن شيء وجوداً يلزمه الرجاء عدماً ، وعنه عدماً يلزمه الرجاء

(١) هذه العبارة ابيان الابتلاء والامتحان ، بمعنى : انهما يخشيان إذا سكن خوفهما أن يظهر انهما قد أمنا المسكر ولم يوفيا بقولهما فيكون ذلك امتحاناً لهما .

(٢) النجم ، الآية : ٢٧ .

وجوداً . وقس عليه استلزام الرجاء للخوف ، فهما متلازمان ، وإن أمكن غلبة أحدهما نظراً إلى كثرة حصول أسبابه . وإن تيقن الحصول أو عدمه لم يكن انتظارهما خوفاً ورجاءً ، بل سمي انتظار مكروه أو انتظار محبوب .

ثم كما أن الخوف من متعلقات قوة الغضب ، وإن الممدوح منه من فضائلها ، لسكونه مقتضى العقل والشرع ، وباعثاً للعمل من حيث الرهبة ، فكذا الرجاء متعلق بها ومن فضائلها ، لسكونه مقتضاهما وباعثاً للعمل من حيث الرغبة . إلا أن الخوف لترتبته على ضعف القلب يكون أقرب إلى طرف التفريط ، والرجاء لترتبته على قوته يكون أقرب إلى طرف الإفراط ، وإن كان كلاهما ممدوحين . ثم لا بد أن يحصل أكثر أسباب حصول المحبوب حتى يصدق اسم الرجاء على انتظاره ، كتوقع الحصاد من ألقى بذراً جيداً في أرض طيبة يصلها الماء . وأما انتظار مالم يحصل شيء من أسبابه فيسمى غروراً وحماقة ، كتوقع من ألقى بذراً في أرض سبخة لا يصلها الماء . وانتظار ما كان أسبابه مشكوكاً يسمى تمنياً ، كما إذا صلحت الأرض ولا ماء .

وتفصيل ذلك : أن الدنيا مزرعة الآخرة ، والقلب كالأرض ، والإيمان كالبذر ، والطاعات هي الماء الذي تسقى به الأرض ، وتطهير القلب من المعاصي والأخلاق الذميمة بمنزلة تنقية الأرض من الشوك والأحجار والنباتات الخبيثة ، ويوم القيامة هو وقت الحصاد . فينبغي أن يقاس رجاء العبد (المغفرة) برجاء صاحب الزرع (التنمية) ، وكما أن من ألقى البذر في أرض طيبة ، وساق إليها الماء في وقته ، ونقاها الشوك والأحجار ، وبذل جهده في قلع النباتات الخبيثة المفسدة للزرع ، ثم جلس ينتظر كرم الله ولطفه مؤملاً أن يحصل له وقت الحصاد مائة قفيز مثلاً ، سمي انتظاره رجاء ممدوحاً ، فكذلك العبد إذا طهر أرض قلبه عن شوك الأخلاق الرديئة وبث فيه بذر الإيمان بماء

الطاعات ، ثم انتظر من فضل الله تثبيته الى الموت وحسن الخاتمة المفضية الى المغفرة ، كان انتظاره رجاء حقيقياً محموداً في نفسه . وكما أن من تغافل عن الزراعة واختار الراحة طول السنة ، أو ألقى البذر في أرض سبخة مرتفعة لا ينصب إليها ماء ، ولم يشتغل بتعمد البذر واصلاح الأرض من النباتات المفسدة للزرع ، ثم جلس منتظراً الى أن يثبت له زرع يحصده ، سمي انتظاره حمقاً وغروراً . كذلك من لم يلق بذر الايمان في أرض قلبه ، أو ألقاه فيه مع كونه مشحوناً برذائل الأخلاق منهمكاً في خسائس الشهوات واللذات ، ولم يسق إليها ماء الطاعات ، ثم انتظر المغفرة ، كان انتظاره حمقاً وغروراً . وكما أن من بث البذر في أرض طيبة لاماء لها ، وجلس ينتظر مياه الأمطار حيث لا تغلب الأمطار ، وإن لم يمتنع أيضاً ، سمي انتظاره تمنياً . كذلك من ألقى بذر الايمان في أرض قلبه ، ولكنه لم يسق اليه ماء الطاعات ، وانتظر المغفرة بلطفه وفضله ، كان انتظاره تمنياً .

فاذن ، اسم (الرجاء) إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ، ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختياره ، وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات . فالأحاديث الواردة في الترغيب على الرجاء وفي سعة عفو الله وجزيل رحمته ووفور مغفرته ، إنما هي مخصوصة بمن يرجو الرحمة والغفران بالعمل الخاص المعد لخصولها ، وترك الانهماك في المعاصي المقوت لهذا الاستعداد . فاحذر أن يفرك الشيطان ويثبطك عن العمل ويقنعك بمحض الرجاء والامل . وانظر الى حال الأنبياء والأولياء واجتهادهم في الطاعات وصرفهم العمر في العبادات ليلاً ونهاراً ، أما كان يرجون عفو الله ورحمته ؟ بلى والله ! إنهم كانوا أعلم بسعة رحمة الله وأزجى لها منك ومن كل أحد ، ولكن علموا أن رجاء الرحمة من دون العمل

غرور محض وسفه بحت ، فصرفوا في العبادات أعمارهم وقصروا على الطاعات ليلهم ونهارهم .

ونحن نشير ﴿أولاً﴾ الى بعض ماورد في الرجاء من الآيات والأخبار، ثم نورد نبذاً مما يدل على انه لا معنى للرجاء بدون العمل ، ليعلم أن اطلاق الأول محمول على الثاني . فنقول : الظواهر الواردة في الرجاء أكثر من أن تحصى ، وهي على أقسام :

(الأول) ماورد في النهي عن القنوط واليأس من رحمة الله كقوله تعالى :

« يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ

لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ » (١) .

وقول على عليه السلام لرجل أخرجه الخوف الى القنوط لكثرة ذنوبه :

« أيا هذا ! يأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك ، . وما روى : « أنه - صلى الله عليه وآله وسلم - لما قال : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ولخرجتم الى الصعدات تلدسون صدوركم وتجارون الى ربكم . فبسط جبرئيل عليه السلام فقال : إن ربك يقول : لم تقنط عبادي ؟ فخرج عليهم ورجاهم وشوقهم . . وما ورد : « أن رجلاً من بني اسرائيل كان يقنط الناس ويشدد عليهم ، فيقول الله له يوم القيامة : اليوم أويسك من رحمتي كما كنت تقنط عبادي منها ، .

(الثاني) ما ورد في الترغيب على خصوص الرجاء وكونه سبب النجاة ،

كما ورد في أخبار يعقوب من « أنه تعالى أوحى اليه أتدرى لم فرقت بينك وبين يوسف ؟ لقولك :

« وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ » (٢)

(٢) يوسف ، الآية : ١٣ .

(١) الزمر ، الآية : ٥٣ .

لم خفت الذئب ولم ترجنى ؟ ولم نظرت الى غفلة اخوته ولم تنظر الى
حفظي ؟ ، وقول أمير المؤمنين عليه السلام لرجل قال عند النزول : أجدني أخاف ذنوبي
وأرجو رحمة ربي : « ما اجتماعا في قلب عبد في هذا الموطن إلا أعطاه الله
مارجا وأمنه مما يخاف » (١) . وقول النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - : « إن
الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة : ما منعك اذ رأيت المنكر أن تنكره ؟ فان
لقنه الله حجته » قال : رب رجوتك وخفت الناس ، فيقول الله : قد غفرتك
لك . وما روى عنه - صلى الله عليه وآله وسلم - : « ان رجلاً يدخل النار
فيمكث فيها ألف سنة ينادى يا حنان يا منان ، فيقول الله لجبرئيل : اذهب
فأتني بعبدى ، فيجىء به ، فيوقفه على ربه ، فيقول الله له : كيف وجدت
مكانك ؟ فيقول : شر مكان ، فيقول : رده الى مكانه . قال : فيمشى ويلتفت
الى ورائه ، فيقول الله عز وجل : الى أى شيء تلتفت ؟ فيقول : لقد رجوت
ألا تعيدنى اليها بعد إذ أخرجتني منها ، فيقول الله تعالى : اذهبوا به الى الجنة .
وقوله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « قال الله تعالى : لا يتكل العاملون على
أعمالهم التي يعملونها لثوابي ، فانهم لو اجتهدوا وأتعبوا أنفسهم اعمارهم في
عبادتي ، كانوا مقصرين غير بالغين في عبادتهم كمنه عبادتي ، فيما يطلبون عندي
من كرامتي ، والنعيم في جناتي ، ورفيع الدرجات العلى في جوارى ، ولكن
برحمتي فليثقوا ، والى حسن الظن بي فليطمئنوا ، وفضلى فليرجوا (٢) ، فان
رحمتي عند ذلك تدركهم ، ومني يبلغهم رضواني ، ومغفرتي تلبسهم عفوى ،
فانى أنا الله الرحمن الرحيم وبذلك تسميت » . وعن أبي جعفر عليه السلام قال :

(١) روى (احياء العلوم : ج ٤ ص ١٢٥) هذا الحديث عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - .

(٢) في الكافي (باب حسن الظن بالله عز وجل) تقديم وتأخير عما هنا ، وقد جاء
فيه : « وفضلى فليرجوا والى حسن الظن بي فليطمئنوا » .

« وجدنا في كتاب علي عليه السلام ان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قال وهو على منبره : والذي لا إله إلا هو ما أعطى مؤمن قط خير الدنيا والآخرة إلا بحسن ظنه بالله ورجائه له و«حسن خلقه» والكشف عن اغتياب المؤمنين ، والذي لا إله إلا هو لا يعذب الله مؤمناً بعد التوبة والاستغفار إلا بسوء ظنه بالله وتقصيره من رجائه وسوء خلقه واغتيابه للمؤمنين ، والذي لا إله إلا هو لا يحسن ظن عبد مؤمن بالله إلا كان الله عند ظن عبده المؤمن ، لأن الله كريم بيده الخيرات يستحي (١) أن يكون عبده المؤمن قد أحسن به الظن ثم يختلف ظنه ورجاءه ، فاحسنوا بالله الظن وارغبوا إليه . »

(الثالث) ما ورد في استغفار الملائكة والأنبياء للمؤمنين كقوله تعالى :

« وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ

لِمَن فِي الْأَرْضِ » (٢) .

وقوله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « حياتي خير لكم وموتي خير لكم ، أما حياتي فاسن لكم السنن واشرع لكم الشرائع ، وأما موتي فان أعمالكم تعرض علي ، فما رأيت منها حسناً حمدت الله عليه وما رأيت منها سيئاً استغفرت الله لكم . »

(الرابع) ما ورد في تأجيل المذنب الى ان يستغفر ، كقول الباقر عليه السلام - : « إن العبد اذا أذنب أجل من غدوة الى الليل ، فان استغفر لم يكتب عليه » (٣) . وقول الصادق عليه السلام : « من عمل سيئة أجل فيها سبع

(١) في الكافي في (باب حسن الظن) : (يستحي) .

(٢) الشورى ، الآية : ٥ .

(٣) روى الكافي في (باب الاستغفار من الذنب) . هذا الحديث عن الصادق

- عليه السلام - .

ساعات من النهار ، فان قال : استغفر الله الذي لا إله إلا هو الحى القيوم
واتوب اليه ثلاث مرات ، لم تكتب عليه . .
(الخامس) ما ورد في شفاعته النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -
كقوله تعالى :

« وَلَسَوْفَ يُمْسِكُ بِكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى » (١)

وقد ورد في تفسيره انه لا يرضى محمد وواحد من أمته في النار ،
وقوله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « ادخرت شفاعتى لأهل الكبائر من
أمتى ، وكذا ما ورد في شفاعته الأئمة والمؤمنين .

(السادس) ما ورد من البشارات للشيعة ومن عدم خلودهم في النار ،
ومن أن حب النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - والعتر الطاهرة ينجيهم من
العذاب ، وإن فعلوا ما فعلوا .

(السابع) ما دل على أن النار إنما أعدها الله لأعدائه من الكافرين ،
وإنما يخوف بها أوليائه ، كقوله تعالى :

« لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَ مِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ »
ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ » (٢) ، وقوله : « وَاتَّقُوا النَّارَ
الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ » (٣) وقوله : « لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى »
الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى » (٤) .

(١) الضحى ، الآية : ٥ .

(٢) الزمر ، الآية : ١٦ .

(٣) آل عمران ، الآية : ١٣١ .

(٤) الليل ، الآية : ١٥ - ١٦ .

(الثامن) ما ورد في سعة عفو الله ومغفرته ووفور رأفته ورحمته، كقوله:

«وَإِنْ رَبُّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ» (١)

وما روى في تفسير قوله تعالى:

«يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّسِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ» (٢):

«ان الله أوحى الى نبيه: إني أجعل حساب أمتك اليك، فقال: لا يارب! أنت خير لهم مني» (٣)، فقال: إذن لا أخزيك فيهم، وما روى: «انه صلى الله عليه وآله وسلم - قال يوماً: يا كريم العفو! فقال جبرئيل: أتدرى ما تفسير يا كريم العفو؟ هو: انه يعفو عن السيئات برحمته ثم يبدلها حسنات بكرمه» (٤). وما ورد: أن العبد إذا أذنب فاستغفر، يقول الله لملائكته: انظروا الى عبدى أذنب ذنباً، فعلم أنه له رباً يغفر الذنوب ويأخذ بالذنب، أشهدكم أنى قد غفرت له. وما ورد في الخبر القدسي: «إنما خلقت الخلق ليرجوا على، ولم أخلقهم لأرجع عليهم». وما ورد من: «أنه لو لم يذنبوا، لخلق الله تعالى خلقاً يذنبون ليغفر لهم، وقوله - صلى الله عليه وآله وسلم -: «والذى نفسى بيده. الله أرحم بعبدته المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها». وما ورد من: «أنه سبحانه ليغفرن يوم القيامة مغفرة ما خطرت قط على قلب أحد، حتى أن ابليس يتناول لها رجاء أن تصيبه». والآيات والأخبار الواردة في هذا المعنى متجاوزة عن حد التواتر.

(١) الرعد، الآية: ٦.

(٢) النحر، الآية: ٨.

(٣) فى (أحياء العلوم: ج ٤ من ١٢٨) هكذا: «أنت أرحم بهم مني»؛ وكذا

بدل لا أخزيك: «لا تخزيك».

(٤) فى (أحياء العلوم: ج ٤ من ١٢٩) هكذا: «هو ان عفا عن السيئات

برحمته يبدلها حسنات بكرمه».

(التاسع) ما دل على أن ابتلاء المؤمن في الدنيا بالبلايا والأمراض كفرارة لذنوبه ، كقوله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « الحى من قبح جهنم ، وهى حظ المؤمن من النار » .

(العاشر) - ما ورد فى أن الإيمان لا يضر معه عمل ، كما أن الكفر لا ينفع معه عمل ، وفى أنه قد يغفر الله عبداً ويدخله الجنة لأجل مثقال ذرة من الإيمان أو عمل جزئى من الأعمال الصالحة .

(الحادى عشر) ما ورد فى الترغيب على حسن الظن بالله ، كقوله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله » ، وقوله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « يقول الله تعالى : أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء » . وقول الرضا عليه السلام : « أحسن الظن بالله ، فإن الله عز وجل يقول : أنا عند ظن عبدي لي ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر » . وقول الصادق عليه السلام : « حسن الظن بالله : ألا ترجو إلا الله ، ولا تخاف إلا ذنبك » . وقد تقدم بعض أخبار آخر فى هذا المعنى . ثم ايجاب حسن الظن للرجاء وجلبه له بما لا ريب فيه .

(الثانى عشر) ما دل على أن الكفار أو النصاب يكونون يوم القيامة فداء للمؤمنين أو الشيعة ، كما روى أنه - صلى الله عليه وآله وسلم - قال : « امتى أمة مرحومة لا عذاب عليها فى الآخرة ، وعجل عقابها فى الدنيا بالزلازل والفتن ، فإذا كان يوم القيامة دفع إلى كل رجل من امتى رجل من أهل الكتاب ، ففيل هذا فداؤك من النار » . وعن أهل البيت - عليهم السلام - : « أن النصاب يجعلون فداء لشيعتنا بظلمهم أيامهم ووقيعتهم فيهم » . وعن الصادق عليه السلام : « سيؤتى بالواحد من مقصرى شيعتنا فى أعماله ، بعد أن صان الولاية والتقية وحقوق اخوانه ، ويوقف بازائه ما بين مائة وأكث من ذلك إلى مائة ألف من النصاب ، فيقال

له : هؤلاء فداؤك من النار ، فيدخل هؤلاء المؤمنون الى الجنة وأولئك النصاب الى النار ، وذلك ما قال الله تعالى :

« رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ » (١)

في الدنيا منقادين للامامة ، ليجعل مخالفوهم من النار فداءهم .
وأما (الثاني) - اعني ما يدل على أن رجاء المغفرة والعفو والرحمة إنما هو بعد العمل - فأكثر من أن يحصى ، كقوله تعالى :

« إِنِّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاءَهُمُ الْبَيْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ » (٢) . وقوله : « تَخَلَّفَ مِنْ بَعْدِهِمْ
تَخَلَّفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَا خُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى
وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا » (٣) .

وقول النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - : « الكيس من دان نفسه وعمل
لما بعد الموت ، والاحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الجنة » . وما روى
عن الصادق عليه السلام أنه قيل له : قوم يعملون بالمعاصي ويقولون : نرجوا ، فلا
يزالون كذلك حتى يأتيهم الموت ، فقال : « هؤلاء قوم يترجعون في الاماني
كذبوا ليسوا براجين ، وإن ، (٤) من رجا شيئاً طلبه ، ومن خاف من شيء
هرب منه » . وعن علي بن محمد ، قال : قلت له عليه السلام : إن قوماً من مواليك يلبون
بالمعاصي ويقولون نرجوا ، فقال : « كذبوا ، ليسوا لنا بموال ، أولئك قوم

(١) الحجر ، الآية : ٢ .

(٢) البقرة ، الآية : ٢١٨ .

(٣) الأعراف ، الآية : ١٦٩ .

(٤) روى الحديث في السكاني (باب الرجاء) ، وليس فيه كلمة « إن » .

ترجحت بهم الأمانى . من رجا شيئاً عمل له ، ومن خاف شيئاً هرب منه ، .
وعنه قال : . لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون خائفاً راجياً ، ولا يكون خائفاً
راجياً حتى يكون عاملاً لما يخاف ويرجو . .

فصل

(مواقع الخوف والرجاء وترجيح أحدهما على الآخر)

قد عرفت أن الخوف والرجاء محمودان ، لسكونهما باعثن على العمل ،
ودوامين يداوى بهما أمراض القلوب ، ففضل كل منهما إنما هو بحسب ما يترتب
عليه من فائدة العمل ومعالجة المرض .

وهذا يختلف باختلاف الأشخاص : فمن كان تأثير الخوف في بعثه
على العمل أكثر من تأثير الرجاء فيه ، فالخوف له أصلح من الرجاء ، ومن
كان بالعكس فبالعكس . ومن غلب عليه مرض الأمن من مكر الله والاعتزاز
به ، فالخوف له أصلح . ومن غلب عليه اليأس والقنوط ، فالرجاء له أصلح .
ومن انهمك في المعاصي ، فالخوف له أصلح . ومن ترك ظاهر الآثم وباطنه
وخفيه وجليه ، فالأصلح له أن يعتدل خوفه ورجاؤه .

والوجه في ذلك : أن كل ما يراد به المقصود ، ففضله إنما يظهر
بالإضافة إلى مقصوده لا إلى نفسه ، فلو فرض تساويهما في البعث على
العمل ولم يغلب شيء من المذكورات ، فالأصلح اعتدالهما ، كما قال أمير المؤمنين
عليه السلام لبعض ولده : يا بني ! خف الله خوفاً ترى أنك إن أتيت به بحسنات
أهل الأرض لم يتقبلها منك ، وارج الله رجاء كأنك لو أتيت به بسيئات أهل
الأرض غفرها لك . . وقال الباقر عليه السلام : ليس من عبد مؤمن إلا وفي قلبه
نوران : نور خيفة ، ونور رجاء ، لو وزن هذا لم يزد على هذا ، وقد جمع

الله سبحانه بينهما في وصف من أثنى عليهم ، فقال : يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ، وقال : يدعوننا رغباً ورهباً ، وعن الحارث بن المغيرة قال : قلت للصادق عليه السلام : ما كان في وصية لقمان ؟ قال : « كان فيها الأعاجيب ، وكان أعجب ما كان فيها أن قال لابنه : خف الله عز وجل خيفة لو جثته ببر الثقلين لعذبك ، وارج الله رجاء لو جثته بذنوب الثقلين لرحمك ، ثم قال عليه السلام : « كان أبي يقول : إنه ليس من عبد مؤمن إلا وفي قلبه نوران : نور خيفة ، ونور رجاء ، لو وزن هذا لم يزد على هذا ، ولو وزن هذا لم يزد على هذا ، .

وقال عليه السلام : « الخوف رقيب القلب ، والرجاء شفيع النفس ، ومن كان بالله عارفاً كان من الله خائفاً واليه راجياً ، وهما جناحا الايمان ، يطير العبد المحلق بهما الى رضوان الله ، وعينا عقله ، يبصر بهما الى وعد الله ووعيده ، والخوف طالع عدل الله وناعى وعيده ، والرجاء داعى فضل الله ، وهو يحيى القلب ، والخوف يميت النفس ... ومن عبد الله على ميزان الخوف والرجاء لا يضل ، ويصل الى مأموله ، وكيف لا يخاف العبد وهو غير عالم بما تختم صحيفته ، ولا له عمل يتوسل به استحقاقاً ، ولا قدرة له على شئ ولا مفر ، وكيف لا يرجو وهو يعرف نفسه بالعجز ، وهو غريق في بحر آلاء الله ونعمائه ، من حيث لا تحصى ولا تعد ، والمحجب يعبد ربه على الرجاء بمشاهدة أحواله بعين سهر (١) ، والزاهد يعبد على الخوف ، (٢) .

وقد ظهر مما ذكر : أن الرجاء أصلح وأفضل في موضعين : (احدهما) في

(١) هكذا في نسخ هذا الكتاب ونسخة البحار ، ولم نقرأ على استعمال كلمة (سهر)

المبالغة في معنى ساهرة .

(٢) هذه الرواية نقلها في البحار (الجزء الثاني من المجلد ١٥ في باب الخوف والرجاء)

عن مصباح الشريعة . وقد تقدم رأى صاحب البحار في مصباح الشريعة ص ١٢١ في تعليقنا .

وهذه الرواية ظاهرة أنها ليست من أسلوب كلام الامام - عليه السلام - .

حق من تفتت نفسه عن فضائل الأعمال ويقتصر على الفرائض ، وكان الرجاء باعثاً له على التشمير والنشاط للطاعات ، ومثله ينبغي أن يرجي نفسه نعم الله تعالى وما وعد الله به الصالحين في العليين ، حتى ينبعث من رجائه نشاط العباد . (وثانيهما) في حق العاصي المنهك إذا خطر له خاطر التوبة ، فيقنطه الشيطان من رحمة الله ، ويقول له : كيف تقبل التوبة من مثلك ؟ فعند هذا يجب عليه أن يجمع قنوطه بالرجاء ويتذكر ما ورد فيه ، كقوله تعالى :

« لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ » (١) . وقوله : « وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ » (٢) .

ويتوب ويتوقع المغفرة مع التوبة لا بدونها ، إذ لو توقع المغفرة مع الإصرار كان مغروراً . والرجاء الأول يجمع الفتور المانع من النشاط والتشمير ، والثاني يقطع القنوط المانع من التوبة .

فصل

(العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف)

العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف ، لأن أقرب العباد أحبهم إليه ، والحب يغلب بالرجاء . واعتبر ذلك بملكين يخدم أحدهما خوفاً من عقابه والآخر رجاء لعطائه ، ولذلك عير الله أقواماً يظنون سوء الله ، قال : « وَذُرِّكُمْ ظَنُّكُمْ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ » (٣) .

(١) الزمر ، الآية : ٥٣ .

(٢) طه ، الآية : ٨٢ .

(٣) فصلت ، الآية : ٢٣ .

وقال : « وَظَنَّا نُنَمَّ ظُنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا » (٢) .
 وورد في الرجاء وحسن الظن ما ورد - كما تقدم - وفي الخبر : « ان الله تعالى أوحى الى داود : أحبني واحب من يحبني وحبيبي الى خلقي ، فقال : يا رب اكيف احببك الى خلقك ؟ قال : اذكرني بالحسن الجميل ، واذكر آلائي واحساني ، وذكرهم ذلك ، فانهم لا يعرفون مني إلا الجميل ، . ورأى بعض الأكابر في النوم - وكان يكثر ذكر أبواب الرجاء - فقال : « أوقفني الله بين يديه ، فقال : ما الذي حملك على ذلك ؟ فقلت : أردت أن أحبك الى خلقك . فقال : قد غفرت لك ، .

هذا مع ان الرجاء أفضل من الخوف للعبد بالنظر الى مطلعهما ، إذ الرجاء مستقي من بحر الرحمة والخوف مستقي من بحر الغضب . ومن لاحظ من صفات الله ما يقتضي اللطف والرحمة كانت المحبة عليه أغلب ، وليس وراء المحبة مقام . وأما الخوف فمستندة الالتفات الى الصفات التي تقتضي الغضب ، فلا تمازجه المحبة كمازجتها للرجاء . نعم ، لما كانت المعاصي والاغترار على الخلق أغلب ، (لا) سيما على الموجودين في هذا الزمان ، فالأصلح لهم غلبة الخوف ، بشرط ألا يخرجهم الى اليأس وقطع العمل ، بل يحثهم على العمل ، ويكدر شهواتهم ، ويزعج قلوبهم عن الركون الى دار الغرور ، ويدعوهم الى التجافي عن عالم الزور ، إذ مع غلبة المعاصي على الطاعات لا ريب في أصلحية الخوف ، (لا) سيما أن الآفات الخفية : من الشرك الخفي ، والنفاق ، والرياء ، وغير ذلك من خفايا الأخلاق الخبيثة في أكثر الناس موجودة ، ومحبة الشهوات والحطام الدنيوي في بواطنهم كامنة ، وأهوال سكرات الموت واضطراب الاعتقاد عنده ممكنة ، ومناقشات الحساب ورد أعمالهم الصالحة

لأسباب خفية محتملة ، فمن عرف حقائق هذه الامور ، فإن كان ضعيف القلب جباناً في نفسه غلب خوفه على رجائه ، وإن كان قوى القلب ثابت الجأش تام المعرفة استوى خوفه ورجاؤه . وأما أن يغلب رجاءه فلا ، بل غلبته إنما هو من الاغترار وقلة التدبر ، كما في غالب الناس ، بل الاصلح لهم غلبة الخوف ، ولكن قبل الاشراف على الموت ، وأما عنده فالأصلح لهم غلبة الرجاء وحسن الظن ، لأن الخوف جار مجرى السوط الباعث على العمل ، وقد انقضى وقته ، وهو لا يطيق هنا أسباب الخوف ، لأنها تقطع نياط قلبه وتعين على تعجيل موته . وأما روح الرجاء فيقوى قلبه ويحبب اليه ربه الذي اليه رجاءه .

وينبغي ان لا يفارق أحد الدنيا إلا محباً لله ، ليكون محباً للقاءه ، ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن أحب الله ولقاءه ، وعلم انه تعالى ايضاً يحب لقاءه ، اشتاق اليه تعالى ، وكان فرحاً بالقدوم عليه ، إذ من قدم على محبوبه عظم سروره بقدر محبته ، ومن فارق محبوبه اشتد عذابه ومحنه ، فمهما كان الغالب على القلب عند الموت حب الأهل والولد والمال كانت محابه كلها في الدنيا ، فكانت الدنيا جنته ، إذ الجنة هي البقعة الجامعة لجميع المحاب ، فكان موته خروجاً عن الجنة وحيلولة بينه وبين ما يشتهي . وهذا أول ما يلقاه كل محب للدنيا ، فضلاً عما أعد الله له من ضروب الخزي والنكال والسلاسل والأغلال . وأما إذا لم يكن له محبوب سوى الله وسوى معرفته وحبه وانسه ، فالدنيا وعلائقها شاغلة له عن المحبوب ، فالدنيا أول سجنه ، إذ السجن هي البقعة المانعة عن الوصول الى محابه ، فموته خلاص له من السجن وقدم على المحبوب ، ولا يخفى حال من خلص من السجن وخلى بينه وبين محبوبه ، وهذا أول ابتهاج يلقاه من كان محباً لله غير محب للدنيا وما فيها ، فضلاً عما أعد الله

له بما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

فصل

(مداواة الناس بالخوف أو الرجاء على اختلاف امراضهم)

قد عرفت أن المحتاج الى تحصيل دواء الرجاء من غلب عليه اليأس فترك العبادة ، أو غلب عليه الخوف فاسرف فيها حتى أضر بنفسه وأهله . وأما المنهمكون في طغيان الذنوب والمغرورون بما هم فيه من الفساد والخوف - كأكثر أبناء زماننا - فأدوية الرجاء بالنسبة اليهم سموم مهلكة ، إذ لا يزداد سماعهم لها إلا تمادياً في طغيانهم وفساداً في فسادهم وعصيانهم ، فواعظ الخلق ينبغي أن يعرف امراضهم وينظر الى مواقع علمهم ، ويعالج كل علة بما يضادها لا بما يزيدها ، ففي مثل هذا الزمان ينبغي ألا يذكر لهم بواعث الرجاء ، بل يبالغ في ذكر أسباب الخوف ، لئلا يهلكهم ويرديهم بالكلية ، ولا يقصد بموعظته استمالة القلوب وتوقع الثناء من الناس ، فينتقل الى الترغيب على الرجاء لكونه أخف على القلوب وألذ عند النفوس ، فيهلك ويهلكهم ويضل ويضلهم .

وبالجملة : الطريق الى تحصيل الرجاء لمن يحتاج اليه : أن يتذكر الآيات والأخبار المتواترة الواردة فيه وفي سعة رحمته ووفور عفوه ورأفته - كما تقدم شطر منها - ثم يتأمل في لطائف نعمائه وعجائب آلائه لعباده في دار الدنيا ، حتى أعد لهم كل ما هو ضروري لهم في دوام الوجود ، بل لم يترك لهم شيئاً جزئياً يحتاجون اليه نادراً يفوت بفقده ما هو الأصلح الاولى لهم من الزينة والجمال . فاذا لم تقصر العناية الإلهية عن عباده في جميع ما يجب ويحسن لهم من اللطف والاحسان في دار الدنيا - وهي حقيقة دار البلية والمحنة

لا دار النعمة والراحة - ولم يرض أن يفوته شيء من المزايا والمزايا في الحاجة والزينة ، فكيف يرضى في دار الآخرة التي هي دار الفيض والجود بسيماهم الى الهلاك المؤبد والعذاب المخلد ، مع انه تعالى أخبر بأن رحمته سابقة على غضبه ١؟ وأقوى ما يجلب به الرجاء أن يعلم أن الله تعالى خير محض لا شرية فيه أصلاً ، وفياض على الاطلاق ، وإنما أوجد الخلق لافاضة الجود والاحسان عليهم ، فلا بد أن يرحمهم ولا يبيحهم في الزجر الدائم .
از خير محض جز نكوئي نآيد خوش باش كه عاقبت نكوخواهد شد (١)
ومنها :

صفر النفس

وهو ملكة العجز عن تحمل الواردات ، وهو من نتائج الجبن ، ومن خبايا الصفات . وتلزمه الذلة والمهانة ، وعدم الاقتحام في معالي الامور ، والمساحة في النهي عن المنكر والأمر بالمعروف ، والاضطراب بعروض أدنى شيء من البلايا والخاوف . وقد ورد في الاخبار بأن المؤمن يرى عن ذلة النفس ، قال الصادق عليه السلام : « ان الله عز وجل فوض الى المؤمن أموره كلها ولم يفوض اليه أن يكون ذليلاً : أما تسمع الله تعالى يقول :

« وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ » (٢) ؟

فالمؤمن يكون عزيزاً ولا يكون ذليلاً ، أن المؤمن أعز من الجبل ،

(١) وحاصل معنى هذا البيت : (ان الخير المحض لا يصدر عنه إلا الجبل ، فسكن مطمئناً

ان عاقبتك ستكون الى الجبل) .

(٢) المنافقون ، الآية ٨ .

الجليل يستقل منه (٢) بالمعاول والمؤمن لا يستقل من دينه شيء . . . وقال عليه السلام :
« إن الله فوض إلى المؤمن كل شيء إلا إذلال نفسه » . وقد وردت بهذا
المضمون أخبار آخر . وعلاجه ما تقدم في معالجة الجبن .

وصل

(كبر النفس وصلابتها)

وضده (كبر النفس وصلابتها) ، وقد عرفت أنه ملسكة التحمل لما
يرد عليه كائناً ما كان . وقد دلت الأخبار على أن المؤمن ذو صلابة وعزة
ومهابة ، وكل ذلك فرع كبر النفس . قال الباقر عليه السلام : « المؤمن أصلب من
الجليل » ، وقال عليه السلام : « إن الله تعالى أعطى المؤمن ثلاث خصال : العز في
الدنيا والآخرة ، والفلح في الدنيا والآخرة ، والمهابة في صدور الظالمين » .
وصاحب هذه الملسكة لا يبالي بالكرامة والهوان ، ويتساوى عنده الفقر
واليسار والغنى والاعسار ، بل الصحة والمرض والمدح والذم ، ولا يتأثر
بتقلب الأمور والأحوال . وهي ملسكة شريفة ليست شريعة لكل وارد ،
ولا يصل إليها إلا واحد بعد واحد ، بل لا يحوم حولها إلا اوحدي من
أفاضل الحكماء ، أو ألمعى قوى القلب من أمثال العرفاء . وطريق تحصيلها
بعد تذكر شرافتها - أن يتكلف في المواظبة على آثارها والاجتناب عما
ينافيها ، حتى تحصل بالتدريج .

(١) تقدم في صفحة (٢٠٨) مضمون هذا الحديث ، ورجعنا فيه كلمة (يستقل)
بدل (يستقل) وفسرناها ثم بعد التحقيق وجدنا ذلك الحديث المتقدم في أصول الحكاف في
باب صفات المؤمن بكلمة (يستقل) - بالقاف - وكذلك نسخ جامع السعادات هنا وهناك .
وجاء في البحار (الجزء الأول من المجلد ١٥ - باب علامات المؤمن وصفاته ص ٥٩٦) في شرح
هذا الحديث هكذا : « الجليل يستقل منه : من القوة ، أي ينقص ويؤخذ منه بعضه بأفأس
والدول ونحوها » .

(تتميم)

(الثبات أخص من كبر النفس)

قد عرفت أن الثبات أخص من كبر النفس ، وهو ملكة التحمل على الخوض في الأهوال ، وقوة المقاومة مع الشدائد والآلام ، بحيث لا يعتريه الانكسار ، وإن زادت وكثرت . وضده الاضطراب في الأهوال والشدائد ، ومن جملة الثبات الثبات في الايمان ، وهو اطمئنان النفس في عقائدها . بحيث لا يزلزل فيها بالشبهات ، قال الله تعالى :

« يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ » (١) .

وهذا الاطمئنان من شرائط كسب الكمال وفضائل الأعمال ، إذ ما لم تستقر النفس على معتقداتها في المبدأ والمعاد لم يحصل لها العزم البالغ على تحصيل ما يتوقف فائدته عليها ، فمن ليس له هذا الثبات لا تجده ثابتاً ومواظباً على شيء من الأعمال الفاضلة ، بل هو :

« كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ » (٢) .

والمتصف به مواظب لها دائماً من غير فتور . وعدم هذا الثبات لعدم البصيرة الباطنة أو لضعف في النفس . فوجوده يحصل من المعرفة وقوة النفس ، فهو من فضائل العاقلة وقوة الغضب ، وعدمه من رذائل إحداها أو كليهما .

(١) ابراهيم ، الآية : ٢٧ .

(٢) الانعام ، الآية : ٧١ .

ومنها :

دناءة السرمة

وهو قصور النفس عن طلب معالي الأمور وقناعتها بآدانيها ، وهو من نتائج ضعف النفس وصغرها . وضده (علو الهمة) ، وهو ملكة السعي في تحصيل السعادة والكمال وطلب معالي الأمور ، من دون ملاحظة منافع الدنيا ومضارها ، حتى لا يعتريه السرور بالوجدان ولا الحزن بالفقدان ، بل لا يبالى في طريق الطلب بالموت والقتل وأمثالها . وصاحب هذه الملكة هو المؤمن الحقيقي الشائق للبوت ، والموت تحفة له ، وأعظم سرور يصل إليه ، كما ورد في الأخبار . وهو الذي يقول :

آن مرد نیم کز عدمم بیم آید
 کان بیم مرا خوشتر از این بیم آید
 جانی است مرا بعاریت داده خدا
 تسلیم کنم جو وقت تسلیم آید (١)

ويقول :

مرگ اگر مرد است گو نزد من آی
 تا در آغوشش در آرم تنگ تنگ

(١) الأبيات كلها (حافظ الشيرازي) المتقدم ذكره . ومعنى البينين : (است بذلك الرجل الذي يخشى من فناء نفسه ، فإن ما أخشى منه - وهو الموت - أحسن عندي من نفس الخوف منه ، لأن نفسي قد أعازنيها الله تعالى ، فعلى أن أسلمها عندما يطلب تسليم العارية) .

(المقام الثاني)

من از آن عمری ستانم جاودان
آن زمن دلقی ستاندرنگ رنگ (١)

ويقول :

این جان عاريت که بحافظ سپرده دوست

روزی رخس بینم وتسليم وی کنم (٢)

وهذه المأساة من نتائج كبر النفس وشجاعتها ، وهي أعظم الفضائل
الإنسانية ، إذ كل من وصل الى المراتب العظيمة والأمور العالية فأنما وصل
اليها لأجلها ، إذ صاحبها لا يرضى بالمراتب الدنية ، ويشمر لتحصيل المراتب
العالية والأمور المتعالية ، وفي جوهر الانسان وجبلته أن يصل الى كل
ما يجتهد في طلبه :

« وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا » (٣).

من طلب الشيء وجد وجد . ومن افراد علو الهمة الشهامة ، وهو
الحرص على اقتناء عظام الامور توقعا لجميل الذكر على مر الدهور .
ومنها :

عدم الفيرة والحمية

وهو الاهمال في محافظة ما يلزم محافظته : من الدين ، والعرض ،
والأولاد ، والأموال . وهو من نتائج صغر النفس وضعفها ، ومن المماليكات
العظيمة ، وربما يؤدي الى الديانة والقيادة . قال رسول الله - صلى الله عليه

- (١) معنى البيت : (لو ان الموت رجل ، فقل له : يا بني حتى احتضنه شوقاً اليه ،
وألزه لراً - وذلك لأنني آخذ منه الحياة الخالدة وأأخذ مني هذه الزخارف الفانية لاوراث) .
(٢) معنى البيت : (إن هذه النفس العارضة التي أمنها الحبيب عند حافظ - وبني نقه -
لا بد أن أسلمها في يوم من الايام عند ما أرى وجه الحبيب - يعني بالحبيب : الله تعالى -) .
(٣) المنكبات ، الآية : ٦٩ .

وآله وسلم :- « إذا لم يغفر الرجل فهو منكوس القلب » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « إذا غفر الرجل في أهله أو بعض منأكحه من مملوكه فلم يغفر ، بعث الله إليه طائراً يقال له (القندر) حتى يسقط على عارضة بابه ، ثم يمهله أربعين يوماً ، ثم يهتف به : إن الله غيور يحب كل غيور ، فإن هو غار وغير وانكر ذلك فأكبره ، وإلا طار حتى يسقط على رأسه فيخفق بجناحيه على عينيه ثم يطير عنه ، فينزع الله منه بعد ذلك روح الايمان ، وتسميه الملائكة : الديوث » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « كان ابراهيم غيوراً وأنا أغير منه ، وجدع الله أنف من لا يغار على المؤمنين والمسلمين » . وقال أمير المؤمنين عليه السلام : « يا أهل العراق ! نبئت أن نساءكم يدافعن الرجال في الطريق ، أما تستحيون ؟ » . وقال عليه السلام : « أما تستحيون ولا تغارون ، نساؤكم يخرجن الى الأسواق ويزاحمن العلوج ؟ » .

وصل

(الغيرة والحمية)

وضده (الغيرة والحمية) ، وهو السعى في محافظة ما يلزم محافظته ، وهو من نتائج الشجاعة وكبر النفس وقوتها . وهي شرائف الملكات ، وبها تتحقق الرجولية والفحلية ، والفاقد لها غير معدود من الرجال . قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « إن سعداً لغيور ، وأنا أغير من سعد ، والله أغير مني » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « إن الله لغيور ، ولاجل غيرته حرم الفواحش » . وقال : « إن الله يغار ، والمؤمن يغار ، وغيره الله أن يأتي الرجل المؤمن ما حرم الله عليه » . وقال الصادق عليه السلام : « إن الله تعالى غيور ويحب الغيرة ، ولغيرته حرم الفواحش ظاهرها وباطنها » .

فصل

(الغيرة على الدين والحريم والاولاد)

مقتضى الغيرة والحمية في (الدين) أن يجتهد في حفظه عن بدع
المبتدعين، وانتحال المبطلين، وقصاص المرتدين، واهانة من يستخف به
من المخالفين، ورد شبه الجاحدين، ويسعى في ترويقه ونشر أحكامه، ويبالغ
في تبين حلاله وحرامه، ولا يتساع في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
ومقتضى الغيرة على (الحريم) ألا يتغافل عن مبادئ الأمور التي
تخشى غوائلها، فيحفظهن عن أجانب الرجال، ويمنعن عن الدخول في
الأسواق. قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لفاطمة (ع): «أى شيء
خير للمرأة؟ قالت: أن لا ترى رجلاً ولا يراها رجل. فضمها إليه،
وقال: ذرية بعضها من بعض،. وكان أصحاب النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -
يسدون الثقب والكوى في الحيطان، لئلا تطلع النساء على الرجال.
وقال - صلى الله عليه وآله وسلم -: «من أطاع امرأته أكره الله على وجهه
في النار». وما روى أنه - صلى الله عليه وآله وسلم -: «أذن للنساء في حضور
المساجد، وقال: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»، فالظاهر أنه كان مختصاً
بنساء عصره - صلى الله عليه وآله وسلم -: لعلمه بعدم ترتب فساد على
حضورهن فيها. والصواب اليوم أن يمنع من حضور المساجد والذهاب إلى
المشاهد إلا العجائز منهن، للقطع بترتب الفساد والمعصية على خروج نساء
هذا العصر إلى أى موضع كان. وسئل الصادق عليه السلام عن خروج النساء في
العيدين، فقال: «لا! إلا العجوز عليها منقلاها»، يعنى الحففين. وفي رواية
أخرى أنه عليه السلام: «سئل عن خروج النساء في العيدين والجماعة، فقال: لا! إلا امرأة مسنة».

وبالجملة: من اطلع على أحوال نساء أمثال عصرنا يعلم أن مقتضى الغيرة أن يبالغ في حفظهن عن جميع ما يحتمل أن يؤدي إلى فتنه وفساد ، سواء كان في نفسه محرماً ، كالنظر إلى الرجال الأجانب واستماع كلامهم بلا ضرورة شرعية وارتكاب الملامى المحرمة ، أولاً ، كالخروج عن البيت بلا داع شرعي أو ضروري ، ولو إلى المساجد والمشاهد المشرفة ومجامع تعزية مولانا أبي عبدالله الحسين عليه السلام ، إذ ذلك وإن كان في نفسه راجحاً إلا أن الغالب عدم انفكاكه عما ينافي الغيرة والحمية على ما هو المشاهد في عصرنا ، فإن أقل ما في الباب أنه لا ينفك عن نظرهن إلى الأجانب واستماع كلامهم ، بل عن نظرهم اليهن واستماع كلامهن ، وهذا خروج للطرفين إلى الانحراف عن قانون العفة . مع أننا نعلم قطعاً أن خروج أكثرهن لا يخلو عن غرض فاسد أو مرجوح ، وما أقل فيهن أن يكون خروجها إلى أحد المواضع المذكورة لمحض القرابة والثواب . فالصواب أن يمتنع في أمثال هذا العصر عن مطلق الخروج ، إلا إلى سفر واجب ، كالحج ، أو إلى بيت عالم عادل لاخذ ما يجب عليهن من المسائل ، إذا لم يتمكن أزواجهن من أخذها وإيصالها اليهن . نعم ، لو فرض خروجها إلى أحد المشاهد أو إلى مجمع تعزية من مجامع النساء بل إلى مجمع العرس ، على نحو اطمأن الزوج منها وتيقن بعدم حدوث ما ينافي الغيرة وعدم ترتب فساد ومعصية وريبة عليه ، فالظاهر جواز الاذن بل رجحانه . وجميع ذلك إنما هو في الشواب من النساء ، وأما العجائز فلا بأس بخروجهن إلى المواضع المذكورة ! ومقتضى الغيرة أن يمتنع من استماع الكلمات الملهية والحكايات المهيجة للشهوة ، وعن مجالسة العجائز اللاتي يحضرن مجامع الرجال وينقلن حكاياتهم وقصصهم ، لأنهن ناقصات العقل والایمان ، ومع ذلك شهوتهن في غاية القوة والغلبة ، فاستماعهن لشيء من المذكورات يوجب ثوران الشهوة

وهيجانها فيهن ، فلما لم يكن فيهن قاهر العقل ومانع الايمان فربما أدى ذلك الى فساد عظيم . ولذلك ورد في الاخبار منعهن عن تعلم سورة يوسف عليها السلام ، إذ استماعهن لأمثال القصة المذكورة فيها ربما أدى الى انحرافهن عن طريق الحق . قال أمير المؤمنين عليه السلام : « لا تعلموا نساءكم سورة يوسف ولا تقرأوهن إياها فان فيها الفتن ، وعلوهن سورة النور فان فيها المواعظ ، . وقال عليه السلام : « لا تحملوا الفروج على السروج فتهيجوهن للفجور ، . وقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « لا تنزلوا النساء الغرف ولا تعلموهن الكتابات وعلوهن الغزل وسورة النور ، .

وبالجملة : مقتضى العقل والنقل أن يمنع عن جميع ما يمكن أن يؤدي الى فساد وريبة ، وعن مبادئ الامور التي تخاف غوائلها ، وينبغي لصاحب الغيرة أن يجعل نفسه مهيباً في نظرها ، حتى تكون منه على خوف وحذر ، ولا تطمئن منه فتتبع هواها وما تقتضيه جبلتها ، وأن يجعلها مشغولة في كل وقت بأمر من الامور ، كتدبير المنزل وإصلاح أمر المعيشة ، أو بكسب من المكاسب ، حتى يكون لها دائماً شغل شاغل ، ولا تكون فارغة عنه في وقت من الاوقات ، إذ لو خلعت عن الاشغال وتعطلت عن المهمات أوقعها الشيطان في أودية الأفكار الرديئة ، فتعيل الى الزينة والخروج والتفرج ، والنظر الى أجناب الرجال ، والملاعبة والمضاحكة للنسوان ، فينجر أمرها الى الفساد . وينبغي أيضاً لصاحب الغيرة أن يعطى امرأته ما تحتاج اليه من القوت واللباس وسائر الضروريات ، حتى لا تضطر الى ارتكاب ما لا ينبغي من الحركات والآفعال توصلها الى أخذ شيء من ذلك من غير زوجها .

ثم ينبغي ألا توقعه الغيرة في طرف الافراط فيبالغ في اساءة الظن والتعننت ونجس البواطن . فقد نهى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - :

« أن يتبع عورات النساء وأن يتعننت بهن » . وفي الخبر المشهور : « أن المرأة كالضلع ، إن أردت أن تقيمه كسرتة ، فدعه تستمتع به على عوج » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « من الغيرة غيرة يبغضها الله ورسوله ، وهي غيرة الرجل على أهله من غير روية » . وقال أمير المؤمنين عليه السلام : « لا تسكث الغيرة على أهلك فترمى بالسوء من أجلك » . وقال عليه السلام في رسالته الى الحسن عليه السلام : « إياك والتغاير في غير موضع الغيرة ، فان ذلك يدعوهم الى السقم ، ولكن احكم امرهم ، فان رأيت عيباً فاجعل النكير على الصغير والكبير ، بأن تعاقب منهم البريئة فتعظم الذنب وتهون العيب » . وبالجملة : لا ينبغي المبالغة في الفحص والتفتيش ، إذ لا ينفع ذلك عن سوء الظن الذي نهينا عنه ، فان بعض الظن اثم .

وأما مقتضى الغيرة على (الأولاد) : أن تراقبهم من أول أمرهم ، فاستعمل في حضانة كل مولود له وإرضاعه امرأة سالحة تأكل الحلال ، إذ الصبي الذي تتكون أعضاؤه من اللبن الحاصل من غذاء حرام يميل طبعه الى الخبائث ، لأن طبيئته انعجنت من الخبث . وإذا بدأت فيه مخائل التمييز فينبغي أن يؤدب بآداب الأخيار . ولما كان أول ما يغلب عليه من الصفات شره الطعام ، فينبغي أن يؤدب فيه بأن يؤمر بالآلا يأخذ إلا بيمينه ، ويقول (باسم الله) عند أكله ، ويأكل مما يليه ، ولا يبادر الى الطعام قبل غيره ، ولا يحرق الى الطعام ولا الى من يأكل ، ولا يسرع في الأكل ، ويمضغ الطعام مضغاً جيداً ، ولا يطلع ثوبه ولا يده . ويقبح عنده كثرة الأكل بأن يؤذم كثير الأكل ويشبهه بالبهايم ، ويمدح الصبي الذي يقنع بالقليل ، ويحبب اليه الايثار بالطعام وقلة المبالاة به ،

والقناعة بأى طعام اتفق. ثم يؤدب في أمر اللباس، حتى لا يخرج فيه عن زى
الابرار وأهل الورع، فيحجب اليه ثياب القطن والبيض، دون الابرسم
الملون، ويقرر عنده بأن ذلك شأن النساء والمخنثين، والرجال يستسكفون
منه، ويحفظ من الصبيان الذين تعودوا التنعم والترفة والزينة. ثم يؤدب في
الأخلاق والأفعال ويبالغ في ذلك، لأن الصبي إذا أهمل في أول نشوه خرج
في الأكثر ردى الأخلاق والأفعال، فيكون كذاباً، حسوداً، لجوياً،
عنوداً، سارقاً، غائباً، ذا ضحك وفضول، وربما صار مخنثاً مائلاً إلى الفسوق
والفجور. فينبغي أن يحفظ من قرناء السوء، وهو الأصل في تأديبه. ويسلم
إلى معلم دين صالح، يعلمه القرآن وأحاديث الأخيار وحكايات الابرار،
لينغرس في نفسه حب الصالحين. ويحفظ عن الأشعار التي فيها ذكر الفسوق
وأهله، إذ ذلك يغرس في قلبه بذر الفساد. وينبغي أن يعود الصبر والسكوت
إذا ضربه المعلم، حتى لا يكثر الصراخ والشغب ولا يستشفع بأحد حينئذ،
ويذكر له أن ذلك دأب الرجال والشجعان، وأن كثرة الصراخ دأب الممالك
والفسوان. وينبغي أن يؤذن له بعد الفراغ من المكتتب باللعب المباح الجميل،
حتى يستريح من تعب الأدب، ولا يموت قلبه، ولا ينقص ذكاه. ويعلم
محاسن الأخلاق والأفعال، ويجنب عن خباثت الصفات ورذائل الأعمال.
فيخوف من الحسد، والعداوة، والجبن، والبخل، والكبر، والعجب.
ويحذر من السرقة، وأكل الحرام، والكذب، والغيبة، والخيانة، والفحش،
واللعن، والسب، ولغو الكلام... وغير ذلك. ويرغب في الصبر،
والشكر، والتوكل، والرضا، والشجاعة، والسخاء، والصدق، والنصيحة...
وغير ذلك من محاسن الأخلاق وفضائلها. ويمدح عنده الأخيار ويذم
الأشرار، حتى يصير الخير عنده محبوباً، ويصير الشر عنده مبهوضاً.

وإذا بلغ سن التمييز ، يؤمر بالطهارة والصلاة ، وبالصوم في بعض الأيام من شهر رمضان ، ويعلم أصول العقائد وكل ما يحتاج اليه من حدود الشرع . ومهما ظهر منه خلق جميل أو فعل محمود ، فينبغي أن يكرم عليه ويجازى لأجله بما يفرح به ، ويمدح بين أظهر الناس . وإن ظهر منه فعل قبيح مرة واحدة يبغي أن يتغافل عنه ولا يهتك ستره ، ولا يظهر له أنه يتصور أن يتجاسر أحد على مثله ، (لا) سيما إذا ستره الصبي واجتهد في اخفائه ، فإن اظهار ذلك ربما يفيد جسارة حتى لا يبالي بالمكاشفة بعد ذلك ، فإن عاد ثانياً الى مثله ، فينبغي أن يعاتب عليه سراً ويعظم الأمر فيه ، ويقال له : إياك أن يطلع على فعلك هذا أحد فتفتضح عند الناس . ولا يكسر العتاب عليه حتى يسقط وقع الكلام من قلبه . وليكن الأب حافظاً هيئته في الكلام والحركات معه . وينبغي للأم أن تخوفه بالأب . وينبغي أن يمنع من كل ما يفعله خفية ، فانه لا يخفيه إلا وهو يعتقد أنه قبيح ، فإذا ترك يعود فعل القبيح . ويعود الوقار والطمأنينة في المشي وسائر الحركات والافعال ، وعدم كشف اطرافه ، والتواضع والاكرام لكل من عاشره ، والتلطف معه في الكلام . ويعلم طاعة والديه ، ومعلمه ، ومؤدبه ، وكل من هو اكبر سناً منه ، من قريب وبعيد ، ويعود النظر اليهم بعين التعظيم والجلالة وترك اللعب بين أيديهم . ويمنع من الفخر على أقرانه بشيء مما تملكه نفسه أو والده . ويخوف من أخذ شيء من الصبيان أو الرجال ، أو يذكر له ان الرفعة في العطاء ، والاخذ لثوم وخسة ومهانة وذلة ، فانه دأب الكلب ، إذ هو يتبصص في انتظار لقمة ، ويقبح عنده حب الذهب والفضة ، ويحذر منها أكثر مما يحذر من الحيات والعقارب ، إذ آفة جبهها أكثر من آفة السموم ، وقد هلك لأجله كل من هلك العالم . ويعود ألا يبصق في مجلسه ، ولا يتمخط ، ولا يتمطط ، ولا

يقتأب بحضرة غيره ، ولا يستدبر غيره ، ولا يضع رجلاً على رجل ، ولا يضرب كفه تحت ذقنه ، لأنه دليل الكسل . ويعلم كيفية الجلوس والحركة والسكون . ويمنع من النوم في النهار ، ومن التمتع في المفروش والملبس والمطعم ، بل يعود الخشونة فيها حتى تتصلب اعضاؤه ، ولا يستخف بدنه ، ويذكر له انها خلقت لدفع الضرر والالم لا لاجل اللذة ، وان الاطعمة ادوية يتقوى الانسان بها على عبادة الله ، وان الدنيا كلها لا أصل لها ولا بقاء لها ، وان الموت يقطع نعيمها ، وانها دار عمر لا دار مقر . وأن الآخرة هي دار القرار ومحل الراحة والذات ، والكيدس العاقل من تزود من الدنيا للآخرة . وينبغي أن يمنع من كثرة الكلام ، ومن الكذب ، واليمين ولو كان صدقاً ، ومن اللغو واللعب والسخرية وكثرة المزاح ، ومن أن يبتدىء بالكلام ، ويعود ألا يتكلم إلا جواباً وبقدر السؤال ، وأن يحسن الاستماع مهما تكلم غيره ممن هو اكبر سناً منه ، وأن يقوم لمن هو اكبر منه ، ويوسع له المكان ويجلس بين يديه .

فاذا تأدب الصبي بهذه الآداب في صغره صارت له بعد بلوغه ملكات راسخة ، فيكون خيراً صالحاً . وإن نشأ على خلاف ذلك ، حتى ألف اللعب ، والفحش ، والوقاحة ، والخرق ، وشره الطعام . واللباس ، والزين والتفاخر ، بلغ وهو خبيث النفس كفيف الجوهر ، وكان وبالاً لو اديه ، وصدر منه ما يوجب الفضيحة والعار . فيجب على كل والد ألا يتساهل في تأديب ولده في حالة الصبا ، لأنه أمانة الله عنده ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة عن كل نقش وصورة ، وقابل للخير والشر ، وأبواه يميلان به الى أحدهما ، فان عود الخير نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة ، وشاركه في ثوابه أبواه وكل معلم ومؤدب ، وان عود الشر وأهمل شقي وهلك ، وكان الوزر في رقبة أبيه

أو من كان قبيهاً وولياً له .

ثم الصبية تؤدب بمثل ما مر ، إلا فيما يتفاوت به الصبي والصبية ، فيستعمل ما يليق بها ، ويجب السعى في جعلها ملازمة للبيت ، والحجاب ، والوقار ، والعفة ، والحياء ، وسائر الخصال التي ينبغي أن تتصف بها النساء . ثم ينبغي أن يتفرس من حال الصبي أنه مستعد لأي علم وصناعة ، فيجعل مشغولاً باكتسابه ويمنع من اكتساب غيره . لئلا يضيع عمره ولا تترتب عليه فائدة ، إذ كل أحد ليس مستعداً لكل صناعة ، وإلا لاشتغل الجميع بأشرف الصناعات ، واختلاف الناس وتفاوتهم في هذا الاستعداد لتوقف قوام النوع وانتظام العالم عليه .

° ° °

وأما الغيرة على (المال) ، فلا تظن أنها ليست ممدوحة لسرعة فناء المال وعدم اعتناء الاخيار ، إذ كل إنسان ما دام في دار الدنيا محتاج إليه ، وتحصيل الآخرة أيضاً يتوقف عليه ، إذ كسب العلم والعمل موقوف على بقاء البدن ، وهو موقوف على بدل مما يتحلل عنه من الأغذية والأقوات . فلا بد لكل عاقل أن يعتنى بالمال ويجتهد في حفظه وضبطه ، بعد تحصيله من المداخل الطيبة والمسكاسب المحمودة ، ومقتضى السعى في حفظه المعبر عنه بالغيرة عليه ألا يصرفه في مصرف لا تترتب عليه فائدة لآخرته أو دنياه ، كإنفاقه للرياء والمفاخرة والتضييف ، أو بذله على غير المستحقين بلا داع ديني أو دنيوي أو عادي ، أو تمكينه الظلمة والسارقين وأهل الخيانة من أخذه علانية أو سرّاً ، أو عدم مبالاته بتضييعه من غير أن يصل نفعه إلى أحد ، أو اسرافه في بذله ، أو غير ذلك من المصارف التي ليست راجحة بحسب العقل والشرع ، ولا يعود إليه عوض في الآخرة والدنيا . بل مقتضى الغيرة عليه أن يصرف

جميع امواله في حياته في المصارف التي تعود فائدتها الى نفسه ، ولا يترك شيئاً منها لوراثته إلا للأخير من أولاده ، إذ بقاؤهم بمنزلة بقاته ، ويترتب على وجودهم - مع حسن حالهم وعيشهم - جميل الذكر وجزيل الثواب له بعد موته . وكيف يرضى صاحب الغيرة ان يترك ماله الذي أتعب نفسه في اكتسابه وفي عمره في تحصيله ويحاسب عليه في عرصات القيامة ، لزوج امرأته ، فيأكله ويحاميها ، وغاية رضى هذه المرأة الخبيثة التي ليست لها حمية ووفاء ولا لها مطلب أهم من مقارنة الرجال ، أن يأكل هذا الرجل صفو ماله ليتقوى على مجامعتها . وهذا محنة لا يتحمل مثلها أهل الديانة والقيادة ، فضلاً عن صاحب الغيرة والحمية . وقس على ذلك تخليف الأموال لسائر الوراث الذين لا يعرفون الحقوق ، وليسوا من أهل الخير والصلاح والوفاء ، من أولاد السوء وأزواج البنات ، وسائر الأقارب من الأخوان والأخوات والاعمام والعمات والأخوال والخالات . وهؤلاء وإن لم يكونوا بمثابة زوج امرأته ، إلا أن ترك الأموال لهم اذا لم يكونوا من أهل الخير والصلاح لا تثمر له فائدة سوى الوزر والوبال وذكره بالسوء والشتم والفحش ، كما هو المشاهد في زماننا هذا . ومنها :

المعجزة

وهي المعنى الراتب في القلب ، الباعث على الإقدام على الأمور بأول خاطر ، من دون توقف واستبطاء في اتباعها والعمل بها . وقد عرفت أنه من لوازم ضعف النفس وصغرها ، وهو من الابواب العظيمة للشيطان ، قد أهلك به كثيراً من الناس . قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « المعجزة من الشيطان » . والتأني من الله ، وقد خاطب الله تعالى نبيه - صلى الله

عليه وآله وسلم - بقوله :

« وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ » (١).

وقد روى : « انه لما ولد عيسى عليه السلام أتت الشياطين ابليس ، فقالت : أصبحت الاصنام قد نكست رؤسها . فقال : هذا حادث قد حدث ، مكانكم . فطار حتى جاء خافق الأرض ، فلم يجد شيئاً ، ثم وجد عيسى عليه السلام قد ولد ، واذا الملائكة قد حفت حوله ، فرجع اليهم ، فقال : إن نبياً قد ولد البارحة ، ما حملت اثني قط ولا وضعت إلا وأنا بحضرتها ، إلا هذا ، فأبأسوا أن تعبد الاصنام بعد هذه الليلة ، ولكن اتنوا بنى آدم من قبل العجلة والخفة . والظواهر في ذم العجلة أكثر من أن تحصى ، ولذلك أفتى بعض علماء العامة بالمنع من التعجيل لمن خاف فوت صلاة الجمعة . والسر في شدة ذمها : ان الأعمال ينبغي أن تكون بعد المعرفة والبصيرة ، وهما موقوفان على التأمل والمهلة ، والعجلة تمنع من ذلك ، فمن يستعجل في أمر يلقى الشيطان شره عليه من حيث لا يدري . والتجربة شاهدة بأن كل أمر يصدر على العجلة يوجب الندامة والخسران ، وكل ما يصدر على التأني والتثبت لا تعرض بعده ندامة ، بل يكون مرضياً ، وبأن كل خفيف عجول ساقط عن العيون ، ولا وقع له عند القلوب . والمتأمل في الأمور يعلم ان العجلة هو السبب الأعظم لتبديل نعيم الآخرة وملك الأبد بخسائس الدنيا ومزخرفاتها .

وبيان ذلك : انه لا ريب في ان أحب الذات وألذها للنفس هو الغلبة والاستيلاء ، لأنها من صفات الربوبية التي هي مطلوبة بالطبع للنفس المجردة .

والسر فيه : ان كل معلول من سنخ علته ، ويناسبها في صفاتها وآثارها ، وغاية
ابتهاجه ان يتصف بمثل كالاتها ، ولذا قيل : « كل ما يصدر عن شيء لا يمكن
أن يكون من جميع الجهات هو هو ، ولا أن يكون من جميع الجهات ليس
هو ، بل من جهة هو هو ومن جهة ليس هو » . وهذا معنى كلام قدماء الحكمة :
(الممكن زوج تركيبي) . ولا ريب في أن جميع الموجودات معلولة للواجب
سبحانه ، صادرة عن محض وجوده ومترشحة عن فيضه وجوده ، فهو غاية
الكل والكل طالبة نحو كالاته ، إلا ان ما هو في سلسلة الصدور اليه أقرب
والواسطة بينهما أقل ، تكون مناسبة له اتم وشوقه الى الاتصاف بكاله أشد .
ولا ريب في ان الذوات المجردة النورية التي هي من عالم الامر مقتبسة من
مشكاة نوره ، فلها غاية القرب اليه في سلسلة الصدور ، فتكون شديدة الشوق
الى الاتصاف بنحو كاله . والنفس الانسانية لكونها منها ومن عالم الامر
— كما قال الله تعالى — :

« قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي » (١)

تكون مثلها في القرب اليه تعالى أو في المناسبة له ، فلها غاية الشوق في
الاتصاف بصفاته وكالاته التي من جملتها الغلبة والاستعلاء ، وليس ذلك
مذموماً ، إذ ينبغي لكل عبد أن يطلب ملكاً عظيماً لا آخر له ، وسعادة دائمة
لا نفاد لها ، وبقاء لا فناء فيه ، وعزاً لا ذل معه ، وأمناً لا خوف فيه ، وغنى
لا فقر معه ، وكالاً لا نقصان فيه . وهذه كلها من أوصاف الربوبية ، وطالبها
طالب للعلو والعز والكمال لا محالة .

فالمذموم من الرئاسة والاستيلاء إنما هو الغلط الذي وقع للنفس بسبب
تغريب اللعين المبعد عن عالم الامر ، إذ حسدها على كونها من عالم الامر ،

فأضلها وأغواها من طريق العجلة ، فزين في نظره الملك الفاني المشوب بانواع الآلام ، لسكونه عاجلاً ، وصده عن الملك الخلد الدائم الذي لا يشوبه كدر ولا يقطعه قاطع ، لسكونه آجلاً . والمسكين المخدول ابن آدم لما خلق عجولاً رغباً في العاجلة ، لما جاءه المطر وود من عالم الأمر ، وتوسل اليه بواسطة العجلة التي في طبعه ، واستغواه بالعاجلة ، وأمال قلبه الى عدم الاعتناء بالآجلة ، وزين له الحاضرة . ووعدته بالغرور وبالتمنى على الله في باب الآخرة ، فانخدع بغروره واشتغل بطلب ملك الدنيا ومزخرفاتها مع فنائها ، وترك سلطنة الآخرة مع بقائها ، ولم يتأمل المسكين في أن ملك الدنيا ورئاستها ليس كمالاً ولا علواً واستيلاء في الحقيقة ، بل هو صفة نقص يصده عن الكمال الحقيقي والرئاسة المعنوية . مثال ذلك : أنه لا ريب في أن الحب والعشق صفة كمال ، ولكن اذا وقع في موقعه ، وذلك إذا كان المحبوب شريفاً كاملاً في ذاته وصفاته ، فحب الله سبحانه أشرف الصفات الكمالية ، وحب الجمادات وخسائس الحيوانات أخسر الرذائل النفسية ، فكل من كان جاهلاً بحقائق الأمور ينخدع بغروره ، ويختار الملك العاجل الفاني على السلطنة الآجلة الباقية ، وأما العالم الموفق فلا يتدلى بجبل غروره ، إذ علم مداخل مكرهه ، فاعرض عن العاجلة واختار الآجلة .

ولما استطار مكر اللعين في كافة الخلق ، أرسل الله اليهم الانبياء ، واشتغلوا بدعوتهم من الملك المجازي الذي لا أصل له ولا دوام إن سلم الى الملك الحقيقي الذي لا زوال له أصلاً ، فنادوا فيهم :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّا قُلِّسْنَا إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ

الْآخِرَةَ قَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ» (١).
 واذموا من اختار العاجلة الفانية على الآخرة الباقية ، كما قال سبحانه :
 « إِن هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا
 ثَقِيلًا » (٢). وقال : « كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ . وَتَذَرُونَ
 الْآخِرَةَ » (٣).

فالفرض من بعثه الرسل ليس إلا دعوة الخلق الى الملك المخلد ، ليكونوا
 ملوكا في الآخرة بسبب القرب من الله تعالى ، ودرك بقاء لا فناء فيه ، وعز
 لا ذل معه ، وقرّة عين أخفيت لا يعلمها أحد . والشيطان يدعوهم من طريق
 العجلة الى ملك الدنيا الفاني ، لعله بأن ماسى ملك الدنيا ، مع انه لا يسلم
 ولا يخلو عن المنازعات والمسكدرات وطول الهموم في التدبيرات ، يفوت به
 ملك الآخرة ، إذ الدنيا والآخرة ضربتان . بل يفوت به الملك الحاضر الذي
 هو الزهد في الدنيا ، إذ معناه ان يملك العبد شهوته وغضبه ، فينقادان لباعث
 الدين وإشارة الايمان . وهذا ملك بالاستحقاق ، إذ به يصير صاحبه حراً ،
 وباستيلاء الشهوة يصير عبداً لبطنه وفرجه وسائر اعضائه ، فيكون مسخراً
 مثل البهيمة ، مملوكاً يسخره زمام الشهوة ، أخذ الخنقة الى حيث يريد ويهوى .
 فما أعظم اغترار الانسان ، إذ ظن أنه ينال الملك بأن يصير مملوكاً ، وينال
 الربوبية بأن يصير عبداً . ومثل هذا هل يكون إلا معكوساً في الدنيا منكوساً
 في الآخرة ؟ فقد ظهر أن منشأ الخسران في الدنيا والآخرة هو العجلة .

(١) التوبة ، الآية : ٣٨ .

(٢) الدهر ، الآية : ٢٧ .

(٣) القيامة ، الآية : ٢٠ - ٢١ .

والطريق في علاجها : أن يتذكر فسادها ، وسوء عاقبتها ، وإيجابها للخفة والمهانة عند الناس ، ونأديتها الى الندامة والخسران . ثم يتذكر شرافة الوقار الذى هو ضده ، وكونه صفة الانبياء والأخيار ، فيوطن نفسه على ألا يرتكب فعلاً إلا بعد التأمل والمهلة ، ولا يترك الطمأنينة والسكون باطلاً وظاهراً فى جميع أفعاله وسكناته ، فإذا فعل ذلك مدة ، ولو بالتسكف والتعمل ، يصير ذلك عادة له ، فيزول عنه هذه الصفة ، وتحدث صفة الوقار والسكينة .

وصل

(الأناء والتوقف والوقار والسكينة)

ضد العجلة (الأناء) (١) ، وهو المعنى الراتب فى القلب ، الباعث على الاحتياط فى الأمور والنظر فيها ، والتأنى فى اتباعها والعمل بها . ثم (التوقف) قريب من التأنى والأناء ، والفرق بينهما : أن التوقف هو السكون قبل الدخول فى الأمور حتى يستبين له رشدها ، والتأنى سكون وطمأنينة بعد الدخول فيها ، حتى يؤدي لىكل جزء منها حقه ، وضد التوقف والتعسف .

و (الوقار) يتناول الأناء والتوقف كليهما ، فهو طمأنينة النفس وسكونها فى الأقوال والأفعال والحركات قبل الدخول فيها وبعده . وهو من نتائج قوة النفس وكبرها . وما قل من الفضائل النفسانية أن يبلغ مرتبته فى الشرافة . ولذا يمدح به الانبياء والأصفياء ، وورد فى الأخبار : « أن المؤمن متصف به ألبته » . فينبغى لىكل مؤمن أن يتكلف آثاره فى الحركات

(١) فى الذبح (الأناء) ، فصيحناه كما هنا .

والأفعال ، حتى يصير بالتدريج ملكة ، وتكلف الطمأنينة في الأفعال والحركات قبل أن تصير ملكة يختص باسم الوقار ، وإذا صارت ملكة سميت سكينته ، إذ هي طمأنينة الباطن ، والوقار اطمئنان الظاهر .
ومنها :

سوء الظن بالخالق والمخلوق

وهو من نتائج الجبن وضعف النفس ، إذ كل جبان ضعيف النفس تدعن نفسه لكل فكر فاسد يدخل في وهمه ويتبعه ، وقد يترتب عليه الخوف والغم ، وهو من المهلكات العظيمة ، وقد قال الله سبحانه :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ » (١) . وقال تعالى : « وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ » (٢) . وقال : « وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا » (٣) .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام : وضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك ما يغلبك منه ، ولا تظن بكلمة خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً . ولا ريب في أن من حكم بظنه على غيره بالشر . بعنه الشيطان على أن يغتابه أو يتواني في تعظيمه وإكرامه ، أو يقصر فيما يلزمه من القيام بحقوقه ، أو ينظر إليه بعين الاحتقار ويرى نفسه خيراً منه . وكل ذلك من

(١) الحجرات ، الآية : ١٢ .

(٢) فصلت ، الآية : ٢٣ .

(٣) الفتح ، الآية : ١٢ .

المهلسات . على أن سوء الظن بالناس من لوازم خبث الباطن وقذارته ، كما أن حسن الظن من علائم سلامة القلب وطهارته ، فمكل من يسوء الظن بالناس ويطلب عيوبهم وعثراتهم فهو خبيث النفس سقيم الفؤاد ، وكل من يحسن الظن بهم ويستتر عيوبهم فهو سليم الصدر طيب الباطن ، فالملؤم يظهر محاسن أخيه ، والمنافق يطلب مساويه ، وكل إناء يترشح بما فيه .

والسر في خبائثة سوء الظن وتحريمه وصدوره عن خبث الضمير واغواء الشيطان : أن اسرار القلوب لا يعلمها إلا علام الغيوب ، فليس لأحد أن يعتقد في حق غيره سوءاً إلا إذا انكشف له بعيان لا يقبل التأويل ، إذ حينئذ لا يمكنه ألا يعتقد ما شاهده وعلمه ، وأما ما لم يشاهده ولم يعلمه ولم يسمعه وإنما وقع في قلبه ، فالشيطان ألقاه إليه ، فينبغي أن يكذبه ، لأنه أفسق الفسقة . وقد قال الله :

«إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ» (١) .

فلا يجوز تصديق اللعين في نبأه ، وإن حلف بقرائن الفساد ، ما احتمل التأويل والخلاف . فلو رأيت عالماً في بيت أمير ظالم لا تظن أن الباعث طلب الخطام المحرمة ، لاحتمال كون الباعث إغانة مظلوم . ولو وجدت رائحة الخمر في فم مسلم فلا تجزم من شرب الخمر ووجوب الحد ، إذ يمكن أنه تمضمض بالخمر ومجه وما شربه ، أو شربه أكرهاً وقهراً . فلا يستباح سوء الظن إلا بما يستباح به المال ، وهو صريح المشاهدة ، أو قيام بينة فاضلة .

ولو أخبرك عدل واحد بسوء من مسلم ، وجب عليك أن تتوقف في

إخباره من غير تصديق ولا تكذيب ، إذ لو كذبت له لكانت خائناً على هذا العدل ، إذ ظننت به الكذب ، وذلك أيضاً من سوء الظن ، وكذا إن ظننت به العداوة أو الحسد أو المقت لتتطرق لأجله التهمة ، فتزد شهادته ، ولو صدقته لكانت خائناً على المسلم المخبر عنه ، إذ ظننت به سوء ، مع احتمال كون العدل المخبر ساهياً ، أو التباس الأمر عليه بحيث لا يكون في أخباره بخلاف الواقع آثماً وفاسقاً . وبالجملة : لا ينبغي أن تحسن الظن بالواحد وتسيء بالآخر ، فتذكر المذكور حاله على ما كان في السر والحياب ، إذ لم ينكشف لك حاله بأحد القواطع ، ولا بحجة شرعية يجب قبولها ، ونحمل خبر العدل على إمكان تطرق شبهة مجوزة للإخبار ، وإن لم يكن مطابقاً للواقع . ثم المراد بسوء الظن هو عقد القلب وميل النفس دون مجرد الخواطر وحديث النفس ، بل الشك أيضاً ، إذ المنهى عنه في الآيات والأخبار إنما هو أن يظن ، والظن هو الطرف الراجح الموجب لميل النفس إليه . والامارات التي بها يمتاز العقد عن مجرد الخواطر وحديث النفس ، هو أن يتغير القلب منه عما كان من الألف والمحبة إلى الكراهة والنفرة ، والجوارح عما كانت عليه من الأفعال اللازمة في المعاشرات إلى خلافها . والدليل على أن المراد هو ما ذكر ، قوله - صلى الله عليه وآله وسلم - « ثلاث في المؤمن لا تستحسن وله منهن مخرج ، فمخرجه من سوء الظن ألا يحققه » ، أي لا يحقق في نفسه بعقد ولا فعل ، لا في القلب ولا في الجوارح .

ثم لكون سوء الظن من المهلكات ، منع الشرع من التعرض للتهمة ، صيانة لنفوس الناس عنه ، فقال - صلى الله عليه وآله وسلم - « إتقوا مواقع التهم » . وقال أمير المؤمنين عليه السلام : « من عرض نفسه للتهمة فلا يلوم من أساء به الظن » . وروى : « أنه - صلى الله عليه وآله وسلم - كان يكلم زوجته صفية

بنت حتى ابن أخطب ، فر به رجل من الأنصار ، فدعاه رسول الله ، وقال : يا فلان ! هذه زوجتي صفية . فقال : يا رسول الله ! أفنظن بك إلا خيراً ؟ قال : إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، نخشيت أن يدخل عليك . فانظر كيف أشفق رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - على دينه فخرسه ، وكيف علم الأمة طريق الاحتراز عن التهمة ، حتى لا يظن العالم الورع المعروف بالتقوى والدين أن الناس لا يظنون به إلا خيراً ، إعجاباً منه بنفسه ، فإن ما لا جزم بتحقيقه في حق سيد الرسل وأشرفهم ، فكيف يحزم بتحقيقه في حق غيره ، وإن بلغ من العلم والورع ما بلغ . والسر في ذلك : أن أروع الناس وأفضلهم لا ينظر الناس كلهم إليه بعين واحدة ، بل إن نظر إليه بعضهم بعين الرضا ينظر إليه بعض آخر بعين السخط :

وعين الرضا عن كل عيب كائلة ولكن عين السخط تبدي المساويا
فكل عدو وحاسد لا ينظر إلا بعين السخط ، فيكتم المحاسن ويطلب المساوي ، وكل شرير لا يظن بالناس كلهم إلا شراً ، وكل معيوب مفتضح عند الناس يحب أن يفتضح غيره وتظهر عيوبه عندهم ، لأن البلية إذا عمت هانت ، ولأن يشتغل الناس به فلا تطول ألسنتهم فيه . فاللازم لكل مؤمن ألا يتعرض لموضع التهمة حتى يوقع الناس في المعصية بسوء الظن ، فيكون شريكاً في معصيتهم ، إذ كل من كان سبباً لمعصية غيره يكون شريكاً له في هذه المعصية . ولذا قال الله تعالى :

« وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ » (١).

وقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : كيف ترون من يسب أبويه ؟ فقالوا : هل من أحد يسب أبويه ؟ فقال : نعم ! يسب أبوى غيره فيسبون أبويه .

ثم طريق المعالجة في ازالته - بعد تذكر ما تقدم من فسادة وما يأتي من فضيلة ضده - : أنه اذا خطر لك خاطر سوء على مسلم ، لا تتبعه ، ولا تحققه ، ولا تغير قلبك عما كان عليه بالنسبة اليه ، من المراعاة والتفقد والاكرام والاعتماد بسببه ، بل ينبغي أن تزيد في مراعاته واعظامه وتدعو له بالخير ، فان ذلك يقنط الشيطان ويدفعه عنك ، فلا يلقى اليك خاطر السوء خوفاً من اشتغالك بالدعاء وزيادة الاكرام . ومهما عرفت عثرة من مسلم فانصح في السر ولا تبادر الى اغتيابه ، واذا وعظته فلا تعظه وأنت مسرور باطلاعك على عيبه ، لتنظر اليه بعين الحقارة ، مع أنه ينظر اليك بعين التعظيم ، بل ينبغي أن يكون قصدك استخلاصه من الأثم ، وتكون محزوناً كما تحزن على نفسك اذا دخل عليك نقصان ، وينبغي أن يكون تركه ذلك العيب من غير نصيحتك أحب اليك من تركه بنصيحتك ، واذا فعلت ذلك جمعت بين أجر نصيحته واجر الحزن بمصيبته واجر الاعانة على آخرته .

وصل

(حسن الظن)

قد عرفت أن ضد سوء الظن بالخالق والمخلوق هو (حسن الظن بهما) . ولما كان الأول من لوازم ضعف النفس وصغرها ، فالثاني من نتائج قوتها وثباتها ، وفوائده أكثر من أن تحصى ، وقد تقدمت الظواهر الواردة في مدحه ، فينبغي لكل مؤمن ألا ييأس من روح الله ، ولا يظن أنه لا يرحمه

ويعذبه ألبتة ولا يخلصه من العقاب ، وأن ما يرد عليه في الدنيا من البلياء والمصائب هو شر له وعقوبة ، بل ينبغي أن يعلم أنه أرحم وأرأف به من والديه ، وإنما خلقه لأجل الفيض والجود ، فلا بد أن يرحمه في دار الآخرة ، ويخلصه من عذاب الأبد ويوصله الى نعم السرمد ، وما يرد عليه من المصائب والبلياء في دار الدنيا خير له وصلاح ، وذخيرة له في يوم المعاد .

وكذا لا يظن السوء والشر بالمسلمين ، ولا يحملن ماله وجه صحيح من أعمالهم وأقوالهم على وجه فاسد ، بل يجب أن يحمل كل ما يشاهده من أفعالهم وحرركاتهم على أحسن الوجوه وأصحها ، ما لم يحزم بفساده ، ويكذب وهمه وسائر حواسه ، فيما يذهب اليه من المحامل الفاسدة والاحتمالات القبيحة المحرمة ، ويكلف نفسه على ذلك ، حتى يصير ذلك ملكة له ، فترتفع عنه ملكة سوء الظن بالسكية . نعم ، الحمل على الوجه الصحيح على تقدير عدم مطابقته للواقع ، لو كان باعثاً لضرر مالى أو فساد دينى أو عرضى ، لزم فيه الحزم والاحتياط ، وعدم تعليق أموره الدينية والدنيوية عليه ، لئلا يترتب عليه الخسران والاضرار ، وتلزمه الفضيحة والعار .
ومنها :

الغضب

وهو كيفية نفسانية موجبة لحركة الروح من الداخل الى الخارج للغلبة ، ومبدؤه شهوة الانتقام ، وهو من جانب الافراط ، واذا اشتد يوجب حركة عنيفة ، يمتلىء لأجلها الدماغ والأعصاب من الدخان المظلم ، فيستر نور العقل ويضعف فعله ، ولذا لا يؤثر في صاحبه الوعظ والنصيحة ، بل تزيده الموعظة غلظة وشدة . قال بعض علماء الأخلاق : الغضب شعلة نار اقتبست من نار

الله الموقدة ، إلا أنها لا تطلع إلا على الافئدة ، وأنها لمستكنة في طي القواد
استكنان الحجر تحت الرماد ، وتستخرجها حمية الدين من قلوب المؤمنين ،
أو حمية الجاهلية والكبر الدفين من قلوب الجبارين ، التي لها عرق الى الشيطان
اللعين ، حيث قال :

« خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ » (١).

فمن شأن الطين السكون والوقار ، ومن شأن النار التلظى والاستعار . .
ثم قوة الغضب تتوجه عند ثورانها إما الى دفع المؤذيات إن كان قبل وقوعها ،
أو الى التشفى والانتقام إن كان بعد وقوعها ، فشهوتهما الى أحد هذين
الأمرين ولذتها فيه ، ولا تسكن إلا به . فان صدر الغضب على من يقدر أن
يفتقم منه ، واستشعر باقتداره على الانتقام ، انبسط الدم من الباطن الى
الظاهر ، واحمر اللون ، وهو الغضب الحقيقي . وإن صدر على من لا يتمكن
أن يفتم منه لكونه فوقه ، واستشعر باليأس عن الانتقام ، انقبض الدم من
الظاهر الى الباطن ، وصار حزناً . وإن صدر على من يشك في الانتقام منه
انبسط الدم تارة أو انقبض أخرى ، فيحمر ويصفر ويضطرب .

فصل

(الافراط والتفريط والاعتدال في قوة الغضب)

الناس في هذه القوة على افراط وتفريط واعتدال . فالافراط : أن
تغلب هذه الصفة حتى يخرج عن طاعة العقل والشرع وسياستهما ، ولا تبقى له
فكرة وبصيرة . والتفريط : أن يفقد هذه القوة أو تضعف بحيث لا يغضب
عما ينبغي الغضب عليه شرعاً وعقلاً . والاعتدال : أن يصدر غضبه فيما ينبغي

(١) الاعراف ، الآية : ١٢ . وسر ، الآية : ٧٦

ولا يصدر في ما لا ينبغي ، بحيث يخرج عن سياسة الشرع والعقل ، بل يكون تابعاً لها في الغضب وعدمه ، فيكون غضبه وانتقامه بأمرهما . ولا ريب في أن الاعتدال ليس مذموماً ، ولا معدوداً من الغضب ، بل هو من الشجاعة . والتفريط مذموم معدود من الجبن والمهانة ، وربما كان أخبث من الغضب ، إذ الفاقد لهذه القوة لا حمية له ، وهو ناقص جداً . ومن آثاره عدم الغيرة على الحرم وصغر النفس . والجور ، وتحمل الذل من الاخساء ، والمداهنة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والفحشاء . ولذا قيل : « من استغضب فلم يغضب فهو حمار » (١) . وقد وصف الله خيار الصحابة بالحمية والشدة ، فقال :

« أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ » (٢)

وخاطب نبيه - صلى الله عليه وآله وسلم - بقوله :

« وَأَغْلَظُ عَلَيْهِمْ » (٣)

والشدة والغلظة من آثار قوة الغضب ، ففقد هذه القوة بالكلية أو ضعفها مذموم . وقد ظهر أن الغضب المعدود من الرذائل هو حد الافراط الذي يخرج عن مقتضى العقل والدين ، وحد التفريط وإن كان رذيلة إلا أنه ليس غضباً ، بل هو ضد له معدود من الجبن . وحد الاعتدال فضيلة وضد له ومعدود من الشجاعة ، فالتحصر الغضب بالاول .

ثم الناس كما هم مختلفون في أصل قوة الغضب ، كذلك مختلفون في حدوثه وزواله بسرعة وبطأ ، فيكونان في بعضهم سريعين ، وفي بعضهم بطيئين وفي بعضهم يكون أحدهما سريعاً والآخر بطيئاً ، وفي بعضهم يكون كلاهما

(١) هذه الكلمة منسوبة لشافعي - على ما في احياء العلوم : ج ٣ من ١٤٥ و ١٥٦ - .

(٢) الفتح ، الآية : ٢٩ .

(٣) التوبة ، الآية : ٢٣ .

أو أحدهما متوسطاً بين السرعة والبطء . وما كان من ذلك بإشارة العقل فهو ممدوح معدود من أوصاف الشجاعة ، وغير مذموم محسوب من آثار الغضب أو الجبن .

فصل

(الغضب)

(الغضب) من المهلكات العظيمة ، وربما أدى الى الشقاوة الأبدية ، من القتل والقطع ، ولذا قيل : (إنه جنون دفعي) . قال أمير المؤمنين عليه السلام : « الحدة ضرب من الجنون ، لأن صاحبها يندم ، فإن لم يندم فجنونه مستحكم » . وربما أدى الى اختناق الحرارة ، ويورث الموت فجأة . وقال بعض الحكماء : « السفينة التي وقعت في اللجج الغامرة ، واضطربت بالرياح العاصفة وغشيتها الأمواج الهائلة ، أرجى الى الخلاص من الغضب الملتهب » . وقد ورد به الذم الشديد في الأخبار ، قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « الغضب يفسد الايمان كما يفسد الخل العسل » . وقال الباقر عليه السلام : « إن هذا الغضب جمره من الشيطان توقد في قلب ابن آدم ، وإن أحدكم إذا غضب احمرت عيناه وانتفخت أوداجه ودخل الشيطان فيه ، فاذا خاف أحدكم ذلك من نفسه فليلزم الأرض ، فإن رجز الشيطان ليذهب عنه عند ذلك » . وقال الصادق عليه السلام : « وكان أبي عليه السلام يقول : أي شيء أشد من الغضب ؟ إن الرجل يغضب فيقتل النفس التي حرم الله ، ويقذف المحصنة » . وقال عليه السلام (١) : « إن الرجل ليغضب فما يرضى أبداً حتى يدخل النار » . وقال الصادق عليه السلام :

(١) أي : الباقر - عليه السلام - وقد روى هذه الأخبار المذكورة هنا الكافي في باب

الغضب ، فروى هذا الخبر عنه - عليه السلام - لا عن الصادق - عليه السلام - .

« الغضب مفتاح كل شر » . وقال ﷺ : « الغضب ممحقة لقلب الحكيم » .

وقال ﷺ : « من لم يملك غضبه لم يملك عقله » .

ثم مما يلزم الغضب من الآثار المهلكة الذميمة ، والاغراض المضرة القبيحة: انطلاق اللسان بالشتم والسب ، واظهار السوء والشتم بالمساءة وإفشاء الاسرار وهتك الاستار والسخرية والاستهزاء ، وغير ذلك من قبيح الكلام الذى يستجى منه العقلاء ، وتوثب الأعضاء بالضرب والجرح والتمزيق والقتل ، وتألم القلب بالحقد والحسد والعداوة والبغض ، وبما تلزمه : الندامة بعد زواله ، وعداوة الأصدقاء ، واستهزاء الاراذل ، وشتم الأعداء ، وتغير المزاج ، وتألم الروح وسقم البدن ، ومكافاة العاجل وعقوبة الآجل .

والعجب ممن توهم أن شدة الغضب من فرط الرجولية ، مع أن ما يصدر عن الغضب من الحركات القبيحة إنما هو أفعال الهيبان والمجانين دون الرجال والعاقلين ، كيف وقد تصدر عنه الحركات غير المنتظمة ، من الشتم والسب بالنسبة الى الشمس ، والقمر ، والسحاب ، والمطر ، والريح ، والشجر ، والحيوانات والجمادات ، وربما يضرب القصعة على الأرض ، ويكسر المائدة ، ويخاطب البهيمة والجماد كما يخاطب العقلاء ، واذا عجز عن التشفى ، ربما مزق ثوبه ، ولطم وجهه ، وقد يعدو عدو المدهوش المتحير ، وربما اعتراه مثل الغشية ، أو سقط على الأرض لا يطيق النهوض والعدو . وكيف يكون مثل هذه الأفعال القبيحة من فرط الرجولية وقد قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « الشجاع من يملك نفسه عند غضبه » .

فصل

(امكان إزالة الغضب وطرق علاجه)

قد اختلف علماء الأخلاق في إمكان إزالة الغضب بالسكينة وعدمه ،
 فقيل : قبح أصل الغضب من القلب غير ممكن ، لأنه مقتضى الطبع ، إنما الممكن
 كسر سورته وتضعيفه ، حتى لا يشتد هيجانه ، وأنت خير بأن الغضب الذي
 يلزم إزالته هو الغضب المذموم ، إذ غيره مما يكون بإشارة العقل والشرع ليس
 غضباً فيه كلامنا ، بل هو من آثار الشجاعة ، والانصاف به من الموازم ، وإن
 أطلق عليه اسم الغضب أحياناً حقيقة أو مجازاً ، كما روى عن أمير المؤمنين
 عليه السلام أنه قال : « كان النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - لا يغضب للدين ، وإذا
 أغضبه الحق لم يصرفه أحد ، ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له » ، ولا ريب
 أن الغضب الذي يحصل لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لم يكن غضباً
 مذموماً ، بل كان غضباً مدوحاً يقتضيه منصب النبوة ، وتوجيه الشجاعة
 النبوية . ثم الغضب المذموم ممكن الزوال ، ولولا إمكانه لزم وجوده للانبياء
 والأوصياء ، ولا ريب في بطلانه .

ثم علاجه يتوقف على أمور ، وربما حصل ببعضها :

(الأول) إزالة أسبابه المهيجة له ، إذ علاج كل علة بحسم مادتها ،
 وهي : العجب ، والفخر ، والكبر ، والغدر ، واللجاج ، والمراء ، والمزاح ،
 والاستهزاء ، والتعيير ، والمخاصمة ، وشدة الحرص على فضول الجاه والأموال
 الفانية ، وهي باجمها أخلاق رديه مهلكة ، ولا خلاص من الغضب مع
 بقائها ، فلا بد من إزالتها حتى تسهل إزالته .

(الثاني) أن يتذكر قبح الغضب وسوء عاقبته ، وما ورد في الشريعة

من الذم عليه ، كما تقدم .

(الثالث) أن يتذكر ما ورد من المدح والثواب على دفع الغضب في موارد ، ويتأمل فيما ورد من فوائد عدم الغضب ، كقول النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - : « من كَفَّ غَضَبَهُ عَنِ النَّاسِ كَفَّ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْهُ عَذَابَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ » . وقول الباقر عليه السلام : « مكتوب في التوراة : فيما ناجى الله به موسى : أَمْسِكْ غَضَبَكَ عَمَّنْ مَلَكَتَكَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَنْكَ غَضَبِي » . وقول الصادق عليه السلام : « أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه : يا ابن آدم ! اذكرني في غضبك أذكرك في غضبي ، ولا أحققك فيمن أحق ، وإذا ظلمت بمظلمة فارض بانتصاري لك ، فإن انتصاري لك خير من انتصارك لنفسك » . وقوله عليه السلام : « سمعت أبي يقول : أتى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - رجل بدوى ، فقال : إني أسكن البادية ، فعلمني جوامع الكلم . فقال : أَمْرُكَ أَلَا تَغْضَبُ . فأعاد الأعرابي عليه المسألة ثلاث مرات ، حتى رجع الرجل إلى نفسه ، فقال : لا أسأل عن شيء بعد هذا ، ما أمرني رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عليه وآله - إلا بالخير » . وقوله عليه السلام : « إن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أتاه رجل ، فقال : يا رسول الله ! علمني عظة أتعظ بها ، فقال له : انطلق ولا تغضب ، ثم عاد عليه ، فقال له : انطلق ولا تغضب ... ثلاث مرات ، وقوله عليه السلام : « من كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَهُ اللَّهُ عَوْرَتَهُ » . . . إلى غير ذلك من الأخبار .

(الرابع) أن يتذكر فوائد ضد الغضب ، أعني الحلم وكظم الغيظ ، وما ورد من المدح عليهما في الأخبار - كما يأتي - ويواظب على مباشرته ولو بالتكلف ، فيتحلم وإن كان في الباطن غضباناً ، وإذا فعل ذلك مدة صار عادة مألوفة هنيئة على النفس ، فتنتفع منها أصول الغضب .

(الخامس) أن يقدم الفسك والروية على كل فعل أو قول يصدر عنه ،

ويحافظ نفسه من صدور غضب عنه .

(السادس) أن يحترز عن مصاحبة أرباب الغضب ، والذين يتبجحون بتشفي الغيظ وطاعة الغضب ، ويسمون ذلك شجاعة ورجولية ، فيقولون : نحن لا نصبر على كذا وكذا ، ولا نحتمل من أحد أمراً . ويختار مجالسة أهل الحلم ، والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس .

(السابع) أن يعلم أن ما يقع إنما هو بقضاء الله وقدره ، وأن الأشياء كلها مسخرة في قبضة قدرته ، وأن كل ما في الوجود من الله ، وأن الأمر كله لله ، وأن الله لا يقدر له ما فيه الخيرة ، وربما كان صلاحه في جوعه ، أو مرضه ، أو فقره ، أو جرحه أو قتله ، أو غير ذلك . فإذا علم بذلك غلب عليه التوحيد ، ولا يغضب على أحد ، ولا يغتاظ عما يرد عليه ، إذ يرى - حينئذ - أن كل شيء في قبضة قدرته أسير ، كالقلم في يد الكاتب . فكما أن من وقع عليه ملك بضرب عنقه لا يغضب على القلم ، فكذلك من عرف الله وعلم أن هذا النظام الجملي صادر منه على وفق الحكمة والمصلحة ، ولو تغيرت ذرة منه عما هي عليه خرجت عن الأصلحية ، لا يغضب على أحد ، إلا أن غلبة التوحيد على هذا الوجه كالكبريت الأحمر وتوفيق الوصول إليه من الله الأكبر . ولو حصل لبعض المتجردين عن جلباب البدن يكون كالبرق الخاطف ، ويرجع القلب إلى الالتفات إلى الوسائط رجوعاً طبيعياً ، ولو تصور دوام ذلك لأحد لتصور لفرق الأنبياء ، مع أن التفاتهم في الجملة إلى الوسائط مما لا يمكن إنكاره .

(الثامن) أن يتذكر أن الغضب مرض قلب ونقصان عقل ، صادر عن ضعف النفس ونقصانها ، لا عن شجاعتها وقوتها ، ولذا يكون المجنون أسرع غضباً من العاقل ، والمريض أسرع غضباً من الصحيح . والشيخ الهرم أسرع

غضباً من الشاب، والمرأة أسرع غضباً من الرجل، وصاحب الأخلاق السيئة والذائل القبيحة أسرع غضباً من صاحب الفضائل . فالرذل يغضب لشهوته إذا فاتته اللقمة ، والبخيل يغازب لبخله إذا فقد الحبة ، حتى يغضب لفقد أدنى شيء على أعزة أهله وولده . والنفس القوية المتصفة بالفضيلة أجل شأناً من أن تتغير وتضطرب لمثل هذه الأمور ، بل هي كالطود الشاهق لا تحركه العواصف ، ولذا قال سيد الرسل - صلى الله عليه وآله وسلم - : « ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » . وإن شككت في ذلك فافتح عينيك وانظر الى طبقات الناس الموجودين ، ثم ارجع الى كتب السير والتواريخ ، واستمع الى حكايات الماضين ، حتى تعلم : أن الحلم والعفو وكظم الغيظ شيمة الأنبياء والحكام وأكابر الملوك والعقلاء ، والغضب خصلة الجمل والاغبياء .

(التاسع) أن يتذكر أن قدرة الله عليه أقوى وأشد من قدرته على هذا الضعيف الذي يغضب عليه ، وهو أضعف في جنب قوته القاهرة بمراتب غير متناهية من هذا الضعيف في جنب قوته ، فليحذر ، ولم يأمن اذا أمضى غضبه عليه أن يمضى الله عليه غضبه في الدنيا والآخرة ، وقد روى : « أنه ما كان في بني اسرائيل ملك إلا ومعه حكيم ، إذا غضب أعطاه صحيفة فيها : (ارحم المساكين ، واخش الموت ، واذكر الآخرة) ، فكان يقرأها حتى يسكن غضبه » . وفي بعض السكتب الإلهية : « يا ابن آدم ! اذكرني حين تغضب اذكرك حين أغضب ، فلا أحققك فيمن أحق ، (١) » .

(١) روى الكافي في باب الغضب نفس هذا الحديث عن الصادق - عليه السلام -

بهذه العبارة : « إن في التوراة مكتوباً : يا ابن آدم ! اذكرني حين تغضب اذكرك عند غضبي ، فلا أحققك فيمن أحق . . . » وقد تقدم مثله ص ٢٩١ .

(العاشر) أن يتذكر أن من يمضى عليه غضبه ربما قوى وتشمر لمقابله ، وجرد عليه لسانه باظهار معائبه والشهامة بمصائبه ، ويؤذيه في نفسه وأهله وماله وعرضه .

(الحادى عشر) أن يتفكر في السبب الذى يدعوه الى الغيظ والغضب ، فان كان خوف الذلة والمهانة والاتصاف بالعجز وصغر النفس عند الناس ، فليتنبه ان الحلم وكظم الغيظ ودفع الغضب عن النفس ليست ذلة ومهانة ، ولم يصدر من ضعف النفس وصغرها ، بل هو من آثار قوة النفس وشجاعتهما . وأضدادها تصدر من نقصان النفس وخورها . فدفع الغضب عن نفسه لا يخرج منه من كبر النفس في الواقع ، ولو فرض خروجه به منه في أعين جهلة الناس فلا يبالى بذلك ، ويتذكر أن الاتصاف بالذلة والصغر عند بعض اراذل البشر أولى من خزي يوم المحشر والافتضاح عند الله الملك الأكبر . وإن كان السبب خوف أن يفوت منه شيء مما يحبه ، فليعلم أن ما يحبه ويغضب لفقده إما ضرورى لكل أحد ، كالقوت والمسكن واللباس وصحة البدن ، وهو الذى أشار اليه سيد الرسل - صلى الله عليه وآله وسلم - بقوله : « من أصبح آمناً في سربه ، معافى في بدنه ، وله قوت يومه ، فكأنما خیرت له الدنيا بحذافيرها » . أو غير ضرورى لأحد ، كالجاء والمنصب وفضول الأموال . أو ضرورى لبعض الناس دون بعض ، كالكتاب للعالم ، وأدوات الصناعات لأربابها . ولا ريب أن كل ما ليس من هذه الاقسام ضروريا فلا يليق أن يكون محبوباً عند أهل البصيرة وذوى المروات ، إذ مالا يحتاج اليه الانسان في العاجل لا بدله من تركه في الآجل ، فما بال العاقل أن يحبه ويغضب لفقده ، وإذا علم ذلك لم يغضب على فقد هذا القسم ألبتة . وأما ما هو ضرورى للكل أو لبعض ، وإن كان الغضب والحزن من فقدته مقتضى الطبع اشدة الاحتياج

اليه . إلا أن العاقل إذا تأمل يجد أن ما فقد عنه من الأشياء الضرورية إن أمكن رده والوصول اليه يمكن ذلك بدون الغيظ والغضب أيضاً ، وإن لم يمكن لم يمكن معها أيضاً . وعلى أى حال بعد التأمل يعلم أن الغضب لا ثمرة له سوى تألم العاجل وعقوبة الآجل ، وحينئذ لا يغضب ، وإن غضب يدفعه عن نفسه بسهولة .

(الثانى عشر) أن يعلم أن الله يحب منه ألا يغضب ، والحبيب يختار ألبته ما يحب محبوبه ، فإن كان محباً لله فليطيق شدة حبه له غضبه .
(الثالث عشر) أن يتفكر فى قبح صورته وحركاته عند غضبه ، بأن يتذكر صورة غيره وحركاته عند الغضب .

(تنبيه)

اعلم أن بعض المعالجات المذكورة يقتضى قطع أسباب الغضب وحسم مواده ، حتى لا يهيج ولا يصدر ، وبعضها يكسر سورته أو يدفعه إذا صدر وهاج . ومن علاجه عند الهيجان الاستعاذة من الشيطان ، والجلوس إن كان قائماً ، والاضطجاع إن كان جالساً ، والوضوء أو الغسل بالماء البارد ، وإن كان غضبه على ذى رحم فليدن منه وليمسه ، فإن الرحم إذا مست سكنت ، كما ورد فى الأخبار (١) .

وصل

(فضيلة الحلم وكظم الغيظ)

قد عرفت أن الحلم هو طمأنينة النفس ، بحيث لا يحركها الغضب بسهولة ولا يزججه المكروه بسرعة ، فهو الضد الحقيقى للغضب ، لأنه المانع من حدوثه ،

(١) روى ذلك فى السكاني فى باب الغضب عن الباقر - عليه السلام - .

وبعد هيجانه لما كان كظم الغيظ مما يضعفه ويدفعه ، فمن هذه الحيثية يكون كظم الغيظ أيضاً ضدّاً له . فنحن نشير الى فضيلة الحلم وشرافته ، ثم الى فوائد كظم الغيظ ومنافعه ، ليجتهد طالب إزالة الغضب في الاتصاف بالاول ، فلا يحدث فيه أصلاً ، وبالتالي ، فيدفعه عند هيجانه . فنقول :

أما (الحلم) - فهو أشرف الكمالات النفسية بعد العلم ، بل لا ينفع العلم بدونه أصلاً ، ولذا كلما يمدح العلم أو يسأل عنه يقارن به ، قال رسول - صلى الله عليه وآله وسلم - : « اللهم أغنني بالعلم وزيني بالحلم » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « خمس من سنن المرسلين ، .. وعدتها منها الحلم » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « ابتغوا الرفعة عند الله » ، قالوا : وما هي يا رسول الله ؟ قال : « تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتحمل عن جمل عليك » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « إن الرجل المسلم ليدرك بالحلم درجة الصائم القائم » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « إن الله يحب الحيّ الحليم ، ويبغض الفاحش البذي » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « ثلاث من لم تكن فيه واحدة منهن فلا تعدوا بشيء من عمله : تقوى تحجزه عن معاصي الله ، وحلم يكف به السفه ، وخلق يعيش به في الناس » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « إذا جمع الخلاق يوم القيامة ، نادى مناد : أين أهل الفضل ؟ فيقوم ناس - وهم يسير - فينطلقون سراعاً الى الجنة ، فتتلقاهم الملائكة فيقولون : إنا نراكم سراعاً الى الجنة ؟ فيقولون : نحن أهل الفضل . فيقولون : ما كان فضلكم ؟ فيقولون : كنّا إذا ظلمنا صبرنا ، وإذا أسى إلينا عفونا ، وإذا جهل علينا حلمنا . فقال لهم : ادخلوا الجنة فنعلم أجر العالمين » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « ما أعز الله بجهل قط ، ولا أذل بجهل قط » . وقال أمير المؤمنين عليه السلام : « ليس الخير أن يكسر مالك

وولدك . ولكن الخير أن يكثر عليك ويعظم حلمك . . وقال علي بن الحسين -
عليهما السلام - : « إنه ليعجبني الرجل أن يدركه حلمه عند غضبه . » وقال
الصادق عليه السلام : « كفى بالحلم ناصراً . » وقال عليه السلام : « وإذا لم تكن حليماً فتحكم . »
وقال عليه السلام : « إذا وقع بين رجلين منازعة نزل ملكان ، فيقولان للسفيه
منهما : قلت وقلت وأنت أهل لما قلت ، وتستجزي بما قلت ، ويقولان للحليم
منهما : صبرت وحملت سيغفر لك إن أتممت ذلك . قال عليه السلام : فان ردّ الحليم
عليه ارتفع الملاك . » وبعث عليه السلام غلاماً له في حاجة فأبطأ ، فخرج على أثره
فوجده نائماً ، فجلس عند رأسه يروحه حتى انتبه ، فقال له : « يا فلان ! والله
ما ذلك لك ! تنام الليل والنهار ، لك الليل ولنامتك النهار . » وقال الرضا عليه السلام :
« لا يكون الرجل عابداً حتى يكون حليماً . »

وأما (كظم الغيظ) - فهو وإن لم يبلغ مرتبة الحلم فضيلة وشرافة ،
لأنه التحلم : أي تسكف الحلم ، إلا أنه إذا واظب عليه حتى صار معتاداً تحدث
بعد ذلك صفة الحلم الطبيعي ، بحيث لا يهيج الغيظ حتى يحتاج إلى كظمه ، ولذا
قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم . »
فمن لم يكن حليماً بالطبع لا بد له من السعي في كظم الغيظ عند هيجانه ، حتى
تحصل له صفة الحلم . وقد مدح الله سبحانه كظمي الغيظ في محكم كتابه ،
وتواترت الأخبار على شرافته وعظم أجره . قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « من كظم غيظاً ولو شاء أن يمضيه أمضاه ، ملأ الله قلبه يوم
القيامة رضاءاً (١) . » وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « ما جرع عبد جرعة
أعظم أجراً من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله تعالى . » وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « من كظم غيظاً لم يضره ، ولا يضره ، ولا يضره . »
وآله وسلم - : « إن لجهنم باباً لا يدخله إلا من شفي غيظه بمهصية الله تعالى . »

(١) روى الحديث الكافي في باب كظم الغيظ عن أبي عبد الله - عليه السلام - .

وقال - صلى الله عليه وآله وسلم : « من كظم غيظاً وهو يقدر على أن ينفذه ، دعاه الله يوم القيامة على رؤس الخلائق ، حتى يخير من أى الخور شاء » (١) .
وقال - صلى الله عليه وآله وسلم : « من أحب السبيل (٢) الى الله تعالى جرعتان : جرعة غيظ يردّها بحلم ، وجرعة مصيبة يردّها بصبر » . وقال سيد الساجدين عليه السلام : « وما تجرعت جرعة أحب إلى من جرعة غيظ لا أكفى بها صاحبها » . وقال الباقر عليه السلام : « من كظم غيظاً وهو يقدر على إمضائه ، حشا الله تعالى قلبه أمناً وإيماناً يوم القيامة » . وقال عليه السلام لبعض ولده (٣) : « يا بنى ! ما من شيء أقرّ لعين أبىك من جرعة غيظ عاقبتها صبر ، وما يسرّنى أن لى بذل نفسى حمر النعم » . وقال الصادق عليه السلام : « نعم الجرعة الغيظ لمن صبر عليها ، فإن عظيم الأجر البلاء » ، وما أحب الله قوماً إلا ابتلاهم » . وقال عليه السلام : « ما من عبد كظم غيظاً إلا زاده الله - عز وجل - عزاً فى الدنيا والآخرة ، وقد قال الله - عز وجل - :

« وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » (٤) .

(١) صححنا هذا الحديث على ما فى البغار (الجزء الثانى من المجلد ١٠ - فى باب الحلم) رواه عن جامع الأخبار الشيخ الجليل الحسن بن فضل الطبرسى . وفيه اختلاف كثير عما فى نسخ جامع السعادات .
(٢) كذا وجدنا الحديث فى البغار والسكاف ونسخ جامع السماعات . والظاهر أن الاصح (السبل) .

(٣) فى السكافى فى باب كظم الغيظ روى هذا الحديث هكذا : « عن ابى جعفر - عليه السلام - قال : قال لى ابى : يا بنى ! ما من شيء . . . الى آخر الحديث ، فالقائل هو سيد الساجدين لا الباقر - عليها السلام - .
(٤) آل عمران ، الآية : ١٣٤ .

وأثابه الله مكان غيظه ذلك ، . وقال أبو الحسن الأول عليه السلام : « اصبر على اعداء النعم ، فانك لن تكافى من عصى الله فيك بأفضل من أن تطيع الله فيه » .
ومنها :

الانتقام

بمثل ما فعل به ، أو بالأزيد منه . وإن كان محرماً ممنوعاً من الشريعة . وهو من نتائج الغضب ، إذ كل انتقام ليس جائزاً ، فلا يجوز مقابلة الغيبة بالغيبة ، والفحش بالفحش ، والبهتان بالبهتان ، والسعاية الى الظلمة بمثلها ... وهكذا في سائر المحرمات . قال سيد الرسل - صلى الله عليه وآله وسلم - : « إن امرؤ عيرك بما فيك فلا تعيره بما فيه » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « المستبان شيطانان يتهاوران » . وقد ورد : أن رجلاً شتم أبا بكر بحضرة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وهو ساكت ، فلما ابتدأ لينتصر منه ، قام رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وقال مخاطباً له : « إن الملك كان يحجب عنك ، فلما تكلمت ذهب الملك وجاء الشيطان » ، فلم يكن لا جلس في مجلس فيه الشيطان .

فشكل فعل أو قول يصدر من شخص بالنسبة الى غيره ظلماً ، إن كان له في الشرع قصاص وغرامة ، فيجب ألا يتعدى عنه ، وإن كان العفو عن الجائر أيضاً أفضل وأولى وأقرب الى الورع والتقوى ، وإن لم يرد له بخصوصه من الشرع حكومة معينة ، وجب أن يقتصر في الانتقام وما يحصل به التشفي على ما ليس فيه حرمة ولا كذب ، مثل أن يقابل الفحش والذم وغيرهما من الأذايا التي لم يقدر لها في الشرع حكومة معينة ، بقوله : يا قليل الحياء ! ويا سىء الخلق ! ويا صفيق الوجه ! ... وامثال ذلك ، إذا كان متصفاً بها . ومثل

قوله : جزاك الله وانتقم منك ! ومن أنت ؟ وهل أنت إلا من بنى فلان ؟ ومثل قوله : يا جاهل ! يا أحمق ! . وهذا ليس فيه كذب مطلقاً ، اذ ما من أحد إلا وفيه جهل وحمق ، (أما الأول) فظاهر ، (وأما الثاني) فلما ورد من أن الناس كلهم حمقى في ذات الله .

والدليل على جواز هذا القدر من الانتقام ، قول النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - « المستبان ما قالاً فعلى البادىء منهما حتى يعتدى المظلوم » (١) . وقول السكاظم رحمته في رجلين يتساويان : « البادىء منهما أظلم ، ووزره ووزر صاحبه عليه ما لم يتعد المظلوم » (٢) . وهما يدلان على جواز الانتصار لغير البادىء من دون وزر ما لم يتعد ، ومعلوم أن المراد بالسب فيهما امثال الكلمات المذكورة دون الفحش والكلمات الكاذبة ، ولا ريب في أن الاقتصار على مجرد ما وردت به الرخصة بعد الشروع في الجواب مشكل ، ولعل السكوت عن اصل الجواب وحواله الانتقام الى رب الارباب أيسر وأفضل ، ما لم يؤد الى فتور الحمية والغيرة ، إذ أكثر الناس لا يقدر على ضبط نفسه عند فور الغضب ، لاختلاف حالهم في حدوث الغضب وزواله . قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « ألا إن بني آدم خلقوا على طبقات شتى : منهم بطيء الغضب سريع النفي ، ومنهم سريع الغضب سريع النفي ، فتلك بتلك . ومنهم سريع الغضب بطيء النفي ، ومنهم بطيء الغضب بطيء النفي . ألا وإن خيرهم البطيء الغضب السريع النفي ، وشرهم السريع الغضب البطيء النفي » . وقد ورد في خير آخر : « إن المؤمن سريع الغضب سريع الرضا ، فهذه بتلك » .

(١) صحيحنا الحديث على ما في احياء العلوم (ج ٣ ص ١٠٦) وعلى نسخة الخطبة .

وفي المطبوعة : « حتى يعتدى الى المظلوم » .

(٢) صحيحنا الحديث على ما في اصول السكاكي في باب السفه . وفي نسخة الخطبة

والمطبوعة : « ما لم يعتدى الى المظلوم » .

ثم طريق العلاج في ترك الانتقام : أن يتنبه على سوء عاقبته في العاجل والآجل ، ويتذكر فوائد تركه ، ويعلم أن الحوالة الى المنتقم الحقيقي أحسن وأولى، وأن انتقامه أشد وأقوى، ثم يتأمل في فوائد العفو وفضيلته، كما يأتي:

وصل

(العفو)

ضد الانتقام (العفو) ، وهو إسقاط ما يستحقه من قصاص أو غرامة ، ففرقه عن الحلم وكظم الغيظ ظاهر ، والآيات والأخبار في مدحه وحسنه أكثر من أن تحصى ، قال الله تعالى سبحانه :

« خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ » (١) . وقال :
« وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا » (٢) . وقال : « وَأَنْ تَعْفُوا
أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى » (٣) .

وقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « ثلاث والذي نفسي بيده إن كنت حالفاً لحلفت عليهن : ما نقصت صدقة من مال فتصدقوا ، ولا عفا رجل من مظلمة ينتغي بها وجه الله إلا زاده الله بها عزاً يوم القيامة ، ولا فتح رجل على نفسه باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « العفو لا يزيد العبد إلا عزاً ، فاعفوا يعزكم الله » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - لعقبة : « ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل

(١) الاعراف ، الآية : ١٩٩ .

(٢) النور ، الآية : ٢٢ .

(٣) البقرة ، الآية : ٢٣٧ .

الدنيا والآخرة: تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك، (١).
وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « قال موسى : يارب ! أى عبادك أعز
عليك ؟ قال : الذى إذا قدر عني » . وقال سيد الساجدين عليه السلام : « إذا كان يوم
القيامة ، جمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد ، ثم ينادى مناد : أين
أهل الفضل ؟ قال : فيقوم عنق من الناس ، فتلقاهم الملائكة ، فيقولون : وما
فضلكم ؟ فيقولون : كننا نصل من قطعنا ، ونعطي من حرمنا ، ونعفو عمن
ظلمنا ، قال : فيقال لهم : صدقتم ، ادخلوا الجنة » . وقال الباقر عليه السلام : « الندامة
على العفو أفضل وأيسر من الندامة على العقوبة » . وقال الصادق عليه السلام :
« ثلاث من مكارم الدنيا والآخرة : تعفو عمن ظلمك ... » الى آخر الحديث .
وقال ابو الحسن عليه السلام : « ما التقت فتتان قط إلا نصر أعظمهما عفواً » . وكفى
للعفو فضلاً وشرافاً أنه من اجمل الصفات الإلهية ، وقد يمدح الله تعالى به فى
مقام الخضوع والتذلل ، قال سيد الساجدين عليه السلام : « أنت الذى سميت نفسك
بالعفو ، فاعف عني » . وقال عليه السلام : « أنت الذى عفوه أعلى من عقابه » .
ومنها :

المنف

وهو الغلظة والفظاظة فى الأقوال أو الحركات أيضاً ، وهو من نتائج
الغضب ، وضده (الرفق) ، أى اللين فيهما ، وهو من نتائج الحلم . ولا ريب
فى أن الغلظة فى القول والفعل ينفر الطباع ويؤدى الى اختلال أمر المعاش
والمعاد ، ولذلك نهى الله - سبحانه - نبيه عنه فى مقام الارشاد ، وقال :

(١) فى اصول المكافى فى باب العفو : « ألا أدرككم على خير أخلاق الدنيا والآخرة :

تصل من قطعك . . . » الى آخر الحديث .

« وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا

مِنْ حَوْلِكَ » (١).

وروى عن سلمان : « أنه قال : إذا أراد الله تعالى هلاك عبد نزع منه الحياء ، فإذا نزع منه الحياء ، لم يلقه إلا غائناً مخوناً ، وإذا كان غائناً مخوناً نزع منه الأمانة ، فإذا نزع منه الأمانة لم يلقه إلا فظاً غليظاً ، فإذا كان فظاً غليظاً نزع منه ربة الإيمان ، فإذا نزع منه ربة الإيمان لم يلقه إلا شيطاناً ملعوناً . »
ويظهر من هذا الكلام أن من كان من أهل الغلظة والفظاظة فهو الشيطان حقيقة ، فيجب على كل عاقل أن يحتنب عن ذلك كل الاجتناب ، ويقدم التروى على كل ما يصدر عنه من القول والفعل ، ليحافظ نفسه عن التعنف والغلظة فيه ، ويتذكر ما ورد في فضيلة الرفق ، ويرتكبه في حركاته ، ولو بالتكلف ، إلى أن يصير ملكة ، وتزول عن نفسه آثار العنف بالسكينة .

وصل

(فضيلة الرفق)

الأخبار في فضيلة الرفق وفوائده أكثر من أن تحصى ، ونحن نشير إلى شطر منها هنا ، قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « لو كان الرفق خلقاً يرى ، ما كان فيما خلق الله شيء أحسن منه » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « إن الرفق لم يوضع على شيء إلا زانه ، ولا ينزع من شيء إلا شانه » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « لكل شيء قفل ، وقفل الإيمان الرفق » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « إن الله رفيق يحب

الرفيق ، ويعطى على الرفق مالا يعطى على العنف ، (١) . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « ما اصطحب اثنان إلا كان أعظمهما أجراً وأحبهما الى الله تعالى ، أرفقهما بصاحبه » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « الرفق يمن ، والخرق شؤم » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « من كان رفيقاً في أمره نال ما يريد من الناس » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « اذا أحب الله أهل بيت أدخل عليهم الرفق » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « من أعطى حظه من الرفق أعطى حظه من خير الدنيا والآخرة ، ومن حرم حظه من الرفق حرم حظه من الدنيا والآخرة » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « إذا أحب الله عبداً أعطاه الرفق ، ومن يحرم الرفق يحرم الخير كله » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « أتدرون من يحرم على النار ؟ كل حين لين سهل قريب » . وقال الكاظم عليه السلام : « الرفق نصف العيش » . وقال عليه السلام : « لمن جرى بينه وبين رجل من القوم كلام : « إرفق بهم ، فإن كفر أحدكم في غضبه ، ولا خير فيمن كان كفره في غضبه » .

ثم التجربة شاهدة بان إمضاء الامور وإنجاح المقاصد موقوف على الرفق واللين مع الخلائق ، فكل ملك كان رفيقاً بجنده ورعيته انتظم أمره ودام ملكه . وان كان فظاً غليظاً اختل أمره وانفض الناس من حوله ، وزال ملكه وسلطانه في أسرع زمان . وقس عليه غيره من طبقات الناس من العلماء والامراء وغيرهما ، من ذوى المناصب الجليلة ، وارباب المعاملة والمسكاسبة ، واصحاب الصنایع والحرف .

(١) روى هذان الحديثان في اصول السكافي ، في باب الرفق ، عن أبي جعفر الباقر

- عليها السلام - .

تكملة

(المداراة)

(المداراة) : قريب من الرفق معنى ، لأنها ملائمة الناس ، وحسن صحبتهم ، واحتمال أذاهم ، وربما فرق بينهما باعتبار تحمل الأذى في المداراة دون الرفق ، وقد ورد في مدحها وفوائدها الدنيوية والأخروية أخبار كثيرة كقول النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - : « المداراة نصف الإيمان » ، وقوله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « ثلاث من لم يكن فيه لم يتم عمله : ورع يحجزه عن معاصي الله ، وخلق يدارى به الناس ، وحلم يرد به جهل الجاهل » ، وقوله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « أمرني ربي بمداراة الناس كما أمرني بأداء الفرائض » . وقول الباقر عليه السلام : « في التوراة مكتوب : فيما ناجى الله - عز وجل - به موسى بن عمران عليه السلام : يا موسى ! اكتم مكتوم سري في سريرتك وأظهر في علانيتك المداراة عني لعدوي وعدوك من خلق ... إلى آخر الحديث » (١) . وقول الصادق عليه السلام : « جاء جبرئيل إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال : يا محمد ! ربك يقرئك السلام ، ويقول : دار خلقى » . وقوله عليه السلام : « إن قوماً من الناس قلت مداراتهم للناس فنصفوا » (٢) من قریش ، وأيم الله ما كان

(١) وأما الحديث في أصول الكافي في باب المداراة : « ولا تستب لي عندكم باظهار مكتوم سري ، فتشرك عدوي وعدوك في سري » . قال في الوافي : « ولا تستب لي : أي لا تطلب سري » ، فإن من لم يفهم السر بسب من تكلم به ، فتشرك : أي تكون شريكاً له ، لأنك أنت الباعث له عليه » .

(٢) هكذا في النسخة المطبوعة . وفي بعض نسخ الكافي للصحيفة « فأنفوا » ، وفي بعضها « فأنفوا » . قال في الوافي : « فأنفوا » ، كأنه صيغة مجهول من الأنفة ، بمعنى الاستنكاف ، إذ لم يأت الانفاء بمعنى النفي . وفي بعض النسخ : فأنفوا من الانفاء ، وأمله الأمح » .

باحسابهم بأس ، وإن قوماً من غير قریش حسنت مداراتهم فالحقوا بالبيت
الرفيع ... ثم قال : من كف يده عن الناس ، فأنما يكف عنهم يداً واحدة
ويكفون عنه أيدي كثيرة .

ومنها :

سوء الخلق بالمعنى الاخص

وهو التضجر ، وانقباض الوجه ، وسوء الكلام ، وامثال ذلك .
وهو أيضاً من نتائج الغضب ، كما أن - ضده - اعنى (حسن الخلق بالمعنى
الاخص) وهو أن تلين جناحك ، وتطيب كلامك ، وتلقى أخاك ببشر حسن -
من نتائج الحلم ، وأكثر ما يطلق سوء الخلق وحسنه في الاخبار يراد به هذا
المعنى ، ولا ريب في أن سوء الخلق مما يبعد صاحبه عن الخالق والخلق ،
والنجربة شاهدة بأن الطباع متنفرة عن كل سيء الخلق ، ويكون دائماً اضحوكة
للناس ، ولا ينفك لحظة عن الحزن والألم ، ولذا قال الصادق عليه السلام : « من
ساء خلقه عذب نفسه » ، وقد يعتريه لأجله الضرر العظيم . هذا كله مع سوء
عاقبته في الآخرة وادائه الى العذاب الابدی ، ولذا ورد به الذم الشديد من
الشريعة . قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « لما خلق الله الايمان
قال : اللهم قوّني ، فقواه بحسن الخلق والسخاء . ولما خلق الله الكفر قال :
اللهم قوّني ، فقواه بالبخل وسوء الخلق » . وروى أنه قيل له - صلى الله عليه
وآله وسلم - : « إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وهي سيئة الخلق تؤذي
جيرانها بلسانها . قال : لا خير فيها ! هي من أهل النار » . وعنه - صلى الله

عليه وآله وسلم - : « سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل » ، (١) .
وعنه - صلى الله عليه وآله وسلم - : « إن العبد ليبلغ من سوء خلقه أسفل
درج جهنم » . وعنه - صلى الله عليه وآله وسلم - : « أبى الله لصاحب الخلق
السيء بالتوبة » ، قيل : فكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : « لأنه إذا تاب من
ذنوب وقع في ذنب أعظم منه » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « سوء
الخلق ذنب لا يغفر » . وقال الامام جعفر بن محمد - عليهما السلام - : « إذا
خلق الله العبد في أصل الخلق كافراً لم يمت حتى يحبب الله إليه الشر ، فيقرب
منه ، فابتلاه بالكبر والجبروت ، فقسى قلبه ، وساء خلقه ، وغلظ وجهه ،
وظهر خشمه ، وقل حياؤه ، وكشف الله تعالى سره ، وركب المحارم ولم ينزع
عنها ، ثم ركب معاصي الله ، وابتغى طاعته ، ووثب على الناس لا يشبع من
الخصومات ، فاسألوا الله العافية واطلبوها منه » . وقال بعض الأكابر : « إن
يصحبنى فاجر حسن الخلق أحب إلي من أن يصحبنى عابد سيء الخلق » .
وطرق العلاج في إزالته : أن يتذكر أولاً أنه يفسد آخرته ودنياه ،
ويجعله ممقوتاً عند الخالق والخلق ، فيبعد نفسه لإزالته ، ثم يقدم التروى
والتفكير عند كل حركة وتكلم ، فيحفظ نفسه عنده - ولو بالثحمل والتكلف -
من صدور سوء الخلق ، ويتذكر ما ورد في مدح حسن الخلق الذى هو ضده
- كما يأتي - ويواظب حتى تزول على التدريج آثاره بالسكينة .

وصل

(طرق اكتساب حسن الخلق)

قد عرفت أن ضد هذه الرذيلة (حسن الخلق بالمعنى الأخص) ، فمن

(١) روى هذا الحديث أصول السكاك في باب سوء الخلق عن الصادق - عليه السلام -

والكن جاء فيه « ليفسد العمل » بدل « يفسد العمل » .

معالجاتها أن يواظب عليه حتى ترتفع آثارها بالسكينة . وأقوى البواعث على اكتسابه والمواظبة عليه أن يتذكر ما يدل على شرافته ومدحه عقلا ونقلا : أما حكم العقل على مدحه فظاهر لا يحتاج الى بيان ، وأما النقل فالأخبار التي وردت به أكثر من أن تحصى ، ونحن نورد شطراً منها تذكرة لمن أراد أن يتذكر ، قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « ما يوضع في ميزان امرئ يوم القيامة أفضل من حسن الخلق ، وقال : « يا بني عبدالمطلب ! إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم . فالقوم بطلاقة الوجه ، وحسن البشر ، . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « إن الله استخلص هذا الدين لنفسه ، ولا يصلح لدينكم إلا السخاء وحسن الخلق ، ألا فزينوا دينكم بهما ، . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « حسن الخلق خلق الله الأعظم ، . وقيل له - صلى الله عليه وآله وسلم - : « أي المؤمنين أفضلهم إيماناً ؟ قال : « أحسنهم خلقاً ، . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « إن أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحسنكم خلقاً ، . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « ثلاث من لم يكن فيه واحدة منهن فلا يعتد بشيء من عمله : تقوى تحجزه عن محارم الله ، وحلم يكف به السيئة ، وخلق يعيش به في الناس ، . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « إن الخلق الحسن يمت الخطيئة ، كما تميمت الشمس الجليد ، (١) . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « إن العبد يبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة وأشرف المنازل ، وإنه يضعف العبادة ، . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - « لأم حبيبة : « إن حسن الخلق ذهب بخير الدنيا والآخرة ،

(١) روى هذا الحديث في السكاف في باب حسن الخلق عن أبي عبد الله الصادق - عليه

السلام - ، وفي نهاية ابن الأثير : « في الحديث : حسن الخلق يذيب الخطيئة كما تذيب الشمس الجليد ، ، ويذيب بمعنى يمت .

وقال لها - بعد ما سأله أن المرأة يكون لها زوجان في الدنيا فتموت ويموتان ويدخلان الجنة لأيهما هي ؟ - : « إنها لأحسنهما خلقاً » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « إن حسن الخلق يبلغ بصاحبه درجة الصائم القائم » (١) . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « أكثر ما يلج به امتي الجنة تقوى الله وحسن الخلق » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « أفاضلكم أحسنكم أخلاقاً ، الموطؤون أكنافاً » (٢) الذين يألفون ويؤلفون . وقال أمير المؤمنين عليه السلام : « المؤمن مألوف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف » . ولا ريب في أنسى الخلق تنفر عنه الطباع ، فلا يكون مألوفاً . وقال الامام ابو جعفر الباقر - عليهما السلام - : « إن اكمل المؤمنين ايماناً أحسنهم خلقاً » ، وقال عليه السلام : « أتى رجل رسول الله ، فقال : يا رسول الله ! اوصني فكارب فيما أوصاه ان قال : (الق أخاك بوجه منبسط) » . وقال الصادق عليه السلام : « ما يقدم المؤمن على الله - عز وجل - بعمل بعد الفرائض أحب الى الله تعالى من أن يسع الناس بخلقه » . وقال عليه السلام : « البر وحسن الخلق يعمران الديار ويزيدان في الأعمار » . وقال عليه السلام : « إن الله تبارك وتعالى ليعطي العبد من الثواب على حسن الخلق كما يعطي المجاهد في سبيل الله يغدو عليه وروح » . وقال عليه السلام : « ثلاث من أتى الله بواحدة منهن أوجب الله له الجنة : الانفاق من إقتار ، والبشر لجميع العالم ، والانصاف من نفسه » . وقال عليه السلام : « صنائع المعروف وحسن البشر يكسبان المحبة ويدخلان الجنة ، والبخل وعبوس الوجه يبعدان من الله ويدخلان النار » .

(١) هذا الحديث مروي في الكافي في باب حسن الخلق عن ابى عبد الله - عليه السلام -

(٢) قال المبرد في الكامل ص ٣ : « قوله - صلى الله عليه وآله وسلم - : الموطؤون

أكنافاً ، مثل ، حقيقة : ان التوضئة هي التذليل والنميد ٠٠٠ فاراد القائل بقوله : ووطأ الاكناف ، ان ناحيته يتمكن فيها صاحبها غير مؤذى ولا ناب به موضعه » .

ومن تأمل في هذه الأخبار ، ورجع الى الوجدان والتجربة ، وتذكر أحوال الموصوفين بسوء الخلق وحسنه ، يجد أن كل مسمى الخلق بعيد من الله ومن رحمته ، والناس يبغضونه ويشتمون منه ، ولذا يحرم من برهم وصلاتهم ، وكل حسن الخلق محبوب عند الله وعند الناس ، فلا يزال محلاً لرحمة الله وفيوضاته ، ومرجعاً للمؤمنين بإيصال نفعه وخيره اليهم ، وانجاح مقاصده ومطالبه منهم ، ولذلك لم يبعث الله سبحانه نبياً إلا وأتم فيه هذه الفضيلة ، بل هي أفضل صفات المرسلين وأشرف أعمال الصديقين ، ولذا قال الله تعالى لحبيبه مثنياً عليه ومظهر آ نعمته لديه :

« وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ » (١)

ولعظم شرافته بلغ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فيه ما بلغ من غايته ، وتمسك على ذروته ونهايته ، حتى ورد : « بينا رسول الله - صلى الله عليه وآله - ذات يوم جالس في المسجد ، إذ جاءت جارية لبعض الأنصار وهو قائم (٢) فاخذت بطرف ثوبه ، فقام لها النبي ﷺ فلم تقل شيئاً ولم يقل لها النبي ﷺ شيئاً ، حتى فعلت ذلك ثلاث مرات ، فقام لها النبي ﷺ في الرابعة ، وهي خلفه ، فاخذت هذبة من ثوبه ثم رجعت ، فقال لها الناس : فعمل الله بك وفعل ! (٣) حبست رسول الله ثلاث مرات لا تقولين له شيئاً ولا هو يقول لك شيئاً ! ما كانت حاجتك اليه ؟ قالت : إن لنا مريضاً فارسلني

(١) القلم ، الآية : ٤ .

(٢) قال في البحار - ج ١٥ في باب حسن الخلق ص ٢٠٧ - : « حال عث بعض الانصار » أي أن القائم هذا البعض صاحب الجارية لا النبي - صلى الله عليه وآله - .

(٣) قال في البحار - في الموضع المتقدم - : « كناية عن كثرة الدعاء عليها بإيذائها النبي - صلى الله عليه وآله - وهذا شائع في عرف العرب والعجم » .

أهل لاخذ هدية من ثوبه يستشفى (١) بها ، فلما أردت أخذها رآني فقام ،
استحييت أن أخذها وهو يراني ، وأكره أن أستمره في أخذها ، فآخذتها (٢) .
ومنها :

الحقد

وقد عرفت أنه إضرار العداوة في القلب ، وهو من ثمرة الغضب ، لأن
الغضب إذا لزم كظمه لمعجز عن التشفي في الحال ، رجع إلى الباطن واحتقن فيه
فصار حقدًا ، وهو من المهلكات العظيمة . وقد قال رسول الله - صلى الله
عليه وآله وسلم - : « المؤمن ليس بحقود » . والغالب أن الحقد يلزمه من
الآفات : الحسد ، والهجرة ، والانقطاع عن المحقود ، واذاؤه بالضرب ،
والتكلم فيه بما لا يحل : من الكذب ، والغيبة ، والبهتان ، وإفشاء السر ،
وهتك السر ، وإظهار العيوب ، والشتم بما يصيبه من البلاء والسرور به ،
والانبساط بظهور عثراته وهفواته ، والمحاكاة عنه بالاستهزاء والسخرية ،
والاعراض عنه استصغاراً له ، ومنع حقوقه من دين أو رد مظلمة أو صلة
رحم . وكل ذلك حرام يؤدي إلى فساد الدين والدنيا . وأضعف مراتبه أن
يحترز عن الآفات المذكورة ، ولا يرتكب لأجله ما يعصى الله به ، ولكن
يستثقله بالباطن ، ولا ينتهي قلبه عن بغضه .

(١) قال في البجار - في اللوضع المذكور ص ٢٠٨ - : « في بعض النسخ - بل
أكثرها - : يستشفى » .

(٢) صعدنا الحديث على أصول السكاكي في باب حسن الخلق . وفي نسخ جامع المعادات
اختلاف كثير عما أثبتناه ، وقد جاء في أصول السكاكي في صدر الحديث : « قال أبو عبد الله
- عليه السلام - : يا بحر حسن الخلق يسر . . . ثم قال : ألا أخبرك بمحدث ما هو في يدي
أحد من أهل المدينة ؟ قلت : بلى ! قال : بينا رسول الله . . . إلى آخر الحديث » .

وهو أيضاً من الأمراض المؤلمة للنفس ، المانعة لها عن القرب الى الله والوصول الى الملأ الاعلى . ويمنع صاحبه عما ينبغي أن يصدر عنه بالنسبة الى أهل الايمان : من الهشاشة والرفق والتواضع والقيام بحوائجهم والمجالسة معهم والرغبة الى إغانتهم ومواساتهم ... وغير ذلك . وهذا كله مما ينقص درجته في الدين ، ويحول بينه وبين مرافقة المقربين .

ولما كانت حقيقته عبارة عن العداوة الباطنة ، لجميع الأخبار الواردة في ذم المعاداة تدل على ذمها . كقول النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - : « ما كان جبرئيل يأتيني إلا قال : يا محمد ! اتق شحنة الرجال وعداوتهم » . وقوله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « ما عهد الى جبرئيل قط في شيء ما عهد إلى في معاداة الرجال » . وقول الصادق عليه السلام : « من زرع العداوة حصد ما بذر ، ... وقس عليها غيرها » .

وطريق العلاج في إزالته : أن يتذكر أن هذه العداوة الباطنة تؤلمه في العاجل ، إذ الحقوق المسكين لا يخلو عن التألم والهم لحظة ، ويعذبه في الآجل ، ومع ذلك لا يضر المحقود أصلاً ، والعاقل لا يدوم على حالة تكون مضرة لنفسه ونافعة لعدوه . وبعد هذا التذكر ، فليجتهد في أن يعامله معاملة احبائه : من مصاحبته بالانبساط والرفق ، والقيام بحوائجه ، وغير ذلك ، بل يخصه بزيادة البر والاحسان ، مجاهدة للنفس وارغاماً للشيطان ، ولا يزال يكرر ذلك حتى ترتفع عن نفسه آثار هذه الرذيلة بالكلية . ثم لما كان الحق عبارة عن العداوة الباطنة ، وحقيقتها إضرار الشر وكرهه الخير لمن يعاديه ، فضده (النصيحة) التي هي قصد الخير وكرهه الشر ، لا المحبة - كما يتراءى في بادى الرأي - إذ هي ضد الكراهة دون العداوة - كما يأتي في محله - فمن معالجات الحق أن يتذكر فوائد النصيحة ومدحها - كما يأتي - ليعين على إزالته .

ومنها :

العداوة الظاهرة

وهي من لوازم الحقد ، لأنه إذا قوى قوة لا يقدر معها على المجاملة أظهر العداوة بالمسكاشفة . والأخبار الواردة في ذمها كثيرة ، وقد تقدم بعضها . وعلاجها كما تقدم في الحقد ، وضدها النصيحة الظاهرة ، أعني فعلية الخير والصلاح لا مجرد قصدهما ، فليكلف نفسه عليها ، حتى يصير ملكة له ويؤول ضدها .

ومنها :

الضرب والفحش واللعن والظمن

وهذه ناشئة غالباً عن العداوة والحقد ، وربما صدرت من مجرد الغضب وسوء الخلق ، وربما صدر الفحش من الاعتياد الحاصل من مخالطة الفساق ، وربما كان الباعث في بعض أفرادها حب المال وفقد الممدود من رذائل قوة الشهوة ، إلا أن الفاعل المباشر لهذه الأمور هي القوة الغضبية ، أو النفس لهيجان قوة الغضب . وإن كان الهيجان حاصلًا بوساطة فعل قوة الشهوة . وعلى أي تقدير يكون من رذائل القوة الغضبية على قاعدتنا ، ولذا أدرجناها تحتها فقط .

ثم لا ريب في كون هذه الأمور مذمومة محرمة في الشريعة ، موجبة لحبط الأعمال وخسران المال . وجميع ما يدل على ذم الإيذاء والاضرار يدل على ذمها ، لسكونها بعض أفرادها . والعقل والشرع متطابقان على شدة قبح كل واحد منها بخصوصه وإيجابه للمهلك :

أما (الضرب) - فلأنه لا ريب في أن ضرب مسلم بلا داع شرعي مما يقبحه كل عاقل ، ويذمه جميع طوائف العالم . حتى نفاة الأديان ، والأخبار الواردة في ذمه كثيرة ، وفي عدة منها : « أن من ضرب رجلاً سوطاً لضربه الله سوطاً من النار » .

وأما (الفحش والسب وبذاءة اللسان) - فلا ريب في كونه صادراً عن خيانة النفس . قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « ليس المؤمن بالطعنان ولا اللعان ، ولا الفاحش ولا البذي » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « إياكم والفحش ، فإن الله لا يحب الفحش والتفحش » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « الجنة حرام على كل فاحش أن يدخلها » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « إن الفحش والتفحش ليسا من الإسلام في شيء » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « البذاءة والبيان شعثان من شعث النفاق » . وروى : أن المراد بالبيان : كشف ما لا يجوز كشفه . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « أربعة يؤذون أهل النار على ما بهم من الأذى ، ... وعد منهم : رجلاً يسيل فوه قيحاً ، وهو من كان في الدنيا فاحشاً » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « لا تسبوا الناس فتكسبوا العداوة منهم » (١) . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « إن الله حرم الجنة على كل فاحش بذي قليل الحياء لا يبالي ما قال ولا ما قيل له ، فأنك إن فتشته لم تجده إلا لغية » (٢) أو شرك شيطان . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « إذا رأيتم الرجل لا يبالي ما قال ولا ما قيل فيه فإنه - لغية أو شرك شيطان » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « إن الله ليبغض الفاحش البذي والسائل الملحف » . وقال

(١) وفي بعض نسخ الكافي في باب الدياب : (بينهم) بدل (منهم) .

(٢) قال في القاموس في مادة (غوى) : « ولد غية - ويكسر - أي زنية » ، فيكون

معنى (لغية) أي (لزنية) .

- صلى الله عليه وآله وسلم - : « إن من شرار عباد الله من تكبره بحالسته لفحشه » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « سباب المؤمن فسوق ، وقتاله كفر ، وأكل لحمه معصية ، وحرمة ماله كحرمة دمه » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « سباب المؤمن كالمشرف على الهللكة » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « شر الناس عند الله تعالى يوم القيامة الذين يكرمون انقاء شرهم » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « المتسaban شيطانان متعاديان ومتهاران » . وقال الصادق عليه السلام : « من علامات شرك الشيطان الذي لا يشك فيه أن يكون خاشعاً لا يبالى ما (١) قال ولا ما (١) قيل فيه » . وقال عليه السلام : « البذاء من الجفاء ، والجفاء في النار » . وقال عليه السلام : « من خاف الناس لسانه فهو في النار » ، وقال : « إن أبغض خلق الله تعالى عبد اتقى الناس لسانه » . وعن السكاظم عليه السلام في رجلين يتسaban : « فقال : البادى منهما أظلم ، ووزره ووزر صاحبه عليه ما لم يتعد المظلوم » (٢) .

(تنبيه) اعلم أن حقيقة الفحش هو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارة الصريحة . ويجرى أكثر ذلك في الفاظ الوقاع وآلاته وما يتعلق بهما ، فإن لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه ، وأهل الصلاح يتحاشون من التعرض لها ، بل يكتنون عنها ويعبرون عنها بالرموز . قال بعض الصحابة : « إن الله حيي كريم يعف ويكفي ، كفى باللبس عن الجماع » . فالمس ، واللبس ، والدخول ، والصحبة ، كنايةات عن الوقاع ، وليست بفاحشة ، وعنه عبارات فاحشة يستقبح ذكرها . وليس هذا يختص بالوقاع ، بل

(١) وفي بعض نسخ الكافي في باب البذاء (بما) في الموضعين .

(٢) قد مضى في الصفحة (٣٠٠) تصحيح الحديث على ما في أصول الكافي في باب

السفهاء . فصححناه هنا أيضاً .

الكناية بقضاء الحاجة عن التبول والتغوط أولى من لفظة التغوط والخراء وغيرهما، وكذا التعبير عن المرأة، فهذا أيضاً مما يخفى ويستحي منه، فلا ينبغي أن تذكر ألفاظه الصريحة باللسان، بل يكفى عنها، فلا يقال: قالت زوجك أو امرأتك، بل يقال: قيل في الحجرة، أو قيل من وراء الستر، وقالت أم الأولاد، وأمثال ذلك. وكذلك من به عيوب يستحي منها، فلا ينبغي أن يعبر عنها بصريح لفظها، كالبرص، والقرح، والبطن، وأمثال ذلك، بل يكفى عنها بعبارات غير صريحة، مثل العارض الذى عرض وما يجرى مجراه، إذ التصريح بجميع ذلك داخل في الفحش.

ثم ألفاظ الفحش لا ريب - حيثئذ - في كونها محظورة بأسرها مذمومة، وإن كان بعضها أخش من بعض، فيكون أثمه أشد، سواء استعمل في الشتم والايذاء أو لا يستعمل فيه، بل في المزاح والهزل وغيرهما. وحيثئذ لما كانت هذه العبارات متفاوتة في الفحش بعضها أخش من بعض، وربما اختلف بعادة البلاد، فيكون بعضها مكروهاً وبعضها محظوراً، فإن من قال لغيره مزاحاً أو اعتياداً حاصلًا من مخالطة الفساق: (فرج امرأتك ضيق أم لا؟) لا ريب في كونه فحشاً محرماً مذموماً، مع أنه لم يستعمل في الشتم. وبالجملة: أوائل هذه العبارات مكروهة وأواخرها محظورة، وبينهما درجات تتردد بين السكراهة والحرمة.

وأما (اللعن) - فلا ريب في كونه مذموماً، لأنه عبارة عن الطرد والابعاد من الله تعالى، وهذا غير جائز إلا على من اتصف بصفة تبعده بنص الشريعة. وقد ورد عليه الذم الشديد في الأخبار، قال رسول الله - صلى الله عليه وآله - : «المؤمن ليس بلعان»، وعن الباقر عليه السلام قال: «خطب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - الناس، فقال: ألا أخبركم بشراركم؟ قالوا:

بلى يا رسول الله ! قال : الذى يمنع رفته ، ويضرب عبده . ويتردد وحده . فظنوا أن الله لم يخلق خلقاً هو شر من ذلك ، ثم قال : ألا أخبركم بمن هو شر من ذلك ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ! قال : المفتحش اللعان الذى إذا ذكر عنده المؤمنون لعنهم ، وإذا ذكروه لعنوه . وقال الباقر عليه السلام : « إن اللعنة إذا خرجت من فم صاحبها ترددت بينهما فإن وجدت مساعداً وإلا رجعت إلى صاحبها » .

ثم لما كان اللعن هو الحكم بالبعد أو طلب الإبعاد من الله . (والأول) غيب لا يطلع عليه إلا الله . (والثاني) لا يجوز إلا على من اتصف بصفة تبعده منه ، فينبغى ألا يلعن أحداً إلا من جوز صاحب الشرع لعنه ، والمجوز من الشرع إنما هو اللعن على الكافرين والظالمين والفاستقين ، كما ورد في القرآن ولا ريب في جواز ذلك بالوصف الأعم ، كقولك : لعنه الله على الكافرين . أو بوصف يخص بعض الأصناف ، كقولك : لعنه الله على اليهود والنصارى . والحق جواز اللعن على شخص معين علم اتصافه بصفة الكفر أو الظلم أو الفسق . (وما قيل) من عدم جواز ذلك إلا على من يثبت لعنه من الشرع كفرعون وأبي جهل ، لأن كل شخص معين كان على إحدى الصفات الثلاثة ربما رجع عنها ، فيموت مسلماً أو تائباً ، فيكون مقرباً عند الله لا مبعداً عنه (كلام ينبغى) أن يطوى ولا يروى ، إذ المستفاد من كلام الله تعالى وكلام رسوله - صلى الله عليه وآله وسلم - وكلام أئمتنا الراشدين : جواز نسبته إلى الشخص المعين ، بل المستفاد منها أن اللعن على بعض أهل الجحود والعناد من أحب العبادات وأقرب القربات ، قال الله سبحانه :

«أَوَلَمْ نَكُ عَلَىٰ سِيْرِهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ

أَجْمَعِينَ» (١). وقال: «أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ
اللَّاغِنُونَ» (٢).

وقال النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - : «لعن الله الكاذب ولو كان
مازحاً». وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - في جواب أبي سفيان حين هجاه
بألف بيت: «اللهم إني لا أحسن الشعر ولا ينبغي لي، اللهم العنه بكل حرف
ألف لعنة». وقد لعن أمير المؤمنين عليه السلام جماعة. وروى أنه كان يقنت في
الصلاة المفروضة بلعن معاوية وعمرو بن العاص وأبي موسى الأشعري
وأبي أعور الأسلمي، مع أنه أحلم الناس وأشدّهم صفحاً عن يسوء به، فلولا
أنه كان يرى لعنهم من الطاعات لما يتخير محله في الصلوات المفروضة.
وروى الشيخ الطوسي: «أن الصادق عليه السلام كان ينصرف من الصلاة بلعن
أربعة رجال». ومن نظر إلى ما وقع للحسن عليه السلام مع معاوية وأصحابه وكيف
لعنهم، وتتبع ما ورد من الأئمة في الكافي وغيره من كتب الأخبار والأدعية
في لعنهم من يستحق اللعن من رؤساء الضلال والتصريح باسمائهم، يعلم أن
ذلك من شعائر الدين، بحيث لا يعتريه شك ومريّة. وما ورد من قوله
- عليه السلام - «لا تكونوا لعانين»، ومثله: نهى عن اللعن على غير
المستحقين، وما روى: أن أمير المؤمنين - عليه السلام - نهى عن لعن أهل
الشام، فإن صح، فلعنه كان يرجو إسلامهم ورجوعهم إليه، كما هو شأن
الرئيس المشفق على الرعية.

وبالجملة: اللعن على رؤساء الظلم والضلال والمجاهرين بالكفر والفسق
جائز، بل مستحب، وعلى غيرهم من المسلمين غير جائز، إلا أن يتيقن

(١) البقرة، الآية: ١٦١.

(٢) البقرة، الآية: ١٥٩.

باتصافه باحدى الصفات الموجبة له . وينبغي ألا يحكم باتصافه بشيء منها بمجرد الظن والتخمين ، إذ لا يجوز أن يرمى مسلم بكفر وفسق من غير تحقيق ، قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : لا يرمى رجل رجلاً بالكفر فلا يرميه بالفسق إلا ارتد عليه إن لم يكن كذلك .

ثم اللعن على الأموات أشد وزراً وأعظم إثماً ، لقول النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - : لا تسبوا الأموات ، فانهم قد افضوا الى ما قدموا . ولا ينبغي أن يلعن الجماد والحيوان أيضاً . لما روى : أنه ما لعن أحداً الأرض إلا قالت : اللعن على أعصانا الله ، وما روى : أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أنكر على امرأة لعنت ناقة ، وعلى رجل لعن بعيراً . ثم الدعاء على المسلم بالشر قريب من اللعن عليه ، فلا ينبغي ارتكابه ولو على الظالم ، إلا إذا اضطر اليه لشره واضراره ، وقد ورد أن المظلوم ليدعو على الظالم حتى يكافيه ، ثم يبقى للظالم عنده فضيلة يوم القيامة . وقال علي بن الحسين - عليهما السلام - : إن الملائكة إذا سمعوا المؤمن يذكر أخاه بالسوء ويدعو عليه قالوا : بشئ الأخ أنت لأكبر ! كف أيها المستر على ذنوبه وعورته ، واربع على نفسك ، واحمد الله الذي ستر عليك ! (١) .

ثم ضد ذلك - اعنى الدعاء للأخ المسلم بما يجب لنفسه - من أحب الطاعات وأقرب القربات ، وفوائده أكثر من أن تحصى ، بل عند التحقيق دعاؤك له دعاء لنفسك . قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : إذا دعا الرجل لأخيه في ظهر الغيب قال الملك : ولك مثل ذلك . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : يستجاب للرجل في أخيه ما لا يستجاب له في نفسه . وقال علي بن الحسين - عليهما السلام - : إن الملائكة إذا

(١) هذه الرواية من تنمة الرواية الآتية عن علي بن الحسين - عليهما السلام - .

سمعوا المؤمن يدعو لأخيه المؤمن بظهر الغيب أو يذكره بخير ، قالوا : نعم
 الأخ انت لأخيك ! تدعو له بالخير وهو غائب عنك ، وتذكره بالخير . قد
 أعطاك الله - عز وجل - مثلي ما سألت له ، واثني عليك مثلي ما اثنت عليه ،
 ولك الفضل عليه ، . ومثله ورد عن الباقر - عليه السلام - أيضاً . والاحبار
 في فضيلة الدعاء للاخوان اكثر من أن تحصى ، وإي كرامة اعظم لك من أن
 تصل منك الى المؤمن وهو تحت اطباق الثرى هدايا الاستغفار والادعية ،
 وهل تدري كيف تسر روحه منك بهذا العمل ؟ فان اهله يقسمون ميراثه
 ويتنعمون بما خلف ، وانت متفرد بجزئك تدعو له في ظلمة الليل ، وقد قال
 رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « مثل الميت في قبره مثل الغريق
 يتعلق بكل شيء » ، ينتظر دعوة من ولد أو والد أو أخ أو قريب ، وانه ليدخل
 على قبور الأموات من دعاء الأحياء من الأنوار مثل الجبال ، وهو للاموات
 بمنزلة الهدايا للأحياء ، فيدخل الملك على الميت معه طبق من نور عليه منديل
 من نور ، فيقول : هذه هدية لك من عند أخيك فلان ، من عند قريبك فلان ،
 فيفرح كما يفرح الحي بالهدية (١) .

وأما (الطعن) - فهو أيضاً من ذمائم الافعال ، ويورث الضرر في
 الدنيا والعذاب في الآخرة . قال الباقر - عليه السلام - : « إياكم والطعن على
 المؤمنين » . وقال - عليه السلام - : « ما من انسان يطعن في عين مؤمن إلا
 مات شرمية ، وكان قنأ لا يرجع الى خير » .

واعلم أن هذه الامور - اعني الفحش واللعن والطعن وامثالها مما يأتي

(١) هذا الكلام من بعد الحديث الذي وضعناه بين قوسين رواه في احياء العلوم

- ج ٢ ص ١٦٤ - عن بعض السلف ، وبمضمونه احاديث مروية عن آل البيت (ع) .
 روى منها في الوسائل في ابواب الاحتضار من كتاب الظهارة (باب استجباب الصلاة عن
 الميت والصوم والحج) .

في موضعه : من الغيبة ، والكذب ، والبهتان ، والاستهزاء ، والمزاح ،
والخوض في الباطل ، والتكلم بالفضول وما لا يعنى : من آفات اللسان ، ويأتى
أن لجميع آفات اللسان ضدّاً عاماً هو الصمت ، ويأتى بيان فضيلته وكثرة فوائده ،
ويأتى أيضاً ما يدل بعمومه على ذم جميع آفات اللسان - اعنى ما ورد في ذم
اللسان ، وكون شره أعظم من شر سائر الأعضاء - فانه بعمومه يدل على ذم
هذه الأمور .

ومنها - أى ومن رذائل القوة الغضبية - :

المعجب

وهو استعظام نفسه لأجل ما يرى لها من صفة كمال ، سواء كانت له
تلك الصفة في الواقع أم لا . وسواء كانت صفة كمال في نفس الأمر أم لا ،
وقيل : « هو اعظام النعمة والركون اليها مع نسيان إضافتها الى المنعم » ، وهو
قريب مما ذكر ، ولا يعتبر في مفهومه رؤية نفسه فوق الغير في هذا الكمال
وهذه النعمة ، وبذلك يمتاز عن الكبر ، إذ الكبر هو أن يرى لنفسه منزلة
على غيره في صفة كمال ، وبعبارة أخرى هو الاسترواح والركون الى رؤية
النفس فوق المتكبر عليه ، فالكبر يستدعى متكبراً عليه ومتكبراً به .

والعجب لا يستدعى غير المعجب ، بل لو لم يخلق الانسان إلا وحده
تصور أن يكون معجباً ، ولا يتصور أن يكون متكبراً ، إلا أن يكون مع
غيره وهو يرى نفسه فوق ذلك الغير في صفة الكمال . ولا يكفي أن يستعظم
نفسه ليكون متكبراً ، فانه قد يستعظم نفسه ، ولكن يرى في غيره اعظم من
نفسه أو مثل نفسه ، فلا يتكبر عليه ، فهو معجب وأيس متكبراً . ولا يكفي
أن يستحقّر غيره ، فانه مع ذلك لو رأى نفسه أحقر أو رأى غيره مثل

نفسه لم يكن متكبراً ، بل المتكبر هو أن يرى لنفسه مرتبة وأغیره مرتبة ، ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره .

والحاصل: أن العجب مجرد إعظام النفس لأجل كمال أو نعمة، وإعظام نفس الكمال والنعمة مع الركون ونسيان إضافتهما إلى الله ، فإن لم يكن معه ركون وكان خائفاً على زوال النعمة مشفقاً على تكديرها أو سلبها بالمرّة ، أو كان فرحه بها من حيث أنها من الله من دون إضافتها إلى نفسه لم يكن معجباً ، فالمعجب ألا يكون خائفاً عليها ، بل يكون فرحاً بها مطمئناً إليها ، فيكون فرحه بها من حيث أنها صفة كمال منسوبة إليه ، لا من حيث أنها عطية منسوبة إلى الله تعالى . ومهما غلب على قلبه أنها نعمة من الله مهما شاء سلبها زال العجب . ثم لو انضاف إلى العجب - أي غلب على نفس المعجب - أن له عند الله حقاً ، وأنه منه بمكان ، واستبعد أن يجري عليه مكروه ، وكان متوقفاً منه كرامة لعمله ، سمي ذلك (ادلالاً) بالعمل ، فكأنه يرى لنفسه على الله دالة ، فهو وراء العجب وفوقه ، إذ كل مدل معجب ، ورب معجب لا يكون مدلاً ، إذ العجب مجرد الاستعظام ونسيان الإضافة إلى الله من دون توقع جزاء على عمله ، والادلال يعتبر فيه توقع الجزاء بعمله ، إذ المدل يتوقع إجابة دعوته ويستنكر ردها بباطنه ويتعجب منه ، فالادلال عجب مع شيء زائد .

وعلى هذا ، فمن أعطى غيره شيئاً ، فإن استعظمه ومن عليه كان معجباً ، وإن استخدمه مع ذلك أو اقترح عليه الاقتراحات واستبعد تخلفه عن قضاء حقوقه كان مدلاً عليه . وكما أن العجب قد يكون مما يراه صفة كمال وليس كذلك العجب بالعمل قد يكون بعمل هو مخفي فيه ويراه حسناً ، كما قال سبحانه : « أَتَمَنُّ زِينَةً لَهُ مُسَوِّءٌ عَمَلِهِ فَرَأَاهُ حَسَنًا » (١)

وقال أبو الحسن - عليهما السلام - : « العجب درجات : ومنها أن يزين للعبد سوء عمله فيراه حسناً ، فيعجبه ويحسب أنه يحسن صنعا . ومنها أن يؤمن العبد بربه ، فيمنّ على الله - عز وجل - والله عليه فيه المنّ » .

فصل

(ذم العجب)

العجب من المهلكات العظيمة وأرذل الملوك الذميمة ، قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « إذا رأيت شحاً مطاعاً ، وهوى متبعاً ، وإعجاب كل ذي رأى برأيه ، فعليك نفسك » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « لو لم تذبوا الخشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك : العجب العجب » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « بينما موسى عليه السلام جالس (١) ، إذ أقبل عليه إبليس وعليه برنس ذو ألوان ، فلما ذنى منه خلع البرنس ، وقام إلى موسى عليه السلام فسلم عليه ، فقال له موسى : من أنت ؟ فقال : أنا إبليس ، قال أنت ؟ فلا قرّب الله دارك ، قال : إني إنما جئت لأسلم عليك لمسكانك من الله ، فقال له موسى عليه السلام : فما هذا البرنس ؟ قال : به اختطف قلوب بني آدم ، فقال موسى : فاخبرني بالذنب الذي إذا أذنبه ابن آدم استحوذت عليه ، قال : إذا أعجبت نفسه واستكثر عمله وصغر في عينه ذنبه » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « قال الله - عز وجل - : يا داود ! بشر المذنبين وأنذر الصديقين ، قال : كيف ابشر المذنبين وأنذر الصديقين ؟ قال : بشر المذنبين أني أقبل التوبة وأعفو عن الذنب ، وأنذر

(١) وفي بعض نسخ المصنف في باب العجب هكذا : (جالسا) - بالنصب -

الصديقين ألا يعجبوا بأعمالهم ، فإنه ليس عبد أنصبه للحساب إلا هلك ، .
 وقال الباقر عليه السلام : « دخل رجلان المسجد ، أحدهما عابد والآخر فاسق ،
 فخرجا من المسجد والفاسق صديق والعابد فاسق ، وذلك أنه يدخل العابد
 المسجد مدلاً بعبادته يدل بها ، فتكون فكرته في ذلك ، وتكون فكرة الفاسق
 في الندم على فسقه ، ويستغفر الله مما صنع من الذنوب ، . وقال الصادق
 عليه السلام : « إن الله علم أن الذنب خير للمؤمن من العجب ، ولولا ذلك ما ابتلى
 مؤمناً بذنب أبداً ، . وقال عليه السلام : « من دخله العجب هلك ، . وقال عليه السلام : « أن
 الرجل ليذنب الذنب فيندم عليه ، ويعمل العمل فيسره ذلك ، فيتراخي عن حاله
 تلك ، فلأن يكون على حاله تلك خير له مما دخل فيه ، . وقال عليه السلام : « أتى عالم
 عابداً فقال له : كيف صلاتك ؟ فقال : مثلي يسأل عن صلاته وأنا أعبد الله
 منذ كذا وكذا ، قال : فكيف بسكاؤك ؟ قال : أبكى حتى تجرى دموعي ،
 فقال له العالم : فإن ضحكك وأنت خائف أفضل من بسكاؤك وأنت مدل ، أن
 المدل لا يصمد من عمله شيء ، . وقال عليه السلام : « العجب كل العجب من يعجب بعمله وهو
 لا يدري بما يختم له ، فمن أعجب بنفسه وفعله ، فقد ضل عن نهج الرشاد ، وادعى
 ما ليس له ، والمدعى من غير حق كاذب وإن أخفى دعواه وطال دهره . وإن أول ما
 يفعل بالمعجب نزع ما أعجب به ليعلم أنه عاجز حقير ، ويشهد على نفسه ليسكون الحجة
 عليه أوكد ، كما فعل إبليس . والعجب نبات حبها الكفر ، وأرضها النفاق ،
 وماؤها البغي ، وأغصانها الجهل ، وورقها الضلالة ، وثمرها اللعنة والخلود في
 النار ، فمن اختار العجب فقد بذر الكفر وزرع النفاق ، ولا بد أن يثمر ، (١) .
 وقيل له عليه السلام : الرجل يعمل العمل وهو خائف مشفق ، ثم يعمل شيئاً من البر

(١) صححنا هذه الرواية على ما في البحار - الجزء الثالث من المجلد الخامس عشر في

باب العجب - وقد نقلها عن مصباح الشريفة ، وفيه اختلاف عن نسخ جامع السعادات .

فدخله شبه العجب به ، فقال : « هو في حالة الأولى وهو خائف أحسن حالا منه في حال عجبه » . وقال عليه السلام : « إن عيسى بن مريم - عليهما السلام - كان من شرائعه السبع في البلاد ، فخرج في بعض سيحبه ومعه رجل من أصحابه قصير ، وكان كثير اللزوم لعيسى ، فلما انتهى عيسى إلى البحر قال : بسم الله ، بصحة يقين منه ، فمشى على ظهر الماء . فقال الرجل القصير حين نظر إلى عيسى جازه : بسم الله ، بصحة يقين منه ، فمشى على الماء ، ولحق بعيسى - صلى الله عليه - ، فدخله العجب بنفسه ، فقال : هذا عيسى روح الله يمشى على الماء وأنا أمشي على الماء ، فما فضله علي ؟ قال : فرس في الماء ، فاستغاث بعيسى عليه السلام ، فتناوله من الماء فأخرجه ، ثم قال له : ما قلت يا قصير ؟ قال قلت : هذا روح الله يمشى على الماء وأنا أمشي ، فدخلني من ذلك عجب ، فقال له عيسى : لقد وضعت نفسك في غير الموضع الذي وضعك الله ، فمقتك الله على ما قلت ، فتب إلى الله - عز وجل - . مما قلت ، قال : فتاب الرجل ، وعاد إلى مرتبته التي وضعه الله فيها ، (١) .

فصل

(آفات العجب)

العجب آفاته كثيرة : (منها) الكبر لأنه أحد أسبابه - كما يأتي - (ومنها) أنه يدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها ، فلا يتذكر شيئاً منها ، وإن تذكر بعضاً منها يستصغرها ولا يستعظمها ، فلا يجتهد في تداركها وتلافيها ، بل يظن أنها تغفر له . وأما العبادات ، فيستعظمها ويتبجح بها ويمن على الله بفعلها ، وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والنسكين منها ، وإذا اعجب بها عمى عن آفاتها . ومن لم يتفقد آفات الأعمال ضل سعيه ، إذ الأعمال الظاهرة إذا

(١) صححتنا أكثر هذه الأحاديث على السكاك في باب العجب والحيد .

لم تكن خالصة نقية عن الشوائب قلما تنفع، وإنما يتفقد الخائف المشفق دون المعجب، لأنه يفتر بنفسه وبرأيه ويأمن مكر الله وعذابه، ويظن أنه عند الله بمكان، وأن له عند الله حقاً بأعماله التي هي من عطاياه تعالى ونعمه، وربما يخرج المعجب إلى تزكية نفسه والثناء عليها. وإن أعجب برأيه وعقله وعلمه من ذلك من السؤال والاستفادة والاستشارة، فيستبد بنفسه ورأيه ويستنكف عن سؤال الأعم، وربما يعجب بالرأى الخطأ الذي خطر له، فيفرح بكونه من خواطره ولا يعتنى بخواطر غيره، فيصر عليه، ولا يسمع نصيح ناصح ولا وعظ واعظ، بل ينظر إلى غيره بعين الاستحقار والاستجهال، فإن كان رأيه الفاسد متعلقاً بامر ديني أو فضحه، وإن كان متعلقاً بامر ديني - (لا) سيما في أصول العقائد - أضله وأهلكه. ولو اتهم نفسه ولم يثق برأيه، واستعان بعلماء الدين وسؤال أهل البصيرة، لكان خيراً له وأحسن، وموصلاً له إلى الحق المتيقن. ومن آفاته أنه يفتر في الجد والسعي، لظنه أنه قد استغنى وفاز بما ينجيه، وهو الهلاك الصريح الذي لا شبهة فيه.

فصل

(علاج المعجب اجمالاً وتفصيلاً)

إعلم أن للمعجب علاجين: اجمالياً وتفصيلاً (١):

أما العلاج الاجمالي - فهو أن يعرف ربه، وأنه لا تليق العظمة والعزة إلا به، وأن يعرف نفسه حق المعرفة، ليعلم أنه بذاته أذل من كل ذليل وأقل من كل قليل، ولا تليق به إلا الذلة والمهانة والمسكنة، فما له والمعجب

(١) والنسخ: (اجمالي وتفصيلي).

واستعظام نفسه ، فانه لا ريب في كونه ممكناً ، وكل ممكن في ذاته صرف العدم ومحض اللاشيء . كما ثبت في الحكمة المتعالية . ووجوده وتحققه وكلاله وآثاره جميعاً من الواجب الحق ، فالعظمة والكبرياء انما تليق بمفيض وجوده وكالاته ، لا لذاته التي هي صرف العدم ومحض الليس ، فان شاء أن يستعظم شيئاً ويفتخر به فليستعظم ربه وبه افتخر ، ويستحقر نفسه غاية الاستحقر وحتى يراها صرف العدم ومحض اللاشيء . وهذا المعنى يشترك فيه كل ممكن كائناً من كان .

وأما المهانة والذلة التي تخص هذا المعجب وبني نوعه ، فيكون أوله نطفة قدرة وآخره جيفة عفنة ، وكونه ما بين ذلك حمال نجاسات منتنة ، وقد مر على ممر البوال ثلاث مرات . وتكفيه آية واحدة من كتاب الله تعالى لو كان له بصيرة ، وهي قوله تعالى :

« قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ . مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ . مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ . ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ . ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ . ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ » (١) .

فقد أشارت الآية الى انه كان أولاً في كتم العدم غير المتناهي ، ثم خلقه من أفقر الأشياء الذي هو نطفة مهينة ، ثم أماته وجعله جيفة منتنة خبيثة . وأي شيء أخس وأرذل ممن بدايته محض العدم ، وخلقته من أنهن الأشياء . وأقذرها ، ونهايته الفناء وصيرورته جيفة خبيثة ، وهو ما بين المبدأ والمنتهى عاجز ذليل ، لم يفوض اليه أمره ، ولم يقدر على شيء لنفسه ولا لغيره ، إذ سلطت عليه الأمراض الهائلة ، والأسقام العظيمة ، والآفات

المختلفة ، والطبائع المتضادة ، من المرة والدم والريح والبلغم ، فيهدم بعض أجزائه بعضاً ، شاء أم أبى ، رضى أم سخط ، فيجوع كرهاً ، ويعطش كرهاً ، ويعرض كرهاً ، ويعوت كرهاً ، لا يملك لنفسه نفعا وضرا ولا خيراً وشرأ . يريد أن يعلم الشيء فيجهله ، ويريد أن يذكر الشيء فينساه ، ويريد أن ينسى الشيء فلا ينساه ، ويريد أن ينصرف قلبه الى ما يهيمه فيجول في أودية الوسوس والافكار بالاضطرار . فلا يملك قلبه قلبه ، ولا نفسه نفسه . يشتبهى الشيء وفيه هلاكه ، ويكره الشيء وفيه حياته . يستلذ ما يهلكه ويرديه . ويستبشع ما ينفعه وينجيه ، ولا يأمن في لحظة من ليله أو نهاره أن يسلب سمعه وبصره وعلمه وقدرته ، وتفلج أعضاؤه ، ويختلس عقله ، وتختطف روحه ، ويسلب جميع ما يهواه في دنياه ، وهو مضطر ذليل ، إن ترك فنى ، وإن خلى ما بقى ، عبد مملوك ، لا يقدر على شيء من نفسه ولا من غيره . فأى شيء أذل منه لو عرف نفسه ؟ وأنى يليق العجب به لو لا جهله ؟ . وهذا وسط أحواله .

وأما آخره ، فهو الموت - كما عرفت - فيصير جيفة منقنة قدرة ، ثم تضمحل صورته ، وتبلى أعضاؤه ، وتنخر عظامه ، وتتفتت أجزاؤه ، فيصير رميماً رفاتاً ، ثم يصير روثاً في أجواف الديدان ، يهرب منه الحيوان ، ويستقذره كل انسان ، وأحسن أحواله أن يعود الى ما كان ، فيصير تراباً تعمل منه السكيزان ، ويعمر منه البنيان ، فما أحسنه لو ترك تراباً ، بل يحى بعد طول البلى ليقاسى شدائد البلاء ، فيخرج من قبره بعد جمع أجزائه المتفرقة ، ويساق الى عرصات القيامة ، فيرى سماء مشققة ، وأرضاً مبدلة ، وجبالاً مسيرة ، ونجوماً منكندرة ، وشمساً منكسفة ، وجحيماً مسعرة ، وجنة مزينة ، وموازين منصوبة . وصحائف منشورة ، فاذا هو في معرض المواقظة والحساب وعليه ملائكة غلاظ شداد ، فيعطى كتابه إما بيمينه أو شماله ،

فيرى فيه جميع أعماله وأفعاله ، من قليل وكثير ونقيير وقطمير . فان غلبت سيئاته على حسناته وكان مستحقاً للعذاب والنار ، تمنى ان يكون كلباً أو خنزيراً ، لصير مع البهائم تراباً ولا يلقى عقاباً ولا عذاباً . ولا ريب في أن الكلب والخنزير أحسن وأطيب ممن عصى ربه القهار ويعذب في النار ، إذ أولهما وآخرهما التراب ، وهو بمنزل عن العقاب والعذاب ، والكلب والخنزير لا يهرب منهما الخلق ، ولو رأى أهل الدنيا من يعذب في النار لصمقوا من وحشة خلقته وقبح صورته . ولو وجدوا ريحه لما اتوا من تنه ، ولو وقعت قطرة من شرابه الذي يسقاه في بحار الدنيا صارت أنثى من الجيفة المنتنة .

فما لمن هذه حاله والعجب واستعظام نفسه ! وما أغفله من التدبر في أحوال يومه وأمه ! ولو لم يدركه العذاب ولم يؤمر به الى النار فأنما ذلك للعفو ، لأنه ما من عبد إلا وقد أذنب ذنباً ، وكل من أذنب ذنباً استحق عقوبة ، فلو لم يعاقب فأنما ذلك للعفو . ولا ريب في أن العفو ليس يقيناً ، بل هو مشكوك فيه ، فمن استحق عقوبة ولا يدري أيعنى عنها أم لا ، يجب ان يكون ابدأ محزوناً خائفاً ذليلاً ، فكيف يستعظم نفسه ويلحقه العجب ، ألا ترى أن من جنى على بعض الملوك بما استحق به الف سوط مثلاً ، فأخذ وحبس في السجن . وهو منتظر أن يخرج الى العرض وتقام عليه العقوبة على ما من الخلق ، وليس يدري أيعنى عنه أم لا ، كيف يكون ذله في السجن ؟ أفترى أنه مع هذه الحالة يكون معجباً بنفسه ؟ ! ولا اظنك ان تظن ذلك . فما من عبد مذنب ، ولو اذنب ذنباً واحداً ، إلا وقد استحق عقوبة من الله ، والدنيا سجنه ، ولا يدري كيف يكون امره . فيكفيه ذلك خوفاً ومهانة وذلة . فلا يجوز له ان يوجب ويستعظم نفسه .

هذا هو العلاج الاجمالى للعجب .

وأما التفصيلي — فهو ان يقطع اسبابه — اعنى ما به العجب — وهى العلم ،
والمعرفة ، والعبادة ، والطاعة ، وغير ذلك من السكالات النفسية ، كالورع ،
والشجاعة ، والسخاوة ، والنسب ، والحسب ، والجمال ، والمال ، والقوة ،
والبطش ، والجاه ، والافتدار ، وكثرة الاعوان والانصار ، والكياسة ،
والنفط لدقائق الأمور ، والرأى الخطأ .

أما (العجب بالعلم) : فعلاجه أن يعلم ان العالم الحقيقى هو الذى يعرف
نفسه وخطر الخاتمة ، وان من تليق به العظمة والعزة والكبرياء هو الله
سبحانه ، وما عداه هالك الهوية والذات فاقد السكال والصفات . وهذا العلم
يزيد الخوف والذلة والمهانة والمسكنة ، والاعتراف بالقصور والتقصير فى
اداء حقوق الله ، والشكر بازاء نعمه ، ولذا قيل : «من ازداد علماً ازداد وجعاً» .
فالعلم الذى لا يوجب ذلك ويورث العجب ، إما ليس علماً حقيقياً ، بل هو من
العلوم الدنيوية التى ينبغى ان تسمى صناعات لا علوماً ، إذ صاحبه خاض فيه
وهو خبيث النفس ردى الاخلاق لم يهذب نفسه أولاً ولم يزكها بالمجاهدات
ولم يرضها فى عبادة ربه ، فيبقى خبيث الجوهر ، فاذا خاض فى العلم وإن كان
علماً حقيقياً صادف من قلبه منزلاً خبيثاً ، فلم يطب ثمره ولم يظهر فى الخبر
اثره ، فان العلم مثله مثل الغيث ينزل من السماء عذبا صافياً ، فاذا شربته
الاشجار والنباتات ازداد المر مرارة والحلو حلاوة ، كذلك العلم اذا صادف
القلوب ازداد القلب المظلم الخبيث ظلمة وخبائث . والطيب الصافى طيباً وصفاء .
واذا علم ذلك ، يعرف أنه لا ينبغى العجب بالعلم ، ويجب أيضاً ان يعلم
أنه اذا أعجب بنفسه صار ممقوتاً عند الله مبغوضاً لديه ، لما تقدم من الاخبار ،
وقد أحب الله منه الذلة والحقارة عند نفسه . وقال بواسطة سفرائه : «إن
لك عندى قدراً ما لم تر لنفسك قدراً ، فان رأيت لنفسك قدراً فلا قدر لك

عندى ، (١) . وقال : « صغروا أنفسكم ليعظم عندى محلكم » . فلا بد ان يكلف نفسه ما يحب مولاه ، وأن يعلم ان حجة الله على أهل العلم أو كد ، وانه يتحمل من الجاهل ما لا يتحمل عشرة من العالم ، لأن العالم اذا زل زل بزله كثير من الناس ، ولأن من عصى الله عن علم ومعرفة كانت جنايته أخفش ، إذ لم يقض حق نعمة الله عليه في العلم ، ولذلك قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقى في النار ، فتندلق أفتابه ، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى ، فيطيف به أهل النار ، فيقولون : مالك ؟ فيقول : كنت أمر بالخير ولا آتية وانهى عن الشر وآتية » . وقد مثل الله تعالى لعلماء (اليهود) بالحمار (٢) ، وبلغ بن باعوراء بالكلب (٣) ، لعدم عملهم بما علوه . وقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « يكون قوم يقرؤن القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يقولون قد قرأنا القرآن فمن أقرأ منا ومن أعلم منا » ، ثم التفت الى أصحابه فقال : « أولئك منكم أيها الأمة ، أولئك هم وقود النار » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « إن أهل النار ليتأذون من ريح العالم التارك لعلمه ، وإن أشد أهل النار ندامة وحسرة رجل دعا عبداً الى الله فاستجاب له وقبل منه ، فاطاع الله فادخله الله الجنة ، وادخل الداعي النار بتركه علمه واتباعه الهوى وطول الأمل » . وقال روح الله ﷻ : « ويل لعلماء سوء (٤) كيف

(١) هذا كلام ينصه المذكور في احياء العلوم - ج ٣ ص ٣١٢ - ويظهر منه انه من كلامه هو أو مقتبس من مضافين الأخبار ، لا انه نص حديث ، وكذا ما بعده وهو قوله : « صغروا . . . » .

(٢) اشارة الى قوله تعالى - في سورة الجمعة الآية ٥ - : « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا » .

(٣) اشارة الى قوله تعالى - في سورة الاعراف الآية ١٧٦ - : « فله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث » .

(٤) في النسخ المصححة للكتاب - باب لزوم الحجة على العالم - هكذا : « للعلماء سوء » .

تتلظى عليهم النار . وقال الصادق عليه السلام : « يغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنب واحد » .

ولا ريب في أن كل عالم يأمر الناس بالتواضع وذل النفس وانكسارها ، وينهاهم عن العجب والكبر ، وهو معجب متكبر ، يكون من علماء السوء ، ومن لم يعمل بعلمه ، فيكون داخلاً تحت هذه الأخبار . وأى عالم يتصور في أمثال هذه الأزمنة أن يحزم بأنه عمل بجميع ما علم وأمر به ، ولم يضع شيئاً من أوامره من الجنايات الظاهرة والذنوب الباطنة ، كالرياء والحسد والعجب والنفاق وغير ذلك ؟ وكيف يمكنه القطع بأنه امتثل ما أمر به من التكليف العامة والخاصة به ؟ فخطره اعظم من خطر غيره ، كيف وقد روى : « أن حذيفة صلى بقوم ، فلما سلم قال : لتلتسن إماماً غيرى أو لتصلن وحداناً ، فإني رأيت في نفسي أنه ليس في القوم أفضل مني » . فإذا كان مثله لا يسلم ، فكيف يسلم الضعفاء من متأخري هذه الأمة ، فما أعز على بسيط الأرض في هذه الأعصار علماء الآخرة الذين أقبلوا على شأنهم ، واستوحشوا من أوثق اخوانهم ، وشغلهم عظيم الأمر عن الالتفات إلى الدنيا وزهرتها ، وازعجهم خوف الرحمن عن مضاجعهم في حنادس الليالي وظلمتها ، ولا يشتهون من نعيم الدنيا حاراً ولا بارداً ، وصارت همومهم همماً واحداً ، هيهات ! فأنى يسمح آخر الزمان بمثلهم ، فهم أرباب الاقبال وأصحاب الدول ، وقد انقروا في القرون الأولى ، بل يعز أن يوجد في زماننا هذا عالم لا تكون له استطلالة وخيلاء ، ولم يكن متكبراً على الفقراء ، ومتواضعاً للأغنياء . فينبغي لكل

— بتعريف العلماء — ونحن رجعنا نسخة جامع السعادات المطبوعة فائدتنا بلا تعريف . قال صاحب مجمع البحرين - مادة (سوء) - : « تقول هذا رجل سوء بالاضافة ، ثم تدخل عليه الالف واللام ، فتقول هذا رجل سوء . ولا يقال للرجل سوء . كذا قاله الجوهرى » .

عالم أن يتفكر في أحواله وأعماله وما أريد منه ، وفي عظم خطره حتى تنكسر نفسه ، ويظهر خوفه وحزنه ويبتل كبره وعجبه .

وأما (العجب بالعبادة والطاعة) : فعلاجه أن يعلم أن الغرض من العبادة هو إظهار الذل والانكسار ، وصيرورتها ملكة للنفس ليحصل له معنى العبودية وحقيقتها ، فالعجب لمنافاته الغرض المقصود منها يبطلها ، وبعد بطلانها فلا معنى للعجب بها . وايضاً آفات العبادة الموجبة لحبطها كثيرة ، وكذلك شرائطها وآدابها التي لا يصح بدونها كثيرة ، فيمكن أن تدخلها بعض الآفات ، أو تفقد عنها بعض الشرائط والآداب ، فلا تكون مقبولة عند الله ، ومع إمكان ردها وعدم قبولها كيف يعجب العاقل بها ؟ ومن يمكنه القطع بسلامة طاعاته وعباداته عن جميع الآفات ؟ ومن قطع بذلك فهو في غاية الجهل بحقائق الأمور . على أن فائدة العبادة إنما هو إذا كان عند الله سعيداً ، ومن جوز أن يكون عند الله شقياً ، وقد سبق القضاء الإلهي بشقوته ، فأى نفع يتصور لعبادته حتى يعجب بها ؟ ولا ريب في أنه لا يخلو عبد عن هذا التجويز ، فما لاحد الى العجب والتكبر في حال من الأحوال سبيل .

وأما (العجب بالورع ، والتقوى ، والصبر ، والشكر ، والسخاوة ، والشجاعة ، وغيرها من الفضائل النفسية) : فعلاجه أن يعلم أن هذه الفضائل إنما تكون نافعة ومنجية إذا لم يدخلها العجب ، وإذا دخلها العجب أبطلها وأفسدها ، فما للعاقل أن يرتكب رذيلة تضيع ماله من الفضائل ، وأنى له لا يظهر الذلة والتواضع في نفسه حتى يزيد فضيلة على فضائلها ، ويختم لأجلها الجميع بالخير ، وتصير عاقبته محمودة ، وتكون مساعيه مقبولة مشكورة . وينبغي أن يعلم أن كل واحد من الفضائل التي يثبتها لنفسه موجودة مع الزيادة في كثير من بني نوره ، وإذا علم اشتراك الناس معه في هذه الفضيلة زال إعجابه بها . وقد نقل أن

واحداً من مشاهير الشجعان اذا قابل خصمه اصفر لونه وارتعدت فرائصه واضطرب قلبه . فقليل له : ما هذه الحالة وانت اشجع الناس واقواهم ؟ فقال : إني لم امتحن خصمى ، فلعله أشجع منى . وأيضاً النصر والغلبة وحسن العاقبة مع الذلة والمسكنة ، لا مع الاعجاب بالقوة والشجاعة ، فإن الله عند المنكسرة قلوبهم .

ومن المعالجات النافعة للعجب بكل واحد من الصفات السكالية : أن يقابل سببه بضده ، اذ علاج كل علة بمقابلة سببها بضده ، ولما كانت علة العجب هو الجهل المحض ، فعلاجه المعرفة المضادة له ، فنقول :

السكال الذى به يعجب إما أن يكون يعجب به من حيث أنه فيه وهو محله ومجراه ، أو من حيث أنه نشأ منه وحصل بسببه وقوته وقدرته . فإن كان (الأول) ، فهو محض الجهل ، لأن المحل مسخر ، وإنما يجرى ما يجرى فيه وعليه من جهة غيره ، ولا مدخل له فى الابداع والتحصيل ، فكيف يعجب بما ليس له . وإن كان (الثانى) ، فينبغى أن يتأمل فى قدرته وارادته واعضائه ، وسائر الاسباب التى بها يتم كماله وعمله ، أنها من اين كانت له : فإن كان علم أن جميع ذلك نعمة من الله اليه من غير حق سبق له ، فينبغى أن يكون اعجابه بجود الله تعالى وكرمه وفضله ، إذ أفاض عليه مالا يستحقه ، وآثره به على غيره من غير سابقة ووسيلة ، فإن ظن أنه تعالى وفقه لهذا العمل لاتصافه ببعض الصفات الباطنة المحمودة ، كحبه له تعالى أو مثله ، فيقال له : الحب والعمل كلاهما نعمتان من عنده ، ابتداءك بهما من غير استحقاق من جهتك ، إذ لا وسيلة لك ولا علاقة ، فليكن الاعجاب بجوده ، إذ أنعم بوجودك وبوجود صفاتك واعمالك واسباب اعمالك .

فاذن لا معنى لعجب العالم بعلمه ، وعجب العابد بعبادته ، وعجب الشجاع

بشجاعته ، وعجب الجميل بجماله ، وعجب الغنى بماله ، لأن كل ذلك من فضل الله ، وإنما هو محل لفيضان فضل الله وجوده . والمحل أيضاً من فضله وجوده ، فانه هو الذى خلقك ، وخلق اعضاءك ، وخلق فيها القوة والقدرة والصحة ، وخلق لك العقل والعلم والارادة ، ولو أردت أن تنفى شيئاً من ذلك لم تقدر عليه . ثم خلق الحركات فى اعضاءك مستبداً باختراعها من غير مشاركة لك معه فى الاختراع ، إلا أنه خلقها على ترتيب ، فلم يخلق الحركة مالم يخلق فى العضو قوة وفى القلب ارادة ، ولم يخلق العلم مالم يخلق القلب الذى هو محله ، فتدريجاً فى الخلق شيئاً بعد شيء هو الذى خيل اليك أنك مستقل بإيجاد عملك ، وقد غلطت ، فان تحريك البواعث ، وصرف العوائق ، وتهيئة الأسباب ، كلها من الله ، ليس شيء منها اليك .

ومن العجائب أن تعجب بنفسك ، ولا تعجب بمن اليه الأمر كله ، ولا تعجب بجموده وكرمه ، وفضله فى ايثاره إياك على الفساق من عباده ، إذ مكنهم من اسباب الشهوات والذات ، وزواها عنك ، وصرف عنهم بواعث الخير وهياها لك ، حتى يتيسر لك الخير من غير وسيلة سابقة منك .

روى : « أن أيوب عليه السلام قال : (إلهى إنك ابتليتنى بهذا البلاء ، وما ورد على أمر إلا آثرت هواك على هواي) ، فنودى من غمامة بعشرة آلاف صوت : يا أيوب ! أنى لك ذلك ؟ قال : فأخذ رماداً فوضعه على رأسه ، وقال : منك يا رب ! فرجع عن نسيانه ، واضاف ذلك الى الله تعالى ، ولذلك قال الله تعالى :

« وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا » (١) .

وقال النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - : « ما منكم من أحد ينجيهِ عمله » ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ! قال : « ولا أنا إلا ان يتغمدني الله برحمته » .

(فإن قيل) : ما ذكرت من استناد الصفات والأفعال ومحلها جميعاً الى الله تعالى ، يؤدي الى الجبر ونفي التكليف ، وبطلان الثواب والعقاب ، (قلنا) : هذا فرع باب مسألة يتعلق بعلم آخر ، ولا يليق بيانها هنا (١) . ونحن لم نسلب القدرة والاختيار عن العبد بالسكينة في متعلق التكليف - اعني افعاله العرضية - بل نفينا استقلاله فيها . نعم ، في غيرها من المحال والأسباب والصفات اللازمة ، والتوفيق ، ونحر يك البواعث ، وصرف الموانع ، لا قدرة له فيها اصلاً ، ولا يلزم منه فساد .

وأما (العجب بالحسب النسب) : فعلاجه يتم بمعرفة امور :
الاول - أن يعلم أن التعزز بسكال الغير غاية السفاهة والجهل ، فإنه لو كان خسيساً في صفات ذاته ، فمن أين يجبر خسته كال غيره ، ولو كان أباه أوجده ، بل لو كان الذي يعجب به بالانتساب حياً لسكان له ان يقول : الفضل لي لا لك وأنت دودة خلقت من فضلي ، أفترى ان الدودة التي خلقت من فضلة الانسان اشرف من الدودة التي خلقت من فضلة حمار ؟ ! هيهات ! فانهما متساويان في الحسة ، إن الشرف للانسان لا للدودة ، ولذا قال أمير المؤمنين عليه السلام :

انا ابن نفسي وكنيتي ادبي من عجم كنت أو من العرب
إن الفتى من يقول هاأنذا ليس الفتى من يقول كان أبي
وقيل :

لئن نخرت بأباه ذوى شرف لقد صدقت ولكن بنس ما ولدوا
وقد روى : « أن ابازر قال بحضرة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -
لرجل : (يا ابن السوداء !) ، فقال النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - :
(يا ابازر ! طف الصاع طف الصاع ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل) .
فاضطجع ابو ذر وقال للرجل : قم فطأ على خدى ، . وروى : « أن بلالاً
لما أذن يوم الفتح على الكعبة . قال جماعة : هذا العبد الأسود يؤذن ! فنزل
قوله تعالى :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى
وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ
عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ » (١) .

وقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « إن الله قد أذهب
عنكم عيبة الجاهلية - أى كبرها - كالكم بنو آدم وآدم من تراب » . ونقل :
أن واحداً من رؤساء اليونان افتخر على غلام ، فقال له : إن كان منشأ
افتخارك آبائك فالتفوق لهم لا لك ، وإن كان لباسك فالشرافة له دونك ،
وإن كان مركوب فالفضيلة له لالك . فليس لك شئ يصلح للمعجب والمفاخرة .
ولذا قال متمم مكارم الاخلاق - صلى الله عليه وآله وسلم - : « لا تأتوني
بأنسابكم واثتوني بأعمالكم » .

الثانى - أن يعرف نسبه الحقيقي ، فإن أباه القريب نطفة قدرة ،
وجده البعيد تراب ذليل . وقد عرفه الله نسبه فقال :

« وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلَ

نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَمِينٍ « (١).

والأصل الذى يوطأ بالأقدام أو تغسل منه الاجسام أى رفعة
يكون لفرعه !

الثالث — أن يعلم أن من يعجب بهم بالانتساب من اسلافه ، إن كانوا
من أهل الديانة والحُصَالِ المرضية والشرافة الحقيقية ، فظاهر أنه ما كان من
أخلاقهم العجب ، بل الذلة والازراء على النفس ومذمتها واستعظام الخلق ، فإن
افتدى بهم فى أخلاقهم فلا يليق به العجب والتعزز ، وإلا كان طاعناً فى نسبه
بلسان حاله. وإن لم يكونوا من أهل الديانة الواقعية والشرافة العلمية والعملية ،
بل كان لهم مجرد شوكة ظاهرية ، كالسلاطين الظلمة وأعوانهم ، فأف لمن
يفتخر بهم ويعجب بنفسه لأجلهم ! إذ الانتساب الى السكالب والخنازير
أحسن من الانتساب اليهم ، كيف وأنهم ممقوتون عند الله معذبون فى النار ،
بحيث لو نظر الى صورهم فى النار وما لحقهم فيها من النتن والقذارة ، لاستنكف
منهم وتبرأ من الانتساب اليهم . ولذلك قال - صلى الله عليه وآله وسلم - :
« ليدعن قوم الفخر بآبائهم وقد صاروا خجماً فى جهنم ، أو ليكونن أهون على
الله من الجعلان التى تدوف بآنافهم القدر ، وروى : أنه افتخر رجلان عند
موسى عليه السلام ، فقال احدهما : أنا فلان بن فلان ، حتى عدد تسعة ، فأوحى الله
تعالى الى موسى : « قل للذى افتخر : بل التسعة من أهل النار وأنت عاشرهم ! » .
وأما (العجب بالجمال) : فعلاجه أن يعلم أنه فى معرض الزوال بالعلل
والآلام والأمراض والأسقام ، وأى عاقل يعجب بشيء تزيله حمى يوم
أو قرحة أو جذرى !

بر مال وجمال خویشین غرّه مشو

کیان را بشی برندواین را به تی (١)

ولو لم يرتفع بها ، فهل يشك عاقل بزواله بذهاب الشباب وبجى الشيب وبالموت الذى لا بد ان تذوقه كل نفس ؟ فانظر الى الوجوه الجميلة والابدان الناعمة ، كيف تمزقت فى التراب وأننت فى القبور ، بحيث استقدرتها الطباع . على انه لو نظر نظر العقلاء فى باطنه عند اتصافه بغاية جماله ، لرأى من الفضائح ما يكدر عليه العجب والتعزز به ، فإنه وكسكت اليه (٢) الاقدار فى جميع اجزائه : (البصاق) فى فمه ، (والمخاط) فى انفه ، (والوسخ) فى اذنه ، (والنتن) تحت ابطه ، (والصدید) تحت بشرته ، (والفضلات) فى معدته ، (والرجيع) فى امعائه ، (والديدان) فى احشائه ، (والبول) فى مثانته ، (والصفراء) فى مرارته ، يتردد الى الخلاء كل يوم مرتين ، ويغسل الغائط كل يوم بيده مرتين ، يخرج من باطنه ما لو رآه بعينه لاستقدره فضلاً ان يمسّه أو يشمه . وفى أول امره خلق من الاقدار الشنيعة الصور : من النطفة ودم الحيض ، وخروج من مجارى الاقدار ، اعنى الصلب والذكر والرحم والفرج . ولو ترك نفسه فى حياته يوماً لم يتعمده بالغسل والتنظيف ، لثارت منه الانتان والاقذار ، وصار اقذر وأنتن من الدواب المهمله . هذا أوله ووسطه ، وسيموت فيصير جيفة اقذر من سائر الاقدار . فما للعاقل أن يعجب ويتعزز بهيئة حاصلة لبدن هذه حقيقته !

وأما (العجب بالمال) : فهو عجب بأمر خارج عن ذات الانسان ، فهو اقبح انواع العجب . وعلاجه ان يتفكر فى آفات المال ، وكونه فى معرض

(١) معنى البيت : (لا تنف بمالك وجمالك ، فان ذاك يذهب بلبلة وهذا يحى واحدة) .

(٢) وفى النسخ : « وكل به » ، ورجعنا ما انتناه .

الفناء والزوال ، من الغضب والنهب والحرق والغرق ، وغير ذلك من الآفات السماوية والارضية ، ويتذكر أن في اليهود والهندو من يزيد عليه في المال . واف اشرف يسبقه اليهود والهندو ! واف لشرف يأخذه السارق في لحظة فيعود صاحبه ذليلاً مفلساً !! ويتذكر ما ورد في ذم المال وحقارة الاغنياء ، وفي فضيلة الفقر وشرافة الفقراء ، وسبقهم الى الجنة في القيامة ، وما ورد في عقوبة المعجب بالمال بخصوصه ، كقوله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « بينما رجل يتبختر في حلة له قد اعجبته نفسه ، اذ أمر الله الأرض فأخذته ، فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة » (١) ، أشار به الى عقوبة اعجابه بماله ونفسه . وكيف يتصور المؤمن العاقل أن يعجب بالمال ويفرح به ، مع كثرة حقوقه وعظم غوائله ، وايحابه المؤاخذه وطول المحاسبة في القيامة ، والعقوبة والنكال إن كان حراماً ، وانحطاط المرتبة والدرجة إن كان حلالاً ، بل ينبغي له ألا يخلو ساعة عن الخوف من تقصيره ، في القيام بحقوقه ، وأخذه من حله ، ووضعه في حقه .

وأما (العجب بالقوة وشدة البطش) : فعلاجه أن يتذكر ما سلط عليه من العلل والأمراض ، وأن حمى يوم تضعف قوته ويتجلجل منها مالا ينجبر في مدة ، وأنه لو وجع عرق واحد من بدنه صار أعجز من كل عاجز وأذل من كل ذليل ، وأنه لو سلبه الذباب شيئاً لم يستنقذه منه ، وأن بقعة لو دخلت في أنفه أو نملة دخلت في أذنه لقتلته ، وأن شوكة لو دخلت في رجله لأعجزته . ثم أقوى إنسان لا يكون أقوى من حمار أو جمل أو فيل أو بقر ، وإي عجب وافتخار في صفة يسبقه البهاثم فيها ، هذا مع ان الغالب ان من يعجب بقوته يسلبها الله تعالى عنه بأدنى آفة يسلطها عليه .

(١) هذا الحديث صحيحه على ما في احياء العلوم - ٣ : ٣٢٢ .

وأما (العجب بالجاه ، والمنصب ، وولاية السلاطين ، وكثرة الاتباع والأنصار : من الأولاد والأقارب والقبائل والعشائر والخدم والغلمان) : فعلاجه أن يعلم أن كل ذلك في معرض الانقطاع ، وعن قريب يقع بينه وبينها المفارقة ، إما بفنائه وموته أو بفنائها وهلاكها ، بل العاقل يحدها كسراب بقية ، وإنما هي خيالات تظن شيئاً وليست بشيء ، وستفترق عنه إذا مات ودفن في قبره ذليلاً مهيناً وحده ، لا يرافقه أهل وأولاد ولا أعوان وأتباع ، فيسلمونه إلى البلاء وإلى العقارب والحيات والديدان ، ولا يغنون عنه شيئاً ، وهو في أحوج أوقاته إليهم ، وكيف يعجب العاقل بمن يفارقه في أشد أحواله ! على أنهم في الدنيا يتبعونه ما دام يحصل منه ما يشتهونه من البذل والاعطاء ، فلا بد له من إيقاع نفسه في المهالك وتعرضه لسخط الله وعقوبته ، لتحصيل الأموال من الوجوه المحرمة وصرفها إليهم ، ليستمروا على متابعتهم وإعانتهم ، ولو نقص شيء مما يتمنونه تعرضوا لمقتته وعداوته ، فضلاً عن بقائهم على حمايته واطاعته . ثم المعجب بتمكين السلطان وولايته بناء أمره على قلب هو أشد غليانا من القدر ، إذ لو تغير عليه كان أذل الخلق .

وأما (العجب بالعقل والكياسة والتفطن لدقائق الأمور) : فعلاجه أن يعلم أن ذلك يزول عنه بأدنى مرض يصيب دماغه ، وربما زال عقله دفعة . مع أنه إن كان في الواقع فظناً كياساً في الأمور يلزم عليه أن يشكر الله تعالى على ذلك ، ويستصغر (١) عقله وفطنته ، ليبقى الله تعالى عليه تلك النعمة ، ولا يسلبها عنه لأجل عجبه .

وأما (العجب بالرأى الخطأ الذي يزين له بجمله) : فهو أقبح أنواع العجب ، إذ جميع أهل البدع والضلال والفرق الذين اختاروا مذاهب باطلة

(١) في النسخ : « يستغفر » ، فرجعنا ما انتهناه .

وآراء فاسدة إنما أصرروا عليها لعجبهم بها ، ولذا يفتخرون بمذاهبهم على غيرهم ، وبذلك هلك الامم إذا افرقت فرقا ، وكل معجب برأيه ، و :

« كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ » (١)

فكل من استحسن ما يسوقه اليه الهوى والشبهة - مع ظن كونه حقاً - يكون له هذا العجب، وقد أخبر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أن ذلك يغلب على آخر هذه الأمة. وعلاجه أشد من علاج غيره، لأن صاحب الرأي الخطأ جاهل بخطأه، ولو عرفه لتركه. ولا يعالج الداء الذي لا يعرف، إذ العارف يقدر على أن يبين للجاهل جهله ويزيله عنه اذا لم يكن معجباً برأيه وجهله ، وإذا كان معجباً به يتهمة ولا يصغي اليه حتى يعالجه ، فقد سلطت عليه بلية تهلكه وهو يظن أنها نعمة . وكيف يطلب الحرب مما يعتقد أنه سبب سعادته ! وإنما علاجه في الجملة أن يكون متبها لرأيه لا يغتر به ، إلا أن يشهد له قاطع عقلي أو نقلي لا يعتريه ريب وشبهة .

ومعرفة أدلة الشرع والعقل وشروطها ومكان الغلط فيها موقوفة على عقل ثابت ، وقريحة تامة مستقيمة ، مع جد وتشمير في الطلب ، وممارسة الكتاب والسنة ، ومجالسة أهل العلم ، ومداينة العلوم طول العمر ، ومع ذلك لا يؤمن عليه الغلط . فالصواب للكل — إلا من أيده الله بقوة قدسية يتمكن بها من الخوض في غمرات العلوم — ألا يخوض في المذاهب الباطلة ولا يصغي اليها . ويتبع أهل الوحي فيما جاؤا به من عند الله في الأصول والفروع .

وصل

(انكسار النفس)

ضده العجب انكسار النفس واستحقارها وكونها في نظره ذليلة مهينة .
وكما ان العجب مجرد استعظام النفس من دون اعتبار استصغار الغير معه ، وكذلك
ضده مجرد استحقار النفس من دون اشتراط اعظام الغير معه ، إذ الأول مع
اعتبار الثاني تكبر ، والثالث مع اشتراط الرابع تواضع ، وهما ضدان .
ثم لا ريب في فوائد انكسار النفس واستصغارها ، وكل من بلغ مرتبة
عظيمة فأنما بلغ بهذه الصفة ، لأن الله تعالى عند المنكسرة قلوبهم ، وقال
رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « ما من أحد إلا ومعه ملائكة
وعليه حكمة (١) » يسكنها ، فان هو رفع نفسه جذباها (٢) ثم قال : اللهم
ضعه ، وإن وضع نفسه قال : اللهم ارفعه ، (٣) . وروى : « أنه أوحى الله
تعالى الى موسى عليه السلام : أن يا موسى ! أتدري لم اصطفتك بكلامي دون
خلق ؟ قال : يا رب ! ولم ذلك ؟ فأوحى الله تبارك وتعالى اليه : أني قلبت
عبادى ظهراً لبطن ، فلم اجد فيهم احداً اذل نفساً لي منك ، يا موسى ! إنك
إذا صليت وضعت خدك على التراب ، . وروى : « أنه لما أوحى الله تعالى
الى الجبال : أني واضع سفينة نوح عبيدي على جبل منكن ، فتناولت وشمخت ،
وتواضع الجودي ، وهو جبل عندكم ، فضربت السفينة بجوؤها الجبل ،
فقال نوح عند ذلك : (يا ماري اتقن) وهو بالسريانية : رب اصلح ، (٤) .

(١) الحكمة بالتحريك : ما احاط بمحكى القوس من كلامه .

(٢) بمعنى جذباها .

(٣) صححنا الحديث على ما في احياء العلوم - ج ٢ ص ٣٢٩ - .

(٤) هذا الحديث وما قبله رواها السكاك في باب التواضع ، فصححناها عليه .

ومنها :

الكبر

وقد عرفت : أنه الركون الى رؤية النفس فوق الغير ، وبعبارة أوضح : هو عزة وتعظيم يوجب رؤية النفس فوق الغير واعتقاد المزية والرجحان عليه ، فهو يستدعى متكبراً عليه . وبه ينفصل عن العجب ، إذ العجب مجرد استعظام النفس من دون اعتبار رؤيتها فوق الغير ، فالعجب سبب الكبر والكبر من نتائجه .

ثم الكبر — أى العزة الموجبة لرؤية النفس فوق الغير — هو خلق الباطن يقتضى اعمالاً فى الظاهر هى ثمراته ، وتسمى تلك الاعمال الظاهرة الصادرة منه تكبراً ، ولذا من تعزز ورأى نفسه باطناً فوق الغير ، من دون صدور فعل على جوارحه ، يقال له (كبر) ، وإذا ظهرت الاعمال يقال له (تكبر) . وهذه الاعمال الظاهرة التى هى ثمرات خلق الكبر أفعال وأقوال توجب تحقير الغير والازراء به ، كالترفع عن مواكاته ومجالسته ، والاستنكاف عن مرافقته ومصاحبته ، وابعاده عن نفسه ، وإبائه عن الجلوس بجانبه ، وانتظاره ان يسلم عليه ، وتوقعه أن يقوم مائلاً بين يديه ، والاستنكاف من قبول وعظه ، وتعنيفه فى ارشاده ونصحه ، وتقديمه عليه فى المحافل والطرق ، وعدم الالتفات اليه فى المحاورات ، وتوقع التقديم عليه فى كل ما يدل على التعظيم عرفاً . وبالجمل : الاعمال الصادرة عن الكبر كثيرة ، ولا حاجة الى احصائها ، لكونها مشهورة معروفة ، ومن جملتها الاختيال فى المشى وجر الثياب ، إذ فاعلها يرى نفسه فوق الاكثر ويقصد بهما استحقاقهم ، فهما يقتضيان متكبراً عليه ، فيكونان من انواع التكبر ، وما ورد فى ذمهما يدل

أيضاً على ذمه ، كما يأتي . وهذه الأفعال المعبر عنها بالكبر قد تصدر عن الحققد أو الحسد أو الرياء ، وإن لم تكن في النفس عزة وتعظم .

فصل

(ذم الكبر)

الكبر آفته عظيمة وغائلته هائلة ، وبه هلك خواص الأنام فضلاً عن غيرهم من العوام ، وهو الحجاب الأعظم للوصول الى أخلاق المؤمنين ، إذ فيه عز يمنع عن التواضع ، وكظم الغيظ ، وقبول النصيح ، والدوام على الصدق ، وترك الغضب والحقد والحسد والغيبة والازراء بالناس ، وغير ذلك . فما من خلق مذموم إلا وصاحب الكبر مضطر اليه ، ليحفظ به عزه ، وما من خلق محمود إلا وهو عاجز عنه . خوفاً من فوات عزه . ولذا ورد في ذمه ما ورد من الآيات والأخبار ، قال الله سبحانه :

« كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٌ » (١)
وقال : « سَاءَ صَرَفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ » (٢) . وقال :
« وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ آخِرُ جُورِ أَنْفُسِكُمْ ... » الى
قوله : « وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ » (٣) . وقال : « ادْخُلُوا
أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فِيئُذٍ مَنْوِيٍّ الْمُتَكَبِّرِينَ » (٤) .
وقال : « فَأَلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ

(١) غافر ، الآية : ٣٥ . (٢) الانعام ، الآية : ٩٣ .

(٣) الاعراف ، الآية : ١٤٦ . (٤) الزمر ، الآية : ٢٢ .

مُسْتَكْبِرُونَ» (١). وقال: «إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ» (٢). وقال: «إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرًا مَأْمُومًا بِبَالِغِهِ» (٣).

وقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر » ، (٤) ، وقال : « من تعظم في نفسه واختال في مشيته ، لقي الله وهو عليه غضبان » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « لا ينظر الله الى رجل يحمر ازاره بطراً » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « قال الله : الكبرياء ردائي والعظمة ازارى ، فمن نازعنى في واحد منهما ألقيته في جهنم » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين ، فيصيبه ما أصابهم من العذاب » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « يخرج من النار عنق له اذنان تسمعان وعينان تبصران ولسان ينطق ، يقول وكأت بثلاثة : بكل جبار عنيد ، وبكل من دعا مع الله إلهاً آخر ، وبالمصورين » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « لا يدخل الجنة جبار ، ولا بخيل ، ولا سيء الملسكة » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ، ولا يزكهم ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، ومملك جبار ، ومقل مختال » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « بش العبد عبد تجبر واعتدى ونسى

(٧) النحل ، الآية : ٢٣ .

(۳) ضافر، الآية : ۶۰ .

(۳) غافر، الآية : ۵۶ .

(٤) روي الحديث في الكافي عن أحد الصادقين - عليهما السلام - في باب التكبر ،

الجبار الأعلى ، بش العبد عبد تبختر واختال ونسى الكبير المتعال ، بش العبد عبد غفل وسها ونسى المقابر والبلى ، بش العبد عبد عتا وبغى ونسى المبدأ والمنتهى ، . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « ألا أخبركم بأهل النار : كل عتل جواظ جمعظري متكبر ، (١) . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « إن أبغضكم إلينا وأبعدكم منا في الآخرة الثرثارون المتشدقون المتفهمقون ، : أى المتكبرون . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « يحشر المتكبرون يوم القيامة في مثل صور الذر ، تطأهم الناس ذراً في مثل صور الرجال ، يعلوهم كل شيء من الصغار ، ثم يساقون إلى سجن في جهنم يقال له (يولس) ، تلوهم نار شر أنيار (٢) ، يسقون من طينة الخبال وعصارة أهل النار ، . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة في صور الذر تطأهم الناس لهوانهم على الله تعالى ، ، وقال : « إن في جهنم وادياً يقال له (هبهب) ، حق على الله أن يسكنه كل جبار ، ، وقال : « إن في النار قصرأ يجعل فيه المتكبرون ويطبق عليهم ، ، وقال : « إذا مشيت امتى المطيطاء وخدمتهم (فارس) و (الروم) ساط الله بعضهم على بعض ، ، والمطيطاء : مشية فيها اختيال . وقال عيسى بن مريم : « كما أن الزرع ينبت في السهل ولا ينبت على الصفاء ، كذلك الحكمة تعمر في قلب المتواضع ولا تعمر في قلب المتكبر ، ألا ترون أنه من يتشمخ برأسه إلى السقف شجوه ، ومن يطأطىء أظله وأكنه ، . ولما حضرت نوحا الوفاة ، دعا ابنه فقال :

(١) صححنا الحديث على كثر العمال - ج ٢ ص ١٠٧ - . والجواظ : المتكبر الجاني ، والجمعظري : اللفظ الغليظ .

(٢) كذا في النسخ . وفي نسخة أحياء العلوم - ج ٢ ص ٢٩٠ - : (نار الانيار) ؛ ولم نثر على جمع نار على انيار ، وإنما من جملة مجموعها (نيار) .

«إني أمركا باثنتين وأنها كما عن اثنتين : أنها كما عن الشرك والكبر وأمركا بلا إله إلا الله وسبحار الله وبحمده ، . وقال سليمان بن داود يوماً للطير والجن والانس والبهائم : « اخرجوا ، اخرجوا في مائتي الف من الانس ومائتي الف من الجن ، فرفع حتى سمع زجل الملائكة بالنسبيح في السماوات ، ثم خفض حتى مست اقدمه البحر ، فسمع صوتاً يقول : لو كان في قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر لحسفت به أبعد مما رفعته ، .

وقال الباقر عليه السلام : « الكبر رداء الله ، والمتكبر ينازع الله رداه ، ، وقال : « العز رداء الله والكبر ازاره ، فمن تناول شيئاً منه أكبه الله في جهنم . وقال الصادق عليه السلام : « إن في جهنم لوادياً للمتكبرين يقال له (سقر) شكى الى الله شدة حره وسأله أن يأذن له أن يتنفس ، فتنفس فاحرق جهنم ، . وقال عليه السلام : « إن المتكبرين يعملون في صور الذر ، يتوطأهم الناس حتى يفرغ الله من الحساب ، . وقال عليه السلام : « ما من رجل تكبر أو تجبر إلا لذلة وجدها في نفسه ، . وقال عليه السلام : « إن في السماء ملائكة موكلين بالعباد ، فمن تواضع رفعاه ، ومن تكبر وضعاه ، . وقال عليه السلام : « الجبار الملعون من غمض الناس وجهل الحق ، ، قال الراوى : أما الحق فلا أجمله ، والغمض لا أدرى ما هو قال : « من حقّر الناس وتجبر عليهم فذلك الجبار ، . وقال عليه السلام : « ما من عبد إلا وفي رأسه حكمة وملك يمسكها ، فاذا تكبر قال له : اتضع وضعك الله ، فلا يزال أعظم الناس في نفسه وأصغر الناس في أعين الناس ، واذا تواضع رفعها الله - عز وجل - ثم قال له : انتعش نعشك الله ، فلا يزال أصغر الناس في نفسه وأرفع الناس في أعين الناس ، .

فصل

(التكبر على الله وعلى الناس)

التكبر قد يكون على الله ، كما كان لفرود وفرعون ، وسببه الطغيان ، ومحض الجهل ، وهو أخش أنواع الكبر ، إذ هو أعظم افراد الكفر ، ولذا تكررت في ذمه الآيات ، كقوله تعالى :

« إِنِّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَرْجُلُونَ
جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ » (١). وقوله : « وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِي
وَيَسْتَكْبِرْ فَيَحْشُرْهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا » (٢). وقوله تعالى : « ثُمَّ
لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَهْبًا أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا » (٣)
وقوله : « فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ
وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ » (٤).

وقد يكون على الرسل من حيث تعزز النفس وترفعها عن انقيادهم ، كما كان لمن يقول :

« أَهْأَوَّلَاءِ مَنْ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا » (٥). ولمن يقول :
« أَنْتُمْ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا » (٦). « إِنِّ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ

(١) غافر ، الآية : ٦٠ . (٤) النحل ، الآية : ٢٣ .
(٢) النساء ، الآية : ١٧٢ . (٥) الانعام ، الآية : ٥٣ .
(٣) صوم ، الآية : ٦٩ . (٦) المؤمنون ، الآية : ٤٧ .

مِثْلُنَا» (١). «وَأَلَيْنَ أَطْعَمْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ لَأَنكُمْ إِذَا
 نَحْسَرُونَ» (٢). ولمن قال : «كَوْلَا أَنْزِلَ عَلَيْنَا مَلَأَةً أَوْ
 نَرَى رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا
 كَبِيرًا» (٣).

وهذا في الشناعة قريب من التكبر على الله ، وإن كان دونه .
 وقد يكون على العباد بأن يستعظم نفسه ويستصغرهم ، وهذا وإن
 كان دون الأولين ، إلا أنه من المهلكات العظيمة ، من حيث أنه يؤدي إلى
 مخالفة الله سبحانه ، إذ صاحبه إذا سمع من عبد استنكف من قبوله واشتأز
 بجحده ، ومن حيث أن العز والعظمة والعلو لا يليق إلا بالعلو الأعلى ، فمهما
 تكبر العبد نازع الله في صفة من صفاته ، ولذا قال الله سبحانه : «والعظمة
 أزارى والمكبرياء ردأتى ، فمن نازعنى فيها قصمته ،» .

فصل

(درجات التكبر)

للتكبر درجات ثلاث :

(الاولى) أن يكون مستقراً في قلبه ، يرى نفسه خيراً من غيره ،
 ويظهره في أفعاله : بالترفع في المجالس ، والتقدم على الأقران ، وأن يصغر
 خده للناس كأنه معرض عنهم ، ويعبس وجهه ، ويقطب جبينه . وفي أقواله :

(١) إبراهيم ، الآية : ١٠ .

(٢) المؤمنون ، الآية : ٣٤ .

(٣) الفرقان ، الآية : ٢١ .

بإظهار الإنكار على من يقصر فيما يتوقعه ، من التعظيم ، وإبداء الدعوى ، والمفاخرة والمباهاة ، وتركية النفس ، والتشمير لغلبة الغير في العلم والعمل . وهذه الدرجة أفبح الدرجات وأشدّها ، إذ صاحبها قد رسخت في قلبه شجرة الكبر وارتفعت أغصانها وفروعها ، بحيث أحاطت على جميع جوارحه . (الثانية) كالأولى ، إلا في إظهاره على اللسان ، وهي دون الأولى ، لكونها أقل اغصاناً منها .

(الثالثة) أن يكون مستقراً في قلبه بحيث رأى نفسه خيراً من غيره ، إلا أنه يجتهد في التواضع ، ويفعل فعل من يرى غيره خيراً من نفسه . وهذا وإن رسخت في قلبه شجرة الكبر ، إلا أنه قطع أغصانها بالسكينة . فان كان مع ذلك منكرأ على نفسه فيما رسخ فيها ، ومغضباً عليها ومتشمرأ لازالتهما ، إلا أنه لم يقدر على دفعه بسرعة وسهولة ، وتميل النفس الى ما تشتهيه في بعض الأحيان بدون اختيار ، ولكنه كان في مقام المجاهدة ، فلهذا لم يكن عليه كثير إثم ، ومثله يوفقه الله للوصول الى ما يطلبه بمقتضى وعده .

فصل

(علاج الكبر علماً وعملاً)

الكبر كالعجب في كيفية العلاج اجمالاً وتفصيلاً ، إذ الكبر لما تضمن معنى العجب - أي استعظام النفس - وكان العجب منشأ له ، فما ذكر لعلاج مطلق العجب هو العلاج لمطلق الكبر أيضاً . ولكن ما به الكبر - اعني بواعثه - هي بواعث العجب بعينها ، فما ذكر لعلاج العجب بالبواعث المذكورة مشترك بينهما .

ومن المعالجات المختصة بالكبر : أن يتذكر ما ورد في ذمّه من الآيات

والأخبار المذكورة وغيرها ، ويتأمل فيما ورد في مدح ضده - اعنى التواضع - كما يأتي . ولكون السكر مشتملا على شيء زائد على العجب هو رؤية النفس فوق الغير ، فينبغى أن يعلم أن الحكم بخيرية نفسه من الغير غاية الجهل والسفاهة ، فليعمل في الغير من خفايا الأخلاق السكريمة ما ينجيهِ . وفيه من الملسكات الذميمة ما يهلكه ويرديه . وكيف يحتريه صاحب البصيرة أن يرجح نفسه على الغير ، مع ابهام الخاتمة وخفاء الأخلاق الباطنة واشتراك الكل في الانتساب الى الله تعالى ، وفي صدورهما وترشحهما منه ومعلوليتهما ولازميتهما له ، فالواقف بخطر الخاتمة واناطة النجاة والهلاك بالبوطن لا يرى لنفسه مزية على غيره ، والعارف بكون كل فرد من أفراد الموجودات أثراً من آثار ذاته ولمعة من لمعات انوار صفاته ، بل رشحة من رشحات فضله وجوده وقطرة من قطرات تيار فيض وجوده ، لا ينظر الى أحد بنظر السوء والعداوة . بل يشاهد الكل بعين الخيرية والمحبة .

استطال ومل

(فإن قيل) : كيف يحسن أن يتواضع العالم الورع للجاهل الفاسق ويراه خيراً من نفسه ، مع ظهور جهله وفسقه ، وقطعه باتصاف نفسه بالعلم والورع وخلوه عنهما ؟ وكيف يجوز له أن يحب فاسقاً أو كافراً أو مبتدعاً ويتواضع له ولا يعاديه ، مع أنه مبغوض عند الله ، فيكون مأموراً ببغضه ، والجمع بين الحب والتواضع وبين البغض جمع بين النقيضين ؟

(أجبنا) عن (الاول) بأن حقيقة التواضع ألا يرى النفس لذاتها مزية واقعية وخيرية حقيقية على الغير ، لا ألا يرى مزية لذاتها عليه في الصفات الظاهرة التي يحزم باتصاف نفسه بها وعدم اتصافه بها ، كالعلم والعبادة والسخاوة والعدالة والاجتناب عن الأموال المحرمة وغير ذلك ، إذ العالم ببعض

العلوم لا يمكنه أن يدفع عن نفسه القطع بكونه عالماً بها وكون فلان العامي غير عالم بها . لكن المزية الواقعية والخيرية النفس الامرية إنما هو بالتقرب الى الله والوصول الى السعادة الدائمة ، ولا شك في أن ذلك لا يحصل بمجرد تعلم بعض العلوم والمواظبة على بعض العبادات أو غير ذلك من الصفات المحمودة ، بل المناط فيه حسن الخاتمة . وهو أمر مبهم ، إذ العواقب مطوية عن العباد ، فيمكن أن يسلم الكافر ويختم له بالايمن ويضل هذا العالم الورع ويختم له بالكفر ، فعلى كل عبد إن رأى من هو شراً منه ظاهراً أن يقول : لعل هذا ينجو وأهلك أنا ، فلا يراه شراً من نفسه في الواقع خائفاً من العاقبة ، ويقول : لعل برّ هذا باطن ، بأن يكون فيه خلق كريم بينه وبين الله فيرحمه الله ويتوب عليه ويختم له بأحسن الأعمال ، وبرّى ظاهر لا آمن أن تدخله الآفات فتحبطه . وبالجمل : ملاحظة الخاتمة والسابقة والعلم بأن السكال في القرب من الله وسعادة الآخرة دون ما يظهر في الدنيا من الأعمال الظاهرة يوجب نفي الكبر والتواضع لكل أحد .

وعن (الثاني) إن الحب ينبغي أن يكون لأجل النسبة الشريفة المذكورة والتواضع لأجل ملاحظة الخاتمة ، وبغضه وغضبه عليه لأجل ما ظهر منه من الكفر والفسوق . وأى منافاة بين الغضب لله في صدور معصية من عبد ، وبين عدم الكبر والاذلال ؟ ! إذ الغضب إنما هو لله لا لنفسك ، إذ أمرك بأن تغضب عند مشاهدة المنكر ، والتواضع وعدم الكبر إنما هو بالنظر الى نفسك ، بالألّا ترى نفسك ناجياً وصاحبك هالكاً في حال غضبك عليه لأمر الله ، بل يكون خوفك على نفسك مما علم الله من خفايا ذنوبك أكثر من خوفك عليه مع الجهل بالخاتمة ، فليس من ضرورة الغضب والبغض لله أن تتكبر على المغضوب عليه ، وترى فدرك فوق قدره .

ومثال ذلك : أن يكون لملك غلام وولد ، وقد وكل الملك الغلام على ولده بأن يراقبه ويضربه مهما ساء أدبه ، ويفضض عليه إذا اشتغل بما لا يليق به ، فإن كان الغلام مطيعاً محباً لمولاه يفضض عليه إذا ساء أدبه امتثالاً لأمر مولاه ، ومع ذلك يحبه لا تنسأ به إلى مولاه بالولادة ولا يتكبر عليه ويتواضع له ، ويرى قدره عند مولاه فوق قدر نفسه ، لأن الولد أعز لا محالة من الغلام.

تنبيه

(العلاج العملي للكبر)

ما ذكرناه لعلاج الكبر إنما هو العلاج العلوي ، وأما (العلاج العملي) ، فهو أن يتواضع بالفعل لله ولسائر الخلق ، ويواظب على اخلاق المتواضعين ، ويكلف نفسه على ذلك إلى أن تقطع عن قلبه شجرة الكبر بأصولها وفروعها ، ويصير التواضع ملكة له . وللقطع الكلي وحصول ملكة التواضع امتحانات يعرفان بها ، فلا بد أن يمتحن نفسه بها حتى يطمئن بأنه متواضع ، إذ النفس قد تضمر التواضع وتدعى البراءة من الكبر ، فإذا وقعت الواقعة عادت إلى طبيعتها ونسيت وعدّها :

(الأول) أن يناظر مع أقرانه في بعض المسائل ، فإذا ظهر شيء من الحق على لسانهم ، فإن اعترف به مع السرور والاهتزاز والشكر لهم لتبنيهم إياه على ما غفل عنه فهو علامة التواضع ، وإن ثقل عليه القبول والاعتراف ولم يسر بظهور الحق على لسانهم فهو دليل بقاء الكبر بعد . فليعالجه من حيث العلم بأن يتذكر سوء عاقبته وخسرة نفسه وخباثتها ، من حيث إن قبول الحق يثقل عليها ، ومن حيث العمل بأن يكلف نفسه على ما يثقل عليها من الاعتراف بالحق وإطلاق اللسان بالثناء والشكر ، والاققرار على نفسه بالعجز والقصور ، ويقول : ما أحسن فطانتك ! لقد أرشدتني إلى الحق ، فجزاك الله خيراً . فإذا

واظب على ذلك مرات متوالية ، صار ذلك له طبعاً ، وسقط ثقل الحق عن قلبه وطاب له قبوله ، وإن لم ينقل عليه في الخلوة وثقل عليه في الملاء ، فليس فيه كبر ، بل فيه رياء ، فليعالج بما يأتي في معالجة الرياء .

(الثاني) أن يقدم الأقران والامثال على نفسه في المحافل ، ويمشي خلفهم في الطرق ، فإن لم ينقل ذلك عليه فهو متواضع ، وإلا فتكبر ، فليقدمهم بالتكلف ، ويجلس تحتهم ، ويظهر السرور والارتياح بذلك ، حتى يسقط عنه ثقله . قال أبو عبدالله الصادق عليه السلام : « إن من التواضع أن يجلس الرجل دون شرفه » . وقال عليه السلام : « من التواضع أن ترضى بالمجلس دون المجلس ، وأن تسلم على من تلقى ، وأن تترك المراء وان كنت محقاً ، ولا تحب أن نحمد على التقوى » . ومن المتكبرين من إذا لم يجد مكاناً في الصدر يجلس في صف النعال ، أو يجعل بينه وبين الأقران بعض الأراذل ولا يجلس تحتهم ، وغرضهم من ذلك استحقار الأقران أو إيهام أن تركهم للصدر إنما هو بالتفضل ، فهو أشد أنواع التكبر .

(الثالث) أن يجيب دعوة الفقير ، ويمر إلى السوق في حاجة الرفقاء والأقارب ، ويحمل حاجتهم وحاجة نفسه منه إلى البيت ، فإن لم ينقل عليه ذلك في الخلوة والملاء فليس فيه كبر ورياء ، وإن ثقل عليه فيهما ففيه كبر ورياء ، وإن ثقل عليه عند مشاهدة الناس دون الخلوة ففيه رياء دون الكبر . قال أمير المؤمنين عليه السلام : « لا ينقص الرجل السكامل من كماله ما حمل من شيء إلى عياله » . وروى : « أنه اشترى لحماً بدرهم فحمله في ملحفته ، فقال له بعضهم : احمل عنك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : لا ! أبو العيال أحق أن يحمل » . وروى : « أن الصادق عليه السلام : نظر إلى رجل من أهل المدينة قد اشترى لعياله شيئاً وهو يحمله ، فلما رآه الرجل استحي منه ، فقال له أبو عبدالله عليه السلام : اشتريته

لعيالك وحملته اليهم ، أما والله لو لا أهل المدينة لأحببت ان اشترى لعيالى
الشيء ثم أحمله اليهم .

(الرابع) أن يلبس ثياباً بذلة ، فان لم يتقل عليه ذلك أصلاً فليس فيه
كبر ورياء ، وإلا كان متكبراً أو مرأثياً ، قال رسول الله - صلى الله عليه
وآله وسلم - : «من اعتقل البعير ولبس الصوف فقد برىء من الكبر» . وقال
- صلى الله عليه وآله وسلم - : «إنما أنا عبد آكل في الأرض ، وألبس
الصوف ، وأعقل البعير ، وألحق أصابعي ، وأجيب دعوة المملوك ، فمن
رغب عن سنتي فليس مني» . وقيل لسلطان : لم لا تلبس ثوباً جديداً ؟ فقال :
«إنما أنا عبد ، فإذا اعتقت يوماً لبست جديداً» : أشار به الى العتق في
الآخرة . وقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : «البذاذة - أى
الدون من اللباس - من الايمان» . وعوتب أمير المؤمنين - عليه السلام - في
ازار مرقوع ، فقال : «يقتدى به المؤمن وتخضع له القلوب» .

(الخامس) أن يأكل مع خدامه وغلبانه ، فان لم يتقل عليه فهو
متواضع ، وإلا فتكبر . وروى رجل من أهل بلخ ، قال : «كنت مع الرضا
عليه السلام في سفره الى خراسان ، فدعا يوماً بمائدة ، فجمع عليها مواليه من السودان
وغيرهم ، فقلت : جعلت فداك ! لو عزلت لهؤلاء مائدة ، فقال عليه السلام : إن
الرب تعالى واحد ، والدين واحد ، والأم واحدة ، والآب واحد ، والجزاء
بالأعمال» .

والامتحانات لبقاء الكبر ليست منحصرة بما ذكر ، بل هي كثيرة :
كأن يحب قيام الناس له أو بين يديه ، قال أمير المؤمنين عليه السلام : «من
أراد أن ينظر الى رجل من أهل النار فلينظر الى رجل قاعد بين يديه قوم
قيام» . وقال بعض الصحابة : «لم يكن شخص أحب اليهم من رسول الله ،

وكانوا اذا رأوه لم يقوموا له لما يعلمون من كراهته لذلك ، .
 وأن يحب أن يمشى خلفه غيره ، وقد روى : أنه لا يزال العبد يزداد
 من الله بعداً ما مشى خلفه ، . وكان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -
 في بعض الأوقات يمشى مع بعض الاصحاب ، فيأمرهم بالتقدم ويمشى
 في غمارهم .

والأ يزور غيره ، وإن كان في زيارته فائدة دينية . وإن يستنكف من
 مجالسة الفقراء والمعلولين والمرضى . روى أنه دخل على رسول الله رجل
 وعليه جدري قد نقشر ، وعنده ناس من أصحابه يأكلون ، فما جلس عند أحد
 إلا قام من جنبه . فأجلسه النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - الى جنبه . وكان
 - صلى الله عليه وآله وسلم - في نفر من أصحابه يأكلون في بيته ، إذ دخل
 عليهم رجل به زمانة تنكره الناس لأجلها ، فأجلسه رسول الله على فخذه
 وقال له : « اطعم » ، وكان رجلاً من قريش اشتهر منه وتكره ، فسامات
 ذلك الرجل حتى كانت به زمانة مثلها . ومر سبيد الساجدين - عليه السلام -
 على المجذومين (١) وهو راكب حماره ، وهم يتغدون ، فدعوه الى الغداء ،
 فقال : « أما أنى لولا أنى صائم لفعلت » ، فلما صار الى منزله أمر بظعام
 فصنع ، وأمر أن يتنوقوا فيه ، ثم دعاهم ، فتغدوا عنده وتغدى معهم . . .
 وقر على هذه غيرها من الامتحانات .

ولقد كانت سيرة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - جامعة لجميع
 ما يمتحن به التواضع ، بريئة عن جميع ما يصدر من الكبر من الأفعال
 والحركات ، فينبغى لكل مؤمن أن يقتدى به . وقد روى أبو سعيد الخدرى :
 « أنه - صلى الله عليه وآله وسلم - كان يعلف الناضح ، ويعقل البعير ، ويقمّ

(١) وفي بعض نسخ الكتاب المصححة في باب التواضع هكذا : (المجذومين) .

البيت ، ويحلب الشاة ، ويخصف النعل ، ويرقع الثوب ، ويأكل مع خادمه ،
ويطحن عنه اذا أعيا ، ويشترى الشيء من السوق ، ولا يمنعه الحياء أن يعلقه بيده
أو يجعله في طرف ثوبه وينقلب الى أهله . يضافح الغنى والفقير والصغير
والكبير ، ويسلم مبتدئاً على كل من استقبله من صغير أو كبير أسود أو أحمر
حر أو عبد من أهل الصلاة ، ليست له حلة لمدخله ولا حلة لمخرجه ،
لا يستحي من أن يجيب اذا دعى ، وإن كان أشعث أغبر ، ولا يحقر ما دعى
اليه ، وإن لم يجد إلا حشف الرقل (١) ، لا يرفع غداء لعشاء ولا عشاء
لغداء . هين المؤنة ، لين الخلق ، كريم الطبيعة ، جميل المعاشرة ، طاق الوجه ،
بساماً من غير ضحك ، محزوناً من غير عبوس ، شديداً في غير عنف . متواضعاً
في غير مذلة ، جواداً من غير سرف ، رحيماً لكل ذي قرين ، قريباً من كل
ذمي ومسلم ، رقيق القلب ، دائم الاطراق ، لم يسم قط من شبع ، ولا يمد
يده الى طمع . هذا وقال ابو الحسن - عليهما السلام - : « التواضع : أن
تعطى الناس ما تحب أن تعطاه » . وسئل عن حد التواضع الذي إذا فعله العبد
كان متواضعاً ، فقال : « التواضع درجات : منها أن يعرف المرء قدر نفسه ،
فينزلها منزلتها بقلب سليم لا يحب أن يأتي الى أحد إلا مثل ما يؤتى اليه ،
إن رأى سيئة درأها بالحسنة ، كأظم الغيظ عاف عن الناس ، والله يحب المحسنين » .

وصل

(التواضع ومدحه)

قد أشير الى ان ضد الكبر (التواضع) ، وهو انكسار للنفس يمنعها
من أن يرى لذاتها منزلة على الغير ، وتلزمه افعال وأقوال موجبة لاستعظام

(١) في احياء العلوم - ج ٣ ص ٣٠٦ - هكذا : (الدقل) ، وكل من النسخين

يصح به المعنى .

الغير وإكرامه ، والمواظبة عليها أقوى معالجة لإزالة الكبر . ولا بد من الإشارة الى الأخبار الواردة في مدح التواضع وفوائده ، تحريكا للطالبين الى السعى في تحصيله الموجب لازالة ضده ، وهذه الأخبار كثيرة خارجة عن حد الاحصاء ، فنكتفي بإيراد بعض منها :

قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - « طوبى لمن تواضع في غير مسكنة ، وانفق مالا جمعه من غير معصية ، ورحم أهل الذلة والمسكنة ، وخالط أهل الفقه والحكمة » . وروى : « أن الله سبحانه أوحى الى موسى : إنما اقبل صلاة من تواضع لعظمى ولم يتعظم على خلقى وألزم قلبه خوفاً وقطع نهاره بذكرى وكف نفسه عن الشهوات من أجلى » . وقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لا صحابه : « ما لى لا أرى عليكم حلاوة العبادة ! قالوا : وما حلاوة العبادة ؟ قال : التواضع » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « إذا تواضع العبد رفعه الله الى السماء السابعة » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « إذا هدى الله عبداً الاسلام وحسن صورته وجعله في موضع غير شائن له ورزقه مع ذلك تواضعاً ، فذلك من صفوة الله » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « أربع لا يعطيهن الله إلا من يحبه : الصمت وهو اول العبادة ، والتوكل على الله ، والتواضع ، والزهد في الدنيا » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « لا يعجبنى أن يحمل الرجل الشئ في يده يكون مهنة لأهله يدفع به الكبر عن نفسه » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « من تواضع لله رفعه الله ، ومن تكبر خفضه الله ، ومن اقتصد في معيشة رزقه الله ، ومن بذر حرمه الله ، ومن أكثر ذكر الموت أحبه الله ، ومن أكثر ذكر الله اظله الله في جنته » . وروى : « أنه أتى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -

وآله وسلم - ملك، فقال : إن الله تعالى يخبرك أن تكون عبداً رسولاً متواضعاً
أو ملكاً رسولاً . فنظر الى جبرئيل عليه السلام وأومى بيده أن تواضع . فقال :
عبداً متواضعاً رسولاً ، فقال الرسول - يعنى الملك - : مع أنه لا ينقصك مما
عند ربك شيئاً . وقال عيسى بن مريم عليه السلام : « طوبى للمتواضعين فى الدنيا !
هم اصحاب المنابر يوم القيامة ، طوبى للمصلحين بين الناس فى الدنيا ! هم الذين
يرثون الفردوس يوم القيامة . طوبى للمطهرة قلوبهم فى الدنيا ! هم الذين ينظرون
الى الله تعالى يوم القيامة . » وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « إن التواضع
لا يزيد العبد إلا رفعة ، فتواضعوا یرحمکم الله . » وادعى الله تعالى الى داود
عليه السلام : « يا داود ! كما أن اقرب الناس الى الله المتواضعون كذلك أبعد الناس
من الله المتكبرون . » وروى : « أن سليمان بن داود اذا أصبح تصفح وجوه
الاعنياء والأشراف حتى يجىء الى المساكين فيقعد معهم ، ويقول مسكين مع
مسكين . » وروى : « أنه ورد على أمير المؤمنين عليه السلام اخوان له مؤمنان ،
أب وابن ، فقام اليهما وأكرمهما وأجلسهما فى صدر مجلسه وجلس بين ايديهما ،
ثم أمر بطعام فأحضر فأكل منه ، ثم جاء قنبر بطست وابريق خشب ومنديل ،
وجاء ليصب على يد الرجل ، فوثب أمير المؤمنين وأخذ الأبريق ليصب على
يد الرجل ، فتمرغ الرجل فى التراب ، وقال : يا أمير المؤمنين ! الله يرانى
وانت تصب على يدي ! قال : اقعد واغسل ، فإن الله - عز وجل - يراك
واخوك الذى لا يتميز منك ولا ينفصل عنك يخدمك ، يريد بذلك فى خدمته
فى الجنة مثل عشرة اضعاف عدد أهل الدنيا . فقعد الرجل . وقال له على عليه السلام :
أقسمت عليك بعظيم حقى الذى عرفته لما غسلت مطمئناً كما كنت تغسل لو كان
الصواب عليك قنبر ، ففعل الرجل ذلك ، فلما فرغ ناول الأبريق محمد بن
الحنفية ، وقال : يا بنى ! لو كان هذا الابن حضر فى دون أبيه لصببت على يده ،
ولا يكن الله - عز وجل - يابى أن يسوى بين ابن وأبيه إذا جمعها مكان ،

لكن قد صبّ الأب على الأب فليصب الابن على الابن ، فصب محمد بن الحنفية على الابن ، (١) .

وقال الصادق عليه السلام : « التواضع أصل كل شرف نفيس ومرتبة رفيعة ، ولو كان للتواضع لغة يفهمها الخلق لنتق عن حقائق مافي مخفيات العواقب . والتواضع ما يكون لله وفي الله ، وما سواه فكبر . ومن تواضع لله شرفه الله على كثير من عباده . ولاهل التواضع سيما يعرفها أهل السماوات من الملائكة وأهل الأرض من العارفين . قال الله عز وجل :

« وَاعْلَمِ الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كِتَابًا بِسِيمَاهُمْ » (٢) .

وأصل التواضع من اجلال الله وهيبته وعظمته . وليس لله عز وجل عبادة يقبلها ويرضاها إلا وبابها التواضع . ولا يعرف مافي معنى حقيقة التواضع إلا المقربون من عباده المستقلين بوحدايته . قال الله عز وجل :

« وَاعْبَادُوا الرَّحْمَنَ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا » (٣) .

وقد أمر الله - عز وجل - أعز خلقه وسيد بريته محمداً - صلى الله عليه وآله - بالتواضع ، فقال عز وجل :

« وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » (٤)

(١) روي هذا الحديث في البحار - في الجزء الرابع من المجلد الخامس عشر من ١٤٩

باب التواضع - عن الاحتجاج والتفسير المنسوب الى الامام العسكري عليه السلام .

(٢) الاعراف ، الآية : ٤٦ .

(٣) الفرقان ، الآية : ٦٣ .

(٤) الشعراء ، الآية : ٢١٥ .

والتواضع مزرعة الخضوع والخشوع والخشية والحياء ، وإنهن لا يأتين إلا منها وفيها ، ولا يسلم الشرف التام الحقيقي إلا للتواضع في ذات الله تعالى (١) . وقال الإمام أبو محمد الحسن بن علي العسكري عليهم السلام : « أعرف الناس بحقوق اخوانهم واشدهم قضاء لهم اعظمهم عند الله شأناً ، ومن تواضع في الدنيا لآخوانه فهو عند الله من الصديقين ومن شيعه علي بن أبي طالب - عليه السلام - حقاً » (٢) .

تتميم

(الذلة)

لما عرفت أن كل فضيلة وسط له طرفان مذمومان ، فأحد طرفي التواضع (الكبر) - كما عرفت - وهو من طرف الافراط ، وآخرهما (الذلة) والتخاسس ، وهو من طرف التفريط . فكما أن الكبر مذموم ، فكذلك المذلة والتخاسس أيضاً مذموم ، اذ كلا طرفي الأمور ذميم ، والمحمود : هو التواضع من دون الخروج الى شيء من الطرفين ، اذ أحب الأمور الى الله أوسطها . وهو أن يعطى كل ذي حق حقه ، وهو العدل ، فلو وقع في طرف النقصان فليرفع نفسه ، اذ ليس للمؤمن أن يذل نفسه ، فالعالم إذا دخل عليه إسكاف خفى له مجلسه وأجلسه فيه ، وترك تعليمه وإفادته ، وإذا قام عدا الى الباب خلفه ، فقد تخاسس وتذلل ، وهو غير محمود ، بل هو رذيلة في طرف التفريط . فاللازم اذا وقع فيه أن يرفع نفسه الى أن يعود الى الوسط الذي هو الصراط المستقيم . فإن العدل أن يتواضع بمثل ما ذكر لأمثاله ولمن يقرب درجته . فأما تواضعه للسوقي ، فبالبشر في الكلام ، والرفق في السؤال ، واجابة دعوته ، والسعي

(١) روى هذا الحديث في البحار أيضاً في الموضع المتقدم عن مصباح الشريفة .

(٢) هذا الحديث من نفس الحديث المتقدم عن الاحتجاج والتفسير المنسوب الى الامام

في حاجته ، وامثال ذلك ، وألا يرى نفسه خيراً منه ، نظراً الى خطر الخاتمة .
ثم ينبغي ألا يتواضع للمتكبرين ، إذ الإنكسار والتذلل لمن يتكبر
ويتعزز مع كونه من التخاسس والمذلة المذمومة يوجب اضلال هذا المتكبر ،
وتقريره على تكبره ، وإذا لم يتواضع له الناس وتكبروا عليه ربما تبه وترك
التكبر ، إذ المتكبر لا يرضى بتحمل المذلة والاهانة من الناس ، ولذا قال
رسول الله - صلى الله عليه وآله - : « إذا رأيتم المتواضعين من امتي فتواضعوا
لهم ، وإذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم . فإن ذلك لهم مذلة وصغار » .
ومنها :

الافتخار

أى المباهاة باللسان بما توهمه كلاً ، والغالب كون المباهاة بالأمور
الخارجة عن ذاته ، وهو بعض أصناف التكبر - كما اشير اليه - فكل ما ورد
في ذمه يدل على ذمه ، والأسباب الباعثة عليه هى أسباب التكبر . وقد تقدم
أن شيئاً منها لا يصلح لأن يكون منشأ للافتخار ، فهو ناش من محض الجهل
والسفاهة . قال سيد الساجدين عليه السلام : « عجباً للمتكبر الفخور الذى كان
بالأمس نطفة ثم (هو) (١) غداً جيفة » . وقال الباقر عليه السلام : « عجباً للمختال
الفخور ، وإنما خلق من نطفة ثم يعود جيفة ، وهو فيما بين ذلك لا يدري ما
يصنع به » . وقال عليه السلام : « صعد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -
المنبر يوم فتح مكة ، فقال : أيها الناس ! إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية
وتفاخرها بآبائها ، ألا إنكم من آدم وآدم من طين ، ألا إن خير عباد الله
عبد اتقاه » . وقال له عليه السلام عقبة بن بشير الأسدي : أنا فى الحسب الضخم عزيز

(١) فى بعض نسخ السكالي فى باب الفخر والكبر زيادة كلمة (هو) .

في قومي ، فقال له : « تمنّ علينا بحسبك ! إن الله تعالى رفع بالايمن من كان الناس يسمونه وضيعاً إذا كان مؤمناً ، ووضع بالكفر من كان الناس يسمونه شريعاً إذا كان كافراً . فليس لأحد فضل على أحد إلا بتقوى الله . » وقال الصادق عليه السلام : « قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : آفة الحسب الافتخار والمعجب . » وقال عليه السلام : « أتى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - رجل ، فقال : يا رسول الله ! أنا فلان بن فلان ... حتى عدّ تسعة ، فقال رسول الله : أما انك عاشركم في النار ! » . ونقل : أن قريشاً تفاخروا عند سلمان ، فقال : « لكبي خلقت من نطفة قدرة ثم أعود جيفة منتنة ثم إلى الميزان ، فإن ثقل فأنا كريم وإن خف فأنا لثيم . » ثم ضده استحقار نفسه وترجيح غيره عليها بالقول . ومنها :

البغى

ويسمى البذخ أيضاً ، وهو صعوبة الانقياد والتابعة لمن يجب أن ينقاد (له) ، وقد فسر بمطلق العلو والاستطالة ، سواء تحقق في ضمن عدم الانقياد لمن يجب أن ينقاد (له) ، أو في ضمن أحد أفعال الكبر ، أو في ضمن الظلم والتعدي على الغير . وعلى أي تقدير هو أخش أنواع الكبر ، إذ عدم الانقياد لمن يجب أن ينقاد (له) - كالأنبياء وأوصيائهم - يؤدي إلى الكفر الموجب للهلاك الأبدى . ولقد هلك بذلك أكثر طوائف الكفار ، كاليهود والنصارى وكفار قريش وغيرهم . وكذا الظلم والتعدي على المسلم وإذلاله بالمقهورية والمغلوبة من المهلكات العظيمة ، ولذا ورد في ذمه ما ورد ، قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « إن أعجل الشر عقوبةً البغى » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « حق على الله عز وجل ألا يبغى شيء على شيء » .

إلا أذله الله ، ولو أن جبلاً بغى على جبل لهد الله الباغي منها ، . وقال أمير المؤمنين عليه السلام : « أيها الناس ! إن البغى يقود أصحابه إلى النار . وإن أول من بغى على الله عناق بنت آدم ، وأول قتيل قتله الله عناق ، وكان مجلسها جريباً في جريب ، وكان لها عشرون اصبعاً في كل اصبع ظفران مثل المنجلين ، فسلط الله عليها اسداً كالفيل ، وذنباً كالبعير ، ونسراً كالبغل ، فقتلنها . وقد قتل الله تعالى الجبارة على أفضل أحوالهم وأمن ما كانوا ، . وقال الصادق عليه السلام : « يقول ابليس لجنوده : القوا بينهم الحسد والبغى فانهما يعدلان عند الله الشريك ، . وكتب عليه السلام إلى بعض أصحابه : « انظر ألا تكلمن بكلمة بغى أبداً ، وإن اعجبتك نفسك وعشيرتك ، .

وعلاجه : ان يتذكر - أولاً - هذه الأخبار الواردة في ذمه ، - ثانياً - ما ورد في مدح ضده - اعنى التسليم والانقياد لمن يلزم اطاعته وتابعيته - كقولهم عليهم السلام : « شيعتنا المسلمون ، . والآيات والأخبار الواردة في وجوب اطاعة الله واطاعة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وأولى الأمر ، وغيرهم من العلماء والفقهاء الذين هم نواب الأئمة في زمن الغيبة . وبعد ذلك يسكف نفسه التابعية والاطاعة لمن يجب ان يطاع ، ويتخضع له قولاً وفعلاً ، حتى يصير ذلك له ملصكة .

ومنها :

تزكية النفس

أى نفي النقائص عنها ، وإثبات الكمالات لها . وهو من نتائج العجب . وقبحه اظهر من ان يخفى ، إذ من عرف حقيقة الامكان ، ثم اطلع على خلق الإنسان ، يعلم انه عين القصور والنقصان ، فلا يطلق بمدح نفسه اللسان .

على أنه يتضمن بخصوصه قبلاً يشهد به الذوق والوجدان ، ولذا قال أمير المؤمنين عليه السلام : « تزكية المرء لنفسه قبيحة » . وقد تقدم ما يكفيك لمعرفة حقارة الانسان وخساسته .

ثم ضد التزكية عدم تبرئة نفسه من العيوب والافرار بها واثبات النقائص لها ، فاذا كاف نفسه عليه وفعل ذلك مرات متوالية ، يصير معتاداً له ، ويزول عنه ما اعتاده من مدح نفسه .
ومنها :

العصبية

وهي السعى في حماية نفسه أو ماله اليه نسبة : من الدين ، والاقارب ، والعشائر ، وأهل البلد ، قولاً أو فعلاً : فان كان ما يحميه ويدفع عنه السوء مما يلزم حفظه وحمايته ، وكانت حمايته بالحق من دون خروج من الانصاف والوقوع في مالا يجوز شرعاً ، فهو الغيرة الممدوحة التي هي من فضائل قوة الغضب - كما مر - . وإن كان مما يلزم حمايته ، أو كانت حمايته بالباطل ، بأن يخرج عن الانصاف وارتكب ما يحرم شرعاً ، فهو التعصب المذموم ، وهو من رداءة قوة الغضب . والى ذلك يشير كلام سيد الساجدين عليه السلام حيث سئل عن العصبية ، فقال : « العصبية التي يأثم عليها صاحبها أن يرى الرجل شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين ، وليس من العصبية أن يحب الرجل قومه ، ولكن من العصبية أن يعين قومه على الظلم » .

والغالب اطلاق العصبية في الاخبار على التعصب المذموم ، ولذا ورد بها الذم ، كقول النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - : « من تعصب أو تعصب له فقد خلع ربق الايمان من عنقه » . وقوله - صلى الله عليه وآله وسلم - :

« من كان في قلبه حبة من خردل من عصبية بعثه الله يوم القيامة مع أعراب الجاهلية ». وقال السجاد عليه السلام : « لم يدخل الجنة حمية غير حمية حمزة بن عبد المطلب ، وذلك حين أسلم عصباً للنبي - صلى الله عليه وآله - في حديث السلي الذي ألقى على النبي - صلى الله عليه وآله - . وقال الصادق عليه السلام : « إن الملائكة كانوا يحسبون أن إبليس منهم ، وكان في علم الله أنه ليس منهم ، فاستخرج ما في نفسه بالحمية والعصب ، فقال :

« خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ » (١) .

ومنها :

كتمان الحق

والانحراف عنه ، وباعثه إما العصبية أو الجبن ، فهو من نتائج واحدة منهما ، فعلى (الأول) يكون من رذائل قوة الغضب من جانب الإفراط ، وعلى (الثاني) يكون من رذائلها من جانب التفريط . وربما كان الباعث في بعض أفراد الطمع المالى ، إلا أن الظاهر كون الفاعل المباشر النفس مع رداءة قوة الغضب ، كما في نفس الغضب وغيره ، إذ ما لم يحصل في النفس ضعف وفي القوة الغضبية خمود لم يتحقق كتمان الحق . ويندرج تحته الميل في الحكم ، وكتمان الشهادة ، وشهادة الزور ، وتصديق المبطل ، وتكذيب الحق ، وغير ذلك .

والظواهر الدالة على ذمه مطلقاً ، وعلى كل واحد من الأصناف المندرجة تحته كثيرة ، ولا حاجة إلى ذكرها لاشتهارها . وعلاج العصبية وكتمان الحق : أن يتذكر - أولاً - إيجابها لسخط الله ومقتته ، وربما تأديا

الى الكفر ، و- ثانياً - فوائد ضدّهما ، أعني الانصاف والاستقامة على الحق . وبعد ذلك يسكف نفسه على اظهار ما هو الحق والعمل به ، ولو بالمشقة الشديدة ، الى ان يصير ذلك عادة له ، فيزول عن نفسه ما صار لها ملصكة من التعصب وكتمان الحق .

وصل

(الانصاف والاستقامة على الحق)

لما كان ضدّهما الانصاف والاستقامة على الحق ، فلنشر الى بعض ما ورد في مدحهما تحريكا للطالبيين الى الأخذ بهما ، قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « لا يستكمل العبد الايمان حتى يكون فيه ثلاث خصال : الانفاق من الاقتار ، والانصاف من نفسه ، وبذل السلام » . وكان - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول في آخر خطبته : « طوبى لمن طاب خلقه ، وطهرت سجيته ، وصلحت سريرته ، وحسنت علانيته ، وأنفق الفضل من ماله ، وامسك الفضل من قوله ، وانصف الناس من نفسه » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « سيد الأعمال انصاف الناس من نفسك . . . » الى آخره . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « من وصى الفقير من ماله وأنصف الناس من نفسه ، فذلك المؤمن حقاً » . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : « ثلاث خصال من كن فيه أو واحدة منهن كان في ظل عرش الله يوم لا ظل إلا ظله : رجل اعطى الناس عن نفسه ما هو سائلهم . . . » الحديث . وقال أمير المؤمنين عليه السلام في كلام له : « ألا إنه من ينصف من نفسه لم يزد الله إلا عزاً » . وقال الصادق عليه السلام : « من يضمن لى أربعة باربعة آيات في الجنة : انفق ولا تخف فقراً ، وافش السلام في العالم ، واترك المراء وإن

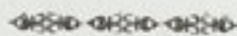
كنت محقاً ، وانصف الناس من نفسك . . وقال ﷺ : « ألا اخبركم بأشد ما فرض الله على خلقه ، ، فذكر ثلاثة أشياء أولها : (انصاف الناس من نفسك) . وقال ﷺ : « من انصف الناس من نفسه رضى به حكماً لغيره . . وقال ﷺ : « ما تدارى اثنان في أمر قط فأعطى أحد النصف صاحبه فلم يقبل منه إلا أدبل منه . . وقال ﷺ : « ثلاثة هم أقرب الخلق الى الله تعالى يوم القيامة حتى يفرغ من الحساب: رجل لم تدعه قدرة في حال غضبه على ان يحيف على من تحت يده ، ورجل مشى بين اثنين فلم يعمل مع أحدهما على الآخر بشعيرة ، ورجل قال بالحق فيما له وعليه . . وقال - عليه السلام - : « إن لله جنة لا يدخلها إلا ثلاثة ، أحدهم من حكم في نفسه بالحق ، (١) . ومنها :

القساوة

وهي ملسكة عدم التأثر عن تألم ابناء النوع . ولا ريب في كونه ناشئاً من غلبة السبعية ، واكثر ذمائم الصفات : من الظلم والايذاء ، وعدم اغاثة المظلومين ، وعدم مواساة الفقراء والمحتاجين وغير ذلك يترتب عليه . وضده الرحمة والرفقة ، وهو التأثر عن مشاهدة تألم ابناء نوعه ، ويترتب عليه من الصفات المرضية اضداد ما ذكر . وقد ورد به المدح والترغيب في الأخبار الكثيرة ، كقول النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - : « يقول الله تعالى : اطلبوا الفضل من الرحماء من عبادى تعيشوا في اكنافهم ، فاني جعلت فيهم رحمتي . ولا تطلبوه من القاسية قلوبهم ، فاني جعلت فيهم سخطي . . وكقول الصادق ﷺ : « اتقوا الله وكونوا اخوة بررة متحابين في الله متواصلين

(١) هذا الحديث رواه في الكافي في باب الانصاف والعدل عن الباقر - عليه السلام -

متراحين... الخ. وقوله ﷺ : « تواصلوا وتباروا وتراحموا وكونوا اخوة بررة كما أمركم الله ». وقوله ﷺ : « يحق على المسلمين الاجتهاد في التواصل والتعاون على التعاطف والمواساة لاهل الحاجة وتعاطف بعضهم على بعض ، حتى تكونوا كما أمركم الله عز وجل : رحماء بينهم متراحين معتمين لما غاب عنهم من امرهم على ما مضى عليه معشر الانصار على عهد رسول الله - صلى الله عليه وآله . وقد ورد : أن من ترحم على العباد يرحمه الله . والآخبار الواردة في فضيلة مطلق الرحمة ، وفي فضيلة خصوص كل واحد واحد فيما يندرج تحته : من اعانة المحتاج ، واغاثة المظلوم ، ومواساة الفقير ، والاغتمام بمصائب المؤمنين ، وأمثال ذلك ، أكثر من أن نحصى . ثم إن ازالة القساوة واكتساب الرحمة في غاية الإشكال ، إذ القساوة صفة راسخة في القلب لا يقدر على تركها بسهولة ، فطريق العلاج أن يترك لوازمها وآثارها من الأفعال الظاهرة ، ويواظب على ما يترتب على الرحمة من الصفات الاختيارية ، ويكلف نفسه على ذلك حتى يرتفع على التدرج مبدأ الأولى ويحصل مبدأ الثانية .



انتهى الجزء الأول

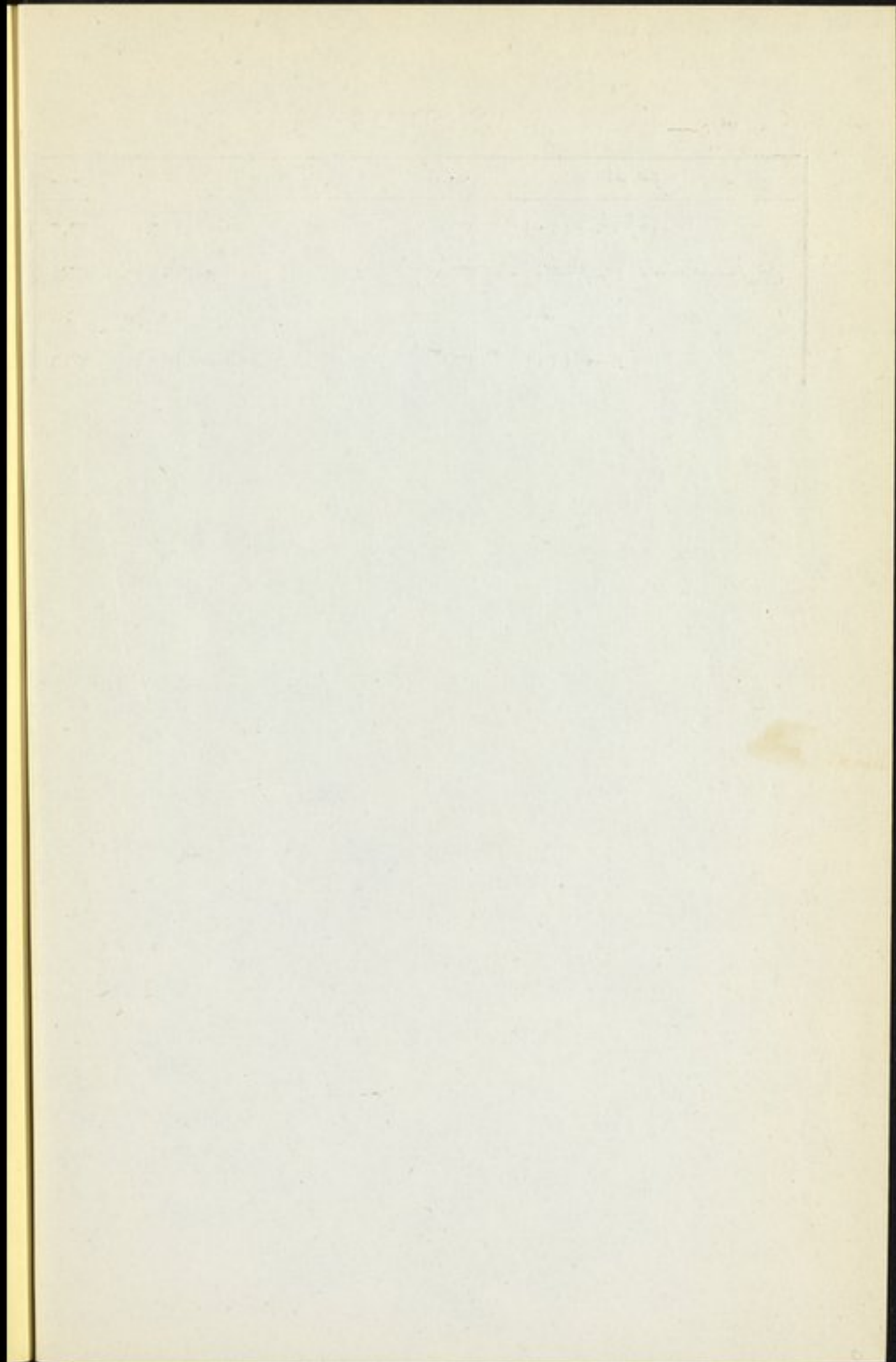
فهرس الجزء الاول من جامع السعادات			
الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
	- ترجمة المؤلف : بقلم الشيخ محمد رضا المظفر	٣٦	- الاقوال في الخير والسعادة والتوفيق بينها
١	- مقدمة المؤلف	٣٩	- لا تحصل السعادة إلا باصلاح جميع الصفات والقوى دائماً
٤	الباب الاول - في المفردات	٤٠	- غاية السعادة التشبه بالمبدأ
٥	- انقسام حقيقة الانسان وحالاته بالاعتبار	٤١	- بازاء كل واحدة من القوى الاربع لذة وألم
٥	- تجرد النفس وبقاؤها	٤٥	- ايقاظ فيه موعظة ونصيحة
٨	- تلذذ النفس وتألمها	٤٩	الباب الثاني - في اقسام الاغراض
٩	- فضائل الاخلاق ورذائلها	٥٠	- اجناس الفضائل الاربع
١١	- الاخلاق الذميمة تحجب عن المعارف	٥٣	- والاقوال في حقيقة العدالة
١٥	- العمل نفس الجزاء	٥٧	- العدالة انقياد العقل العملي للعقل النظري
٢١	- تأثير المزاج على الاخلاق	٥٨	- العقل النظري هو المدرك للفضائل والرذائل
٢٢	- تأثير التربية على الاخلاق	٥٩	- دفع الاشكال في تقسيم الحكمة
٢٦	- شرف علم الاخلاق لشرف موضوعه وغايته	٦٤	- تحقيق الوسط والاطراف
٢٨	- النفس وأسماؤها وقواها الاربع	٧٢	- اجناس الرذائل وانواعها
٣٤	- ائتلاف حقيقة الانسان من الجهات المتقابلة		- الفرق بين الفضيلة والرذيلة

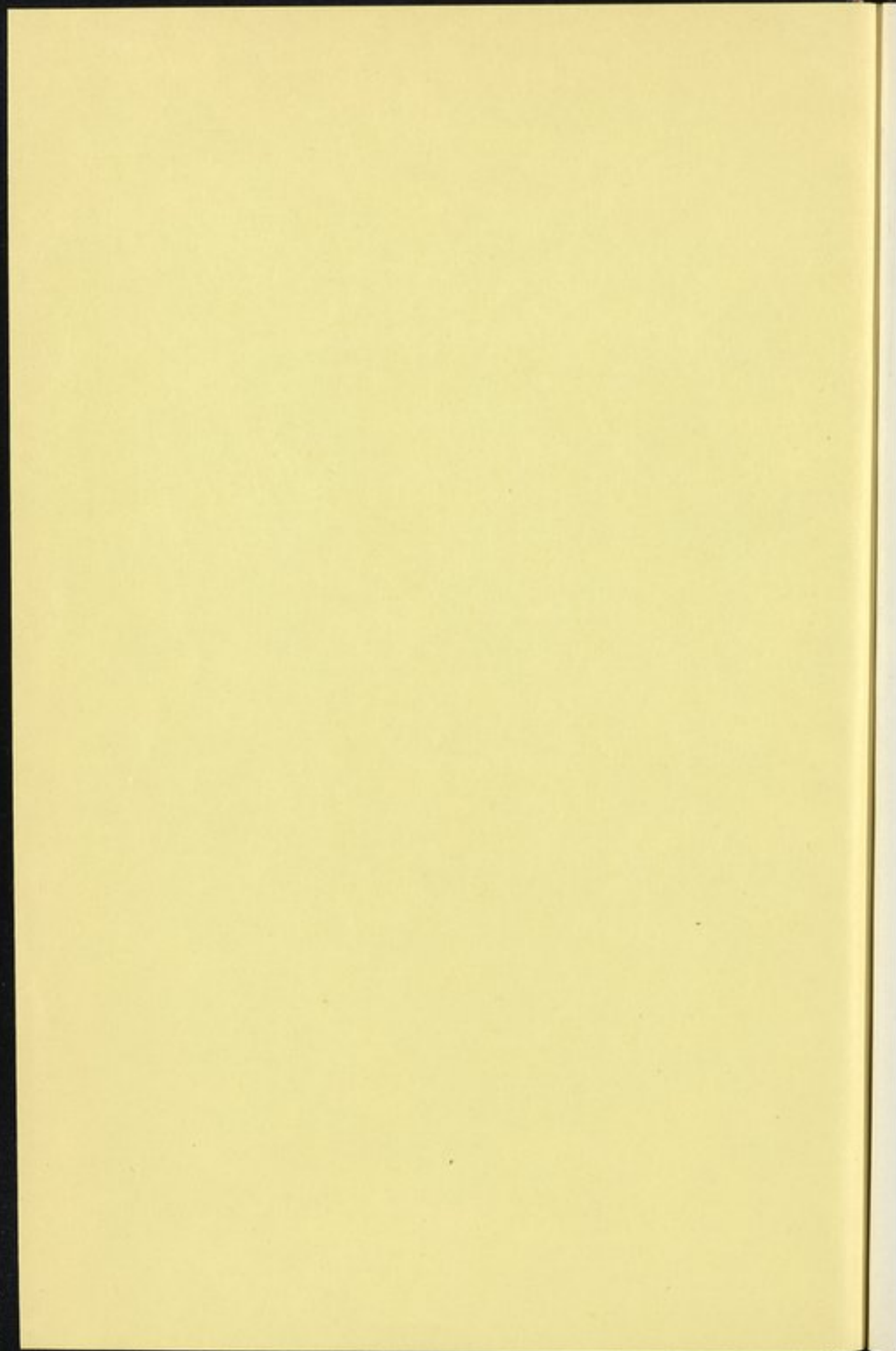
الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٧٦	- العدالة اشرف الفضائل	١٠٠	- الجرزة طرف الافراط
٨٢	- ايقاظ	١٠٠	- الجهل البسيط طرف التفريط
٨٤	- دفع اشكال في دخول المتفضل في العدالة وهي المساواة	١٠١	- شرف العلم والحكمة وهو الحد الوسط في القوة العاقلة
٨٤	- اصلاح النفس قبل اصلاح الغير وعدالة السلطان	١٠٥	- آداب التعلم والتعليم
٨٦	- لا حاجة الى العدالة مع رابطة المحبة	١٠٩	- العلم الآلهي وعلم الاخلاق والفقهاء اشرف العلوم
٨٧	- التكميل الصناعي لا اكتساب الفضائل على طبق ترتيب الكمالات الطبيعية	١١١	- أصول العقائد المجمع عليها
٩١	الباب الثالث - في الاخطار الممحمودة (فيه مقدمة وأربعة مقامات)	١١٦	(انواع الرذائل المنعقدة بالقوة العاقلة وهي (١٠) انواع : (١) الجهل المركب (٢) الشك والخيرة
٩٢	- المقدمة :	١١٦	(٣) الشك والخيرة
٩٢	(١) الطريق لحفظ اعتدال الفضائل	١١٨	- اليقين
٩٧	(٢) المعالجات السكوية لمرض النفس	١١٩	- علامات صاحب اليقين
٩٨	(٣) المعالجات الخاصة لمرض النفس	١٢٣	- مراتب اليقين
٩٩	المقام الاول - في القوة المانعة	١٢٧	(٣) الشرك
		١٢٨	- التوحيد في الفعل
		١٣١	- ابتداء التوكل على حصر المؤثر في الله تعالى
		١٣٤	- مناجات السر لأرباب القلوب
		١٤٢	(٤) الخواطر النفسانية

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٤٣	- أقسام الخواطر ومنها الإلهام	٢٠٩	(١) - الخوف
١٤٥	- المطاردة بين جندي الملائكة	٢١٠	- الخوف المذموم وأقسامه
	والشياطين في معركة النفس	٢١٧	- الخوف المحمود وأقسامه
١٤٦	- تسويلات الشيطان ووساوسه		ودرجاته
١٤٨	- العلام الفارقة بين الإلهام	٢٢٠	- بم يتحقق الخوف
	والوسوسة	٢٢٣	- الخوف من الله أفضل الفضائل
١٥٠	- علاج الوسواس	٢٢٩	الخوف اذا جاوز حده كان مذموماً
١٥٣	- ما يتم به علاج الوسواس	٢٣١	- طرق تحصيل الخوف الممدوح
١٥٦	- ما يتوقف عليه قطع الوسواس	٢٣٣	- خوف سوء الخاتمة وأسبابه
١٥٨	- حديث النفس لا مؤاخدة عليه	٢٤٣	- الفرق بين الاطمئنان والامن
١٦٣	- الخاطر المحمود والتفكر		من مكر الله
١٦٧	- مجارى التفكير في المخلوقات	٢٤٤	- التلازم بين الخوف والرجاء
٢٠٠	نصيحة	٢٥٤	- مواقع الخوف والرجاء وترجيح
٢٠١	(٥) المسكر والحيل		أحدهما على الآخر
٢٠٥	المقام الثانى	٢٥٦	- العمل على الرجاء أعلى منه على
			الخوف
	فيما يتعلق بالقوة الغضبية	٢٥٩	- مداواة الناس بالخوف أو الرجاء
٢٠٦	- التهور : الافراط في قوة الغضب		على اختلاف امراضهم
٢٠٧	- الجبن : التفريط في قوة الغضب	٢٦٠	(٢) - صغر النفس
٢٠٨	- الشجاعة : الوسط في قوة الغضب	٢٦١	- كبر النفس
٢٠٩	(انواع الرذائل ولوازمها المتعلقة) بالقوة الغضبية وهي (٢١) نوعاً	٢٦٢	- الثبات أخص من كبر النفس

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
- المداراة	٣٠٥	(٣) - دناءة الهمة	٢٦٣
(١٠) - سوء الخلق بالمعنى الاخص	٣٠٦	(٤) - عدم الغيرة والحمية	٢٦٤
- طرق اكتساب حسن الخلق	٣٠٧	- الغيرة والحمية	٢٦٥
(١١) - الحق	٣١١	- الغيرة على الدين والحريم	٢٦٦
(١٢) - العدوالة الظاهرة	٣١٣	والاولاد	
(١٣) - الضرب والفحش	٣١٣	(٥) - العجلة	٢٧٤
واللحن والظمن		- الاناة والتوقف والسكينة	٢٧٩
(١٤) - العجب	٣٢١	والوقار	
- ذم العجب	٣٢٣	(٦) - سوء الظن بالخالق والمخلوق	٢٨٠
- آفات العجب	٣٢٥	- حسن الظن	٢٨٤
- علاج العجب اجمالاً وتفصيلاً	٣٢٦	(٧) - الغضب	٢٨٥
- انكسار النفس	٣٢٣	- الافراط والتفريط والاعتدال	٢٨٦
(١٥) - التكبر	٣٤٤	في قوة الغضب	
ذم التكبر	٣٤٥	- الغضب	٢٨٨
التكبر على الله وعلى الناس	٣٤٩	- امكان ازالة الغضب وطرق	٢٩٠
درجات التكبر	٣٥٠	علاجه	
- علاج التكبر علماً وعملاً	٣٥١	- فضيلة الحلم وكظم الغيظ	٢٩٥
- اشكال وحل	٣٥٢	(٨) - الانتقام	٢٩٩
- العلاج العملي للتكبر	٣٥٤	- العفو	٣٠١
- التواضع ومدحه	٣٥٨	(٩) - العنف	٣٠٢
- الذلة	٣٦٢	- فضيلة الرفق	٣٠٣

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
كتمان الحق (٢٠)	٣٦٧	الاقتدار (١٦)	٣٦٣
- الانصاف والاستقامة على الحق	٣٦٨	البغى (١٧)	٣٦٤
(٢١) القساوة	٣٦٩	زكية النفس (١٨)	٣٦٥
		العصية (١٩)	٣٦٦

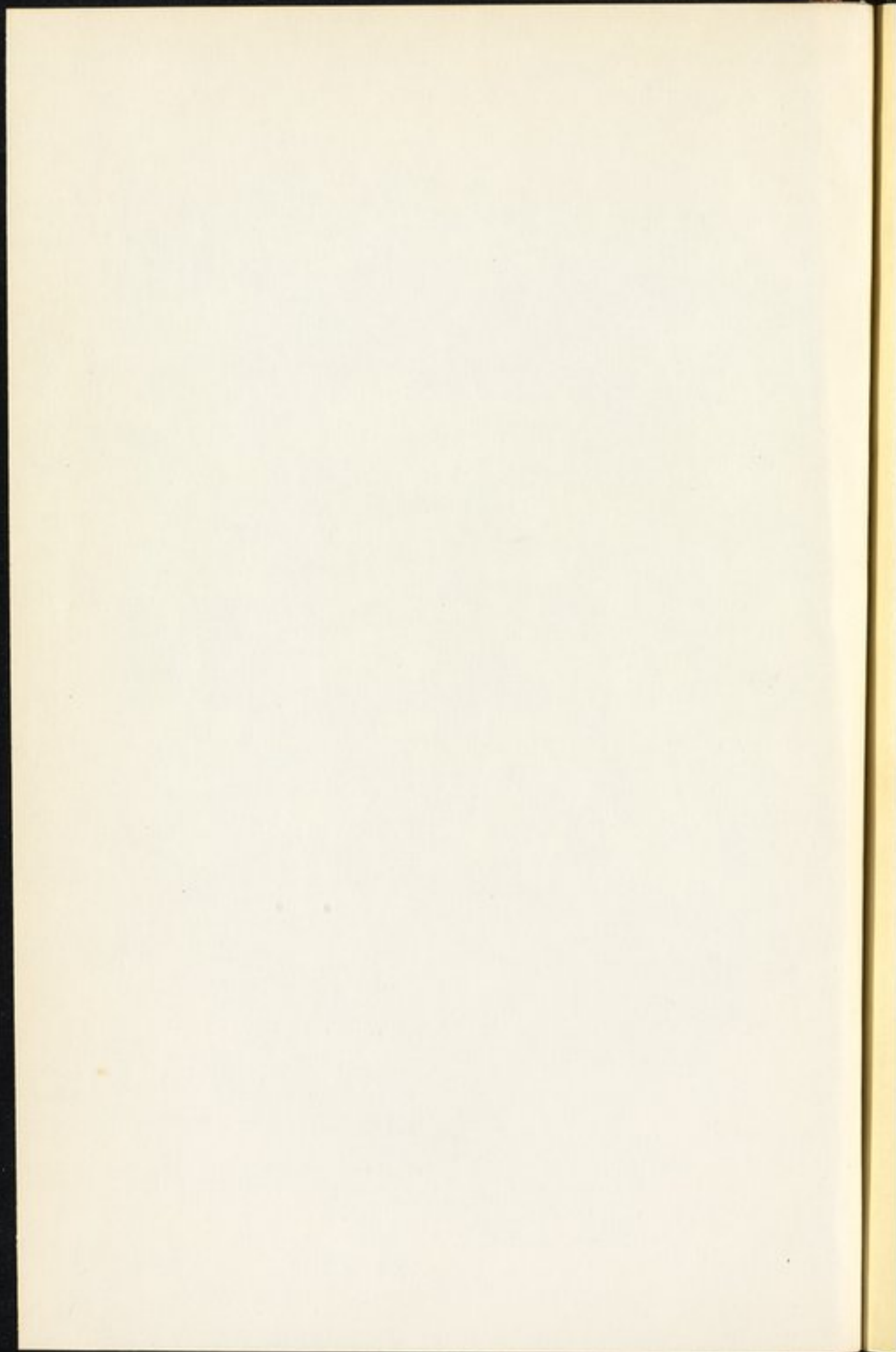


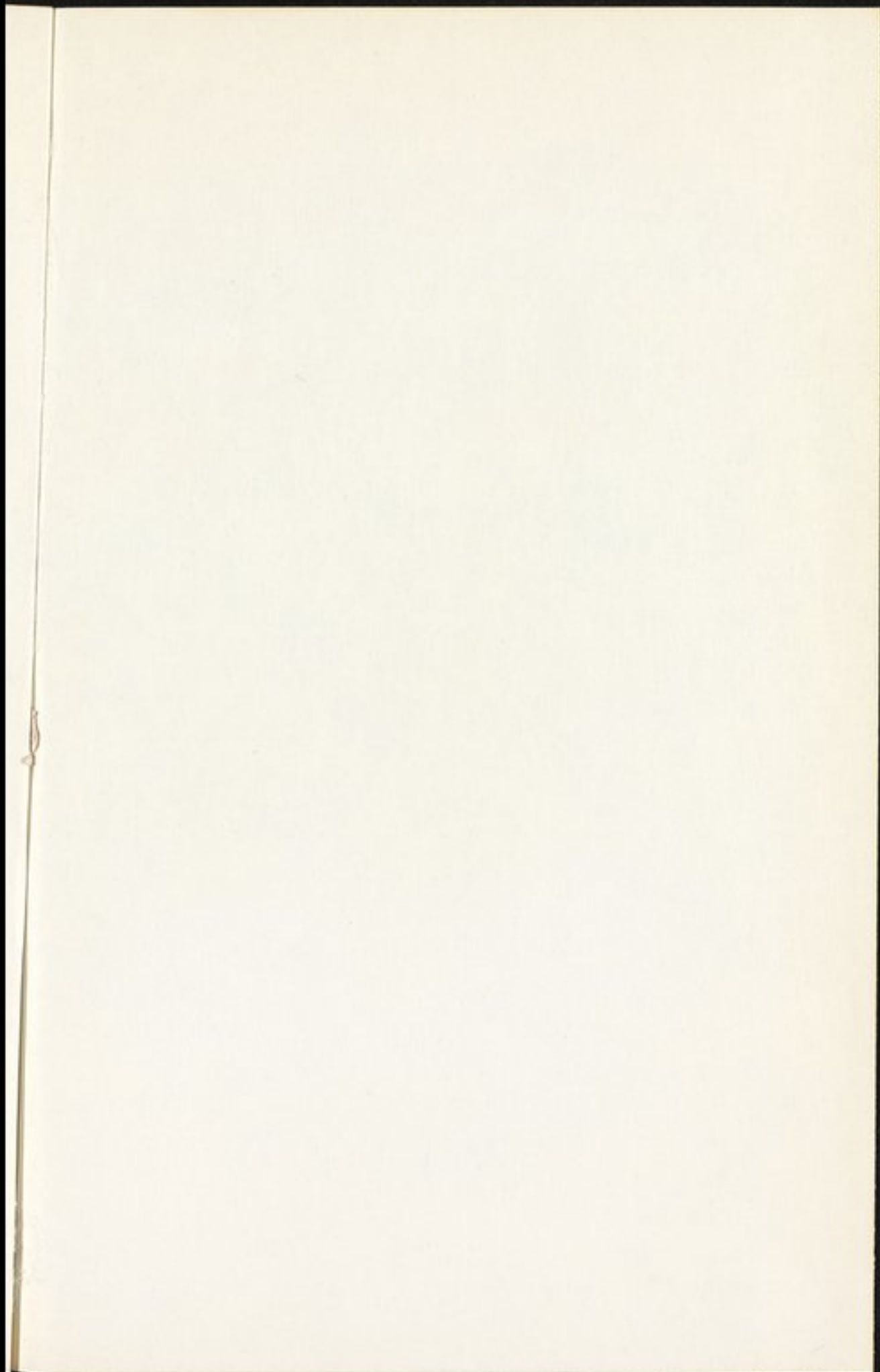


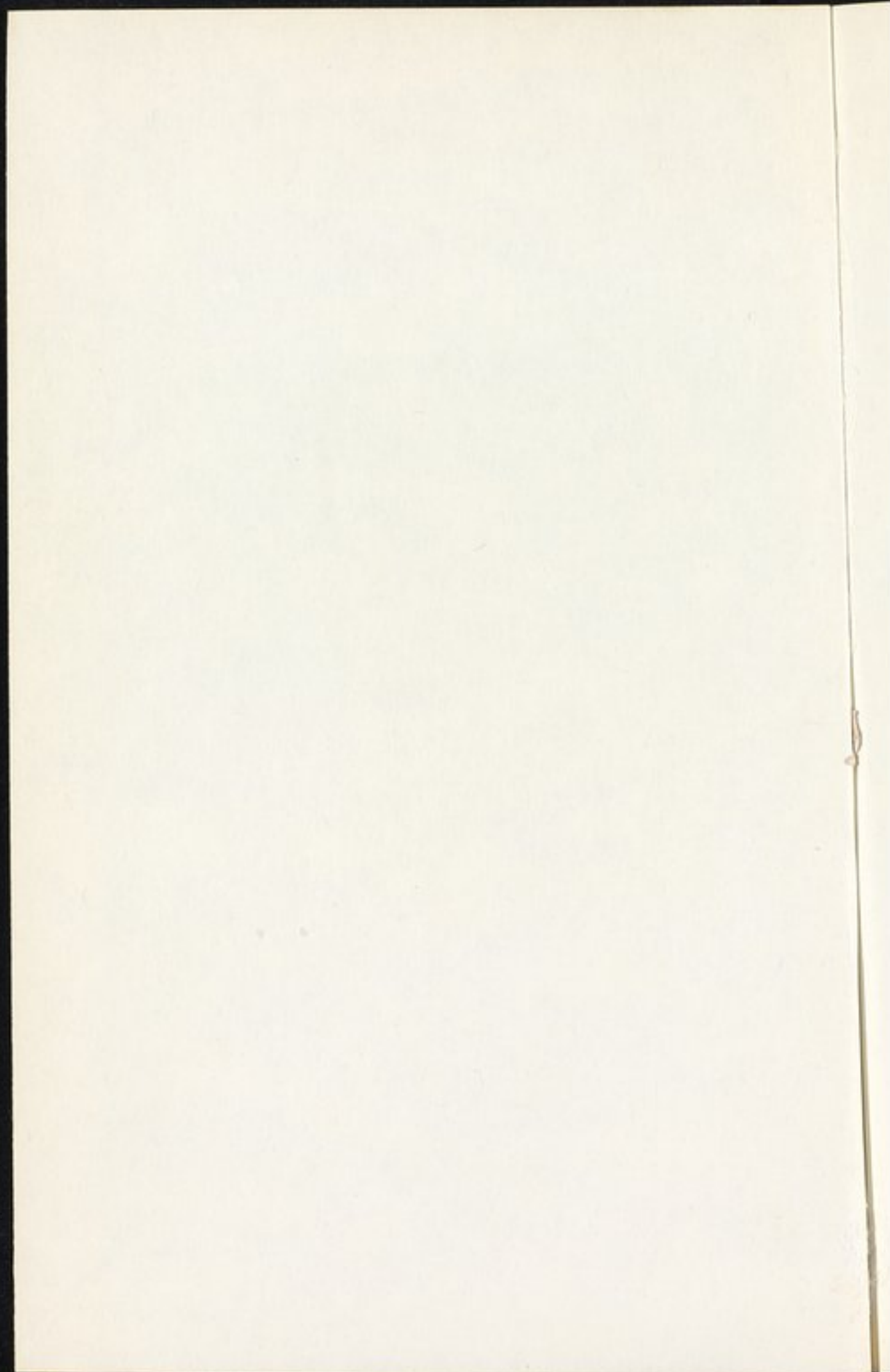
6423-112

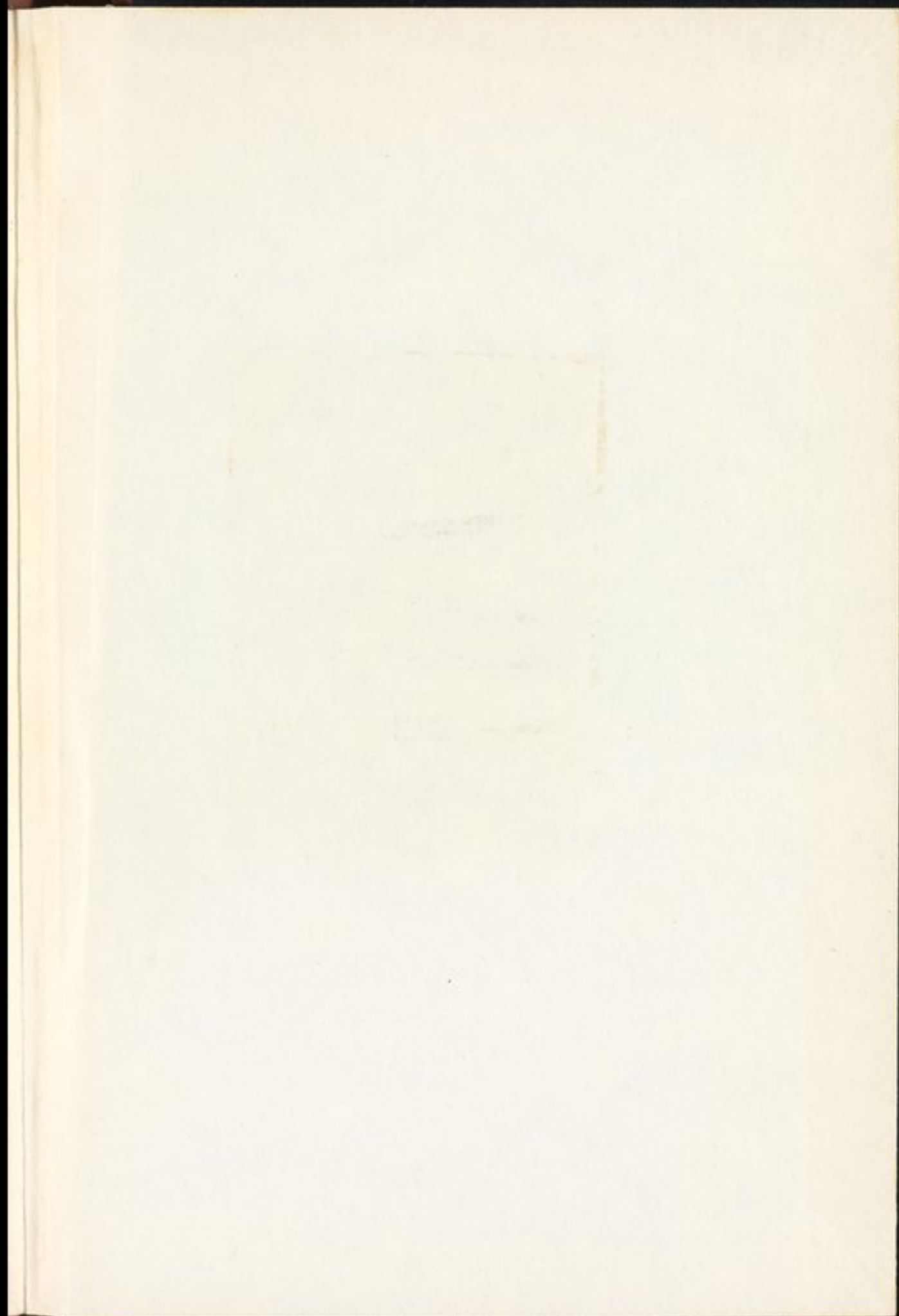
6229-74

50









Library of



Princeton University.

Princeton University Library



32101 074485648